التاريخ الأوربي الحديث

من عصر النهضة حتى نهاية الحرب العالمية الأولى

الدكتور
عبد العزيز سليمان نوار

الدكتور
محمود محمد جمال الدين



دار الفكر العربي

التاريخ الأوربى الحديث

من عصر النهضة حتى نهاية الحرب العالمية الأولى

الدكتور
عبدالعزيز سليمان نوار
أستاذ التاريخ الحديث
كلية الآداب ـ جامعة عين شمس

الدكتور
محمود محمد جمال الدين
أستاذ التاريخ
كلية الآداب ـ جامعة أسيوط

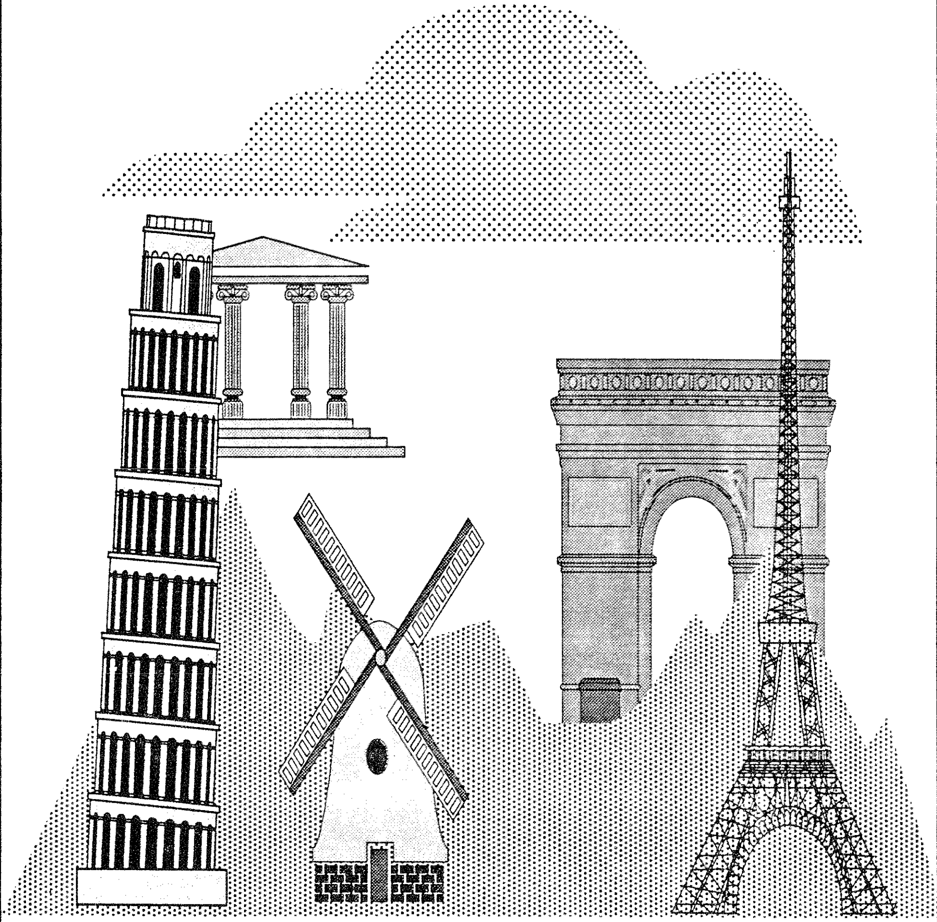
١٤١٩هـ ـ ١٩٩٩م

ملتزم الطبع والنشر
دار الفكر العربى
٩٤ شارع عباس العقاد ـ مدينة نصر
ت: ٢٧٥٢٩٨٤ فاكس: ٢٧٥٢٧٣٥

الفصل الأول

عصر النهضة

"Renaissance"



درج مؤرخو أوربا على وصف حركة إحياء العلوم والآداب «بعصر النهضة» ويتضح أنه وإن كان علماء العصور الوسطى قد أساءوا لعلوم فترتهم، من حيث إنهم أخضعوها لآرائهم التى ظنوا أنها أحكام لذلك العصر، أو أنهم أهملوا بعضها توافقا مع رغبة الكتلة المسيطرة حينئذ أو رجال الدين، فإن علماء ذلك العصر ـ عصر النهضة ـ سلكوا مسلكا مختلفا.

لقد امتاز رواد هذه الحركة بأنهم أعطوها كل عناية واهتمام ولم يدخروا شيئا من طاقتهم، فقد درسوا كل ما وقع تحت أيديهم من الكتب اليونانية والرومانية فى الجوانب العلمية والأدبية ودرسوا الآثار الفنية الباقية. وقد امتازت هذه الحركة بأن هؤلاء العلماء لم يكن دورهم هو مجرد نقل بقايا هذه الحضارة القديمة، فقد عدلوا ما رأوا تعديله وأضافوا ما يجب إضافته، والأكثر من ذلك هو أنهم أضفوا شخصيتهم وآراءهم على هذه العلوم بمختلف مجالاتها، ومن ثم أبدعوا فأحدثوا نهضة جديدة.

حينئذ عرفت هذه الحركة وسمّيت «بالإحياء» "Renaissanse" حيث كان روادها يعتبرون الفترة التى سبقتها بفترة سكون وجمود ويجب انتشال الإنسان وإحياؤه منها، وكانوا يؤمنون بأن الحضارة الحقة قد اندثرت بعد سقوط الإمبراطورية الرومانية العريقة، وقد عادت إلى الوجود مرة أخرى على أيديهم، والواقع أنه توافر لهذه الحركة مجموعة من العوامل ساعدت على بعثها، ومن هذه العوامل:

١ ـ الصلات الثقافية بين أوروبا الغربية ومراكز الحضارة الإسلامية وهى:

بلاد الشرق الأدنى: وهى التى تعرضت للحملات الصليبية والتى استمرت لقرابة قرنين من الزمان وكان ذلك خلال فترة العصور الوسطى المتأخرة، وفى هذه الفترة كانت أوروبا تسير بخطى بطيئة فى ظلمات الجهل، فى الوقت الذى كانت فيه الحضارة الإسلامية تسير بخطى ثابتة فى طريق تقدم العلوم والفنون والرياضيات والفلك والجغرافيا والتاريخ وما إلى ذلك من جوانب العلوم

٥ ـ **اللغات الحديثة:** من الحسنات التى لا تزال باقية لـعصر النهضة حتى وقتنا هذا هى ظهور اللغات المحلية وهى اللغة السائدة للعلم والكتابة، ومع بداية العصر الحـديث. فنشأت فئات من علمـاء وأدباء كل إقليم وباستخدام لـهجاتهم المحلية كلغة قـومية لهم، ومن هنا نشأت فى إنجلترا وفرنسـا وإيطاليا لغات تعود فى أصلها إلى الأصل اللاتينى، وعمل علماء هذه البلاد على الارتقاء بهذه اللغة، ومن ثم فقـد أصبحت هذه اللغـات مظهرا من مظاهر الـقومية، ونشأت فـئة من العلماء والأدباء عكفوا علـى التأليف فى مجال دراستهم بلغتهـم المحلية الجديدة ومنهم جفرى تشوسر Geoffey chauccr حيث كتـب «قصص كانتربرى» بـاللغة الإنجليزية الحـديثة وكذلك دانتى Danty حيث كتـب «الكوميديا الإلهيـة» باللغة الإيطالية الجديدة ومونتينى الفرنسى Montagne والذى كتب رسائله الفـلسفية فى الأخلاق والفلسفة.

٦ ـ **الفنـون الجمـيلة:** من الأشـياء التى لا يـمكن أن تكـون غريبـة على المتصفح لعصر النهضة هو التقـدم فى الفنون الجميلة، ذلك أن الفنون الجميلة ما هى إلا سلسلة متصلة الحلقات منذ الحضارة القديمة الرومانية، وهذا ليس بغريب على رجال هذا العصر، فـهذه القصور والأبراج والتماثيل شاخصة أمـامهم تحثهم على مواصلة هذا العطاء، ولكن الملاحظة الـواضحة فى هذه الفترة أن الفنانين لم يقوموا بنحت هذه التماثيل وغيرهـا بحث من الحاكم أو الإمبراطور ولكنهم كانوا يقومون بهذه الأعمـال الجميلة بفضل ابتكاراتهم الفنية الـجديدة، ولهذا فإنهم لم يدخروا إبداعا فنيا إلا وأظـهروا فى أعمالهم النابضة بالحيـاة، لذا فإن الفنانين فى الوقت الحاضر يدينون لـهؤلاء الفنانين أبناء عصر النهضة بـأنهم أصحاب الفضل الأعظم فى الفنون الجميلة الحديثة والمعاصرة، ومن هؤلاء الفنانيين الذين ظهروا فى فترة عصر النهـضة ليونارد ودافنشى Leonardodevinci وكذلك مايكل أنجلو Michael Angel ورفائيل Rafael.

أما العمارة فإنهـا عادت إلى الحياة وبشكل جديد فإنها تـأثرت بحركة إحياء العلوم والـفنون ولم تكن مـجرد تقليـد للقديم أو مـحاكاة له. ومن هـنا أدخلت العناصر النباتيـة والهندسية إلى فن العمارة، وكانت فلـورنسا هى أول المدن التى شهدت هذا التطور، ثم انـتقلت منها إلى باقى المدن الإيطاليـة، وممن نبغوا فى

هذا المجال برونلسكو Brunellesco والذى وضع لمسة جمالية أخيرة إلى كاتدرائية فلورنسا ألا وهى القبة الجميلة التى وضع فيها خلاصة إبداعاته الفنية الجميلة.

على أن هناك شيئا يجب وضعه فى الاعتبار وهو أن الفن فى هذا العصر أخذ شكلا لم يكن مألوفا ومعروفا من قبل على الرغم من وجود العامل الأساسى الداعى لهذا الشكل، فنحن نجد أن الفنون فى هذا العصر قد أصبحت ذات صفة دينية خادمة الاتجاه الدينى فى تمثيل بعض الشخصيات المسيحية الرومانية حتى لتذخر الكنائس والكاتدرائيات فى إيطاليا على وجه الخصوص بالصور الناطقة والتماثيل المعبرة عن الحياة لشخصية السيد المسيح والسيدة مريم وغير هؤلاء من الشخصيات الدينية من القديسين والأدباء الذين تمتلئ بهم الكتب المسيحية فى هذه الفترة.

٧ ـ التمتع بملذات الحياة: من الآثار السيئة التى لايمكن إغفالها لعصر النهضة تلك السلبيات التى بدأت تظهر كنتيجة طبيعية لهذا التقدم والتطور فى شكل الحياة، حقيقة إن النساء كن يخرجن من قبل ولكن الآن وبعد ظهور هذه النهضة انحلت الأخلاق وتداعت القيم وسقطت المبادئ، فها نحن نرى ونقرأ عن العلاقات غير المشروعة بين الرجال والنساء وكأنها الحاضر، ففى تلك الفترة لم يهتم الرجال والنساء على حد سواء بشىء إلا إرضاء غرائزهم بغض النظر عن نتائج هذا، ولكن ليس معنى هذا أن أناس هذا العصر لم يكونوا أُسَرا بل إنهم كانوا يكونونها ولكن ليس للغرض الحقيقى من إقامة هذه الأسرة ولكن لأنهم وجدوا أنها عادة اجتماعية تعودوا عليها، ولابد منها كشكل نظرى للحياة الاجتماعية يخفون وراءها نتاج ملذاتهم.

وإذا كنا نعلم أن البابا كان يعيش فى العصور الوسطى فى قصر كما لو كان ملكا متوجا فإنه ومن السهل علينا أن نعرف الصورة التى أصبح عليها فى عصر النهضة هذا، وخاصة بعد أن انحلت القيم على الشكل الذى أوضحناه، فبالإضافة إلى الملذات والمحرمات التى انغمس فيها كبار رجال الدين نجدهم يبحثون عن الأموال، فلكل شىء ثمنه فى هذا العصر، ومن ثم كانوا يتبعون كل الوسائل

الشريفة وغير الشريفة، المشروعة وغير المشروعة لجمع الأموال، فإلى جانب جمع التبرعات والهبات والزكاة كانوا يبيعون صكوك الغفران ويشتركون فى أعمال السلب والنهب، والأكثر من ذلك هو الاعتداء على النساء كما لو كانوا أمراء فى العصور الوسطى، ومن ثم ظهر تطور طبيعى ومتوقع لكل هذه السلبيات فيما بعد فى العصر الذى اصطلح على تسميته بالإصلاح الدينى الذى أراد رواده القضاء على هذه المهازل بما يتناسب مع العقل والدين.

مظاهر عصر النهضة:

الناحية الثقافية لعصر النهضة: من مظاهره الواضحة التى يعرف عصر النهضة بها إحياء التراث اللاتينى، وكان هذا الإحياء هو أول المظاهر التى دلت على وجود عصر جديد يولد فى إيطاليا، فإنه وكما ذكرنا فإن عصر النهضة هو عصر إحياء الدراسات القديمة، ومن ثم تم إحياء التراث الرومانى واللاتينى ولكن على شكل حديث،فقد كان التراث اللاتينى فى عصر النهضة يمس مشاكل الناس فى حياتهم والتعبير عن الحياة المدنية تعبيرا صادقا، ولكن ليس معنى هذا أن التراث اللاتينى لم يكن موجودا من قبل فى العصور الوسطى إلا أن أساتذة هذه الفترة كانوا منهمكين فى دراسة الفلسفة ودراسة الدين، لذا لم يتجهوا إلى هذا النوع من الدراسة إما لانشغالهم فعلا بالدراسات السابقة أو بإيعاز من الكنيسة حتى لا تتفتح عقول أرقاء الكنيسة من جمهرة الشعب، وكان لبترارك الفضل الأول فى حركة إحياء التراث اللاتينى حتى أطلق عليه أبو **الحركة الإنسانية**.

كذلك اتجه الاهتمام بعد ذلك إلى **التراث الإغريقى** الذى كان محدود الانتشار فيما قبل، وقد حدثت محاولات للتقارب بين التراث الإغريقى والتراث الرومانى بين حكام مدن هذا العصر فقط، وأرسلت إيطاليا بعثاتها العلمية إلى بيزنطة لدراسة التراث الإغريقى والتخصص فيه، ونجحت هذه البعثات إلى حد ما ولكن الشىء الأكثر تأثيرا فى هذا المجال هو اتجاه عدد من المفكرين البيزنطيين إلى القدوم إلى إيطاليا والتدريس فيها ومنهم كريزولوراس Chrisoloras وبساريون Bessarion.

ومن مظاهر عصر النهضة **إنشاء المكتبات**، فمن الطبيعى أن تتجه الأنظار

إلى إنشاء المكتبات، بعد أن بذلت مجهودات كبيرة فى جمع الوثائق والمخطوطات القديمة حتى يصلوا إلى الحقائق من مصدرها ـ كما أشرنا من قبل ـ ثم متابعة هذا المجهود بتأليف الكتب فى المجالات المختلفة، ولقد اهتم أمراء المدن وحكامها بإنشاء المكتبات، ومن هذه المكتبات التى أنشئت مكتبة «ديرسان ماركو» فى فلورنسا، ومكتبة نابولى، وأنشأ أمير مكتبة تكاد تكون أعظم المكتبات التى انشئت فى هذه الفترة حيث أنفق عليها أموالا طائلة، هذا فى الجانب المادى، أما الجانب الثقافى فإنه جمع بها عددا هائلا من الوثائق والمخطوطات العبرية واللاتينية بالإضافة إلى كتب الطب ومعظم المؤلفات الإيطالية حتى القرن الرابع عشر. وقد اتبع منشئوا هذه المكتبات نظام الكاتالوجات لتسهيل جمع الكتب والاستفادة منها إلى أكبر حد وفى أقل وقت.

أما المظهر الرابع والهام هو عصر الأكاديميات، وهذا الأكاديميات هى عبارة عن حلقات يجتمع فيها عشرات الطلاب حول الأساتذة حتى يستمعوا إلى الدروس والمناقشة مع هؤلاء الأساتذة، وقد انتشرت هذه الأكاديميات فى أنحاء إيطاليا ولكنها كانت أكاديميات أدبية بحتة وليست علمية، ومن أوائل المدن التى نشأت فيها هذه الأكاديميات نابولى حيث أقام حاكمها الفونسو الخامس أكاديمية سنة١٤٤٢ وجمع فيها كل ما وصل إلى سمعه من العلماء وناقش هؤلاء العلماء التراث القديم بصفة عامة والأدبى بصفة خاصة.

أما فلورنسا مدينة المال والتجارة فقد نشأت بها أكاديمية فلورنسا أو الأكاديمية الأفلاطونية والتى كانت موجهة إلى دراسة الفلسفة الإغريقية بصفة عامة والأفلاطونية خاصة، وكان أمد هذه الأكاديمية أطول من أكاديمية نابولى من حيث إنها استمرت من القرن الخامس عشر إلى السادس عشر.

أما روما مهد التراث القديم فقد أقيمت فيها الأكاديمية الرومانية وتخصصت فى الآداب اللاتينية وفى المجالات التارخية والأثرية، ولكن من الأشياء المثيرة للانتباه هو اختلاف مواقف باباوات روما من هذه الأكاديمية، ومن ذلك أن البابا بولس الثانى رأى فى هذه الأكاديمية وفى دراستها الوثنية خطرا على المسيحية، فى حين اهتم بها البابا ليو العاشر وتابع نشاطها وإنتاجها أولا بأول.

النهضة العلمية فى إيطاليا

بدأ عصر النهضة معتمدا على هؤلاء الذين كانوا يؤمنون بأن العصور الوسطى هى مرحلة انتقالية لفترة جديدة من التقدم والرقى، ولهذا أطلقوا عليها البعث أو الإحياء، ولقد بدأ عصر النهضة فى ايطاليا فى القرن الخامس عشر.

أما عن أسباب ظهور عصر النهضة هناك أولا ثم الانتشار منها إلى بقية أنحاء أوروبا فكثيرة منها:

١ - موطن الحضارة الرومانية: إن إيطاليا هى موطن الحضارة الرومانية حيث إنها شهدت أوج هذه الحضارة وما مر بها خلال فترة هذه الإمبراطورية العظيمة من نكبات وانتصارات، وبعد أن تم القضاء على هذه الإمبراطورية نجدها تحتضن الآثار الباقية من هذه الحضارة من تماثيل وقصور وما إلى ذلك، بالإضافة إلى الوثائق والمخطوطات التى كانت تذخر بها والتى عمل علماء هذه الحركة على الإكثار منها والتنقيب من أجلها، هذا إلى جانب أن الإيطاليين أنفسهم كانوا دائما يرون هذه التماثيل والآثار أمامهم دليلا على عظمة وتقدم آبائهم، لذا فإنه قد تولد بداخلهم شعور قوى لإحياء هذه الحضارة وأن يتابعوا هذا الرقى فى عصرهم الحديث ولكن بشكل يتمشى مع عصرهم وفكرهم.

٢ - طبيعة شبه الجزيرة الإيطالية السياسية: فقد كانت إيطاليا منقسمة إلى عدة إمارات وولايات وجمهوريات ودوقيات متنافسة مما أعطى الفرصة لأمراء هذه المدن فى التنافس على تشجيع العلماء والأدباء والفنانين إما للعلم ولتشجيع العلم لذاته، وإما لنزوعهم إلى البحث عن المجد الشخصى وحث الفنانين على تخليد أسمائهم وإنشاء التماثيل لهم. ومن الأسرات التى طبعت اسمها بعلامات من نور فى هذا المجال أسرة المدتشى بفلورنسا حتى بلغ تكريم لوزنزو العظيم للفنان مايكل أنجلو أنه جعله رفيقا لأبنائه، وأسرة بورجيا ذات اليد الطولى فى تشجيع العلماء والفنانين والأدباء، ولم يكن بابوات روما أقل من هذه الأسر فكثير ما كان البابوات يجزلون العطايا المغرية لهؤلاء الرجال، ومن أهم هؤلاء البابوات البابا نيقولا الخامس والبابا ليو العاشر.

٣ ـ الطبيعة الجغرافية لإيطاليا: فقد حبا الله إيطاليا بمناظر وجمال طبيعي خلاب مما أثر في رقة إحساس رجالها ومبدعيها حتى أن أقلامهم كانت تنساب بهذا الجمال وهذه الرقة

٤ ـ إيطاليا حلقة اتصال: فقد كانت إيطاليا حلقة اتصال بين الشرق الأقصى والشرق العربي وأوربا الغربية، فها هي نراها تشارك في نقل الحملات الصليبية على سعتها وتقوم بالتجارة مع العرب بصرف النظر عن الحروب مما ساعدها على الاستفادة من علوم العرب إلى حد بعيد، فها هي نقلت عنا الدراسات الفلكية والطبية والرياضيات، كذلك قربها من العاصمة الشرقية القسطنطينية جعلها تفيد من هؤلاء العلماء الإغريق إذ كانوا يحاضرون في مدارسها، وكذلك إرسال بعثاتها العلمية إلى بيزنطة لكي ينالوا أكبر قدر من العلم الإغريقي.

٥ ـ احتراف إيطاليا للتجارة: حيث إن المدن الإيطالية اشتغلت بالتجارة ساعد ذلك على بسطة العيش فيها وتوافر المال الذي ساعد العلماء على البحث والتنقيب والعكوف على العلم والدرس فقط دون الاهتمام بالأشياء المادية بشكل كبير.

مجال التاريخ: حظي التاريخ باهتمام كبير من رجال عصر النهضة في إيطاليا حيث إن المؤرخين قديما كانوا يعتمدون على الرواة وما إلى ذلك من المصادر غير المؤكدة، أما في عصر النهضة فقد نشأت المدارس النقدية وعلى رأسها مدرسة فلورنسا، وقد أنتجت هذه المدرسة إنتاجا ضخما في المجال التاريخي، ولقد طبعت كتب هذا العصر بطابع جديد يكاد يكون باكورة طيبة لعلم التاريخ الحديث حيث إنهم تحرروا من الموضوعات الدينية والتقاليد البالية والخرافات والتزموا بالموضوعية مما مهد لعلم حديث في التاريخ.

فن العمارة: كان فن العمارة قائما في العصور الوسطى ولكن بنظرة العصورة القديمة حيث كان يوجد في شمال أوربا في العصور الوسطى فن معماري له طابع خاص يعرف بالفن القوطي والذي انتقل فيما بعد إلى إيطاليا، واستفاد الإيطاليون من هذا في بناء الكنائس إلا أنه مع تطور الحياة في شتى مجالاتها في عصر النهضة أدمجت في فن العمارة الخصائص والرسومات الهندسية، وكانت فلورنسا هي مهد هذا التقدم ومنها انتقل إلى بقية أنحاء إيطاليا.

النهضة العلمية فى فرنسا

فى الوقت الذى كانت تسير فيه إيطاليا بخطى سريعة فى طريق التقدم والنهضة فى القرن الخامس عشر كانت فرنسا تعانى من توقف الإنتاج الثقافى، وذلك بسبب الحرب التى استمرت لفترة طويلة بين إنجلترا وفرنسا وعرفت بحرب المائة عام، فلم تكن هناك فرصة للتفكير فى التقدم سواء فى فرنسا أو إنجلترا، وانتهت هذه الحرب بتوحيد فرنسا، ولكن فرنسا لم تكد تنتهى من هذه الحرب حتى تستفيد من هذه الوحدة عندها بدأت الصراعات الداخلية بها بين لويس الحادى عشر وأمراء الإقطاع.

ولما غزا شارل الثامن إيطاليا رأى بها مالم يكن يتوقعه من النهضة والتقدم، وأراد نقل هذا التراث إلى بلاده، ومن ثم تسربت طائفة من هذه العلوم إلى فرنسا من إيطاليا، ولكن من الخطأ أن نعتقد أن النهضة فى فرنسا لم تبدأ إلا منذ أن غزا شارل الثامن إيطاليا، فقد كانت هناك محاولات عديدة لهذا التقدم فى فرنسا ولكنها لم تكن تزيد عن محاولات فى إطار مدرسى فى الجامعة، فقد عين جريجورى تفرناس Gregory Tifernas فى جامعة باريس حتى يدرس اليونانية، وكذلك فإن الفضل الأعظم يعود إلى جيرم ألباندر Jerom Aleander فى تقدم الدراسة القديمة سواء أكانت يونانية أم عبرية أم لاتينية.

ولقد استقرت الدراسة الكلاسيكية فى فرنسا فى القرن السادس عشر بباريس مع نمو الحركة الواسعة لنشر الكتب اليونانية. على أنه يجب ملاحظة أن أصحاب المطابع لم يكونوا مجرد أصحاب مطابع ورجال أعمال، بل إنهم جمعوا إلى جانب هذا العلم والدراسة، ومن هؤلاء روبرت أستين Robert Estienne، ومما ساعد أيضًا على استقرار الدراسة الكلاسيكية هو تشجيع الحكام الفرنسيين لها حيث إنهم كانوا يحاكون الأمراء الإيطاليين فى بلاطهم وكذلك بناء الأكاديميات العلمية.

ولكن كان هناك اختلاف واضح بين النظرة الكلاسيكية فى إيطاليا عنها فى فرنسا، ففى إيطاليا أرادت العقلية الإيطالية فى تشرب الروح الكلاسيكية بكل محتوياتها القديمة دون إضافة أو زيادة وإخراجها إلى حيز الوجود، أما النظرة الفرنسية فكانت نظرة مختلفة حيث إنهم كانوا ينظرون إلى الكلاسيكية القديمة

بكل إجلال واحترام وتقدير ولكنهم كانوا يأخذون من القديم مايوافق أمزجتهم ويضيفون إليه تفكيرهم ونتاجهم العقلى فكانت هناك بداية لنهضة.

ويجب أن نضيف أن فرنسا تفوقت فى دراسة القانون الرومانى القديم، حيث إنهم استخرجوه وحللوه تحليلا جديدا متمشيا مع رغبة العصر ومايمليه عليهم، وكان من رواد هذا المجال جاك كوجاز Jacques Cojas الذى تعمق فى تفسير القانون الرومانى، وكذلك بريسون Brisson ذو الدراية الواسعة بمصطلحات القانون المدنى.

وبالرغم من أن النهضة الفرنسية هى متابعة للنهضة الإيطالية، كما أنها تخصصت فيما تخصصت فيه إيطاليا فنيا وأدبيا إلا أن النهضة فى فرنسا تختلف عن النهضة فى إيطاليا.

وهناك عدة ملاحظات نأخذها عليها وأهمها:

أولا: اتجهت النهضة الفنية المعمارية فى فرنسا إلى تشييد المبانى العامة كمجالس البلديات والقصور لإظهار جمال المعمار والبناء، ولم تكن كإيطاليا مقصورة على بناء الكنائس والكاتدرائيات.

ثانيا: بالرغم من أن النهضة الأدبية فى فرنسا كانت تابعة لايطاليا إلا أن الظروف البيئية المحيطة بهذه النهضة فى فرنسا لم تتح لها الازدهار والرقى إلى درجة ماوصلت إليه فى إيطاليا.

ثالثا: إن حركة النهضة الأدبية والفنية فى فرنسا لم تلاق ما لاقته فى إيطاليا من سبل ممهدة وسهلة، ذلك أنها كانت تلاقى كل الصعوبات من مختلف الطبقات، كما أنها كانت توضع فى طريقها العراقيل؛ ذلك أن فرنسا كان لها طابعها الوطنى الذى يلقى أنصارا له كثيرين وخصوما، كذلك فإن كلية اللاهوت فى السربون تقاوم الدراسة الأدبية ودراسة القديم.

الفن الفرنسى: كان التقدم الفنى فى فرنسا بطيئا؛ وذلك للسبب الذى أسلفناه وهو وجود الطراز الوطنى الخاص بفرنسا، إلا أنه يمكن تقسيم النهضة الفرنسية الفنية إلى عصرين يكمل كل منهما الآخر فى بناء النهضة الفنية الفرنسية الحديثة:

العصر الأول: وهو الذى يشمل النصف الأول من القرن السادس عشر وفيه كان الفن الوطنى هو الـغالب بل والسائر ويرفض كل ما أتى به عصـر النهضة من جديد وحديث.

العصر الثانى: وفى هذا العصر تتغلب الأفكار الجديدة على القديم حتى أننا لنجد أن الطراز الكلاسيكى بدأ يظهر فى هذه الفترة.

وفى كل من العصـرين فإن الرسامين لم يـكن لهم دور فعال، فقد اقـتصر دورهم على رسم أشخـاص بنسب صغيرة، ولكن الدور الأكبـر فى هذه المرحلة كان لرجال النحت والعمارة، ومن الآثار الخالدة لرجال العهد الأول قصر شامبور ومحكمـة روان،والتى تقف دليلا على مدى انـدماج الفن القوطى بالفـلمنكى فى لوحة معمارية جميلة الطراز، أما رجال العصر الثانى فقد أظهروا عملهم وتطورهم فى تيجان الأعمـدة كما لو كانوا فى العهد الأول لبناء المـعابد، وكان طراز تزيين الأعمدة ماهو إلا نتاج الخلط بين الفن القوطى واليونانى والرومانى.

والجدير بالملاحظة أنه عند الحديث عن النهضة الفنية فى فرنسا فإنه يجب علينا أن نقسمها إلى شطرين: الشـطر الأول خاص بالفن المعمارى،والشطر الآخر خاص بفن النحت، وكـان أبرز رجال هذين الشطرين ممن زاروا إيطاليـا وتشبعوا بالكلاسيكية هناك ثم أضافوا إلى ذلك تفكيرهم وإبداعهم الفنى.

ومن أهم رجال الشطر الأول بييرلسكو Pierre Lescot وهو باريسى المولد والإقامة وهو صاحب تـصميم اللوفر، فقد أراد فرانسـوا الأول أن يقيم هذا البناء الهائـل على أطلال قصـر شارل الخامـس ولكن الظروف لم تكـن تتيح الفـرصة لتـحقيـق ماتمنـاه فرانسـوا الأول، ذلك أن العمـل فى هذا لم يكـن يتم بطريـقة متواصلة ولكن كـان يتوقف فى بعض الأحيان، أبناء فرانسوا وزوجـته إنما رغبت فى إنشاء قـصر التويلرى، ولـم يتم إنشاء قصـر اللوفر إلا فى عهـد لويس الرابع عشر، أى بعد حوالى قرن ونصف من الزمان.

أما الشطر الثانى من الـفن الفرنسى فى عصر النهضة فإنه كـان منقسما إلى قسمين: الأول ظل مخلصًا للطراز الـوطنى الفرنسى، ومن أبرز رجال هذا الفريق بيير بونتان Pierre Bontemps وميشيل كولمب Michel Colombe ، أما الفـريق

الثانى وهم الذين تشربوا الفن القديم من الحضـارة اليونانية الرومانية القديمة ومن أشهر أعلام هذا الفريق جان جوجون Jean Goujon.

الأدب الفرنسي: بعـد أن أخذت النـهضـة فى إيطالـيا فى الأفـول بسـبب الحروب الإيطالـية نجد أن فرنسـا فى القرن السادس عشـر قد بدأت نهضتـها فى الارتفاع إلى القمة بـسبب تشجيع الملوك والأمراء لهذه النـهضة، وخاصة الأدبى منها. ومـن مظاهر هذا التشـجيع حث ملوك فـرنسا العلمـاء اليونانيـين على أن يحاضروا فى جامعات فرنسا إلا أن البقية الباقية من تخلف العصور الوسطى كانت لم تزل باقية، فها هى الكنيسة لم تتوقف عن مقاومة هذا التيار الجديد.

ومن مظاهر تـشجيع الملـوك الفرنسيـين للعلماء الـصداقة التى نشـأت بين فرانـسوا الأول (١٤٩٤ ـ ١٥٤٧) ملك فـرنسا وجويـم بوديه Guillaume Bude حيث شجع فرانسوا بوديه على أن يدرس اللغات القديمة حتى أنه أنشأ كلية فرنسا سنة ١٥٣٠ وكانت تدرس بها العبرية والإغريقية، وعند وفاة فرانسوا الأول أصبح بهذه الكلية ثمان كـراسى وهى اليونانية، اللاتينية، العبرية،الفـلسفة، الرياضيات، الجغرافيا، والطب.

وكذلك فـمن حسنات النهـضة الأدبية فى فرنسـا والثورة الواسعـة فى نشر الكتب الإغريقيـة المتخصصة ومن أشهـر كتاب ومؤلفى عصر النهـضة الأدبية فى فرنسا فرانـسوا رابليه Francois Rabelais وقد عرف هـذا المؤلف بأفقـه الواسع واطلاعه المستفيـض، وكان كاتبا ذا عقلية حديثة التفكير وقـلم حر فقد كان نقده لاذعا، ومن ذلك نقده الشديد اللهجة لجـامعة باريس والتى رفضت إدخال العلوم الإنسانيـة إلى حيز التدريس وظلت فـى ولائها للقديم من الدروس اللاهـوتية وما إلى ذلك، كما أنه دخل فى خلافات مع البابا؛ ذلك أنه درس الطب لإشباع رغبة داخلية،وعنـدما أراد تشريح جثة بشـرية رفض البابا إلا أن رابليه أصـر على قراره وشرح الجثة حتى أنه أصبح أستاذا فى التشريح.

النهضة العلمية فى إنجلترا

كانت الظروف المحيطة بعصر النهضة فى إنجلترا أصعب منها فى إيطاليا وفرنسا، ذلك أن إيطاليا لم تقحم نفسها فى حروب أوروبية ترهقها وتزيد العبء المالى عليها وعلى ميزانيتها،كذلك فإن فرنسا قد استفادت من حرب المائة عام فى أنها اتحدت وكونت حكومة قوية، إلا أن إنجلترا لم تكد تنتهى من حرب المائة عام والتى هزمت فيها حتى دخلت فى حرب أهلية، والمنطق يحتم ويقول بأن آثار الحرب الأهلية أكثر فظاعة من آثار حرب المائة عام على إنجلترا، ذلك أن حرب المائة عام كانت تدور على الأراضى الفرنسية، فى حين أن حرب الوردتين الأهلية كانت رحاها تدور على أرض إنجليزية بطبيعة الحال فشغلت الأذهان هناك بهذه الحرب ولم يهتموا بما يحدث فى إيطاليا من تقدم علمى.

بدأت النهضة فى إنجلترا بعد أن استقر الحكم فى يد أسرة التيودور، وقد قامت النهضة على أكتاف أولئك الذين درسوا فى إيطاليا ومنهم وليم ليلى William Lilly والذى درس فى روما ووليم جروسون William Grocyn والذى تعلم فى فلورنسا، وأخيراً توماس ليناكر Thomas Linacre، وقد اهتم هذا المثلث العلمى باليونانية وكانوا فى أكسفورد.

أما كمبردج فقد ذخرت بمجموعة من العلماء والأدباء ممن تفخر بهم أية مدينة فى منافسة الأخرى، وعلى رأس هؤلاء أرزم والذى كون حلقة من التلاميذ ليتلقوا العلم منه، وكان من بين هؤلاء التلاميذ ريتشارد كروك Richard Croke والذى تتلمذ على يد أرزم ثم قام بالتدريس فى مدن ألمانيا، وبعد أن عاد إلى كمبردج تم تعيينه فى كرسى أستاذية اللغة اليونانية فى الجامعة، ثم خلفه فى هذا الكرسى السير توماس سميث Thomas Smith ويعد سميث من أعلام النهضة الإنجليزية، ولقد استمر تشجيع الحكام الإنجليز حتى أنه عند وفاة الملك هنرى أصبح هناك خمسة كراسى فى جامعة كمبردج وهى اللاهوت، القانون المدنى، الطبيعة، اللغة العبرية، اللغة اليونانية.

وبالرغم من أن النهضة فى إنجلترا كانت أدبية وعلمية إلا أن هناك اتجاها آخر وهو اتجاه الإصلاح الدينى، فقد كان أرزم وصديقه كوليت زعماء هذه

الحركة، وكان كوليت هو عميد كاتدرائية سان بول، وقد أنشأ كوليت مدرسة سانت بول والتى هاجمت الكنيسة رغبة فى إصلاحها، وكانت هذه المدرسة نموذجا يحتذى به للمدارس المصلحة فيما بعد؛ ولقد كان هذا الاتجاه هو الاتجاه الذى انفردت به حركة النهضة فى إنجلترا عنها فى أى دولة أخرى فى أوربا؛ ذلك أنها لم تك ذات اتجاه (وثنى) إلى حد كبير كما كانت فى إيطاليا وفرنسا.

النهضة العلمية فى ألمانيا

اتجهت النهضة العلمية الألمانية اتجاها علميا ودينيا فلم يقنع الألمان بالتقليد ولم يقتصروا على الدراسات الإنسانية وإنما انكبوا على دراسة العلوم التطبيقية (خدمة الاتجاه الدينى) ولقد واجهت النهضة الألمانية مقاومة عنيفة من كل من رجال الدين وبعض رجال العلم إلا أنه على عكس فرنسا فقد كانت جامعات ألمانيا ترحب بالدراسات الإنسانية حتى أنها أدخلتها فى برامجها التعليمية، وكالعادة فإن الكنيسة ورجال الدين عملوا على الحد من هذه الدراسات ومن انتشارها بعدما فشلوا فى منعها من دخول الجامعات الألمانية.

وممن وقفوا إلى جانب هذه الدراسات الإنسانية حتى تركوا بصمات واضحة فيها يوحنا روكلين Johann Reuchlin وقد تخصص روكلين فى دراسة الثقافة الإغريقية واللاتينية، وقد بذل روكلين كل ما أوتى من قوة فى سبيل نشر هذه الثقافة إلا أنه وكما ذكرنا واجه العديد من الصعاب من رجال الدين والكنيسة الألمانية، ذلك أنها كانت ترى فى هذه الدراسات أنها دراسات إيطالية (روما) وقد عرف رجال الدين فى روما بانحلالهم؛ ونظرا لقوة روكلين الجدلية وقدرته على الإقناع فإنه سعى فى الدخول فى منافسات مع معارضيه، ولهذا فقد كانت هذه المنافسات سببا فى تحقيق الهدف الذى كان يسعى إليه روكلين وهو نشر هذه الدراسات، وقد وجد روكلين أن السواد الأعم من الشعب الألمانى يرحب بهذه الدراسات إلى جانب الجامعات الألمانية التى فتحت ذراعيها سريعا لهذه الدراسات، ونظرا لما هو معروف عن روكلين فقد ارتبطت النهضة العلمية هناك بإصلاح العقيدة.

وإذا كنا قد تحدثنا عن عوامل النهضة التى ساعدت على إنجاحها فإن من أهم هذه العوامل اختراع الطباعة، وقد كان هذا الاختراع ألمانيا؛ ذلك أن يوحنا

جوتنبرج قد توصل إلى اختراع الحروف المتحركة مما سهل طباعة الكتب وبكميات كبيرة وانتشر هذا الاختراع فى أنحاء أوربا بعد ذلك.

ومن رواد حركة النهضة فى ألمانيا يوحنا موللر Johann Muller الذى درس اليونانية فى إيطاليا وعند عودته إلى ألمانيا قام بترجمة عدد كبير من هذه الدراسات إلى اللغة اللاتينية؛ كذلك فإنه قد توسع فى دراسة الفلك وكان لدراسته هذه الفضل الكبير فى اكتشافات الأسبان والبرتغال.

أعلام عصر النهضة:

ميكيافللى Machiavelli: ولد ميكيافللى فى فلورنسا سنة ١٤٦٩ وقد تلقى قسطا مناسبا من التعليم حتى يلتحق فى سلك العمل الحكومى، ومن ثم عمل فى الحكومة الفلورنسية، وقد تم إرساله فى بعض الأحيان إلى بعض الإمارات الإيطالية أو إلى خارج إيطاليا لتحقيق بعض الأهداف الدبلوماسية والتى نجح فى كثير منه كما أنه تولى منصب سكرتير عام للحكومة الفلورنسية.

ألف ميكيافللى الكثير من القصص المسرحية والأشعار وكتب كتابًا سياسيا أسماه «تاريخ فلورنسا الفضائى» مستفيدًا من عمله الحكومى، كما أنه ألف كتاب «الأمير» والذى كان سببا فى شهرة ميكيافللى، وإذا قمنا بإيضاح الصورة عن حقيقة كتاب الأمير هذا فإننا سوف نلحظ فى أن هذا الكتاب ماهو إلا رسالة فى نظم الحكم من وجهة نظره، فهدف ميكيافللى من هذا الكتاب هو تحقيق الوحدة السياسية لإيطالية بدلا من تفككها، ولتحقيق هذا فإنه يرى أن الحاكم أو الأمير فى حل من كل المبادئ الإنسانية والمبادئ الخلقية والاعتبارات الدينية، وفى حل من القوانين حتى أنه يبيح استخدام الظلم والعدوان فى سبيل تحقيق هدفه، فإن الغاية عنده تبرر الوسيلة.

ومع ذلك فإننا نرى تضاربًا فى أفكار ميكيافللى؛ فها هو يرى أن دعامة الحياة القومية هى الفضيلة على العكس تماما من أفكاره فى سبيل تحقيق الوحدة إلا أن هذه الفضيلة إذا كانت ستقف عائقًا فى سبيل تحقيق هدف ما فلابد من تناسبها، كما أنه كان يؤمن بنظام الطبقات فى حين أنه يرى أن دعامة الدولة هو الشعب.

ومن أفكاره أيضًا التى يؤمن بها استباحة استيلاء دولة على أخرى شريطة أن يتركوا لأهالى الدولة التى تم الاعتداء عليها حرياتهم التى اعتادوا عليها ولايحاولوا تغييرها، وعلى الملك أو الأمير صاحب الدولة التى استولت على الأخرى أن يعين أتباعا فى حكومة الدولة المعتدى عليها وأن يستميل بعض أهالى الدولة هذه بالرشوة حتى يضمن ولاءهم له. وهذا الكتاب ماهو إلا نموذج للرجل الوطنى الذى يغار على وطنه ويرجو له التقدم بالرغم من إسفاف وسائل هذا التقدم.

ومما لاشك فيه أن هذا الكتاب دراسة سياسية عميقة بغض النظر عن الوسائل التى عرضها ميكيافللى، وظل هذا الكتاب يدرس على كل من يهتم بالسياسة ولكن من منظور إنسانى حى وضمير يقظ حتى لايقع القارئ فى الخطأ.

إراسموس (إرزم) الروتردامى Erasmus (١٤٦٦ ـ ١٥٣٦):

اتخذ إراسموس لنفسه اتجاها مختلفا عن غيره من الإنسانيين فى الدراسة الإنسانية والتأليف، وكان يسخر من العصور الوسطى، ويرى أنها عصور جهل وتخلف كذلك فإنه كان يهزأ من مدرس الفلسفة وكان يجعل نفسه خارج نطاق المسائل الفلسفية المعقدة حتى لايوقع نفسه فى الخطأ، وأسلوب إراسموس الذى اتخذه لنفسه هو أسلوب الكتابة اللاتينية المعقدة ذات الدراسة المتعمقة.

عاصر إراسموس فترة كان البابوات على قدر كبير من القوة ولهذا فإنه كان يدعوا إلى إصلاح العقيدة، وإصلاح الأكليروس، وكان يرى أن السبيل إلى هذا هو التهذيب والتعليم والمناقشات السلمية، ولا يأتى هذا فجأة وإنما تدريجيا. ولقد تناول إراسموس بإعداد نسخ يونانية وعبرية ونادى بضرورة قراءتها وتمعن معانيها والعمل بها، ولقد هجا إراسموس رجال الدين فى كتابه Praise of Folly وأوضح فى كتابه «سفر الفروسية المسيحية» الأساليب التى يمكن أن يشارك بها الإنسان فى المسائل السياسية دون أن يسىء إلى مسيحيته ويكون مسيحيا مخلصا، وهذه الوسائل هى: الاعتدال والتسامح، ضبط النفس، والإدراك العلمى، وحب النفس، وعدم كره أحد لأحد، والعمل على جعل الناس يفكرون؛ وضبط الكلام.

والشيء الذى ينفرد به إراسموس على غيره من رجال الحركة الإنسانية أنه كان على اتصال بأعظم رجال عصره فى ذلك الوقت، فقد استدعاه ملك فرنسا إلى باريس وعينه ملك أسبانيا مستشارا خاصا له وساعده البابا ليو العاشر عندما واجهته محنة، وبالرغم من أن كثيرا من رجال الكنيسة أخطأوا فى فهم أفكار إراسموس الدينية إلا أنه كان هناك بعض المعجبين بأفكاره ممن كانوا يفكرون تفكيرا علميا سليما بعيدا عن الهوى، فقد كان إراسموس يكتب عن مساوئ الكنيسة وبُعْد رجال الدين عن واجباتهم الحقيقية وشرههم فى جمع الأموال، ولم يذهب إلى الحديث عن جوهر العقيدة وتعاليم الكنيسة.

بوكاشيو Boccacio (١٣١٣ ـ ١٣٧٥):

تعلم فى القسطنطينية العلوم الإغريقية ووصل إلى درجة عالية فى هذه الدراسات، وكان يكتب الشعر والنثر باللغة الإيطالية، ومن أهم كتبه التى ألفها فى الأدب الإيطالى كتاب «ديكاميرون» Decameron والذى بدأه وعمره خمس وثلاثون عاما، وقد استعان فى كتابه هذا بمؤلفات الكاتب الإنجليزى تشوسر، ومما يحسب له فى كتابه هذا هو أنه اهتم بالأخلاق وكان أسلوبه فصيحا واضح الأسلوب قوى التعبير، ولقد ترجم هذا الكتاب إلى كافة اللغات الأوربية، ويعتبر هذا الكتاب من أهم القطع فى الأدب العالمى، وهناك العديد من الكتاب الأوربيون الذين أظهروا إعجابهم بهذا الكتاب ومنهم موليير Moliere وليسينج Lessing وشكسبير Shaekspeare.

فرانشسكو بترارك Francsco Petrarce (١٣٠٤ ـ ١٣٧٤):

ولد بترارك سنة ١٣٠٤ فى أريتزو ثم سافر إلى أفينيون بفرنسا وهو صغير السن فى الوقت الذى كانت أفينيون هى مقر البابوية فيما عرف فى التاريخ بالأسر البابلى، وكان كثيرا ما يدعو البابا إلى العودة إلى روما، وحين رحل هو إلى روما حزن كثيرا لما وجده بين روما القديمة وروما الحديثة وكان يحلم بأن تستعيد روما مجدها، وكان بترارك من أوائل المتحمسين من الإنسانيين فى جمع المخطوطات اللاتينية والعملة القديمة، ولهذا ترجع شهرة بترارك إلى أنه أيضا من أوائل من

عمل على إحياء الأدب الكلاسيكى، ولكـن من الخطأ أن نجازف القول فى تقدير دور بترارك من حيث إحياء الأدب الكلاسيكى، حيث إن البعض يدعى بأن بترارك هو منقذ الكتابة القديمة من الضيـاع ولكن هذا هو خطأ شديد، فإن اللغة اللاتينية القديمة كانت موجودة فى العصور الوسطى ولكن علماء هذا العصر كانوا منشغلين بالتفكير الفلسفى، هذا إلى جانب أن القدماء كانوا وثنيين فى تفكيرهم وكتاباتهم، والفضل الذى نذكـره لبترارك هو أنه دعا إلى أخـذ الأساليب القديمة بـوجهة نظر حديثة حسب ما يتفق وروح العصر الذى يعيش فيه.

وقد لاقت دعـوة بترارك ترحيـبا كبـيرا فى عصـره؛ ويمثل بترارك مـرحلة الانتقال من العصور الوسطى والعصر الحـديث بكامل تفاصيلها، فنرى أن بترارك كان لايزال معتقدا ببعض أساليب العصور الوسطى، ومن ذلك أننا نراه كان يكتب باللغة اللاتينية لفترة طويلة بالرغم من ظهـور اللهجات القومية؛ كما أن شعره كان جامدا لايعبر عن النفس البشرية تعبيرا صادقا، وهذا يظهر جليا فى شعره (أفريقيا) حيث إنهـا لـم تكن تزيد عن مجرد سـرد الحوادث والحروب بين رومـا وقرطاجه هذا إلى جـانب روح العصر الـحديث حين وصـف جسم الإنسـان وصفا دقيـقا لايتناسب مع تقاليـد العصور الوسطى، واستمر عطاء بترارك فـى العلوم الإنسانية حتى تابع تلاميذه مـن بعده هذه الجهود، وكان أكبر تقدير لأعمـال بترارك حينما توج سنة ١٣٤١ عن ملحمته الشعرية (أفريقيا) فى الكابتول بروما.

دانتى اليجييرى Dante Aleghiere (١٢٦٥ ــ ١٣٢١):

ولد دانتى فـى فلورنسا وتعـلم فى بادوا وبولونا وبـاريس وعمل لفـترة فى الحكومة الفلورنسية، ويعتبر دانتى من رواد اللغة الإيطالية حيث كتب بها كثيرا من إنتاجه الأدبى، وكتب كذلك باللاتينية، ومن كتاباته اللاتينية الملكية De Monarchia وهى عبارة عـن رسائل فلسفيـة وكتب كتابه الشـهير «الكوميديـا الإلهية Devine Commedy.

فى أثناء حياة دانتى السياسية فى فـلورنسا نفى بأيدى أنصار البابا، لذا عاش البقية الباقيـة من حياته فى الترحال والتنقل بين المدن، وفى فتـرة نفيه ألف كتابه

الشهير «الكوميديا الإلهية»، وكان هـذا الكتاب تصويرا للحياة الأخرى، حيث إنه تخيـل أنه زار الجنة والنار وتـكلم مع سكان كل مـنهما من الأدبـاء والسياسـيين والعلماء وصور يوم القـيامة. وينقسم كتابه هذا إلى ثلاثة أقسـام: قسم الجحيم، قسم المطهر، قسم الفردوس.

ويعتبر كتاب دانتى «الكوميديا الإلهية» دائرة معارف حيث إنه جمع به العديد من العلوم ومنها العلوم الفـلسفية والسياسية والدينية، كمـا أنه جمع به العديد من الثقافات فيه الثقافة الإغريقية واللاتينية والـمسيحية والعربية، حيث إنه تأثر بالثقافة العربية التى انتشرت فى أوربا بفضل أسبانيا وصقلية اللتين حكمتهما العرب.

واختلف القراء حـول سبب تأليف دانتى لهذا الكتاب، فـمنهم من يرى أنه ألف هذا الكتاب انتقـاما من أعدائه السياسيين،ومنهم مـن يرى أنه ألف كتابه هذا لتخليد اسم شخـصية، ولكن السبب الواضح الذى يظهر جلـيا هو أنه ألف كتابه هذا للوعظ والإرشاد حيـث إنه رأى أن أبناء عصره قد انغمسـوا فى ملذات الحياة بشكل واضح فأراد أن يعطيهم العبرة كى يتعـظوا، وهذا مانستنتجه من قوله حيث يقـول: «إننا ظللـنا نرتكب الخـطايا إلى أن وافـتنا المنـية؛ فاسـتنارت بصـائرنا واستغفرنا لذنوبنا وتبنا إلى الله».

أما رسائله الفلسفيـة التى أسماها «الملكية de Monarchia فإنـه يوضح أن صاحب هذا الكتاب ذو عقـلية متقدمة حيث إنه يقول: إن الحـرب آفة التقدم وإنه يجب أن يكون الهدف الأساسى للحكام هو السلام، ولايتسنى تحقيق هذا إلا من خلال الدولة العالمية والتى تجلب معها أمان البشرية وسعادتها.

ولدانتى مؤلف آخـر هو «الوليمة» Il Convivco وهو كتاب يعـالج المسائل السـيـاسيـة والحـب والأخلاق، ويـرى دانتى أن الـنظام الـمثـالى لـلحكـم هو الإمبراطـورية الرومانية وإنه يـرغب فى أن يسيطر القـانون والحرية على الـحياة، وكذلك فإنه لايرغب فى إقامة الجمهورية.

مايكل أنجلو Michael Angelo (١٤٧٥ ـ ١٥٦٤):

اشتهر مايكل أنجلو فى مجال الـنحت، وذلك منذ أن كان صغيرا سافر إلى

البندقية وروما حيث قام بنحت مجموعة التماثيل للآلهة الوثنية، وبعد وفاة سافونا رولا Savona Rola حزن حزنا شديدا، ومن ثم ظهر ذلك الحزن فى صورة العودة إلى الدين فقام بنحت مجموعة العذراء والطفل الرخامية.

ليونارد ودافنشى Leonard de Vinci (١٤٥٢ ـ ١٥١٩):

ولد ليوناردو دافنشى فى فلورنسا وكان هذا الفنان عالما شاملا إذ إنه برع فى النحت والرسم والهندسة والموسيقى والرقص والكيمياء، وله كتب فى التشريح إلا أن كل هذا الإنتاج ضاع إلا أن هذه العبقرية بقى منها إلى الآن صورة الموناليزا الشهيرة Mona Liza المحفوظة فى متحف اللوفر الآن والتى استغرق رسمها أربع سنوات أثبت فيها وبحق تفاصيل الوجه والإنسانة الجميلة؛ كذلك بقيت من صوره العشاء الأخيرة الموجودة الآن فى متحف ميلانو.

توسكانيلى Toscanelli (١٣٩٧ ـ ١٤٨٢):

فلورنسى المولد والإقامة والموطن وكان علما شهيرا فى الفلك وله آراء خاصة فى حركة القمر والشمس والنجوم وهى التى وافقه فيها كريستوف كولمب، وكذلك فإن اختراعه الساعة الشمسية من أعجب الآلات الفلكية التى رآها العالم.

أهم نتائج عصر النهضة:

أولا: ظهور الفكر الجديد حديث التفكير والآراء، حيث إنه قضى على التفكير الدينى القديم وبدأ التفكير الحديث من حيث التجربة والأبحاث والتنقيب للوصول إلى الحقيقة، ومن أمثلة هذا التفكير بترارك الذى بحث فى مصادر أرسطو، وكان هذا هو من أول من قام بهذا العمل واطلع على كتب القدماء واعتقد فى أن ضوابط التفكير لايجب أن نركزها فى الكتب فقط ولكن يجب أن نضيف إليها التجربة والفكر الحر.

وكذلك فإن ليونارد ودافنشى من أولئك الذين عملوا النظرية الحديثة فى التفكير حيث إنه كان يؤمن بأن التفكير الحديث ينقسم إلى شطرين: الأول هو

الملاحظة والتجربة. والشطر الثانى هو انشغال الفكر والحجة، والمخطوطات الباقية لدينا عن دافنشى تدل على هذا، ومن ذلك بعض المسائل المطروحة فى هذه المخطوطات التى لم يتم الإجابة عليها إلا فى الوقت الحاضر.

ومن نتائج هذا التفكير الحديث هو كتاب «ثورة الأفلاك السماوية» لكوبرنيك البولندى، حيث إنه توصل بعد عدة تجارب إلى نظرية أن الأرض تدور حول الشمس، وهذه النظرية تعاكس النظرية القديمة التى قال بها بطليموس بأن الشمس هى التى تدور حول الأرض ونشر هذا الكتاب سنة ١٥٤٣ وأهدى إلى البابا بول الرابع.

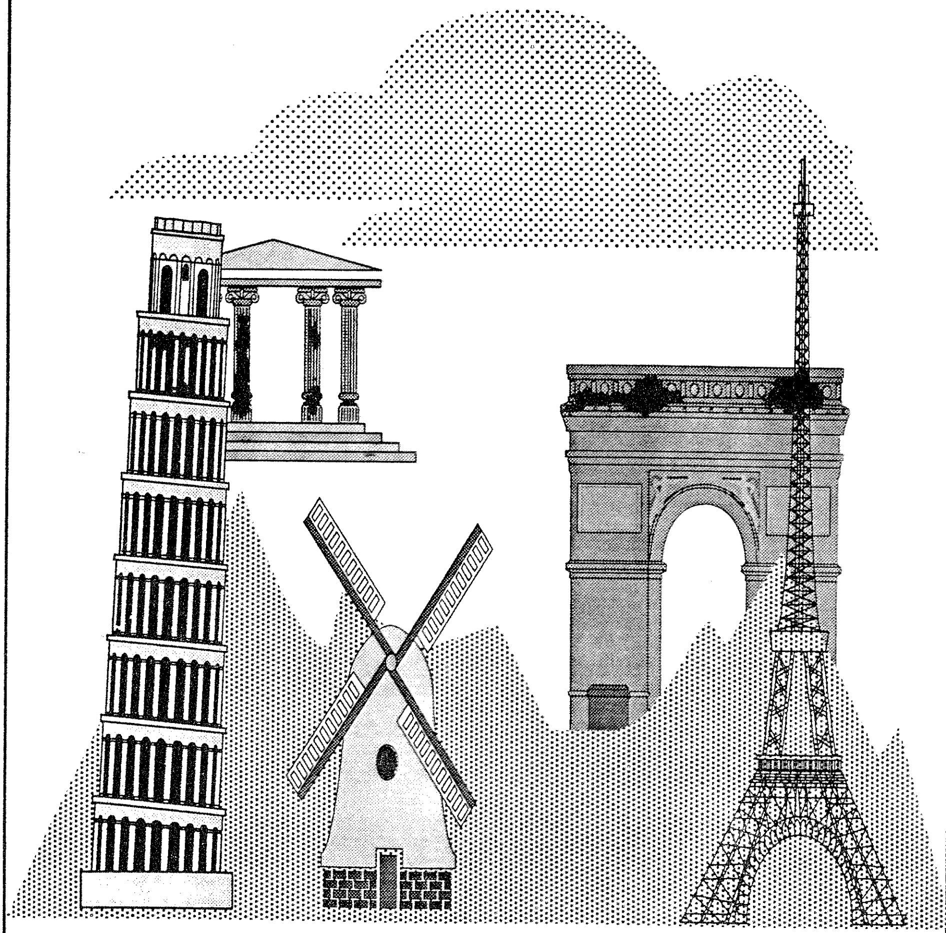
ثانيا: الاهتمام بالتربية الجسدية إلى جانب التربية الذهنية وهو تفكير حديث جدا ظهر فى القرن الخامس عشر، وهذا هو مايطبق الآن على نحو أوسع، وصاحب هذه النظرية فلترى Feltre حيث اهتم بالرياضة مثل: السباحة وركوب الخيل والتدريبات العسكرية على نحو حديث، وإلى جانب الرياضة هذه اهتم بالدراسة اللاتينية.

ثالثا: الاهتمام البالغ بالدراسات الإغريقية واللاتينية والعبرية، وبمعنى آخر كل الدراسات القديمة الموجودة بأوربا، ذلك أنها وجدت هوى لدى رجال ذلك العصر ورأوا أن هذه الثقافات هى أرقى ماوصل إليه الإنسان، وأن الإنسان لن يصل إلى درجة مرموقة دون دراسة هذه الثقافات بقدر مناسب، ومعنى ذلك أن هذه الدراسة هى الجواز للوصول إلى درجة مرموقة فى المجتمع.

رابعا: النتائج الهائلة التى خلفتها هذه الفترة فى شتى الميادين العلمية من حيث المؤلفات العلمية مثال «ثورة الأفلاك السماوية» لكوبرنيك وترجمة روكلين وارزم للعهدين القديم والجديد وما ظهر فى الميدان الفنى بشتى فروعه.

الفصل الثانى

التكوين السياسى لأوروبا عند مطلع عصر النهضة القرنان الخامس عشر والسادس عشر



كان لانطلاق الفكر الإنسانى فى جميع المجالات الاقتصادية والاجتماعية والدينية، أثره فيما تمخض عنه من نهضة أوروبية فى تلك الفترة الانتقالية بين التاريخ الوسيط والحديث، وكذلك كان الحال فى الحياة السياسية، ومن ثم لم يكن أمرًا غريبا أن تقع تغيرات فى النظام السياسى فى أوربا مع مطلع العصر الحديث، فكان ظهور الدول القومية وليد مؤثرات وعوامل نجملها فيما يلى.

أولا: انهيار النظام الإقطاعى كنظام إدارى: فقد كان الاقطاع يقف حائلا دون ظهور عامل الانتماء إلى الوطن الأم. فلم يكن أفراد ذلك النظام يدينون بالولاء لشىء إلا للسيد الإقطاعى والذين كانوا يعيشون فى كنفه وحماه، ولذا فإنه ومع بداية العصر الحديث وبداية تدهور ذلك النظام تحرر هؤلاء من ذل الإقطاع وبدأ شعورهم القومى فى النمو والسعى لقيام دولة قومية موحدة ذات نظام للحكم واضح.

ثانيا ـ تدهور نفوذ الكنيسة الكاثوليكية الرومانية: فقد كانت الكنيسة هى المسيطرة على الحياة فى أوربا فى العصور الوسطى، فقد كانت الكنيسة الكاثوليكية فى روما تتخذ من اللغة اللاتينية لغة العبادة والصلاة داخل الكنيسة فى الوقت الذى كانت تستخدم فيه هذه اللغة فى القانون والأدب، وكان نفوذ رجال الدين عاليا جدا فى بلاط الملوك فكثيرا ما اتخذ بعض الملوك من رجال الدين سلاحا أشهروه فى وجه أعدائهم، ومن ذلك الملك أوتو الأول (٩٣٦ ـ ٩٧٣) الألمانى الذى استعان برجال الدين فى بلاطه حتى يواجه بهم قوة (الأدواق)، وكذلك فليب أغسطس (١١٨٠ ـ ١٢٢٣) ملك فرنسا الذى لبى دعوة البابا فى إرسال حملة صليبية إلى جنوب فرنسا لمواجهة حركة الألبا جنس، وكان غرضه منها هو السيطرة على جنوب فرنسا (بروفنس ـ أكوتين).

ولم تكن سيطرة الكنيسة على النواحى السياسية والفكرية فقط بل وعلى النواحى الاقتصادية، فها نحن نرى الأراضى الشاسعة التى تسيطر عليها الكنيسة

وتديرها لصالحها، وما يأتى لها من هبات وتبرعات، فدخل الكنيسة السنوى كان يعد بالملايين، ولقد تعرضت الكنيسة لبعض الأزمات التى أثرت عليها تأثيرا واضحا بالسلب، ومن هذه الأزمات الخلاف بين الكنيسة الكاثوليكية والكنيسة الأرثوذكسية، وكان ذلك الخلاف بسبب الجدل حول المسألة التى أثارتها الإسكندرية من حيث طبيعة السيد المسيح أهى طبيعة واحدة أم طبيعتين. وكان من نتائج هذا الجدل أن انفصلت الكنيسة الأرثوذكسية عن الكنيسة الكاثوليكية.

وثانى هذه الأزمات التى تعرضت لها الكنيسة صراعها مع الإمبراطورية الرومانية المقدسة فقد أثرت عليها هذه الأزمة تأثيرا سلبيا إلى حد بعيد، فقد تدخل الأباطرة فى تعيين بعض البابوات كلمنت الثانى ثم داماسوس الثانى ثم ليو التاسع على التوالى مما أتى بنتائج لاتحمد على الكنيسة، وأخيرًا الضربة القاصمة التى تعرضت لها كنيسة روما فبعد الخلاف حول طبيعة السيد المسيح لم تعد تسيطر كنيسة روما إلا على أوربا الغربية، ولكن حدث بعد ذلك أن انتقل البابا كلمنت الخامس (١٣٠٥ ـ ١٣١٤) إلى أفينيون بفرنسا واتخذها مقرًّا جديدا للبابوية وسميت هذه الفترة بفترة الأسر البابلى، وبعد عودة البابا جريجورى الحادى عشر حدث الانقسام العظيم الذى قسم غرب أوربا إلى قسمين وبابويتين: الأولى فى روما والثانية فى بروفنس(١).

كان هذا هو المظهر السائد فى العصور الوسطى، أما فى العصر الحديث فإن النهضة أتت بثمارها الطيبة،حيث اتجه علماء كل إقليم إلى اهتماماتهم المحلية ولهجاتهم واتخاذها لغة قومية لهم فى الكتابة والثقافة والتعامل. هذا من ناحية ومن ناحية أخرى فقد تحرر الفكر من قيود العصور الوسطى وبدأ الأدباء فى التعبير عن رغبات وطنهم وشعبهم بدلا من الارتباط بالدين والكنيسة فقط.

وأخيرا، فقد ظهرت حركات الإصلاح الدينى المتتالية فى مختلف دول

(١) قام البابا جريجورى الحادى عشر بزيارة إلى روما ولكنه توفى هناك، ومن ثم تكون مجلس كرادلة واختاروا بابا جديدا مقره روما. فى حين اجتمع كرادلة بروفنس واختاروا بابا اخر ،ومن ثم نشأ الانقسام العظيم.

أوربا كالمذهب البروتستانتى (اللوثرى) فى ألمانيا وظهور الكنائس القومية كالكنيسة الإنجليزية؛ ولقد كانت هذه الحركات إلى جانب الغرض الأساسى لها من حيث إصلاح العقيدة لها هدف آخر سياسى وإقتصادى، فقد رغب الحكام فى الحد من سلطة الكنيسة فى بلادهم حتى يتاح لهم فرصة الحكم المستقل دون وجود معارضة من رجال الكنيسة، وكذلك الرغبة فى الاستحواذ على أملاك الكنيسة داخل الدولة والاستفادة منها فى تدعيم الحكومات الجديدة المركزية[1].

ثالثا ـ سقوط فكرة الإمبراطورية الحاكمة المسيطرة وإفساح المجال للدولة الحديثة القومية: وترجع هذه الفكرة إلى الإمبراطورية الرومانية القديمة فبعد أن تداعت هذه الإمبراطورية بعد رحيل قسطنطين عنها وانهيارها على أيدى الغزاة الجرمان إلا أن فكرتها ظلت عالقة فى أذهان الناس ربما لعدم وجود نظام حكم آخر أو لضيق فكرهم أو لنظرتهم المتأثرة بالعصور القديمة، حتى أنهم أطلقوا على الإمبراطورية التى أقامها أوتو العظيم فى ألمانيا اسم الإمبراطورية الرومانية المقدسة على الرغم من أنها كانت لاتعدو أن تكون دولة محدودة وليست شبيهة بها، ولكن هذه الإمبراطورية الرومانية المقدسة تأثرت بالخلافات مع الكنيسة التى أضعفت أيضا الإمبراطورية، ولم تلبث أن تلاشت فكرة الإمبراطورية مع تفتح العقول على نظم سياسية جديدة بفضل كتابات الإنسانيين فى عصر النهضة.

رابعا ـ ظهور الطبقة المتوسطة: فبعد أن توقفت غزوات الجرمان عن أوربا فى العصور الوسطى قامت التجارة فى المدن الأوربية الساحلية وخاصة المدن الإيطالية لوقوعها فى حوض البحر المتوسط ولقربها من الشرق وأفريقيا، ومما ساعد على نمو هذه التجارة الحروب الصليبية بين الشرق والغرب.

لقد نمت التجارة فى العصور الوسطى بين الشرق والغرب وكانت متاجر الشرق تأتى إلى أوربا من ثلاث طرق إما من آسيا إلى روسيا وعبر البلطيق وإما عن طريق الأنهار الروسية أو البحر المتوسط والذى كان من أهم هذه الطرق، حيث برع التجار الإيطاليون لخبرتهم الواسعة بالملاحة. وبطبيعة الحال فإنها كانت بحاجة إلى توزيع هذه المنتجات على أنحاء أوربا، فكانت هذه التجارة تعبر جبال الألب إلى ألمانيا ونهر الرون إلى الأراضى غرب أوربا.

---

(١) سنتناول هذا الموضوع بنوع من التفصيل فيما بعد.

كان أمـرًا طبيعيًّـا أن تنمو المـدن الواقعة علـى نهر الراين نتـيجة للتـجارة المتبادلة، ولـم تتح هذه الفرصة إلا لطـريق نهر الراين، فالطريق الآخر عبر الألب طريق جبلى، ونتيـجة للرخاء الاقتصادى الذى حققته هـذه التجارة نشأت فى هذه المدن صناعـات تحويلية منهـا صناعة تحضـير السمك والنسيـج، ومن ثم نشأت منطقتيـن صناعيتين: الأولى فى شمال غـرب أوربا والثانية فى إيطاليا الـشمالية، وبين هاتين المنطقتين كانت توجد مجموعة من المدن الصناعية.

ونتيجة الزيادة المستمرة فى التجارة والأرباح الطائلة التى كان يجنيها التجار من ورائها ظهرت طـبقة جديدة اصطلح على تسـميتها باسم الطبقـة البرجوازية أو الطبقة المـتوسطة، وهذه الطبقة ركـزت نشاطها الاقتصادى فى الـتجارة. ومن ثم نمت التجارة بـفضلهم حيث إن التجارة كـانت المصدر الوحيد لرزقهـم، ونتيجة الأرباح الكبيـرة التى تتيحها التـجارة للمشتغـلين بها نمت هذه الطبقـة وأصبحت الطبقة الثرية فى المجتمع.

وفى ذلك الـوقت الذى لم يكـن العمـال والأُجَراء يملـكون قوت يومـهم وجدوا أن التجارة تفتح لهم أيديها بالمال والربح الوافر، وقد استفادت هذه الطبقة من المجاعات الـتى كانت تحل بدول أوربا فى العصور الوسـطى بسبب الحروب المستمرة. وإلى جانب التجارة دخلت هذه الطبقة مجال الصناعة لمزيد من الربح والثروة.

لقد اقتـحمت الطبقة الـمتوسطة مجـال التجارة والصناعة عـلى حد سواء، وأصبحت الأرض وملكيـتها واحدة من مصادر الاقتصـاد ومما أدى إلى إزالة نظام الإقطاع وبداية الدولة الوطنية الحديثة Nation State. وكان لهذه الطبقة دور هام فى إخراج الدولـة الحديثة الوطنيـة إلى الوجود، فمع الاتـفاق فى اللغة القـومية والاتفاق إلى حد ما فى الجنس وفى الدين فقد نشأ الشعور القومى Nationalism، ومن ثم انقسمت دول أوربا إلى مجموعة من الأمم Nations.

وبطبيـعة الحال فإن الطبقـة المتوسطة كانـت هى الطبقة صاحبـة المال فى

المجتمع. وكذلك فقد نشأت منافسة بين أبناء هذه الطبقة في كل أمة لتحصل على أكبر قدر من المال عن طريق الاستحواذ على التجارة، وللحفاظ على هذا الهدف الذى تسعى إليه الطبقة الصاعدة فكرت فى المحافظة على مصالحها بطريقة شرعية بين الطبقات المماثلة لها فى الأمم الأخرى، وذلك عن طريق إقامة حكومة قوية تعتمد فى مواردها المالية على هذه الطبقة، وتعمل على الحفاظ على مصالح هذه الطبقة.

كانت هذه الطبقة ترغب فى إقامة نظام حكومى جمهورى إلا أنها لم تنجح فى تحقيق هدفها السامى لنظام الحكم، وذلك أن أبناء هذه الطبقة كانوا يرون أنهم سلبوا النبلاء حقوقا وهم لايزالون فى موضع قوة يريدون بها التأثير على أبناء الطبقة المتوسطة. هذا من جهه، ومن جهة أخرى كان أبناء هذه الطبقة الوسطى يرون أنهم لم يصلوا إلى المرتبة العليا التى تمكن من فرض نظام حكومى معين، ومن ثم نشأ النظام الملكى المطلق فإنهم لم يروا حرجًا من أن يخضع الجميع إلى ملك يرعى مصالحهم التجارية ويحافظ عليها، وقد نشأ هذا النظام فى البداية معتمدا على تدعيم هذه الطبقة المتوسطة لها، إلا أن الملوك بعد ذلك تنكروا لهذه الطبقة ولم يعملوا فى سبيل الحفاظ على المصالح البرجوازية، حتى أنهم كانوا يرون أنهم ظل الله فى الأرض فيما يعرف فى ذلك الوقت باسم «حق الملك المقدس» The Divine Right of Kings؛ لهذا فإن النظام الملكى المطلق هو الذى ساد فى أوربا عند بداية عصر النهضة.

بداية الدولة الحديثة: سبق أن تحدثنا عن السلسلة الفقارية الاقتصادية الأوربية وحدوث تطور هام أثر على تاريخ أوربا الاقتصادى والسياسى على حد سواء، فقد انتقل اتجاه هذه السلسلة من الجهة الشرقية إلى ألمانيا وإيطاليا إلى الجهة الغربية من بحر البلطيق حتى الأراضى المنخفضة، وكان لهذا الانتقال أثر واضح فى توزيع القوى بين الأمم الأوربية الحديثة.

أما عن أسباب انتقال هذه السلسلة فيرجع إلى هجرة سمك الهرنج من بحر البلطيق إلى بحر الشمال لسبب مجهول، وكذلك فتح طريق نهر الرون بعد أن توقفت الحرب بين إنجلترا وفرنسا، وأخيرًا الاكتشافات الجغرافية الجديدة التى

قام بها الأوربيون إما بغية الاستحواذ على أسواق أفريقيا الغربية للتوابل، وإما الالتفاف من الغرب للوصول إلى الهند دون المرور فى الأراضى الإسلامية.

أما بالنسبة لانتقال هذه السلسلة الفقارية الجديدة فقد أثرت وإلى حد بعيد فى الحياة السياسية فى أوربا، فقد توقف تقدم وتخلف الأمم على مدى قربها وبعدها من هذه السلسلة، فإن التجارة المتزايدة على هذا الطريق كانت تجلب معها ثقافة الدول التى يتم التبادل التجارى معها، ومن ثم أصبحت الدول التى تقع على هذه السلسلة أمما موحدة Centralised Nations وهى الأمم ذات النظام الحكومى الملكى المركزى فإذا ابتعدت هذه الأمم عن هذا الطريق أصبحت أمما متخلفة. أما دول شرق أوربا التى تحولت عنها السلسلة الاقتصادية كانت أمما تسير ببطء فى طريق التقدم والرقى لقلة مواردها الاقتصادية والثقافية بسبب توقف أو قلة الحركة التجارية عليها.

الشعوب الموحدة:

١ ـ إنجلترا: تكونت فى إنجلترا منذ وقت مبكر حكومة ذات نظام مركزى واضح منذ أن فتح وليم الفاتح إنجلترا، وأصبح للبارونات فى القرن الثانى عشر والثالث عشر كلمة مسموعة، ومن ثم صدر العهد الأعظم سنة ١٢١٥ والذى يعتبر أساس الدستور الإنجليزى، ثم حدث أن وقعت حرب الوردتين بين أسرة يورك وأسرة لنكستو والتى انتهت بتولى هنرى السابع العرش الملكى فى إنجلترا سنة ١٤٨٥ . ولقد ساعدت الظروف المحيطة بإنجلترا على إقامة حكومة مركزية؛ ذلك أن الشعب أرهق كاهله فى حرب المائة عام ثم حرب الوردتين فشعر الشعب أنه بحاجة إلى الاستقرار والهدوء، ولايتأتى ذلك إلا من خلال ملك قوى.

ولقد بدأت أسرة التيودور بداية متواضعة مثلها فى ذلك مثل بداية حكم أى أسرة أخرى، ولكنها سرعان ما تبوأت مكانة ممتازة فيما بعد على يد الملكة إليزابيث.

وأهم الخصائص التى تميزت بها أسرة التيودور فى حكم إنجلترا فى هذه الفترة مايلى:

١ ـ انتشرت الطباعة فى إنجلترا ومن ثم انتشرت الاتجاهات الفكرية الحديثة المتحررة التى جاءت نتيجة لعصر النهضة.

٢ ـ قامت كنيسة إنجليزية خاصة بإنجلترا مستقلة عن روما بعدما قامت فى عهد أسرة التيودور حركة الإصلاح الدينى.

٣ ـ سياسة الزواج الأسرى وهذا الزواج الذى كانت تبغى من ورائه أسرة التيودور توثيق العلاقات الدبلوماسية بالدول الأخرى المجاورة، ومنها زواج مارى تيودور من فليب الثانى ملك أسبانيا، وكذلك زواج مرجريت ابنة هنرى السابع من جيمس الرابع ملك أسكتلندا.

٤ ـ نمو فكرة التوسع الإنجليزى خارج القارة الأوربية، ومن ثم اتجهت أنظار الإنجليز إلى العالم الجديد لإنشاء مستعمرات إنجليزية بها حتى غدت الإمبراطورية البريطانية العظمى التى لاتغرب عنها الشمس.

ولقد نشأت ملكية التيودور على أسس قوية ثابتة، إذ إن مؤسسها هنرى السابع كان قد قضى على معارضيه والاضطرابات التى تسبب فيها الحرب الأهلية، ومن ثم كتب لهنرى أن يكون واضع بذور هذه الأسرة التى ازدهرت بعد ذلك بفضل مجهوداته فى النصف الثانى من القرن السادس عشر.

ويرجع الفضل إلى هنرى السابع مؤسس هذه الأسرة فى مجموعة القوانين التى أصدرها ضده الجيوش الخاصة التى كان يحتفظ بها اللوردات، وكذلك فإنه يرجع إليه الفضل فى إنشاء قاعة النجمة، وهذه القاعة ماهى إلا محكمة والقاعة التى يتم فيها مناقشات المنازعات محاطة بالنجوم، ولهذا فقد أطلق عليها هذا الاسم The Star Chamber، وكانت هذه المحكمة تتبع القوانين والنظم الرومانية القديمة فى الإدانة وإثبات الأدلة والشهادة من خلال هيئة المحلفين.

٢ ـ فرنسا: بعد أن انهارت الإمبراطورية الرومانية تحت ضربات البرابرة تعرضت بلاد الغال (فرنسا) إلى غزوات الفرنجة ثم استطاع الفرنسيون تأسيس

دولة قوية وطيدة الأركان هى الإمبراطورية الرومانية المقدسة، وكان مؤسس هذه الدولة هو شارلمان حتى لقد أضحت فى عهده منارة للثقافة والعلم.

ويبدأ التاريخ الحقيقى لفرنسا كدولة ذات كيان سياسى بعد معاهدة فردان ٨٤٣م، ففى هذه المعاهدة تبلورت الشخصيتين الألمانية والفرنسية وإن أضحت فرنسا إلا مجموعة إقطاعيات حتى نشبت حرب المائة عام بين إنجلترا وفرنسا وخرجت منها فرنسا منتصرة قوية ومتحدة.

حاول لويس الحادى عشر أن يجنى ثمار هذا الانتصار حيث عمل على كسب ولاء الشعب والعامة فى باريس لمواجهة النبلاء المعارضين له حتى عمت الفوضى جيوش أعدائه من النبلاء واستطاع تحقيق هدفه، حتى أضحت فرنسا من بعده دولة واحدة ذات ملك وحاكم واحد فقط.

وتابع سياسة لويس الحادى عشر خلفه شارل الثامن من حيث السيطرة على الأمراء وقام بشن الحرب على المدن الإيطالية فيما عرف بالحروب الإيطالية، ومن هنا بدأ الصراع بين الفالوا فى فرنسا والهابسبرج فى ألمانيا،ذلك الصراع الذى استمر أمدا طويلا.

وقد كان نظام فرنسا فى هذه الفترة هو النظام الملكى المركزى، ومن ذلك أن عمل الملك لويس الحادى عشر وشارل الثامن على سن القوانين التى تحد من سلطة الأمراء المحليين وكذلك وضع القيود على طبقة الأكليروس، وأخيرًا القرار التنظيمى والصادر سنة ١٤٣٨ والذى بمقتضاه استقلت الكنيسة الفرنسية، وقد عقد فرانسوا الأول معاهدة مع البابا ليو العاشر أعطته الحق فى تعيين رجال الدين فى فرنسا شريطة أن يرسل الضرائب المقررة إلى الكنيسة.

٣ ـ أسبانيا: إمتدت أيدى العرب إلى شبه الجزيرة الأيبيرية عن طريق موسى بن نصير ومولاه طارق بن زياد وحكم العرب أسبانيا لما يقرب من أربعة قرون، وفى الواقع فإن المقاطعات الأسبانية لم يكن لها شعور قومى يجمعها سوى الإخلاص للكنيسة الكاثوليكية الأسبانية.

بعد أن قويت المقاطعات المسيحية عملت على ازدياد عددها على حساب

المقاطعات الباقية الإسلامية ونمو ذلك إلى أن تم جلاء العرب نهائيا عن المقاطعات المسيحية وكونت حكومة مركزية خاصة على أثر المصاهرة التى تمت بين فرديناند ملك أرجوان من إيزابلا أخت ملك كاستيل واستولى الأسبان على غرناطة سنة ١٤٩٢.

اتبعت الأسرة الأسبانية الحاكمة فى هذه الفترة سياسة جديدة حتى يتسنى لها حكم عدد من الدول الأوربية وهى سياسة يمكن أن نطلق عليها زواج المصلحة، إذ نجد أن فرديناند وزوجته عملا على تزويج بناتهم من أمراء البرتغال، إنجلترا، فرنسا، والنمسا، ولقد أتت هذه السياسة بثمارها سنة ١٥٢٠ عندما تولى شارل ملك أسبانيا عرش الإمبراطورية الرومانية المقدسة، وبهذا أصبح الحاكم لدولتين أوربيتين متباعدتين مما دعا إلى التفكير بربط أجزاء دولته على حساب الدولة التى بينهما.

٤ ـ **البرتغال:** كانت البرتغال فى مبدأ الأمر إحدى الولايات التابعة لقشتالة ومن القرن الحادى عشر استطاعت البرتغال أن تنفض من على كاهلها سيطرة قشتالة مع بداية حكم أسرة برجندى وفى عهد ملكها ألفونسو الأول تم طرد المسلمين من لشبونة وباتباع ألفونسو الثالث هذه السياسة تم طرد العرب من بلاد الغرب سنة ١١٥١ وقد توطدت علاقة البرتغال مع الكنيسة ورجال الدين حتى تشكلت فيما بعد إمبراطورية البرتغال البحرية.

الشعوب شبيهة بالموحدة:

الأراضى المنخفضة الهولندية: تتكون الأراضى المنخفضة الهولندية من الأراضى الواطئة فى الشمال وبلجيكا، ولقد حاول شارل الجسور دوق برجنديا أن يقيم حكومة مركزية فى هذه المنطقة إلا أن محاولته فشلت بسبب الاختلاف فى الجنس، حيث إن هذه الأراضى التى تكون الأراضى المنخفضة ماهى إلا مجموعة شعوب صغيرة اتحدت فى عصره فقط ولايمكن توحيدها دون اتحاد فى الجنس هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فبطبيعة الحال أن تكون اللغة كذلك مختلفة ومتأثرة بالأجناس التى سكنتها.

ومع بداية القرن السادس عشر وبعد المصاهرة التى تمت بين مارى بنت شارل الجسور من مكسمليان - إمبراطورية الدولة الرومانية المقدسة - أضحت مدينة أنتورب بمثابة دولة صغيرة؛ ذلك أن هذه المدينة نمت بواسطة التجارة حتى أنها أضحت عاصمة الأراضى المنخفضة.

سويسرة: من الحقائق التى لايمكن إغفالها أن سويسرا كانت تابعة للإمبراطورية الرومانية المقدسة، إلا أن هذه الدولة كانت تتكون من عدة مقاطعات مثلها فى ذلك مثل أسبانيا. وقيام دولة سويسرا لم يتم إلا بفضل اتحاد هذه المقطاعات تماما كما حدثت بين أرجون وقشتالة. وقد تم اتحاد مقاطعات الشمال والمدن ودارت عدة معارك بين هذه المقاطعات انتصرت فيها المقاطعات السويسرية وكان من نتيجة هذا الانتصار أن انضمت كثير من المقاطعات السويسرية إلى الاتحاد سنة ١٣٨٦ وتم الاعتراف باستقلال بعض المقاطعات التى بلغ عددها ثمانى مقاطعات.

بالرغم من اختلاف هذه المقاطعات إلا أن عامل المصلحة المشتركة هو الذى كان يجمع شتات هذه المقاطعات، ولقد انقسمت هذه المقاطعات التى تم الاعتراف بها مستقلة حينئذ إلى قسمين: مقاطعات ريفى Rural وهى التى تمتهن عمل المرتزقة فى جيوش الدول الأوربية، ومقاطعات حضرى Urban وهى المقاطعات التى بدأت تسعى إلى فعاليات فى طريق الأمم الحديثة؛ ذلك أنها عملت بالتجارة والصناعة، وكانت المقاطعات السويسرية تكاد تكون مستقلة إلا أنها استقلت اسما وفعلا بعد صلح وستفاليا ١٦٤٨؛ ذلك أنه تم الاعتراف بها كدولة مستقلة.

شعوب غير موحدة: وهى الأمم التى فشلت فى إقامة حكومة مركزية لها فى بداية العصر الحديث وكان سعيها إلى هذا المجال بطيئا بدرجة ملحوظة.

ألمانيا: كانت قديما هى الباب الذى دخل منه البرابرة الجرمان إلى حدود الإمبراطورية الرومانية القديمة واستطاع شارلمان تكوين إمبراطورية شملت أجزاء

كبيرة من الإمبراطورية الرومانية القديمة، وكما هو الحال بالنسبة لفرنسا فإن الشخصية الألمانية بدأت تتبلور بعد معاهدة فردان، حيث نجد أن لويس الألمانى يقسم فى هذه المعاهدة أمام جنوده بالألمانية.

وكانت ألمانيا تحكم بطريق لامركزى، ولكن بالرغم من ذلك فإن عوامل الوحدة وقيام حكومة مركزية قوية فى ألمانيا كانت متواجدة. وهذه العوامل هى:

أ ـ مجلس الديت Diet: أو المجلس الإمبراطورى وهو مجلس يمثل الإمارات ويتكون من ثلاث طبقات؛ طبقة الناخبين السبعة Electors : الذين من حقهم انتخاب الإمبراطور، والطبقة الثانية: وهى طبقة الأمراء العلمانيين ورجال الدين. والطبقة الثالثة: وهى طبقة مدن الإمبراطور وهى المدن التى تخضع بصورة مباشرة للإمبراطور. ولما كان رجال الدين والأمراء يرغبون فى الاستقلال بعيدا عن الإمبراطور فإنه كان هناك صراع دائم بين مجلس الديت والإمبراطور.

ب ـ الإمبراطور: وبالرغم من أن الإمبراطور كان مجرد حاكم لبعض المدن إلا أنه كان يتمتع بقدر من المكانة الرفيعة عن بقية الأمراء، واتجه الكثير من الأباطرة الذين كانوا يسعون للحد من سلطة الأمراء وتوحيد أطراف الإمبراطورية المترامية وإنشاء حكومة مركزية. ومن أجل هذا ظل الإمبراطور والأمراء فى نزاع مستمر.

وبسبب النزاع المستمر بين الإمبراطور والأمراء فقد أصبح كل طرف يتحين الفرصة التى تقوى جانبه ضد الطرف الآخر، فقد كونت المدن والإمارات حلفا يسمى الهانسا Hanseatic League والغرض منه هو الدفاع المشترك عن مصالحهم المشتركة، وفى القرن الخامس عشر زاد توسع هذا الاتحاد.

يعتبر الكثير من المؤرخين أن الإمبراطور مكسيمليان الهابسبرجى فترة انتقالية بين ألمانيا العصور الوسطى وألمانيا الحديثة؛ ذلك أنه حاول قدر طاقته استرداد بعض مافقدته الإمبراطورية من سلطة ونفوذ.

إيطاليا: كانت إيطاليا مهد الحضارة الرومانية القديمة والتى تعتبر من أعظم الحضارات القديمة، كذلك فقد كانت مقر حكم الإمبراطورية الرومانية القديمة

تلك الإمبراطورية التى حكمت أجزاء شاسعة فى أوربا وآسيا وأفريقيا؛ وبعد أن سقطت هذه الإمبراطورية القديمة تحت ضربات البرابرة تكونت إمبراطورية أخرى أصغر فى العصور الوسطى هى الإمبراطورية الكارولنجية وكانت إيطاليا تابعة لها، ومع بداية النهاية للعصور الوسطى، نشأت الإمبراطورية الرومانية المقدسة وكان مقرها ألمانيا، وكانت إيطاليا تابعة لها ولكن بسبب الصراع المستمر بين الأباطرة والكنيسة فقد بدأت إيطاليا فى الانفصال التدريجى عنها ولم يعد لها سوى السلطة الاسمية.

وفى القرن الثانى عشر أضحت إيطاليا ماهى إلى صورة أخرى من بلاد اليونان القديمة حيث إنها كانت عبارة عن وحدات سياسية متفرقة فقد كانت عدة مدن لكل مدينة منها حكومتها الخاصة ومصالحها الخاصة بها التى قد تضر المدن الأخرى وكانت هذه المدن فى صراع مستمر، وكانت أهم هذه الوحدات السياسية: البندقية؛ ميلان؛ فلورنسة، الولايات البابوية ونابولى.

البندقية: من المدن الإيطالية التى لها تاريخ مشرف فى عصر النهضة حتى أنه أطلق عليها اسم Queen of the Adriatic وكانت الحرفة الرئيسية لأهالى البندقية هى التجارة، وكان لها امتيازات تجارية فى الدولة البيزنطية، وكانت البندقية تلعب دورًا فعالا فى الحروب الصليبية ضد المشرق العربى ولم يكن لها رغبة فى ذلك من أجل إرضاء الكنيسة أو أن تكون صاحبة ولايات فى الشرق، ولكنها قامت بهذا الدور لخدمة مصالحها التجارية؛ وذلك للحصول على امتيازات تجارية فى الشرق وهو الهدف الأساسى للحروب الصليبية عامة، ولكن البنادقة أرادوا أن يدخروا قواهم ويزيدوا ثرواتهم بنقل الحملات الصليبية على سفنهم.

وعلى عكس المدن الإيطالية الأخرى فإن البندقية كانت حالة فريدة بذاتها فإنها كانت تعيش فى معزل عن الصراعات القائمة فى إيطاليا وكذلك لم تكن تنشأ بها نزاعات داخلية فكانت تعيش فى استقرار وهدوء. أما عن نوع الحكم فى هذه الفترة من القرن السادس عشر فإن البندقية كانت تدين بالولاء للإمبراطور البيزنطى، وكان الجهاز الحكومى البندقى يتكون من ثلاث هيئات: الأولى الدوج

Doge وهو الشخص الذى ينوب عن الإمبراطور البيزنطى وبيده سلطات واسعة، والهيئة الثانية هى المجلس الكبير وهو الذى يتكون من العائلات الغنية وكان يعمل على الحد من سلطة الدوج، أما الهيئة الثالثة فكان مجلس العشرة والذى كان يعمل على حفظ الأمن والاستقرار داخل المدينة؛ أما عن السلطة العسكرية فإن عماد قوة البندقية كان أسطولها، أما الجيش فإن البندقية لم تكون جيشًا من أبنائها ولكنها كانت تستعين بالجنود المرتزقة.

الولايات البابوية: وتشمل هذه الولايات المدن الواقعة بين البحر المتوسط والبحر الأدرياتى وكانت هذه البلاد بلادا زراعية، ولقد لعبت البابوية فى عصر النهضة دورًا كبيرًا فى تشجيع العلوم والآداب بعد أن كانت تعاديها بكل ما أوتيت من قوة ولكنهم لم يستطيعوا الاستمرار فى هذا.

وفى الوقت الذى بدأت فيه أوربا تتخلص من الإقطاع ومساوئه نجد أن هذا النظام يتسرب إلى الولايات البابوية ووجد فيها تربة خصبة وصالحة؛ ذلك أن الولايات البابوية ولايات زراعية. هذا من جهة ومن جهة أخرى فقد استفاد الإقطاعيون من الأزمات والضعف الذى يطرأ على البابوية ومن ذلك الأسر البابلى وفترة الاضطرابات من جراء صراعها مع الإمبراطورية الرومانية المقدسة، وكان النظام الحكومى لهذه الولايات هى أن السلطة العليا للبابوات لإعادة مجد البابوية ولكن بعد أن حدث أن تقلصت سلطة البابوية فى أوربا عملوا على نشر هذه السيادة داخل إيطاليا فقط وكانت هذه الرغبة وبالا على إيطاليا، إذ عمل البابوات بأساليب عادت بالضرر على إيطاليا حيث إن البابوات قاموا بدس الدسائس فى المدن الأخرى.

فلورنسا: كانت تسمى مدينة الزهور واقتصادها يعتمد على الصناعة وخاصة صناعة المنسوجات الصوفية وكذلك المهارة فى النجارة. وقد لعبت فورنسا دورا هاما فى عصر النهضة وكان لأهلها بعض الآراء السياسية وذلك يرجع إلى عمق الفكر والنقد والدهاء.

اشتد الصراع فى فلورنسا بين الديمقراطية والأوليجركية(1)، كما وجدت نقابات للصناع، وكان نظام الحكم متنوعا فى هذه الدولة فنجد الحكم الشعبى والديمقراطى والأرستقراطى والدينى، وكان أعظم من ظهر فى البندقية سافونا رولا حيث عمل على الاهتمام بمصلحة شعبه فعمل على الحفاظ على الأخلاق فجمع كتب النساء والحلى وأحرقها، وكانت توجد فئة من العمال عاطلة أوجد لها عملا، ولهذا فقد كان مكروها من البابا حيث إنه ظن أنه بهذه الوسيلة سوف تزداد شعبية سافونا رولا فاستغل البابا دعوة فئة من الشعب للعودة إلى حكم أسرة آل ميدتشى،وحرض البابا أهل فلورنسا ضد سافونا رولا حتى تم القبض عليه وأحرق سنة ١٤٩٨.

وبعد ذلك أخذت فورنسا فى الاضمحلال، وبعد ثلاثين عاما من وفاة سافونا رولا انضمت إلى دوقية تسكانا واستمرت فلورنسا حتى الثورة الفرنسية تابعة للإمبراطورية، وهكذا كتب على فلورنسا أن تكون تابعة للإمبراطورية بدلا من أن تكون مستقلة مثل الكثير من المدن الإيطالية الأخرى.

ميلان: تعتبر ميلان مدينة ذات نظام اقتصادى متميز؛ فهى تقع فى سهل لمبارديا الخصيب، ولهذا فهى مع بداية العصور الوسطى كانت بلدا زراعيا ولكن بعد أن ظهرت التجارة ونظرا للموقع الجغرافى الممتاز للمدينة فإن ميلان كانت بمثابة مغناطيس عظيم جذبت الكثير من التجار الإيطاليين إليها حتى أضحت فى عصر النهضة مركزا تجاريا وصناعيا هاما فى إيطاليا.

نظرا للأسباب السالفة فقد عمد كل من ملوك هابسبرج وملوك فرنسا على الاستحواذ على ميلان حتى أنها تكاد تكون حلم شارل الثامن ملك فرنسا وكان لأسرة فيزكونشى تاريخا فى حكم هذه المدينة، حيث حكموها حكما استبداديا، ولكن هذه الأسرة أخطأت حين لجأت إلى استخدام الجنود المرتزقة سلاحا فى الحكم فأدى هذا إلى أن استغل بعض قواد هذه الجنود ضعف حكام هذه الأسرة وصعد إلى الحكم، ومن هؤلاء فرانشيسكو شعورزا الذى أسس أسرة سفورزا التى

(1) وهو نظام حكم الأقلية وقد استخدم الإغريق هذا التعبير Oligarchy.

حكمت ميلان لأقل من نصف قرن، وبعد هذا دخلت ميلان مجال النزاع بين الإمبراطور وملوك فرنسا وانتهى الأمر بأن انضمت ميلان إلى النمسا حتى الحروب النابليونية.

نابولى: كانت نابولى من المناطق التى لعبت دوراً هاما فى الأدب الإيطالى وقد تأثرت فى ثقافتها بالثقافة العربية التى حكمت صقلية وبالنورماند الذين حافظوا على هذه الثقافة بعد أن استردوا صقلية من العرب بل وطوروها، كما أنها تأثرت فى ثقافتها ببعض الملوك مثل فريدريك الثانى الذى أنشأ جامعة نابولى ١٢٢٤ وعمل على جمع المخطوطات العربية واليونانية وترجمتها إلى اللاتينية. وكما هو الحال بالنسبة لميلان فقد تنازعت أسبانيا وفرنسا حكم هذه المنطقة.

أوربا الشمالية والشرقية:

إسكندناوه ـ بولنده ـ هنغاريا ـ كوريا

تحولت السلسلة الفقارية الأولى من هذه المناطق تدريجيا إلى الغرب، ولهذا فإن أوروبا الشمالية والشرقية كانت تعيش فى تخلف، ومن مظاهر ذلك التخلف تواجد نظام رقيق الأرض فى الوقت الذى كانت أوربا الغربية قد تخلصت منه.

ونظرا لانعدام أهمية أوربا الشرقية فى التجارة فإنها كانت تفتقد إلى المنتجات التى يتم الحصول عليها فى الغرب عن طريق التجارة، ونظراً لرغبة أمراء وملوك ونبلاء أوربا الشرقية فى محاكات أمثالهم فى أوربا الغربية فإنهم رغبوا فى شراء هذه المنتجات التى تنقصهم من الغرب، ولكن هذا كان وبالا على أهل أوربا الغربية، هذا من جهة. حيث إنهم أرهقوا العاملين فى الأرض بالضرائب، ومن جهة أخرى فإن هذا التبادل التجارى أوجد طبقة برجوازية تجارية فى الشرق كانت تعمل على الوفاء بمتطلبات الشرق الأوربى، وبدأت فى منافسة مثيلاتها فى الغرب مما بشر بانتقال نظام الحكم الحديث إلى أوربا الشمالية، وبالفعل تم هذا فى الدنمارك والسويد، أما روسيا وبولنده فقد ظلتا على تخلفهما.

العثمانيون:

ينتمى الأتراك العثمانيون إلى الجنس الطورانى؛ والعثمانيون هم أحد بطون قايي التركية، ولم نسمع من قبل عن هؤلاء العثمانيين إلا عند نهاية القرن الثالث عشر بعد أن دفعتهم غزوات المغول إلى الشرق، ظهرت أول إمارة عثمانية أنشأها عثمان الذى ينتسبون إليه، ولحسن حظ العثمانيين أنهم بدأوا فى الانحدار شرقا فى الوقت الذى بدأت فيه الدولة البيزنطية فى الانهيار، وفى عام ١٣٢٦ استولى العثمانيون على بروسة وجعلوها عاصمة لهم.

وبعد ذلك سنة ١٣٦١ استولوا على أدرنة وجعلوها هى العاصمة وكانت هذه أول عاصمة لهم فى أوربا وبعد ذلك توالت فتوحاتهم ولكنها توقفت لفترة بسبب اصطدامهم بالتتار بقيادة تيمور لنك، ولكنهم سرعان ما أعادوا انتصاراتهم حتى استطاع السلطان محمد الثانى من فتح العاصمة البيزنطية القسطنطينية ١٤٥٣ وإمتدت الإمبراطورية العثمانية فى أنحاء أوربا الشرقية فوصلت حتى أسوار فيينا واستولت على معظم البلاد العربية.

وأما عن الإدارة الحاكمة فى الدولة العثمانية فقد كانت تنقسم السلطة بين هيئتين هما الهيئة الحاكمة، الهيئة الإسلامية وكان السلطان هو الرأس المدبر الأعلى لهذه الدولة، ولكن وبطبيعة الحال ومع بداية القرن الثامن عشر بدأت الإمبراطورية العثمانية فى طريقها إلى الاضمحلال والتدهور حتى أطلق عليها بين دول أوربا الرجل المريض.

ويجب الإشارة هنا إلى أن نظام الحكم العثمانى قد تأثر بعدة عوامل هامة وأهم هذه العوامل:

١ ـ **البيئة:** ذلك أن العثمانيون نشأوا فى بيئة الاستبس، وهذه الطبيعة جعلتهم من السهل أن يندمجوا مع أى عنصر جديد قادم إليهم ومحاولة التكيف معه، كذلك فقد كان العثمانيون ميالون إلى الحرب واستخدام الوسائل التى تناسب كل عدو للانتصار عليه.

٢ ـ أنهم تأثروا إلى حد كبير بالنظم والعادات الفارسية من حيث احترام

الملوك وتبجيلهم، ولقد أثرت كل هذه العوامل فى بناء الحكم العثمانى ونجد ذلك فى تقسيم الوزارة إلى خمسة أقسام وفرض ضريبة الرأس على غير المسلمين، ويرى بعض المؤرخين أن الدولة العثمانية ورثت الدولة السلجوقية فى كل طبائعها بما فى ذلك نظام الحكم المتأثر بالنظام الفارسى؛ ولقد اتخذت الدولة العثمانية خطوطا رئيسية تبغى تحقيقها، تلك الخطوط هى الاحتفاظ بما لها من سلطة على رعاياها وطريق التعامل مع الدول الأجنبية سلميا وحربيا، ولهذا فقد انحصرت مهمة إدارة الحكم العثمانى فى **خمسة أهداف** هى:

أولا: التشريعات الخاصة بالدولة والهيئة الحاكمة وتدوين التشريعات والقوانين اللازمة للحكم.

ثانيا: توفير الأموال اللازمة للدولة والهيئة الحاكمة للقيام بواجبها.

ثالثا: الإدارة الدقيقة.

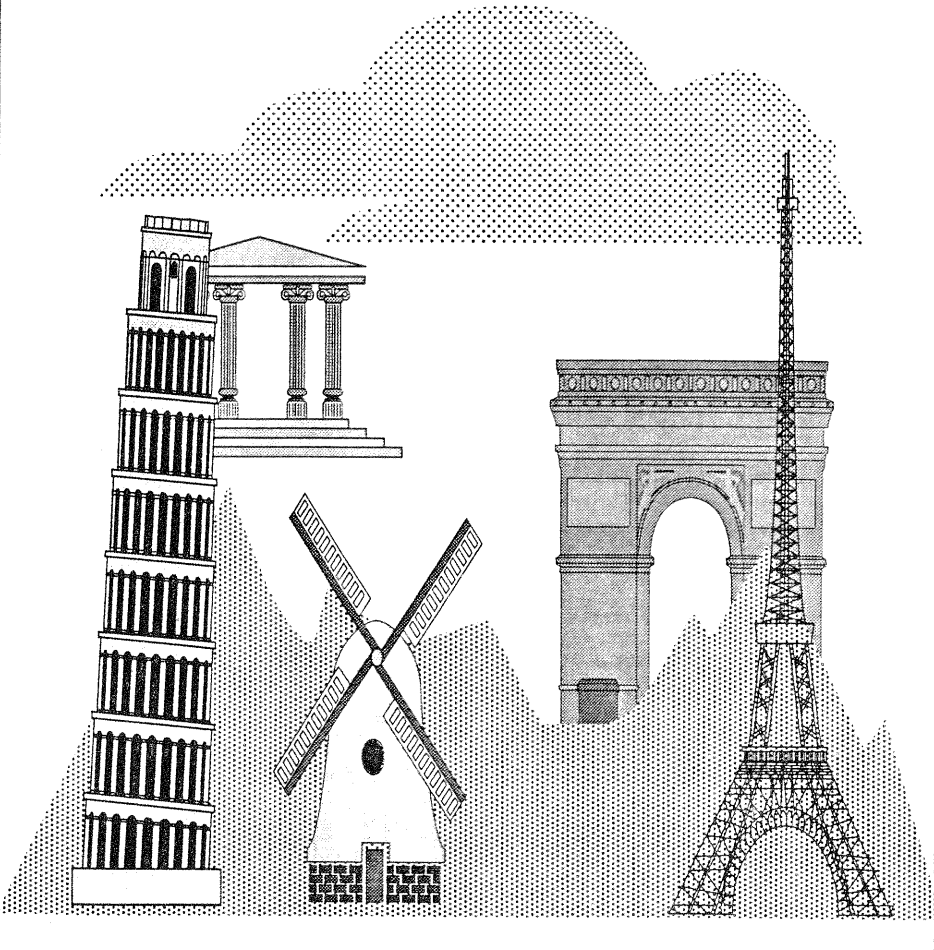
رابعا: حسم النزاع بين الرعايا العثمانيين.

على أنه يجب ملاحظة أن الدولة العثمانية كانت تحكم بأسلوب استبدادى فى الوقت الذى كانت تسعى فيه دول أوربا لتطبيق هذا النظام .

كانت تلك هى النظم السائدة فى أوربا فى القرن السادس عشر وكانت له نتائجه المؤثرة على السياسة الأوربية والعالمية؛ ذلك أن هذه الدول الحديثة حاولت أن تحافظ على حكوماتها وذلك عن طريق البحث عن دول ضعيفة تحتلها خارج القارة، والاتجاه الثانى وهو التوسع داخل القارة الأوربية، ولكن كان الاتجاه الأول أسهل من الاتجاه الثانى، وهذا ما أدى إلى الحروب الإيطالية.

الفصل الثالث

الكشوف الجغرافية والحركة الاستعمارية



كان للطبقة المتوسطة دورها الفعال فى إخراج الدولة الوطنية الحديثة إلى الوجود، فهى أمدتها بالأموال لدعم حكوماتها، وتشكيل أجهزتها التنفيذية والتشريعية، من جيش وأمن، وقضاء وكافة أجهزتها الأخرى، تلك الحكومات وخاصة المركزية القوية كانت تسعى إلى إيجاد الموارد الأخرى للإنفاق على متطلباتها المتزايدة، وكان ذلك يأتى عن طريق إما بالتوسع الخارجى، خارج حدود القارة، وهو ما أدى إلى حركة الكشوف الجغرافية. أو التوسعات الداخلية، داخل القارة الأوربية، وهو ما أدى إلى الحروب الإيطالية.

ولما كان من الأشياء التاريخية الثابتة تواجد الاستعمار منذ العصور القديمة أيضا معروف أن المدن اليونانية كانت تمتلك بعض سهول آسيا الصغرى كسهل طروادة وذلك لضمان الغذاء، والإمبراطورية الرومانية القديمة كان لها أملاك واسعة فى أوربا وآسيا وأفريقيا، وفى العصور الوسطى تجددت موجة الاستعمار ولكن مع تطور بسيط يتناسب معها، وفيما يختص بأوربا كانت ذات صفة دينية، وهذا ما ظهر فى الحملات الصليبية الموجهة إلى الشرق، أما فى العصر الحديث فقد كانت حركة الكشوف الجغرافية والاستعمار ما هى إلا تدعيم للطبقة البرجوازية التى ظهرت فى بداية هذا العصر والتى استطاعت إقامة حكومات موحدة مركزية، ولهذا فقد رغبت هذه الطبقة فى السيطرة على المراكز التجارية الهامة وإقامة مستعمرات تعمل لمصلحتها أساسا.

إذن يتضح مما سبق أن الادعاءات القائلة بأن سبب استعمار الأوربيين للبلاد العربية وغيرها من العالم الجديد إنما يرجع إلى تخلف أهالى هذه البلاد وترديهم فى عالم الجهل، إنما هو أمر ليس له أساس من الصحة وإنما هو راجع إلى

رغبة استعمارية لدى البرتغال وأسبانيا للإمساك بمفاتيح ومخازن الشرق والغرب لجنى الثمار المادية للتوسع الإمبريالى.

وبدأت هذه الطبقة فى إبراز النظام الميركانتلى، بمعنى أن الدولة التى تمتلئ خزائنها بالأموال والمعادن النفيسة هى الدولة القادرة على إقامة جيش قوى وأسطول قوى وإدارة داخلية محكمة، وهذا بالطبع يتطلب أموالا ضخمة، ولتحقيق هذا الهدف كان لابد من أن يكون الميزان الاقتصادى فى صالح الدولة حتى يتسنى لها القيام بهذه الواجبات، وعلى هذا فقد وضعت بعض الأسس والقواعد لتحقيق ذلك وهى:

أولا: فرض مزيد من الضرائب على المنتجات الواردة بهدف تشجيعها على الصناعة الداخلية والحد من الاستيراد.

ثانيا: إعطاء القدر الأكبر من عناية الدولة للتجارة الخارجية، والعمل على أن تكون أرباح الوطن الأم منها أكبر من نسبة الأرباح التى تحتوى عليها التجارة الخارجية.

ثالثا: وضعها ضوابط صارمة على تصدير المعادن النفيسة والحد من تصديرها، بل والعمل على استيرادها بأكبر قدر ممكن وبأقل تكلفة ممكنة.

رابعا: الاستغلال المناسب لمناجم المعادن النفيسة فى الدولة.

خامسا: اتجاه الدولة إلى الاستعمار الخارجى لاحتكار التجارة الخارجية.

سادسا: الاهتمام بالمنطقة التى تزخر بمناجم المعادن النفيسة.

سابعا: تكوين أسطول تجارى وعسكرى قوى لتسهيل عملية الاستعمار ولتوفير نقل المواد المستوردة من الدول المستعمرة.

ثامنا: أن تعمل الحكومة على تنفيذ هذه القواعد والأسس بطريقة جيدة سليمة.

ومن هذا المنطلق بدأت الطبقة البرجوازية النظر إلى استيراداتها ووجدت أنها تحتاج إلى بعض السلع التى لا يمكن إنتاجها فى أوربا أو المنتجات الزراعية التى لا يمكن أن تزرع فى الجو الأوربى، ومن هذه السلع القطن والحرير والعقاقير ومواد الصباغة، والتوابل، والتى كانت تمثل أهم السلع لحفظ اللحوم، ولكن هذه الطبقة وجدت أن تجارة هذه المواد تحتكر نصفها البرجوازية العربية من خلال نقل هذه المواد عبر الأراضى العربية إلى الموانئ ثم نقلها إلى الدول الأوربية التى تحتكر النصف الثانى من التجارة الدولية لهذه المواد.

ولهذا فقد بدأت الطبقة البرجوازية الأوربية تعمل فى البرتغال وأسبانيا لأن يكون دخل هذه التجارة كاملا من نصيب الطبقة البرجوازية الأوربية ورفعت شعارات القضاء على قدرات المسلمين عن طريق التجارة. وقد عرفت الطبقة البرجوازية فى هذه الدول حقيقة شعور شعوبهم حيث إن العامل الدينى المتمثل فى القضاء على المسلمين كان أهم لديهم من احتكار التجارة، وهذا الشعار سوف يؤدى إلى إشعال الشعور القومى والرغبة فى الاشتراك فى هذه الحركة.

أسباب قيام حركة الكشوف الجغرافية والاستعمار:

أولا: النزعة القومية

كان هذا السبب من أهم الأسباب التى دفعت الدول القومية إلى الدخول فى هذا المضمار، حيث إن بقاءها متفوقة على المسرح العالمى مرتبط بقدر ما تملكه من مستعمرات. ولقد وجدت هذه الدول من العوامل ما يساعدها على تحقيق هذا الهدف. ومن ذلك أنها وجدت أن هناك شعوبا تعيش فى تخلف اجتماعى وثقافى نتيجة لفقرها ومحاربة التقدم العلمى بها، ومن هذه الدول: الهند ودول جنوب شرق آسيا. كما أنه كانت هناك شعوب لم تطلها يد التقدم الإنسانى، وعلى الأقل تقدم العصور الوسطى بشىء ولو ضئيل، ومن هذا العالم الجديد الذى كان يحيا

حياة العالم البدائى. وتأكيدا لهذا المبدأ نجد أن كروزون Curzon أحد المسئولين الإنجليز عن الشئون البريطانية فى الهند يقول: «هى محور عظمتنا ومقياس نجاحنا أو إخفاقنا، ولئن فقدت الهند فليكونن هذا إيذانا بغروب شمس حياتنا» وقد توقف هذا المبدأ على الدولة نفسها وظروفها، حيث إننا نجد أن إنجلترا وفرنسا وأسبانيا والبرتغال استطاعت تحقيق هذا، حيث إنها نجحت فى إقامة حكومة مركزية قوية فى وقت مبكر فى الوقت الذى تخلفت عن هذا المجال إيطاليا وألمانيا بسبب تأخر قيام الدولة الوطنية القومية فيها.

إلا أنه ثبت فى وقت متأخر عدم صحة هذا المبدأ إذ إنه كيف يتسنى لدولة ما أن تربط مستوى تقدمها وبقائها بدولة أخرى مستعمرة، بينما العقل يقول أن تعمل الحكومة على استغلال مواردها على الوجه الأمثل والحد من الاستيراد وزيادة الصادرات والعمل على الاكتفاء الذاتى، والدليل على ذلك ألمانيا والتى كانت من الدول الأوربية التى يحسب لها ألف حساب قبل الحرب العالمية الأولى، ولم يكن لها أيه مستعمرات خارجية، والولايات المتحدة الأمريكية التى تعتبر أحدث الأمم الموحدة وأقلها تمتعا بعوامل الوحدة القومية «الدين - الجنس اللغة» لم تعمل على أن يكون لها مستعمرات خارجية، بل عملت بالوسائل الدبلوماسية على ربط الدولة الأخرى بها تجاريا وسياسيا وثقافيا. كل هذا يثبت عدم صحة ما ذهبت إليه الدول المستعمرة فى الرعيل الأول لها من العصور الحديثة.

ثانيا: النشاط المادى:

كان هناك بعض السلع التى تحتاج إليها دول أوربا كالتوابل والسكر والعاج والمعادن، وكانت تأتى إلى دول أوربا عن طريق التجار عبر الأراضى العربية، ولهذا فإن حكامها المسلمين كانوا المتحكمين فى كمية هذه المواد وأثمان بيعها للتجار الأوربيين. هذا بالإضافة إلى الضرائب التى كانت تفرضها الحكومة

الشرقية، المارة بها هذه التجارة. فوجدت الدول القومية الحديثة الأوربية أنه لا مجال للحصول على هذه السلع بأثمان مخفضة وكميات كبيرة إلا عن طريق الحصول عليها من بلادها رأسا وعدم الحاجة لوساطة إسلامية أو بندقية أو غيرها.

ولهذا فقد عملت أسبانيا والبرتغال فى ذلك الوقت على إيجاد طريق بعيد عن البلاد الإسلامية حتى لاتستفيد البلاد العربية وحتى يتسنى لهم تأمين تجارتهم. ففكروا فى إقامة محطات تجارية للقوافل الأوربية فى الطريق من أوربا على طول سواحل أفريقيا، ومن ثم وبعد مائتى عام نجح البرتغاليون فى كشف طريق يدور حول أفريقيا إلى بلاد الهند والشرق الأقصى، وعرف هذا الطريق بطريق رأس الرجاء الصالح، وقد كان اكتشاف هذا الطريق ضربة قاصمة للاقتصاد الإسلامى وخاصة دولة المماليك فى مصر والشام، ونتج عنه تدهور اقتصادى أدى فى النهاية إلى أن تذهب دولة المماليك فى ذمة التاريخ.

ومن جهة أخرى فإنه وبالإضافة إلى ما سبق ذكره كانت هناك بعض المنتجات التى تحتاجها الدول الأوربية فى صناعتها ولا يمكن أن تتوافر فى بلادهم، ومن ثم نشأت طبقة تعمل على إقامة شركات فى مستعمرات دولهم للقيام بتوفير هذه المنتجات بزراعتها إن كانت منتجات زراعية أو استخراجها إن كانت منتجات نفيسة، ومن ناحية أخرى عملت هذه الشركات على الترويج فى المستعمرات لسلع صناعات وطنها وكما لو كانت هذه المستعمرات مجرد سوق للتجار.

ثالثا: العثور على وطن جديد:

هناك بعض الدول التى تعرضت إلى زيادة عدد سكانها زيادة لا تتناسب مع وطنها ولا موارده، وقد كانت هذه الأعداد المتزايدة خطرا يتهدد الدولة فى العصر الحديث، إذ إنها تؤدى إلى زيادة عدد العاطلين بها، ومن ثم وجدت هذه الدولة

أن استعمـار بعض البلاد قد ينفض عـن كاهلها هذه المشكـلة إلا أن هذا كان له أسوأ الأثر على أصحاب البلاد المستعمرة.

رابعا ـ نتائج عصر النهضة العلمية:

جاء عصـر النهضة بأفـكار جديدة وروح جديدة لـلبحث والعلم والتـنقيب، وضع الأشـياء تحت التـجربة لـلوصول إلى قـوانين، وقد تـقدمت علوم الـفلك والعلوم البحرية حتى تم اختراع البوصلة مـما كان له أكبر الأثر فى تشجيع الطبقة البرجوازية الأوربـية على المغامرة البـحرية، وعندما ثبت نجاح هـذه الاختراعات لجأت هذه الطـبقة إلى تكوين أساطـيل قوية تعمل فى خـدمة مصالحهـا وخاصة الاستعمار. ومن الآثار التى نتجت عـما سبق هو اكتشاف كروية الأرض الذى أدى إلى اكتشاف أمريكا الشمالية والجنوبية ومن بعد ذلك أستراليا والقطبين.

خامسا: نشر الحضارة:

ادعت بعض الدول الاستـعمارية أنها كانت تسعـى للاستعمار تحقيـقا لغاية أسمى وهى نشر الحـضارة فى غير بلاد الحضارة، ودللوا علـى ذلك من تاريخها الاستعمـارى حيث إنهم وصفوا أسبـانيا ـ التى ظلت تعمـل قرونا وسنوات طوال على طرد العرب مـن أسبانيا، ونجحت فـى ذلك فى عهد فرديناند الـكاثوليكى ـ أنها كانت تعمل على نشـر المسيحية بعقيدتها الصحيحـة فى البلاد المفتوحة وأن الملكة إيزابيلا إنما ساعدت كريستوفر من أجل هذا الهدف.

كما أن جماعة اليسوعيين عمـلوا على استعمار الأجزاء الوسطى فى أمريكا الشمالية ـ الـبحيرات العظمى والمسيـسبى ـ لتحقيق تلك الغايـة وهذا المبدأ كان مثار جدل ونقاش فلو أن هدفهم الحقيقى هو نشر الحضارة فى غير بلاد الحضارة فما الذى دعاهم إلـى الاستمرار فى البقاء فى هذه البـلاد مع أن هذه البلاد كانت تسير فى طريقها إلى الانحدار كلما تقدم بـها تاريخ الاستعمار، ومن جهة ثالثة ما

الذى دعا هـذه الدول المستـعمرة إلى أن تنـهب خيرات هذه الـبلاد وتستأثـر بها لنفسها. وفى النهـاية نجد أن هذا المبدأ مجرد ستار للاستعـمار حتى يسلب صفة الإنسانية بعض الشيء من أصحاب البلاد المستعمرة.

الكشوف البرتغالية:

يرجع أكبـر الفضل فى الكـشوف البرتغالـية إلى الأمير هـنرى الملاح Don Hanrique وهو ابن الـملك يوحـنا الأول الذى طرد الـمغـاربة من سـبتـة سنة ١٤١٥، وقد تعلـم الأمير هنرى تعلـيما دينيا حـتى أنه كانت قد أثـرت عليه روح صليبـية تجاه المسلـمين، ويتضح هذا فى الكـتاب الذى أرسله إلى البابـا نيقولا الخامـس عام ١٤٥٤: «إن سرورى العظـيم أن نعلم أن ولدنـا العزيز هنرى أمـير البرتغال قد سار فى خطى أبيه الملك جـون بوصفه جنديا قادرا من جنود المسيح ليقضى على أعدائه الله وأعداء المسيح من المسلمين الكفرة».

ولقد نشأ هـنرى فى جو ملىء بالخرافـات التى تمتلىء بالخيـال عن البلاد الواقعة جنوب أوربا، ومن ذلك أن الرجل الأبيض إذا أبحر إلى أفريقيا فإنه سوف يصل إلى نقطة معينة وتتحول بشرته إلى الـسواد وتكون المياه التى تحيط به مياها تغلى، ومن أجل ذلك فقد أراد هنرى الوصول إلى الحقيقة حتى يتبين الأمر فأنشأ أكاديمية بحـرية تتكون من مجموعة من كـبار العلماء البحريين، وعـمل على جمع المعلومات من السفن العائدة من الخارج حتى يتوصل إلى الحقيقة، كما أنه عمل على تحسـين بناء السفن حـتى أصبحت حمولـة السفينة فى ذلك الـوقت ما بين ثمانين ومائة طن.

هذه كانت بدايـة تاريخ البرتغالى فى الكـشوف الجغرافيـة إلا أننا يمكن أن نقسم الاكتشافات البرتغالية الجغرافية إلى ثلاثة أدوار كما يلى:

المرحلة الأولى (١٤١٥ ـ ١٤٩٧):

كما سبق أن أشرنا كان الأمير هنرى المـلاح هو البداية للكشوف البرتغالية،

وقد أراد هذا الأمير تطهير الساحل الإفريقى المطل على البحر المتوسط من القرصنة ومن العرب المسلمين، وعندما فشل فى الاستيلاء على طنجة سنة ١٤٣٦ اتجه إلى الساحل المغربى على المحيط الأطلسى، وكان هدفه هذه المرة هو إخضاع أفريقيا وحتى بلاد غانة وإقامة إمبراطورية مسيحية برتغالية فى أفريقيا ومنها يبدأ فى نشر المسيحية فى أنحاء أفريقيا.

بدأت ترتيبات الأمير هنرى، ورأى أن مشروعا كهذا سيتكلف مبالغ ضخمة من المال، ولهذا فإن السبيل الوحيد هو زيادة أموال البرتغالى عن طريق التجارة، ومن ثم فقد بدأ فى اصطياد الرقيق فى كل مرحلة بحرية برتغالية خارجة ويقوم ببيع الرقيق، وكان يمهد الطريق لاحتلال غانة تمهيدا للوصول إلى القديس يوحنا Orester John وهو حاكم الحبشة، وكان ذلك القديس ذا شهرة فى ذلك الوقت، وأراد هنرى أن يأخذ منه المعونة والمساعدة الروحية والعسكرية حتى يستطيع القيام بحملة عريضة لطرد العرب أو لتعميدهم على دين المسيح، وقد استطاع الأمير هنرى الاستيلاء على ماديرا وجزر الأزور ومصب نهر الشنغال والرأس الأخضر إلا أنه لم يستطع تحقيق هدفه كاملا إذ إنه توفى سنة ١٤٤٥.

وفى هذه المرحلة استطاع البرتغاليون من اجتياز أسطورة خط الاستواء سنة ١٤٧١ ووصلت الكشوف البرتغالية فى هذه المرحلة إلى الطريق الجنوبى لأفريقيا ورأس الرجاء الصالح.

المرحلة الثانية (١٤٩٧ ـ ١٥١٥):

فى هذه المرحلة حاول البرتغاليون تكوين إمبراطورية تجارية ضخمة للبرتغال على امتداد الطريق التجارى المؤدى إلى بلاد الهند والشرق الأقصى مع القضاء على كل نفوذ تجارى للعرب المسلمين فى هذه المناطق وجعل هذا الطريق ومعه البحر الأحمر مياه برتغالية خالصة للبرتغال، ولا تعمل فيها أية دولة تجارية إلا بعد موافقة البرتغال، وأخذ الموافقة الرسمية التى تسرى فى هذه

المراكز المتناثرة على طول الطريق التجارى، وسوف يتضح هذا من تتبع خطوات هذه المرحلة.

حاول البرتغاليون الوصول إلى الهند عن طريق المحيط غربا إلا أنهم فشلوا فى هذا، فى نفس الوقت الذى نجح فيه الأسباب فتجددت محاولات البرتغاليين حيث قامت رحلة فاسكو دا جاما Vasco da Gama سنة ١٤٩٨ للوصول إلى الهند من حول أفريقيا وغادر لشبونة فى يونيو ١٤٩٧ وصل إلى قاليقوط فى الهند فى مايو ١٤٩٨ وهناك وجد أن العرب ذوى نفوذ واسع فى السيطرة على التجارة وعلى قاليقوط مركز تجارة التوابل، حيث كانوا ينقلون متاجر الهند إلى بلاد العرب ثم عاد عن طريق مالندى وجنوب أفريقيا إلى لشبونة فى سبتمبر سنة ١٤٩٩.

هنا اتضح للبرتغاليين أنه لا سبيل إلى تكوين إمبراطورية بحرية برتغالية مادام العرب هم المسيطرون على التجارة فى الهند، ولابد من القضاء على العرب فى الهند بقيادة الفاريز كابرال الذى استأنف طريقة للهند ووصل إلى قاليقوط فى أغسطس ١٥٠٠ وعمل على تأسيس أول مستعمرة تجارية فى الهند بعد أن تم الاشتباك مع المسلمين هناك وضرب المدينة ثم قفل راجعا إلى بلاده.

فيما يبدو أن الملك عمانوئيل لم يرض عن هذه النتائج: لأنه كان يطمع فيما هو أكبر للقضاء على البقية الباقية من العرب وإرغام حاكم قاليقوط الزاموريين على قبول السيادة البرتغالية على بلاده وتحقيق الغاية الأسمى وهى جعل طريق الهند ملكية برتغالية فقط وعند وصول جاما إلى قاليقوط اشتبك مع الزاموريين وقتله، إلا أن حاكمها الجديد لجأ إلى قانصوه الغورى سلطان مصر الذى رحب بهذا لاستعادة مكانة المماليك التجارية مما دفع دا جما إلى عقد معاهدات مع أمراء ساحل ملبار ثم قفل راجعا إلى البرتغال.

وهنا أدرك البرتغاليون ضرورة الاستيلاء على جميع المراكز التجارية العربية

التى تؤدى إلى الوصول إلى الهند والشرق الأقصى سواء أكانت فى البحر الأحمر (عدن) أم الخليج (هرمز) وبعد ذلك فرض السيطرة البرتغالية التجارية عليها وفرض ضرائب باهظة على التجارة المارة فى هذه المراكز حتى يضطر التجار وتضطر القوافل إلى اللجوء إلى مراكز البرتغال التجارية، ولهذا الهدف عمل كل من ألميدا وبوكيرك على تنفيذ هذه السياسة.

كان الميدا d'Almeida يرى أن إنشاء مستعمرات برتغالية متناثرة أمر يقتضى وجود عدد كبير من الجنود للاستعمار بعدد لا بأس به وأن إنشاء عدد من المستعمرات على طول الطريق إلى الهند يحتاج إلى عدد كبير من الجنود فى الوقت الذى لايتوافر هذا العدد فى البرتغال، فالبرتغال شعبها صغير كما أن توزيع الجهود والجنود على هذا العدد من المستعمرات سوف يعرضها للهلاك مع أى مواجهة بحرية أو من أهالى البلاد المستعمرة، ولهذا فإنه كان يرى أن إنشاء مراكز برتغالية متناثرة على السواحل من الهند مع وجود عدد قليل من الجنود أكثر فائدة، ولهذا فإنه أسس بعضا من هذه المراكز فى وانو Onor وكوشين Cochin واشتبك مع المسلمين بقيادة السلطان المملوكى قنصوة الغورى فى ديو عام معركة ١٥٠٩. وكانت الغلبة من نصيب (الميدا) إلا أنه قتل بعد ذلك فى معركة دارت فى مارس ١٥١٠.

البوكيرك: رأى البوكيرك أنه لا سبيل إلى السيطرة على الهند إلا عن طريق السيطرة على جميع المنافذ الموصلة إليها ولهذا فقد عمل على غلق باب المندب والخليج الفارسى بعد أن استولى على هرمز. بهذا فإنه يكون قد تحكم فى جميع المنافذ القديمة التى كانت تخرج منها صادرات الهند ثم استولى على ساحل ملبار وعلى ملقا إلا أنه كان يرغب فى الاستيلاء على عدن للسيطرة على البحر الأحمر واستبعاد العرب المسلمين، ولهذا فقد اتجه إليها سنة ١٥١٣ وسنة ١٥١٥ إلا أنه فشل فى ذلك الهدف وتوفى فى ديسمبر ١٥١٥.

المرحلة الثالثة (١٥٥١ ـ ١٥٨٣):

فى هذه المرحلة بدأت البرتغال فى أخذ طريقها إلى الانحدار بعد أن بلغت أوج عظمتها فبدلا من أن يواصل البرتغاليون فتوحاتهم الاستعمارية نجد أن هدفهم فى هذه المرحلة هو المحافظة على ما تبقى من المستعمرات البرتغالية؛ إلا أن الضعف والرهن بدأ يدب فى عظام الإمبراطورية البرتغالية منذ النصف الثانى من القرن السادس عشر بسبب:

أ ـ النظام الاستعمارى البرتغالى.

ب ـ الصراعات المستمرة بين البرتغال والعثمانيين.

جـ ـ انتشار النفوذ الأسبانى فى البرتغال نفسها حتى استطاع الملك الأسبانى فيليب الثانى من الاستيلاء على البرتغال عقب وفاة الملك هنرى.

د ـ تدخل الهولنديون فى شئون المستعمرات البرتغالية حتى أنهم أنشأوا شركة الهند الشرقية الهولندية The East Company of The United Nrtherlands

النظام الاستعمارى للبرتغال:

نظرا لصغر حجم البرتغال مساحة وشعبا فإنها لم تستطع أن تدعم حكومتها القومية الحديثة داخل القارة الأوربية كما حدث فى الحروب الإيطالية، ولهذا فإنها اتجهت إلى تدعيم مركزها خارجيا عن طريق احتكار التجارة الخارجية لأوربا، ولهذا فإنهم كانوا يرغبون فى السيطرة على مراكز التجارة ما بين أوربا والهند والشرق الأقصى.

كان البرتغال فى حكمهم لهذه المستعمرات يعتمدون على نائب الملك فى جوا، وكان هذا النائب هو المسئول على إدارة المستعمرات وعن التجارة الخارجية وحمايتها ونشر المسيحية، وأما فيما يختص بأمر إدارة المستعمرات فإنه ولقصر مدة تولى هذا النائب على المستعمرات كان يعمد إلى جمع أكبر قدر من الأموال، وكان هذا عن طريق فرض الضرائب والإتاوات، مما كان له أكبر الأثر فى إرهاق كاهل الشعب، وفيما يتعلق بحماية التجارة الخارجية فإننا نجد أن البرتغاليين قد بالغوا فى هذا الأمر لدرجة أنهم كانوا يلجأون إلى أساليب القتل والأسر حتى

يؤمنوا هـذه التجارة، واتخـذوا من هذا سببـا فى حرق العرب المـسلمين بحـجة عرقلة التجارة، وأما فيـما يتعلق بنشر المسيحية فإنه لـما كان أصحاب البلاد لهم عقائـدهم الدينية الخـاصة بهم ولهم تـقاليدهم فى أداء طـقوسهم الدينـية، وكان البرتغاليون أجانب أذاقوهم الهوان ونهبوا أرزاقهم، لذا فإنهم لم يجدوا ترحيبا من أهالى البلاد للدين الجديد الذى رأوا أنه قادم مع وحش إنسانى وهو يدعى أنه دين الرحمة، وهذا مالا يتوافر فى معاملتهم لأهالى البلاد.

كانت لشبونة قد أصبحت زاخرة بشتى أنواع الرفاهية والتقدم إلا أن البرتغال ليست لشبونة. فإن المدنُ الأخرى كانت تـعتمد على الزراعة فأدت هذه الحملات إلى أن يترك الفـلاحون أراضيهم وينضموا إلـى الحملات التى تخرج للاسـتعمار وبدأت البقيـة الباقية منهم تلجأ إلـى استخدام الرقيق، وكان هذا هـو بداية النهاية وبداية البرتغال والتى أضحت فى النهاية دولة متدهورة، وبمعنى آخر أصبحت هذه الإمبراطورية ذات مظهر عظيم ودخل قليل.

الكشوف الأسبانية:

فى الوقت الذى بدأت الـبرتغال فى البحث عـن مستعمرات لـها فى طريق التجارة الهندية اتجـهت أسبانيا هى الأخرى إلى تدعيم مركـزها السياسى الأوربى بالكشوف والتوسـع الخارجى واتجهت كشوف الأسبـان إلى الغرب؛ ذلك الطريق الذى اكتشفه كريستوف كولمبس، ولتـتبع تاريخ الكشوف الأسبانية يجب علينا أن نقسمها لمراحل:

المرحلة الأولى (١٤٩٢ ـ ١٥١٦):

كان الـمخطـط الأول والمنفـذ لاكتشـافات أسـبانيـا الأولى ذلك الـملاح كريستوفر كولمبس Ch. Colombus فقد سـيطرت على كولومبـوس فكرة أنه يستطع الوصول إلى شواطئ آسيا الشرقية عن طريق الالتفاف من المحيط غربا وأنه توجد هناك أراضى لم تكشف بعد، وقد قام كولومبوس دراسة لهذا إلا أنه لم تلق

قبولا فى ذلك الوقت من البرتغال التى كانت قد بدأت بالفعل فى هذا المجال، حيث إنها كانت محفوفة بالأخطار، ثم لجأ بعد ذلك إلى ملوك أسبانيا. قد وافقت الملكة إيزابيلا على ذلك وكذلك الملك فرديناند الكاثوليكى، ولقد قام كولمبس من أجل هذا بأربعة رحلات كشفية بعد أن حفز الملك فرديناند على ذلك بحجة أنه سوف يأتى إليه بذهب كثير.

قام كولومبوس برحلاته ابتداء من ٣أغسطس ١٤٩٢ وكشف فى هذه الرحلة عن إحدى جزر البها ما وجزيرة هايتى والشاطئ الشمالى لكوبا.

وأصبح مشكوكا فى أمره لدى ملوك أسبانيا إذ لم يستطع إحضار الذهب بالكميات الكافية لتغطية نفقات الحملات كما وعد الملكان ولكن كانت لرحلاته نتائج هامة للغاية، ولم يكن موفقا فى رحلته الثالثة ١٤٩٨ والرابعة ١٥٠٢.

نتائج رحلات كولومبوس:

أعطت الذرائع للملكية الأسبانية فى الأراضى المفتوحة مثلما ثبتت الملكية البرتغالية دعائمها فى متسعمراتها فى أفريقيا وأسيا، فقد حصلت أسبانيا حق الملكية المطلقة فى الأراضى الواقعة بعيدا عن جزر أزور والرأس الأخضر شرقا وغربا بمائة فرسخ وحق ملكية الأراضى التى سوف يكتشفونها بقرار من البابا إسكندر السادس ١٤٩٢.

وعقدت معاهدة توردیسلاس Tordesillas ١٤٩٤م، وتم الاتفاق على أن يكون هناك خط وهمى من نقطة تبتعد ٣٧٠ فرسخا من جزر الرأس الأخضر تكون الاكتشافات التى تظهر فى الغرب من نصيب أسبانيا والاكتشافات التى تظهر فى الشرق من نصيب البرتغال، ونتيجة لهذا فقد أخذت البرتغال البرازيل.

٢ ـ كانت اكتشافات كولومبوس فاتحة خير على الأسبان، إذ إنها شجعت المغامرين بعد ذلك على الخروج فى رحلات كشفية،وتم اكتشاف مصب الأمازون.

المرحلة الثانية (١٥١٦ ـ ١٦٠٠):

فى هذه المرحلة من مراحل الكشوف الجغرافية الأسبانية كانت أعظم كشوف جغرافية فى العالم حتى الآن، حيث إنه تم الدوران حول العالم فى اتجاه واحد من بداية الرحلة وحتى العودة إلى نقطة البداية، مما أثبت كروية الأرض وافتتح الأسبان المكسيك وأمريكا الوسطى وبيرو وأمريكا الجنوبية؛ تلك المساحات الواسعة التى لم تكن معروفة،وقد بلغت الكشوف الأسبانية فى هذه المرحلة أوج عظمتها.

أولا ـ الرحلة حول العالم:

كان هذا المشروع الجغرافى هو أهم مشروع جغرافى وملاحى عالمى تم حتى الآن، وقد اقترن هذا المشروع بشخصيتين عظيمتين كان لهما الفضل الأكبر فى إتمام هذا المشروع؛ وأول هذه الشخصيات شخصية الملك شارل الأول ملك أسبانيا الذى أصبح بعد ذلك الإمبراطور شارل الخامس إمبراطور الإمبراطورية الرومانية المقدسة، وثانى هذه الشخصيات الملاح البرتغالى والمنفذ لهذا المشروع. **ماجلان** Magellan [١]

يعتبر ماجلان هو وارث تفكير كريستوفر كولومبس حيث إنه ظن هو الآخرأنه يمكنه الوصول إلى جزر التوابل عن طريق الغرب بدلا من السير عن طريق رأس الرجاء الصالح، وذلك عن طريق السير من أسفل أمريكا الجنوبية، ولكن هذا المشروع رفض من الحكومة البرتغالية بسبب غضب ملك البرتغال عليه، ولهذا فإنه لجأ إلى أسبانيا بعدما أصبح لها صيت فى هذا المجال، وقد عرض المشروع على الملك شارل الأول ووافق على هذا إذا إنه كان يريد أن يخوض طريق النضال مع البرتغال فى الهند.

---

(١) كان أحد الملاحين الذين رحلوا مع حملة البرتغال إلى الهند بقيادة الميدا.

رحب الملك شارل بهذا المشروع وتم عقد اتفاق بين التاج الأسبانى وماجلان فى ٢٢مارس ١٥١٨

تم الإعداد لخروج الحملة وبالفعل خرجت الحملة فى خمس سفن أسبانية تحت قيادة ماجلان فى أغسطس ١٥١٩ من ميناء لوكار san Lucar، حيث اتجهت إلى الجنوب من المحيط الأطلسى ثم إلى الجنوب الغربى حتى وصلت ميناء ريودى جانيورى البرازيلى ثم مصب نهر ريودى لاباتا وواصلت الحملة طريق السير بمحاذاة الساحل الشرقى لأمريكا الجنوبية فى اتجاه الجنوب اكتشف ماجلان مضيق أطلق عليه مضيق ماجلان نسبةإليه وفى نفس العام دخل المحيط الهادى الذى أطلق عليه الباسفكى Qacifique (١).

اتجهت الحملة إلى الشمال الغربى فى طريقها إلى جزر التوابل ووصلت الحملة فى مارس ١٥٢١ إلى جزر الفلبين ظنا من ماجلان أنها جزر التوابل ولكن هذا كان فى مصلحة أسبانيا حيث إنه اكتشف الجزر التى أطلق عليها الفلبين(٢)، وأصبحت منذ ذلك الوقت تابعة لأسبانيا وحتى استحوذت عليها الولايات المتحدة بعد حرب ١٨٩٨ مع أسبانيا.

إلا أن ماجلان قُتِلَ فى إحدى المعارك مع البلاد المفتوحة على يد أحد الوطنيين وتولى قيادة الحملة من بعده أحد مساعديه فى أبريل ١٥٢١، وفى نوفمير من نفس العام الذى تولى فيه القيادة وصلت الحملة إلى إحدى جزر التوابل بقيادة تيدور Tidor وحقق حلم ماجلان وبعد ذلك بأربعة أشهر غادرت الحملة فى طريق عودتها إلى أسبانيا عن طريق رأس الرجاء الصالح بعد أن

---

(١) أطلق عليه هذا الاسم نظرا لقلة الأعاصير فيه عن المحيط الأطلسى.

(٢) أطلق عليها هذا الاسم نسبة إلى فيليب ابن الملك شارل،والذى سيتولى الملك بعد ذلك باسم فيلب الثانى.

استغرقت ثلاث سنوات وكان لها الفضل فى اكتشاف عالم جديد بعيدا عن القارات القديمة المتصلة.

إلا أن هذه الرحلة كانت لها نتائج سيكولوجية بعيدة المدى، إذ إنها نشطت فكرة كامنة لدى الملك شارل الأول فى أن العناية الإلهية أرادت له أن يحكم العالم نتيجة لهذه الاكتشافات التى توصل إليها، ورأى أن إمبراطورية الهابسبرج قد بدأت فى الظهور إلى حيز الوجود فى أوربا والعالم الجديد، وهذا يقتضى بضرورة الحال أن تعمر العالم الجديد بما يلزمها من رجال ومال وما إلى ذلك من ضروريات التعمير، وأراد أن تكون شبه جزيرة أيبريا هى عاصمة هذه الإمبراطورية وكان لهذا التفكير أكبر الأثر على شارل بعد ذلك بعدما أصبح إمبراطورا حيث إنه أكثر انجذابا إلى أسبانيا.

ولكنه وبالرغم مما حققته هذه الحملة الناجحة من مجد لأسبانيا إلا أنه لم تحقق حلم الملك شارل وهو التفوق على البرتغال فى حكم الهند، ومن أجل هذا الهدف نجد أن شارل قد أرسل حملتين عسكريتين فى سنوات ١٥٢٥ و١٥٢٦ لامتلاك سومطرة وجعلها عمود الارتكاز فى الهند للتدخل مع البرتغال فى أرباحها التجارية، ولكن هاتين الحملتين كانتا سببا فى إثارة القلاقل بين أسبانيا والبرتغال، إلا أن شارل فكر فى الأمر مليا ووجد أنه لا يرغب فى إثارة عداوات أخرى وخاصة بعد أن أصبح فى موقف وفى حالة الحرب مع فرنسا من أجل السيطرة على شبه الجزيرة الإيطالية، فى نفس الوقت الذى ازداد فيه خطر مارتن لوثر فى ألمانيا، ولهذا فقد تراجع عن فكرته سريعا ورأى أن أسبانيا بيدها إرسال ماتشاء من الحملات للحصول على التوابل من جزر التوابل عن طريق ممتلكاتها فى العالم الجديد دون إثارة عداوة البرتغال والاحتفاظ بعلاقتها الطيبة مع أسبانيا.

وفى الوقت الذى كانت تسير فيه الحملة التى قادها ماجلان للدوران حول العالم فى طريقها، كان الأسبان يقومون بفتح بلاد المكسيك وكانت أولى الحملات الأسبانية حملة ١٥١٧ إلا أنها لم تؤت ثمارها، وفى العام التالى خرجت حملة بقيادة فرديناند كورتيز Cortez، قد نجح كوريتز فى فتح يوكنان وأقام مدينة جديدة فى المنطقة تخليدا للفتوح الأسبانية أطلق عليها فيراكروز Vera Cruz واتجه بعد ذلك إلى عاصمة الآزتيك وحاول حاكمها فى البداية الاستسلام لكورتيز إلا أن أبناء شعبه قتلوه وصمدوا أمام كورتيز أكثر من عامين ولم يستطع كورتيز دخولها إلا فى أغسطس ١٥٢١، وقد كافأه الملك بأن عينه عليها نائبا عنه فى حكمها وبعد ثمان سنوات خشى الملك من أن يستأثر كورتيز بها لنفسه فعزله.

وفى الوقت الذى قامت حملات فرديناند كورتيز لاحتلال المكسيك وجه فرنسيسكو بيزارو نظره إلى بلاد الذهب والفضة حيث إن أمريكا الجنوبية كانت تزخر بمناجم الذهب والفضة فى هضبة بيرو وشيلى وبوليفيا، وانطلقت الحملة فى ١٥٣٢ قاصدة بلاد الذهب، وبالفعل انتصرت حملة بيزارو على أهالى البلاد واستحوذ على مناجم الذهب والفضة إلا أن معاملة بيزارو السيئة لأهالى البلاد كانت سببا فى أن يكون فريسة أعدائه فى البلاط الأسبانى مما أدى فى النهاية إلى اغتياله فى ليما فى يونيو ١٥٤١.

وكانت حملة بيزارو فاتحة خير على الأسبان إذ إنهم ازداد نشاطهم بعد ذلك وأرسلوا الحملات لاحتلال منابع الأمازون والبراجواى، وهناك بدأ الأسبان فى تأسيس مدن أسبانية لهم ولاستغلال المناجم على الوجه الأكمل، وفى النصف الثانى من القرن السادس عشر وصلت أسبانيا إلى فنزويلا وكولومبيا بعد أن انقرض الجنس الانكا،وكان هذا مايميز عصر شارل الأول الذى كان عصره عصر رخاء واتساع لأسبانيا فى الخارج.

نظام أسبانيا الاستعمارى:

فى الواقع لم يكن الشعب الأسبانى يتمتع بالقدر الذى يتناسب مع فتوحات الحملات الاستعمارية فى الخارج، فلم يسمح للشعب الأسبانى بالهجرة المطلقة إلا بعد عام ١٥٩٦ . أما بالنسبة لإدارة المستعمرات فإنه كان يطبق القانون السائد فى قشتالة فى الهند الغربية. وفيما يتعلق بإدارة الشئون الاقتصادية فى المستعمرات، فقد كانت الحكومة الأسبانية تحرص على انتقاء العناصر المهاجرة إلى الهند الغربية بحيث تكون هذه العناصر قادرة على تنمية الاقتصاد الأسبانى فى هذه المستعمرات. وتم إنشاء مكتب فى أسبانيا نفسها لرعاية مصالح هذه المستعمرات ويسمى مكتب الإدارة للإشراف على الشئون المادية فى الهند الغربية.

وبعد أن اتسعت المجالات فى الهند الغربية تم تأسيس مكتب فى أشبيلية يسمى غرفة التجارة Cose de Contratacion ووظيفته الإشراف على كل مايتعلق بالاقتصاد فى الهند الغربية من تجارة ومهاجرين وتنظيم الهجرة وتنفيذ قوانين الملاحة، وهو عبارة عن غرفة للتجارة ومخزن لتوزيع التجارة الأمريكية من صادر ووارد.

أما من الناحية السياسية فقد كان هذا المكتب التجارى الذى أنشئ سنة ١٥٠٣ هو القائم بالأعمال السياسية إلى أن تأسس مجلس الهند الغربية فصارت له جميع الاختصاصات، وكانت هيئة مستقلة تقوم بتعيين الحكام نواب الملك وتعيين رجال الدين والأساقفة ولها سلطة عزلهم كذلك، وكان مقر مجلس الهند الغربية هو مدريد.

وكان يقوم بالحكم نائب الملك ثم المجلس، وكان الملك يختار لهذه الوظائف من لايدينون بشىء سوى الولاء للتاج الأسبانى شخصيا ويعملون

لمصلحته الخاصة قبل كل شيء؛ وذلك لزيادة ثرواتهم الخاصة ولحسابهم الخاص بغض النظر عن الكفاءة العلمية أو الخبرة الشخصية.

الاستعمار الهولندى:

كانت الحروب الدينية التى حدثت فى أوربا فى العصر الحديث فى القرن السابع عشر خيرا على هولندا، حيث كانت خاضعة لأسبانيا ولكن بعد انتهاء حرب الثلاثين عاما وعقد صلح وستفاليا حصلت هولندا على استقلالها وانطلقت فى تجارة التوابل مع الشرق الأقصى، وقد بدأت التجارة تتحول إلى هولندا بعد ما كانت فى لشبونة. حقيقة أن البرتغال كانت هى المكتشفة لطريق هذه التجارة ولكن موقعها الجغرافى لم يكن الموقع المثالى لتكون المحطة التجارية، ولهذا سرعان ما انتقلت هذه التجارة إلى المركز الأمثل لها فى هولندا حيث إنها تقع على نهر الراين الذى يخترق قلب أوربا، مما يسهل نقل هذه المتاجر لدول أوربا فى مختلف الأماكن وبطرق سهلة وغير مكلفة.

تكوين الإمبراطورية الهولندية:

بعد ما تحطمت قوة البرتغال على يد أسبانيا وبدأت هولندا فى الانقضاض على أملاك البرتغال فى آسيا فى الهند والهند الشرقية حتى تقلصت أملاك البرتغال وأقاموا مستعمرات ساحلية على ساحل غانة امتلكوا جزيرة موريشيوس Mauritius واستطاع الهولنديون من كشف ساحل شمال أستراليا حيث كشفوا تاسمانيا ونيوزيلاندا، هذا فيما يختص بأملاك هولندا فى الهند والهند الشرقية.

أما فيما يتعلق بالعالم الجديد فإن شركة الهند الغربية الهولندية عملت على زيادة مساحة الأراضى الهولندية فى أمريكا الجنوبية، فبعد أن أسس الهولنديون مستعمرة جيانا Guiana استولى الهولنديون على بائيا Baia وأولندا Olanda وريسيف Recife ونيوأمستردام Nieu Am e sterdam .

وهناك بعض الملاحظات على الاستعمار الهولندى ومنها:

أولا: فيما يتعلق ببداية حركة الاستعمار الهولندى فإن منشأ هذه الحركة هو تذمر التجار الهولنديين من احتكار تجارة البرتغاليين للتوابل، وبعد أن تأسست شركة الهند الشرقية سنة ١٦٠٢ والتى حصلت على امتياز احتكار التجارة وغزو الأراضى وعقد المعاهدات وبناء الحصون بدأت هذه الشركة فى دخول الهولنديين إلى أندونيسيا إلا أنهم لم ينجحوا فى ذلك إلا بعد ١٦١٩ وتثبتت أقدامهم فى ١٦٥٤ بعدما توالت المحطات التجارية البرتغالية فى السقوط وانتقلت تجارة الهند الشرقية تماما إلى هولندا.

ثانيا: كانت السياسة الاقتصادية الهولندية فى هذه المستعمرات هو تحقيق أكبر قدر من المنفعة الاقتصادية لهولندا، وعندما وضع مشروع لسيطرة هولندا السياسية على سيلان رد مجلس إدارة الشركة على هذا الاقتراح: «إن مثل هذا العمل قد يكون عمل ملك عظيم وطموح، ولكنه ليس عمل تجار لايبحثون عن الأرباح».

وبعد أن ازدادت خبرة الهولنديين الاستعمارية وجدوا أن سياسة الاستغلال الاقتصادى لأهالى المستعمرات أربح بالنسبة لهولندا من التجارة، حيث إنها تكف عنهم نفقة النقل، ومن هنا بدأت شركة الهند فى دفع أثمان المحاصيل الزراعية مقدما ولسنوات لضمان احتكارهم لها وبيعها بالثمن الذى يترائى لهم، هذا من جهة، ومن جهة أخرى يكون لهم الحق فى انتزاع ملكية الأراضى فى حالة عدم وفائهم بالعقد، وهذا ما تم فعلا فى جزر باندا Banda وملوكا Moluccas وأمبوينا Amboina .

ثالثا: فيما يتعلق بالإدارة السياسية للهولنديين فى المستعمرات الأندونيسية فقد كانت فى بداية حكمهم هو إدارة الحصون والمؤسسات التى تمكن هولندا من

السيطرة على البلاد، ولكن فى القرن الثامن عشر رأت الإدارة الخاصة بشركة الهند الشرقية أن السيطرة المباشرة على الأراضى فى المستعمرات عن طريق نقل الملكية إلى هولنديين هى أجدى من السيطرة العليا، ومن ثم بدأ الهولنديون فى نقل ملكية المناطق الحساسة إلى هولندا، ومن ذلك فقد تم نقل ملكية موانى أندونيسيا إلى هولندا؛ ومن خلال نشاط التجار الهولنديين فى سومطرة أصبح التجار الهولنديون هم محتكرو تجارة هذه الجزر.

رابعا: وفيما يختص بعلاقة المستعمرين الهولنديين بأهل البلاد المستعمرة فإنه مما سبق يمكننا أن نتخيل الصورة التى كانت عليها العلاقة بين الهولنديين والأندونيسيين، فبعدما ارتفعت الأسعار العالمية للبن حولت الكثير من الأراضى إلى ضياع لزراعة البن، وكان على الفلاحين الأندونيسيين أن يقدموا لشركة الهند الشرقية بمقابل زهيد جدا، وهذا يوضح مدى بشاعة السيطرة الهولندية؛ وكذلك فقد توسع الهولنديون فى إنشاء مزارع أخرى بدلا من الأرز مما أدى إلى وفاة الكثير.

وفى ذلك الوقت وفى غضون هذه الاضطهادات والاستغلال الأجنبى من قبل الهولنديين وجد الأندونيسيون أن السبيل للخلاص مما هم فيه من ظلم وجور هو الدخول فى الإسلام؛ وقد كان الإسلام منتشرا بالفعل فى مراكز التجارة الكبرى هذا لما يحتويه الإسلام من مبادئ تدعو إلى خير البشرية ولعدم أفضلية أحد من البشرعلى غيره؛ كما أنهم رأوا فى دخولهم الإسلام مقاومة سياسية للاستعمار الهولندى المسيحى، ومن ثم بدأت إمبراطورية هولندا فى أندونيسيا التقلص وغدت فى موقع البرتغال القديم التى سبقتها إلى هذه البلاد إلا أن موقف هولندا كان أسوأ من موقف البرتغال؛ ذلك أن هولندا دخلت فى مجال الصراع الفرنسى الإنجليزى من أجل رغبة كل منهما فى السيطرة على أماكن مجاورة

وهولندا تقع فى الوسط مابين فرنسا المتلاحمة الحدود معها وإنجلترا من الجهة المطلة على البحر، ومن ثم كان مصير الإمبراطورية الهولندية أسوأ من مصير إمبراطورية البرتغال.

الاستعمار الفرنسى:

بالرغم من أن فرنسا كانت قد حققت وحدتها مبكرا واستطاعت إقامة حكومة مركزية، وبالرغم من أنها كانت قوة عسكرية يحسب لها ألف حساب إلا أنها قد تأخرت فى مجال الاستعمار الخارجى، وربما يرجع ذلك إلى أن فرنسا كانت من ذلك النوع من الدول التى حاولت تدعيم مركزها وحكومتها عن طريق التوسع داخل نطاق القارة فكان ذلك سببا فى الحروب الإيطالية حيث إنها كانت تبغى السيطرة على شبه الجزيرة الإيطالية من أجل الزعامة السياسية فى القارة.

ومما لاشك فيه أن الحروب الإيطالية كان لها أكبر الأثر على فرنسا فيما يتعلق بالجانب الاقتصادى والعسكرى، وهذا ما أدى بفرنسا إلى تأخرها فى مجال التوسع الخارجى، ولهذا فإن فرنسا لم تدخل هذا المضمار إلا فى منتصف القرن السادس عشر حيث إن السياسة الفرنسية كانت تبغى الوصول إلى هدفين وهما وصول فرنسا إلى حدودها الطبيعية وبناء قوة بحرية كبيرة للتوسع خارج القارة الأوربية.

ومن أجل تحقيق هذه الغاية كان على فرنسا تكوين أسطول بحرى قوى لتخوض هذا المجال وسط مجموعة من الدول سبقتها إليه. وكان هذا الشيء لايتوفر لفرنسا، ذلك أنها كانت قد فقدت الكثير فى حروبها الداخلية فى القارة كما أنها كانت موزعة القوى بين بحرين تطل عليهما، فى نفس الوقت الذى كانت مضطرة فيه إلى مواجهة قوة الإمبراطورية الهولندية.

التوسع الفرنسى:

أ ـ العالم الجديد: استطاع الملاحون الفرنسيون فى النصف الثانى من القرن السادس عشر من الوصول إلى العالم الجديد، وقد اكتشف الملاح الفرنسى كارتييه مصب نهر سانت لورنس وتوسع الفرنسيون بعد ذلك حتى وصلوا إلى مونتريال وعبثا حاولوا التوسع فى كندا إلا أن محاولاتهم فشلت بسبب البرد القارس وعدائهم الشديد للهنود، إلا أنهم نجحوا فى ذلك بعد قرن وأقام دى شامبلان مستعمرة كيبيك الفرنسية فى كندا التى كانت المركز الذى استمد منه الفرنسيون العزم.

وفى عام ١٦٨٢ استطاع البحار الفرنسى لاسال من كشف نهر المسيسبى والذى بدأ الفرنسيون فى الانتشار من حوله مكونين إمبراطورية فرنسية فى القارة الجديدة واستطاعوا فى النهاية من إنشاء مستعمرة لوزيانا،ولكن الفرنسيين فقدوها بعد ذلك.

ب ـ التوسع الفرنسى فى العالم القديم: بعدما تداعت قوة الإمبراطوريات البرتغالية والأسبانية والهولندية فى جنوب شرق آسيا اتجهت فرنسا إلى الهند وأقامت مراكز تجارية على شاطئيها الشرقى والغربى واتخذت من هذه المراكز نقاطا لاندفاع الفرنسيين فى الداخل والتوغل فى الهند ومن هذه المراكز التجارية التى أقامها الفرنسيون على شواطئ الهند: كاريكال Karical يانون Yanon ماهى Mahe شاندرناجور Chander nagore بوند شيرى .

الاستعمار البريطانى:

بداية كان موقع الجزر البريطانية منفصلا عن القارة أمرا له أكبر الأثر فى قناعتها اقتصاديا دون التوسع، فقد استمرت فى بداية العصر الحديث تعتمد على تجارة الصرف،وبعد أن بدأت حركة الكشوف الجغرافية فى العصر الحديث لم

تدخل إنجلترا هذا المضمار إلا متأخرا فى القرن السابع عشر، وقبل ذلك كانت إنجلترا قد بدأت فى استغلال موقعها وبدأت فى اللجوء إلى القرصنة البحرية، وكانت تعترض السفن الأسبانية القادمة من العالم الجديد قاصدة أسبانيا محملة بالمعادن النفيسة، وهذا ما أدى إلى دخولها فى صراع مع أسبانيا وقصدت أسبانيا غزو بريطانيا بالأرمادا Armada سنة ١٥٨٨ وهذا مانتج عنه تحطيم الأسطول الأسبانى فى معركة ضد الإنجليز؛ وكان على بريطانيا أيضا مواجهة هولندا وفرنسا؛ وقد بدأت هاتان الدولتان فى الصراع من أجل السيطرة فتدهورت هولندا وبقى لإنجلترا مواجهة فرنسا وبدأت ممتلكات الدولتين تئول إلى إنجلترا.

تكوين المستعمرات الأمريكية:

تأسست فى إنجلترا سنة ١٦٠٦ شركتان ملاحيتان هما: شركة لندن London Company وشركة بليموت Plymouth Company وتم الاتفاق على أن تقوم الشركتان بالاستيلاء على الشاطئ الأمريكى وإنشاء مستعمرات إنجليزية به،وتم الاتفاق على أن تكون لشركة لندن الاستيلاء على الجزء الجنوبى من الساحل الشرقي وأن تكون لشركة بليموت الجزء الشمالى من الساحل.

أرسلت شركة لندن سنة ١٦٠٧ جماعة من المستوطنين وأقاموا مستعمرة جيمس تاون، وقد وصلت إلى الشاطئ فى ١٦٢٠ سفينة ماى فلاور Flower وعليها بعض من الرجال المتدينين من الإنجليز المضطهدين من أتباع كلفن، وأسسوا مستعمرة بليموث، واستطاع بلتيمور القائد الإنجليزى من تأسيس إقليم ميريلاند سنة ١٦٦٥، وأقام بعض كبار الملاك الإنجليز مستعمرة كارولينا، ولم يأت عام ١٦٦٥ حتى كان الإنجليز قد أقاموا سبعة مستعمرات هى: ماتشوستس، كانيكتيكوت ورود أيلندا، ومين، ونيوهامبشير، وميريلاند، وكارولينا.

على أن المستعمرين الهولنديين كانوا قد أنشأوا قلعة أمستردام فى قلب

المستعمرات الإنجليزية كما أن السويديون كانوا قد انتشروا حول حوض نهر دلوير، وهنا رأى الإنجليز ضرورة القضاء على هذه المستعمرات، ولهذا السبب أرسلت الحكومة الإنجليزية حملة سنة ١٦٦٤ للقضاء على نفوذ الهولنديين ونجحوا في ذلك، وفي سنة ١٦٨٢ شجع الملك الإنجليزي شارل الثاني قائده وليم بين على الانقضاض على مستعمرات السويد،وبالفعل تم الاستيلاء عليها وأسس الكويكرز عليها بنسلفانيا.

واستطاعت إنجلترا من تأسيس ثلاث عشرة مستعمرة على الشاطئ الشرقي لأمريكا الشمالية وهي: فرجينيا، نيوهامشير، مساتشوستس، ميرلند، رود أيلندا؛ كارولنيا الشمالية، كونيتكت، نيوجرسي، نيويورك، كاروليتا الجنوبية، دلوير، بنسلفانيا وجورجيا.

على أن هناك بعض الملاحظات على هذه المستعمرات الإنجليزية وهي:

أولا: لجأ المستعمرون الإنجليز إلى اضطهاد السكان الأصليين من الهنود الحمر وإبادة هؤلاء السكان،ونشبت الحرب بين المستعمرين والسكان الأصليين سنة ١٦٦٢ وانتهت بإبادة معظم هؤلاء السكان.

ثانيا: أخذ المستوطنون الإنجليز في استجلاب الرقيق لاستخدامهم في الزراعة والصناعة، وأصبحت ولايات الجنوب هي متصدرة هذه التجارة، وكان هذا هو السبب الذي اندلعت به الحرب الأهلية التي اجتاحت الدولة الأمريكية في بداية عهدها بالجمهورية (١٨٦١ ـ ١٨٦٥).

نتائج حركة الكشوف الجغرافية والاستعمارية:

أولا: النتائج الاقتصادية:

١ ـ **الثورة التجارية**: تتمثل هذه الثورة فى انتقال مركز التجارة فى أوربا من البحر المتوسط إلى المحيط الأطلسى لتدفق الذهب والفضة، وكانت أكبر دولتين مستفيدتين من هذا هما أسبانيا، والبرتغال التى تدفق عليها الذهب والفضة بكميات من ساحل غرب أفريقيا والأكثر منها أسبانيا حيث إنها كانت تمتلك مساحات واسعة فى أمريكا الشمالية والجنوبية (العالم الجديد)، وكانت هذه المستعمرات التي تملكها تفيض بمناجم الذهب والفضة (بيرو ـ المكسيك) حتى غدت السفن الأسبانية تحمل العدد الكبير من الفضة والذهب غير المصنع ثم تقوم بصهره فى سبائك وبيعه فى أسواق أوربا.

إلا أن أسبانيا لم تستطع أن تحكم قبضتها على المعادن النفيسة فى مستعمراتها فى العالم الجديد فدخلت فى هذا المجال هولندا، وإنجلترا، وفرنسا وكان لهم نصيب من المواد النفيسة وأدى زيادة هذه الكميات الكبيرة من المعادن النفيسة على توافر العملة بشكل كبير فى أوربا مما أدى إلى ازدياد الأسعار.

٢ ـ **استثمار رءوس الأموال**: بدأت تظهر فى هذه الفترة الرغبة فى امتلاك الدول التى لديها المواد الخام اللازمة لإدارة الصناعة فى الدول الأوربية ولاستثمار رءوس الأموال فيها،ومن هنا أصبحت المستعمرات كمصدر هام للمواد الخام وسوق لتصريف هذه المنتجات بعد ذلك أو لاستخدامها كمزارع كبيرة لمواد زراعية نقدية غالية الثمن مثلما فعلت هولندا مع أندونيسيا.

٣ ـ **إنشاء المؤسسات المالية**: نتيجة للنشاط التجارى والاقتصادى الأخذ فى التزايد عاما بعد عام لجأ بعض القادرين إلى إنشاء بورصات عالمية حيث تتركز فيها العمليات التجارية من بيع وشراء وتحديد الأسعار العالمية، وأدى هذا إلى

التركيز الشديد فى العمليات التجارية، ومن هذه البورصات بورصة ليون Lyon وبورصة أنفرس Anvers، وقد أصبح أصحاب هذه المؤسسات المالية الضخمة ذوى ثروات طائلة مما دعاهم إلى شراء ضياع بأكملها كالتى تشتريها الدول المستعمرة وكانوا يحصلون على تأييدهم من سياسة العصر كالإمبراطور شارل الخامس.

٤ ـ **تدهور البلاد العربية** : تأثر العرب تأثرا كبيرا بحركة انتقال التجارة من البحر المتوسط إلى المحيط الأطلسى؛ ذلك أن هذه التجارة كانت تدر عليهم دخولا عالية باعتبارهم وسطاء بين الصين والهند من جهة وأوربا من جهة أخرى، وكانت تمر هذه التجارة عبر الأراضى العربية وكان أهالى البلاد يجنون من ورائها منفعة كبيرة وكانت الحكومات القائمة على طرق النقل لهذه التجارة، مثل دولة المماليك تفرض الضرائب على هذه التجارة ذات العائد الهام الثابت لدولة،إلا أنه بعد اكتشاف طريق الأطلسى ورأس الرجاء الصالح فقدت البلاد العربية هذه الفائدة ثم إن الأسواق العربية أصابها الفقر. وقد حاولت دولة المماليك مع جمهورية البندقية ضرب هذا الطريق إلا أن المماليك هزموا خاصة فى معركة ديو ١٥٠٩ .

ثانيا ـ النتائج السياسية:

نتيجة للمكاسب المادية الكبيرة التي كانت تجنيها الدول من خلال الاستعمار واحتكار تجارة الشعوب المستعمرة بدأ التنافس بين الدول الأوربية، ولكن ليس فى القارة الأوربية وإنما فيما وراء البحار من أجل السيطرة ولاستثمار مواردها الاقتصادية سواء أكانت معادن نفيسة أو زراعية، أو أن تكون معبرا للتجارة إلى الغرب. ومن صور هذا التنافس تنافس أسبانيا والبرتغال،ثم تنافس هولندا وأسبانيا،ومن بعدهم فرنسا وهولندا من أجل السيطرة على اقتصاديات جنوب شرق آسيا.

ثالثا ـ النتائج الثقافية:

١ ـ تطور العلوم: كان لحركة الكشوف الجغرافية أثر كبير فى نمو وتطور بعض العلوم، فعلى سبيل المثال لا الحصر كانت قد تغيرت المبادئ الجغرافية القديمة تغيرا جذريا،فنجد أن هناك معلومات جديدة عن الأرض من حيث حجمها وشكلها والقارات الموجودة عليها وعدد المحيطات، وكذلك فقد حدثت تغيرات فى علم الفلك فقد ظهرت لعلماء الفلك نجوم جديدة لم يتوصلوا إليها إلا عن طريق الإبحار إلى الجنوب،وما كانوا ليصلوا إليها بمراصدهم فى القارة الأوربية.

وفى المجال التاريخى لم تعد المعلومات التاريخية مقصورة على القارات القديمة فقط (أسيا ـ أوربا ـ أفريقيا) بل شملت القارات الجديدة المكتشفة؛ وفى الزراعة كشفت محاصيل زراعية جديدة لم تكن أوربا تعلم عنها شيئا، ومن هذه المحاصيل البطاطس ـ التبغ ـ الكاكاو وغدت محاصيل أساسية لها بعد ذلك.

٢ ـ نشر المسيحية: من نتائج الكشوف الجغرافية أنها أدت إلى إدخال عدد كبير من سكان المستعمرات إلى المسيحية، وكان من دوافعهم إلى هذا الحقد والكره الشديد الذى يكنونه للمسلمين والإسلام، ومن ثم فقد كانت الحملات تخرج من أوربا ومعها مبشرون مسيحيون يعملون فى المستعمرات على إدخال أهلها إلى المسيحية، وقد نجحت هذه المحاولات بشكل جدى فى العالم الجديد الذى كان لايعرف شيئا عن الإسلام ولا المسيحية، أما المستعمرات فى جنوب شرق آسيا فإن هذه المحاولات التبشيرية لاقت مصاعب جمة؛ ذلك أن شعوب هذه البلاد كانت لها معتقداتها الدينية الخاصة التى لايريدون تغييرها هذا من جهة، ومن جهة أخرى فقد كان الإسلام أسبق إلى هذه البلاد من الأوربيين إذ دخل الدعاة إلى الإسلام منذ عصر صدر الإسلام فى العصور الوسطى، ولهذا فإن هذه المحاولات نجحت بالفعل ولكن فى العالم الجديد أكثر.

٣ ـ انتقال أهالى المستعمرات من العصر الوسيط إلى العصر الحديث: كان من الآثار التي تركتها حركة الاستعمار هى نقل أهالي البلاد المستعمرة من العصر الوسيط إلـى العصر الحديث، حـيث إنها وجدت نفـسها مضطرة إلـى ذلك حتى تستطيع أن تتمشى فى علاقتها الدبلوماسية مع الدولة المستعمرة لها.

٤ ـ تغير حياة أهالى المستعمرات: من الواضح أن الغـرض الأساسى من حركـة التوسع والاسـتعمـار الأولى هى التـجارة، ومن ثم فـقد نشـأت فى هذه المسـتعمرات طـبقة من التـجار يعملون فـى التجارة مع الدول الـمستعـمرة وفى خدمتها مما أدى إلى ازدياد ثرواتها، ثم إن هذه الطبقة تطلعت إلى النفوذ السياسى كما بـدأت تنمو فى إطار الانتـقال من نظامـها القبلى إلـى حياة المدن والـمراكز التجارية، كما بدأت فى الانتقال التدريجى من الداخل إلى الخارج حيث السواحل التى تعتبر مراكز تجارية كبيرة.

رابعا ـ النتائج الاجتماعية:

١ ـ التـفرقـة العنصـرية: أوجدت حـركة الاستـعمار الأولى نـظام التفـرقة العنصرية وسيادة الجنس الأبيض على غيره، وإن الأجناس الأخرى غير البيض فى خدمة أسيادهم البيض، وأباح لهؤلاء البيض تملك الأراضى والمصادر الاقتصادية مالم يكن يمتلكها البيض،وأباح لهم حرية استغلال الأوطان التى يستعمرونها كيفما شاءوا، وإنه لمن الأسـف أن يكون أحد أعلام الثورة الـفرنسية والتى سـاعد على تقدم العلم والقـانون فى هذه الفترة يكون قد نادى بذلك وهو «مـنتسيكو» والذى نادى بأحقية تسيد الأبيض على الأسود،وقال هذا فى كتابه «روح القوانين».

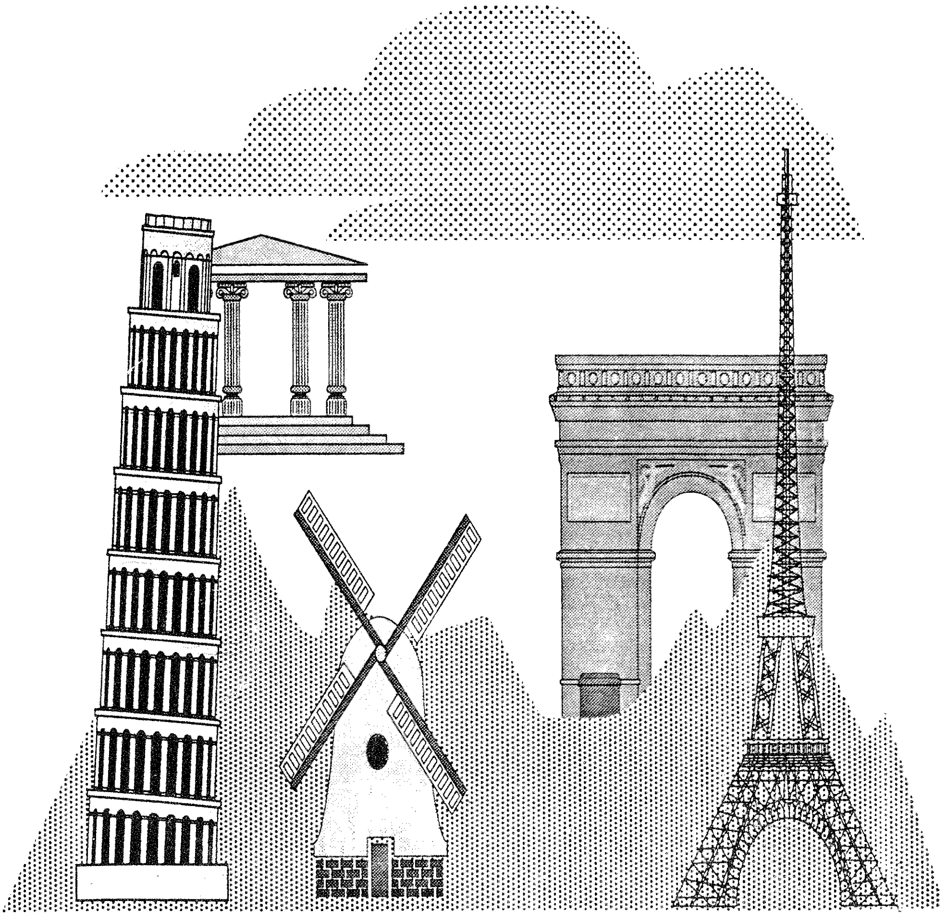
٢ ـ معاناة سكان المـستعمرات: قاسى سكان المستعـمرات كثيرا من جراء الاستعمار، وكان هذا يـختلف حسب الدولة المستعمرة والمـنطقة ونوع المعاناة، فإننا نـجد أن هولندا قد اضطـهدت المستـعمرين فى أندونيـسيا وفرضت عـليهم

محاصيل لايرغبونهـا؛ كما أن البرتغاليين كانوا يقومون باضطـهاد المسلمين الذين يقعون تحت أيديهم وعلى حدود مستعمراتهـم، وكانوا يبالغون فى نشر المسيحية لدرجة أنهـم كانوا يخيرون الـرجل بين الدخول فى المـسحية أو القـتل، أما فى العالم الجديد فإننا نجد أن المستعمـرين الأوربيين فى أمريكا الشمالية عملوا على اضطهاد وقتل الهنود السكان الأصليين حتى أنه لم يبق منهم حتى الآن سوى العدد القليل فى غرب الولايات المتحدة وكندا، أمـا فى أمريكا الجنوبية فإن الحال كان مختـلفا تماما؛ ذلـك أن السكان الأصليين كـانوا يندمجون مـع المستعـمرين فى حياتهم ويتعلمون لغتهم ويعملون فى خدمتهم ويعتنقون دينهم.

الفصل الرابع

الحروب الإيطالية

١٤٩٤ ـ ١٥٥٩



تطلعت الدولة الوطنية الحديثة ذات الحكومة المركزية، القوية، إلى استمرار تدعيم كيانها الاقتصادى والسياسى، فبحثت داخل قارتها عن دول ضعيفة لتحقق من خلالها ذلك الهدف، غير أن ذلك أدى إلى صراع صعب، وحروب استمرت مايزيد عن نصف قرن من الزمان، وهى تلك التى عرفت بالحروب الإيطالية، وقد أدى ما حدث فيها من تضارب بين السياسات والأهداف إلى تشكيل سياسة أوربية ذات ملامح واضحة فى النصف الأول من القرن السادس عشر.

لم تكن إيطاليا دولة موحدة، بل كانت مكونة من عدد من الجمهوريات والإمارات؛ مما أدى إلى تضارب مصالحها، وإلى صراعات منها الصراع بين الولايات البابوية والبندقية، وبين الولايات البابوية وفلورنسا، وصراعات شاركت فيها ميلان، وليس من الغريب إذن أن يكون لكل جمهورية ومدينة كبرى من هذه المدن الإيطالية جيش خاص بها ويعمل لحسابها، ومن ثم لم يكن هناك جيش موحد لإيطاليا، وإنما جيوش متقابلة، كما كانت إيطاليا مسرحا وهدفا للصراع الدائر على أرضها؛ بقدر أكبر مما كانت طرفا مشاركا فيه.

وكان الصراع منحصرا بين فرنسا وأسبانيا بصفة خاصة حول امتلاك شبه الجزيرة الإيطالية، وكان لهذا الصراع أهمية كبيرة فى هذه الفترة؛ ذلك أنه كان معنى امتلاك أو على الأقل سيطرة إحدى هاتين الدولتين على شبه الجزيرة كان أمرا له آثار اقتصادية وسياسية بعيدة المدى، ومنها أن هذه السيطرة ليست سيطرة على إيطاليا فقط ولكن تفوق سياسى لهذه الدولة المسيطرة، ولهذا فإن الدول الأوربية كانت تتابع هذا الصراع الدائر فى إيطاليا لا لشىء سوى الحفاظ على مصالحها داخل القارة وهو شىء هام بالنسبة لأية دولة؛ فإنجلترا ـ مثلا ـ كانت

تخشى على ثغر كاليه الوحيد الذى تحتـفظ به إنجلترا فى الأراضى الفرنسية حينما فكر هنرى ملكها فـى الدخول فى مضمار الصراع الدائر وكان يـهدف إلى تحقيق تفوق سياسى لإنجلترا.

والإمبراطور مكسمـليان كان يخشى من تفوق أية قوة فى الـمنطقة حيث إن أملاكه فى التيرول مـتاخمة للبندقية، والسويسريون وجـدوا فى هذه الحرب فرصة لتأجير أنفســهم كمرتزقة للعمل بجيوش الأطراف المتـنازعة، وانقسمت الدويلات على نفسـها، أما بقية الدول الأوربـية فقد تبنت مبـدأ توازن القوى "Balancr of Power".

أسباب الحروب الإيطالية:

شجعت حـالة إيطالية المتـردية الدول المجاورة الطـامعة فى تدعيم كـيانها السيـاسى فى الداخل علـى احتلالهـا، فبالرغـم من أن إيطاليا هـى مهد النهـضة الأوربية الحديثة إلا أنها كانت فى حالة شديدة من التفكك يضاف إلى ذلك أنه لم يكن لها جيش يدافع عن مصالحها، وكذلك فقد وجدت فرنسا فى سوابق تاريخها فرصة لتحقيق هدفها باحتلال إيطاليا.

كـانت هناك أسـبـاب أقوى وأدعى إلـى التوسـع الفـرنسى هنـاك وهو أن الإمبراطورية الرومانية المقدسة كانت فى حـالة متردية بسبب الصراع المستمر بين الإمبراطور والدويلات الإيطالية والدول الأوربيـة، فكانت الإمبراطورية مكونة من عدد من المقاطعات المختلفة.

أما فرنســا فإنها خرجت من حـرب المائة عام أقوى ماتكـون من أى عصر سبق؛ وذلك لأنها استطـاعت استثمار الانتصار الذى حققتـه فى حرب المائة عام، وذلك عن طريق اتحادها وقيام حكومة قوية بها. ولهذا فقد كانت فرنسا من أقوى الدول فى هذه الفترة التى يخشى منها ومن قوتهـا، وكذلك الحال بالنسبة لأسبانيا فإنها استطاعت طرد العرب من القارة الأوربيـة وأصبح لها جيش ذو قوة لايستهان بها، وكـانت لها حقوق فـى إيطاليا مثل فـرنسا إن لـم تكن أكـثر، ومن ذلك أن صقلية كانت تابعة لأرجونة الأسبانية فرغبت فى التوسع فى إيطاليا.

ولقد مرت الحروب الإيطالية بدورين؛ الأول مع بداية سنة ١٤٩٤ وفى هذا الدور حاولت فرنسا تحقيق إدعاءاتها فى نابولى وميلان ومن ثم فقد قام الملك شارل الثامن بهجومه على إيطاليا فى فبراير ١٤٩٥؛ مفتتحا الحروب الإيطالية.

أما الدور الثانى فقد انتهى سنة ١٥٥٩ بتوقيع صلح كاتوكمبرسيس، ولقد شهد هذا الدور صراع أكبر أسرتين فى ذلك الوقت وهما أسرة الهابسبرج النمساوية الأصل والتى أضحى ابنها شارل ملكا لأسبانيا وإمبراطورا للدولة الرومانية المقدسة وأسرة الفالوا الفرنسية؛ لقد شهد هذا الدور تطبيق مبدأ التوازن الدولى.

الدور الأول (١٤٩٤ ـ ١٥١٥):

تولى شارل الثامن ملك فرنسا العرش بعد وفاة لويس الحادى عشر وورث عنه جيشا قويا؛ ذلك أنه كان يدين بالطاعة والولاء التام للملك، كذلك فإنه تم تطوير سلاح المدفعية الفرنسية لدرجة مناسبة حتى أصبح الجيش الفرنسى من أقوى الجيوش الأوربية فى ذلك الوقت.

ولقد كان شارل الثامن طموحًا يبغى أن يخلد التاريخ اسمه بصفحات مشرقة حتى قيل إنه كان يريد أن يتشبه بالإسكندر الأكبر وأن يطرد الأتراك العثمانيين من القسطنطينية ويعيد أمجاد الحروب الصليبية فى الشرق؛ ولقد كان هدف شارل هذا هو أن ذلك الجيش يستطيع به أن يقوم بأعمال مدوية ترفع اسمه عاليا، ولقد كانت أضواء إيطاليا تتلاعب ببصر شارل هذا، فقد رأى القدر الكبير من النهضة بها فى نفس الوقت الذى كانت تتكاثر فيه ثرواتها نتيجة التجارة.

ولقد وجد شارل الثامن بعض الحقوق له فى التدخل فى إيطاليا من ذلك أنه أى شارل الثامن طالب بحقه فى الوراثة فى نابلى، كذلك فإن أسرة أورليان الفرنسية كان لها صلة مصاهرة مع أسرة أسفورزا الحاكمة فى ميلان. وفى الحقيقة فإن هذه الأسباب كانت مجرد ساتر دبلوماسى وعسكرى اتخذه شارل الثامن للتدخل فى إيطاليا.

سنحت الفرصة لشارل الثامن بعد أن كان قد أتم استعداداته الدولية لهذه الحرب، فقد عقد معاهدات مع إنجلترا والإمبراطورية الرومانية المقدسة فى مقابل بعض المنح المالية والإقليمية وحان الوقت لهذا التدخل حينما وقع الخلاف بين جان جلياز Jean Galeazzo الوارث والحاكم الشرعى لميلان ولودفيكوسفورزا Lu-dovico Sfoza المغامر العسكرى الذى رغب فى عرش ميلان، ولهذا فقد استنجد جليازوا بفرديناند الأول ملك نابولى بينما استنجد لودفيكوسفورزا بشارل الثامن ملك فرنسا.

رحب شارل الثامن بهذه الدعوة وعبر الألب فى سبتمبر ١٤٩٤ ونزل فى بيدمونت واجتاح الجيش الفرنسى فلورنسا وأنزل حاكمها عن عرشها، ووصل شارل الثامن إلى العاصمة روما فى ٣١ ديسمبر ١٤٩٤ قاصدا نابولى.

أدى هذا النصر السريع إلى إثارة مخاوف كل من يهمه الأمر فتكون حلف البندقية فى مارس ١٤٩٥ للحد من زحف شارل. وكان أعضاء هذا الحلف: الإمبراطور مكسيمليان الذى استاء من النصر السياسى والعسكرى الذى ظفرت به فرنسا وفرديناند الكاثوليكى صاحب الادعاء فى نابولى وأيضا البندقية والتى خافت على مصالحها التجارية، وميلان والتى ذاقت النيران الفرنسية والبابا إسكندر السادس والعضو الأخير كان صاحب فكرة الزحف الفرنسى لودفيكو سفورزا، والسبب فى هذا يرجع إلى وفاة منافسه فى الحكم فرغب فى أن يحكم باستقلالية تامة عن سيطرة فرنسا.

وصلت أنباء هذا الحلف إلى شارل الثامن وهو فى فورنوفو وهنا خاف شارل الثامن من أن يقطع عليه هذا الحلف خط الرجعة، ولذا قرر الانسحاب إلى فرنسا من جديد فخرج من نابولى فى ٢٠ مايو ١٤٩٥، وعند عودته عقد صلحا مع لودفيكو سفورزا وترك له بمقتضاه ميلان وكان هذا الانسحاب نصرا للتوازن الدولى.

توفى شارل الثامن الملك الفرنسى فى أبريل ١٤٩٨م دون أن يحقق

الأهداف التى كان يحلم بتحـقيقها وخلفه فى الحكم ابن عمـه لويس الثانى عشر والذى تشرب من سلفه السـياسة الفرنسية التوسعية من حـيث التوسع الفرنسى فى إيطاليا، ورأى أن أسرة سفورزا اغتصبت هذا العرش وأنه أحق به من هذه الأسرة.

وتماما مثـلما فعل شارل الثامن من قـبل سار لويس الثانى عشـر فى سبيل تمهيد الطـريق أمام احتلاله لميلان حيـث إنه ضم جمهورية البندقيـة إليه كما أنه تقرب من البابـا وعقد إتفاقا بين فرنـسا وكل من إنجلترا والإمبراطـورية الرومانية المقدسة حتى يكونا على الحياد من صراعه مع ميلان. عبر لويس الثانى عشر إلى إيطاليا فـى أغسطس ١٤٩٩ وتمكن من أسرة لـودفيكوسفورزا وأرسله إلـى فرنسا ودانت له إيطاليا الشمالية.

رغب لويس فى تحقيق حلم سلفـه فى الاستحواذ على نابولى، ولكن هذا لم يكن بالسهـولة التى كان قد استولى بهـا على ميلان فقد عقد اتـفاق ثنائى بين فرديناند الكاثوليكى ولويـس الثانى عشر بـمعرفة البـابا إسكندر عرف بمـعاهدة غرناطة Grenada سنة ١٥٠٠ وكـانت هذه المـعاهدة تنص عـلى إرساله حـملة عسكرية مناصفة إلى نابولى على أن يكون لـقب الدوق الكبير من نصيب فرديناند ولقب ملك نابولى من نصيب لويس الثانى عشر.

لم تستطع نابولى الصمود أمام الاتحـاد العسكرى وسقطت مناطق كثيرة،إلا أن تضارب المصالح لم يلبث أن دب بين المتحالفين فرديناند ولويس الثانى عشر، وهكذا أصبح هذا التحـالف أثرا بعد عين، وتتابعت الهزائم الـفرنسية وطردت من نابولى ولـم يلبث الفرنسيون أن اعترفوا بـسيادة الأسبان على نابولى ولـم يعد يملك الفرنسيون فى إيطاليا سوى ميلان.

وبالرغم من أن الفرنسـيين لم يبق لهم فى إيطاليا سـوى ميلان إلا أنهم لم يستطـيعوا أن يحافـظوا عليها بسـبب تغير الـموقف الدولى، إذ إن البـابا إسكندر السادس توفـى وخلفه على كرسـى البابوية بابا جـديد وكان طموحا. وهـو البابا يوليوس الـثانى الذى أراد استعـادة مجد البابـوية القديم، وهذا عن طريـق تشديد

قبضة البابويـة على الكنائس التابعة لها وزيادة رقعة الأراضى الـعائدة على البابوية بالنفع، ولـهذه الأسباب دخل هذا البـابا فى صراع مرير ضـد جمهورية البنـدقية والذى لم تجن إيطاليا من ورائها سوى الحروب المدمرة، ولقد كان البابا يوليوس الثانى يحقد على جمهورية البندقية من قبل أن يجلس على كرسى البابوية؛ وذلك لأن البندقية كانت جمهورية ذات نشاط تجارى وصناعى كبير وكانت تنافس مدينة جنوة والتى هى مسـقط رأس هذا البابا، وبعد أن اعتلى هذا البابـا كرسى البابوية ازداد هذا الشعور إزاء جمهورية البندقية حيث إن البندقية كانت تدير شئون كنيستها دون الرجوع إلى الكنيسة فى روما مما قـد يؤدى إلى استقلالها وهو أمر يتنافى مع أهداف يوليوس الثانى.

بدأ يوليوس الثانى العمل من أجل القضاء على جمهورية البندقية فى ديسمبر سنة ١٥٠٨ حينما دعى إلى عقد حلف ضد جمهورية البندقية، ووجد كل صاحب غرض فى هذا الـحلف فرصة مناسـبة لدخول إيطاليـا تحت ستار البـابوية، وكان أعضاء هذا الحلف لويس الثانى عشر ملـك فرنسا حيث إنه رأى أن حصول فرنسا على جمهورية البنـدقية شىء يعيد إليها كرامتها بعد أن فقدت كل مالها فى إيطاليا - باستثنـاء ميلان - والإمبراطور مكسـلميان الذى رأى أن البندقيـة قد أساءت إلى الإمبراطورية بامتلاكها بعض الولايات التـابعة للإمبراطورية، وفرديناند الكاثوليكى ملك أسبانيا الذى لم يرد أن تنفرد فرنسـا بأمر إيطاليا وحدها وأن يزيد من مساحة أملاكه فى إيطاليا بعد أن تم استيـلاؤه على نابولى. وبالرغم من أن فلورنسا ظلت على الحياد لفترة إلا أنها لم تلبث أن انضمت إلى الحلف؛ وذلك لأن أهلها كانوا يعمـلون فى ميدان التـجارة والمال والـقضاء على جـمهورية البـندقية يتـيح لهم التـخلص من منـافس قوى فـى هذا الميـدان، وعرف هذا الـحلف باسـم حلف كمبراى League of Combrai.

بدأت أول خطوة مـن خطوات هذا الحلـف من جانب لويـس الثانى عـشر ملك فرنسا؛ لأن فرنسا هى أكثر الدول الأعضـاء التى أهينت كرامتها فى إيطاليا، فقد أرسلت فـرنسا جيشها إلـى إيطاليا وتمكن هذا الجيـش سنة ١٥٠٩ من إيقاع

الهزيمة بالبنادقة فى أجنادلو وهنا حاولت البندقية عقد صلح ولكن الحلف رفض هذا العرض وكادت البندقية أن تنهار تحت ضربات فرنسا المتتالية ولكن الذى أنقذها هو عدول البابا يوليوس عن فكرة تحطيم جمهورية البندقية، وكان هذا القرار ناتجا عن تفكير طويل وعقل حكيم؛ ذلك أن البابا حصل على الممتلكات التي يبغى الحصول عليها من جمهورية البندقية، هذا من جهة ومن جهة أخرى رأى أن البندقية قوة يمكن الاستناد عليها فى مواجهة الإمبراطورية العثمانية الفتية، وثالثا وهو الأهم. أن جمهورية البندقية تحفظ إلى حد ما توازن القوى داخل إيطاليا حيث إنها تحد من سيطرة أسبانيا أو فرنسا على الدولة الإيطالية خاصة وأن أسبانيا تمتلك نابولى وفرنسا تمتلك ميلان.

ولهذا فقد تنكر البابا يوليوس الثانى للحلف وعقد صلحا ثنائيا بين البابوية وجمهورية البندقية فى أبريل ١٥١٠. أثار هذا التصرف غضب لويس الثانى عشر ملك فرنسا والإمبرطور مكسلميان وإستاءا من موقف البابا يوليوس وقررا أن الحرب ضد جمهورية البندقية لاتزال مستمرة قدما، ولكن البابا أجاب على هذا التصرف بأن أعلن الثورة ضد البرابرة وطردهم من إيطاليا، فما كان من لويس الثانى عشر إلا أن حاصر مقر البابا فى بولونا ومرة أخرى عاد يوليوس إلى استخدام الحيلة حيث إنه طلب من لويس أن يمنحه فرصة للصلح،ولكنه هرب وعادت الحرب بين لويس الثانى عشر والبابا يوليوس مايو ١٥١١، إلا أن البابا هرب إلى روما وتوقف الجيش الفرنسى عن مطاردته، وهنا ظن لويس الثانى عشر أنه انتصر فعقد مجمعًا دينيا من كرادلة فرنسا أقر فيه عزل يوليوس الثانى ولاح فى الأفق بداية انشقاق آخر عظيم.

إلا أن قرارات هذا المجمع كانت أضعف من أن تؤثر على البابا يوليوس الثانى، وربما رد هذا الضعف إلى أنه تم عقده من الكرادلة الفرنسيين فقط، فى الوقت الذى كانت تتنافس فيه فرنسا مع أسبانيا والإمبراطورية، ومن ثم دعا البابا يوليوس الثانى إلى تكوين الحلف المقدس The Holy League فى ٥ أكتوبر

١٥١١ وقد وجـدت هذه الدعوة هـوى كثيـرا من الدول وانضمـت إليه سويـسرا وإنجلترا وجمـهورية البندقية وانضم الإمـبراطور مكسمليان بعـد قليل وكان هدف هذا الحلف هو الحفاظ على سيادة الكنيسة وقوتها والقضاء على النزعة الانفصالية التى أوجدها مجلس الكرادلة وإعادة أملاك البابوية التى اغـتصبتها فرنسا ومساعدة أسبانيا على الوصول إلى حدودها الطبيعية، أخيرًا طرد الفرنسيين عن إيطاليا.

ولهذا فقد حوى قرار تكوين هذا الحلف على تنفيذ المقررات التالية:

أولا: أن يتكون للحلف جيش من ٣٦ ألف مقاتل.

ثانيا: أن تقدم أسبانيا اثنتا عشرة قطعـة حربية من أسطولها مقابل أربع عشرة سفينة من البندقية.

ثالثا: يقـدم البابا إلى دوج الـبندقيـة ألف قطعـة ذهبيـة كل شهريـن لدعم المجهود الحربى.

رابعا: أن يتولى القيادة العامة لجيش الحلف نائب ملك أسبانيا فى نابولى.

خامسا: أن يقوم جيش الحـلف بالهجوم على فرنسا من الـشمال والجنوب فى آن واحد حتى يتشتت جيش فرنسا.

ولقد نجح الحلف فى تحقيق أغراض البابـا إذ إن الفرنسيين قد انسحبوا من من شمال إيطاليا ونابولى وقفلوا راجعيـن إلى فرنسا، واستولى الأسبان على نافار ولكن إذا كان البابا نجح فى طرد الفرنسـيين من إيطاليا فقد تخلص من خطر، أما الآن فإن إيطاليا أصبحت مليئة بالجنود الأسبان والألمان والسويسريين، وكان عليه أن يواجه ثـلاثة أخطار بدلا من خطر واحـد وربما فكر البـابا يوليوس الثـانى فى إعادة الكرة بـتكوين أحلاف ضد كـل خطر على حدة، إلا أنه وافـته المنيـة قبل تحقيق هذا فى ٢١ فـبراير ١٥٢١ بعد أن أوقع إيطاليا فريسة سـهلة فى يد الألمان والأسبان التى كانت تسعى فيه أسبانـيا ولنفس السبب الذى كانت تسعى من أجله فرنسا وهو ضم شبه الجزيرة الإيطالية.

تولى البابا ليو العاشر كرسى البابوية فى ١٥١٣ ولكنه كان فى موقف حرج إذ كان عليه أن يحل القضية الإيطالية التى كانت نهبا لشتى أنواع الاحتلال،فقد استطاع الأسبان أن يقفوا على أراضى إيطاليا شماليها وجنوبيها بأقدام ثابتة فى الوقت الذى كانت تحاول فيه فرنسا استعادة ميلان فى إيطاليا؛ ولكن سرعان ماتطورت الأحداث إذ عقد الفرنسيون وجمهورية البندقية حلفا فى مارس ١٥١٣ يسمى حلف بلو League of Bloix وكان هذا التحالف تحالفا عسكريا تبغى فرنسا من ورائه استرداد إقليم لمبارديا والسيطرة على جمهورية البندقية.

رد البابا ليو العاشر على هذا الحلف بحلف مماثل،وقد انضم إلى هذا الحلف بطبيعة الحال فرديناند الكاثوليكى ملك أسبانيا؛ ومكسمليان إمبراطور الإمبراطورية الرومانية المقدسة وهنرى الثامن ملك إنجلترا وبالطبع الولايات البابوية وبدأت الحرب فى مايو ١٥١٣، حيث كانت القوات الفرنسية والبندقية فى طريقها إلى ميلان القوات الفرنسية اصطدمت مع الجنود السويسريين، لكن النصر حالف القوات السويسرية وتفككت فرق التحالف العسكرى ذلك أن الفرنسيين انسحبوا إلى فرنسا والبندقيون انسحبوا إلى بادوا.

استمرت قوات جمهورية البندقية تواجه قوات الإمبراطور مكسمليان لمدة سنة كاملة ولكن دون جدوى، أما فرنسا فإن ميدان القتال إنتقل إلى أراضيها فى نورماندى وأوقعت بها القوات الإنجليزية هزائم منكرة فما كان من فرنسا إلا أن حاولت حل هذه المسألة سلميا؛ وذلك عن طريق عقد الصلح مع الرأس المدبر لهذا الدمار أى البابا الجديد ثم مع أسبانيا والإمبراطور وهنرى ملك إنجلترا أغسطس ١٥١٤، وقد نص هذا الصلح على أن يتزوج لويس الثانى عشر ملك فرنسا من مارى شقيقة هنرى ملك إنجلترا.

توفى الملك لويس الثانى عشر بعد مضى شهور من هذا الصلح فى يناير ١٥١٥ وبهذا يكون الدور الأول من الحروب الإيطالية قد انتهى، ومن خلال سير المعارك نستطيع أن نجمل النتائج فى النقاط التالية:

أولا: فرنسا: فشلت فرنسا فى سياستها التـوسعية فى القارة، لقد كان فشلها هذا خطيرا إذ إن هذا الفشل لم يكن فشـلا فى التوسع إذ طردت بالكامل من شبه الجزيرة الإيطالية وتعرضت فرنسا نفسها للغزو.

ثانيا ـ أسبانيا: حققت أسبانيا فى الدور الأول القدر الأكبر من أهدافها؛ ذلك أنها امتلكت نابولى ونصف ميلان وهاجمت نافار الواقعة على حدودها الشمالية.

ثالثا ـ الولايـات البابوية: وكما كـان الحال بالنسـبة لأسبانيـا فإن الأهداف البابوية قد تحـققت، ذلك أن إقليم رومانا قد انضم إلى الولايات الـبابوية والأكثر من ذلك أن أسـرة ميدتشـى استولت عـلى حكم فلورنـسا، وبذلك نفـضت عن كاهلها تحالفها وولاءها لفرنسا.

الدور الثانى (١٥١٥ ـ ١٥٥٩):

نظرا لأن سـنوات الحرب فى هـذا الدور أضعـاف الدور الأول فإنه تقـسم لخمس مراحل حتى يسهل دراستها وتتبعها على نحو ميسر، وهذه المراحل هى:

المرحلة الأولى: من ١٥١٥ إلى ١٥١٩

المرحلة الثانية: من ١٥١٩ إلى ١٥٢٩

المرحلة الثالثة: من ١٥٢٩ إلى ١٥٤٧

المرحلة الرابعة: من ١٥٤٧ إلى ١٥٥٢

المرحلة الخامسة: من ١٥٥٢ إلى ١٥٥٩

المرحلة الأولى (١٥١٥ ـ ١٥١٩):

تبدأ هذه المرحلة بتولى فرانسوا الأول عـرش فرنسا وكان فرانسوا من الفرع الأصغر لأسرة الفالو الحاكمة. وبعد أن تولى العرش رأى أن فرنسا قد فقدت كل مالها من هيبة وكرامة فى حربها من أجل استرداد ميلان؛ ولهذا فقد بدأ فى العمل بأن عقد حـلفا مع كل من جمـهورية البندقيـة وشارل حاكم الأراضى المنخـفضة وهنرى ملك إنجلترا تمـهيدا لغزوه إيطاليا حتى لايتعرض ويـعرض بلاده للمهالك السابقة.

رأى البابا أن السبيل الوحيد لمواجهة هذا الحلف أن يكون الرد عليه بحلف مضاد،وقد قام بذلك فعلا إذ كون حلفا مضادا من الإمبراطور مكسمليان وفرديناند الكاثوليكى وفلورنسا والسويسريون ودوق ميلان.

بدأ فرانسوا الأول فى أول خطواته لتنفيذ هدفه حيث إنه ادعى وراثة عرش ميلان عن جدته كسبب دبلوماسى لما سوف يقوم به إذ إنه عبر وتقابل مع جيش من السويسريين المرتزقة فى موقعة مارينيانو Marignano انتصر فيها الجيش الفرنسى ثم تابع هذا الانتصار باستيلائه على ميلان وأسر دوق ميلان وأرسله إلى فرنسا وكان لهذا النصر نتائج هامة هى:

١ ـ نظرا لأن السويسريين كان عملهم هو الارتزاق من الحرب لذا فإنهم كانوا يقدرون المواهب القتالية وهذا مادفعهم إلى التخلى عن التحالف البابوى، إذ إنهم أعجبوا بشجاعة فرانسوا الأول، ومن ثم عقد معهم فرانسوا الأول معاهدتين فى ١٥١٥ ـ ١٥١٦ على التوالى تعهدت فيها القوات السويسرية بعدم الوقوف أمام فرنسا فى حرب مرة أخرى، وكانت المعاهدتان بمثابة ميثاق للصلح على مدى الثلاثة قرون التالية حتى الثورة الفرنسية.

٢ ـ اتفاق بولونيا Le Concordat de Bologne ، وقد كان هذا الاتفاق هو أهم ما قام به فرانسوا الأول وكان مع البابا ليو العاشر، إذ نص هذا الاتفاق على أن يقوم ملوك فرنسا بتعيين كبار رجال الدين مقابل أن تدفع فرنسا أموال الكنيسة التى قطعتها منذ قرن تقريبا،وفى هذا تدعيما للملكية الفرنسية.

٣ ـ حقق فرانسوا الأول السيطرة الفرنسية فى شمال إيطاليا، إذ عقد فى أغسطس ١٥١٦ معاهدة مع الإمبراطور مكسمليان وجمهورية البندقية كفلت له حق السيطرة السياسية على ميلان وجنوة، وهكذا فقد أصبح مسيطرا على إقليم لمبارديا فى شمال إيطاليا.

٤ ـ عقد فرانسوا الأول معاهدة نويون Noyon فى ١٣ أغسطس ١٥١٦ مع أرشى دوق النمسا ووارث عرش أسبانيا حيث تعهد فيه شارل أن يتزوج أميرة

فرنسية ويكـون صداق هذا الزواج الجزء الخاص بادعاء فرانـسوا الأول فى مملكة نابولى، وفى مـقابل ذلك اعتـرف شارل بملكيـة فرنسا علـى ميلان، وبهذا فـقد تقاسمت أسبانيا وفرنسا الغنائم الإيطاليـة فحصلت فرنسا على ميلان فى مقابل أن حصلت أسبانيا على نابولى.

المرحلة الثانية (١٥١٩ ـ ١٥٢٩):

تمثل هـذه المرحلة من الحـروب الإيطالية بداية الـصراع المرير بيـن أكبر أسرتين حاكمتيـن فى ذلك الوقت وهما أسرة الهابسبرج الألمانية والـفالو الفرنسية من أجل السـيطرة السياسـية على أوربا، وحدث أن توفـى الإمبراطور مكسـمليان وترك فراغا سياسيا كبيرًا فى القارة.

ونظرًا لأن حكم الإمبراطـورية لم يكن وراثيا من الناحية النـظرية فقد رشح فرانسوا الأول ملك فرنـسا نفسه وهنرى ملك إنجلترا وشارل ملـك أسبانيا، وأمام رغبة الشـعب الألمانى فى عدم تولى هـذا المركز أى أجنبى وخاصـة أن فرانسوا ملك فرنسا إذا تولـى هذا المنصب الإمبراطورى فإن هذا سوف يـقوى مركزه فى إيطـاليـا، وأن هنرى مـلك إنجـلتـرا لم يـكن بالـقدر الـذى يسـتطيـع به إدارة الإمبراطورية، فقد كان شارل الأول ملك أسبانيا فى نظرهم أنسب المرشحين لهذا المركز لأنه حفيـد الإمبراطور مكسمليان وهو أقوى شخـصية فى ذلك الوقت فى أوربا وسوف يحقق للشعب الألمانى الزعامة على أوربا.

ومن أجل ذلك فقد أقر مجلس الديت اختـيار شارل ملك أسبانيا إمبراطورا للإمبراطورية الرومـانية المقدسة (الإمبراطور شارل الـخامس أو شارل كنت) وقد كان هذا الاخـتيار قلبا لمـوازين القوى الأوربية حـيث إن شارل هذا جمع لنـفسه ملك أسبانيا والنمسا بالإضافة إلى ألمانيا وإقليم برجندى على الحدود الفرنسية.

ولذلك فقد فكر شارل الخامس فى ربط أملاكه على حساب فرنسا حيث إن الظروف الجغرافية تدعوه إلى ذلك، حيث إنـه في حالة إذا ما تفككت فرنسا فإنه يستطـيع ربط أسبانيـا من جهة والأراضى المنخـفضة وفرانش كـومتيه من نـاحية

أخرى، ولكن شارل اتبع السياسة الفرنسيـة السابقة وهى التمهيد الدولى حيث إنه عقـد اتفاقا مع الثـائر الفرنسى وقـائد عام جيـوش فرنسا «دوق دى بربـون» حتى يضمن مساعدته فى سبيل الحصول على دويفين Dauphine وبروفانس Provence وذلك حتى يضمن ربط ممتلكاته برجنديا وأسبانيا بإمارة تدين له بالولاء.

أما هنـرى الثامن ملك إنـجلترا فقـد كان مثـار الصراع بين كـل من شارل الخامس وفرانسوا الأول حـول الاستئثار به فقد حاول كل منهمـا ضمه إلى جانبه في وجه الآخر ولكن شارل الخامس وهو فى طريـقه إلى إكس لاشبل حتى يتسلم التاج الامبراطورى تـوقف فى ميناء دوفر الانجليزى وأجرى مـفاوضات مع الملك هنرى وتمكن من استمـالته للوقوف بجانبه في وجه فرانسـوا الأول مقابل إقليمى بيكارديا و نورماندى الـفرنسيين ووافق الملك هنرى على هذا الـعرض المغرى فى الوقت الذى حاول فـيه فرانسوا إجراء اتصـالات معه ولكنه فشـل فى ذلك وبهذا يحمى شارل الخامس حدود الأراضى المنخفضة من الخطر الفرنسى.

وعلى هذا فقد بدأت الحرب بين الإمبراطور شارل وفرانسوا الأول،وقد هزم فيها الجيش الفرنسى مما اضطره إلى إخلاء ميلان عدا قلعتها وهنا حاول شارل أن ينتهز الفـرصة فعقد حلفا دفاعـيا مع البابا أدريان السادس وإنجلتـرا وميلان جنوة وفلورنسا والبندقية، إذ رأى فرانسـوا الأول أن الحل الأمثل لهذه الأزمة هو العودة إلى ميلان وتثبيت أقدامه بها فاعد الـعدة للعودة إلى إيطاليا، ولكنه اصطدم بجيش الحلف المعادى فى بافيا فى ٢٤ فبراير ١٥٢٥، وكانت هذه المعركة ضربة قاصمة وجهت إلى دولة فرنسـا فى مقتل ذلك أن فرانسوا الأول ملك فـرنسا والذى يمثل كرامة شـعبه وقع فى الأسـر وأرسل إلى أسبانيـا، وهناك وقع رغم أنفه مـعاهدة مدريد ١٤ يناير ١٥٢٦ وقد احتوت هذه المعاهدة على خمسين مادة إلا أننا سوف نذكر أهم هذه المواد وهى:

أولا: أن يتنازل فرانسوا الأول عن دوقية برجنديـا (فرانش كومتيه وبرجنديا) شرق فرنسا.

ثانيا: أن يتنازل فرانسوا الأول عن إدعاءاته فى ميلان وجنوة ونابولى وفلندرا وأرتوا.

ثالثا: يتعهد فرانسوا الأول بعدم مساعدة نافار.

رابعا: يرد فرانسوا الأول الأراضى التى صادرها من الكونستابل دوق بوربون.

خامسا: يقدم فرانسوا الأول ولديه رهينة فى أسبانيا لضمان تنفيذ شروط المعاهدة.

سادسا: أن يتعهد فرانسوا الأول فى حالة عدم تنفيذ شروط المعاهدة بتسليم نفسه للإمبراطورية لإعادته للأسرة مرة أخرى.

سابعا: يتزوج فرانسوا الأول من اليانور شقيقة شارل الخامس.

ثامنا: يتم تنفيذ شروط المعاهدة خلال ستة أسابيع من توقيعه.

وبهذا الانتصار اختل التوازن الدولى الأوربى فى ذلك الوقت؛ ولهذا فقد تكون حلف كونياك League of Cokgnac بسبب خوف البابا كلمنت السابع من استيلاء شارل الخامس على إيطاليا والرغبة فى إعادة التوازن الدولى وانضم إلى هذا الحلف فرانسوا الأول ودوق سفورزا والبندقية وإنجلترا وفلورنسا، وكان الغرض الظاهرى لهذا الحلف هو إعادة الولايات البابوية لما كانت عليه.

وهنا واجه الإمبراطور شارل الخامس موقفا حرجا حيث إنه واجه تمرد الجيش بسبب تأخر مرتباته ووجود الأتراك على أبواب المجر وفى حالة انتصارهم سوف يملكون المجر كاملة ويبدأون فى تهديد النمسا ذاتها، كانت البندقية تفضل الانضمام للإمبراطورية العثمانية على أن تكون تابعة للإمبراطورية الرومانية المقدسة، والأكثر من هذا وذاك أن الإيطاليين قد ثاروا ضده ولكن الحظ الطيب

حالف شارل الخامس مرة أخرى وذلك لاختلاف الهدف بالنسبة للحلفاء، فقد كان فرانسوا يبغى التخلص من شروط مدريد وتحقيق أهدافه السابقة.

هاجمت قوات الإمبراطور قلعة ميلان إلا أنه لم يستطع الصمود أمام هذه الجيوش واستسلمت وزحفت بعد ذلك إلى روما، وهنا أعمل الجنود السلب والنهب فيها فى مايو ١٥٢٧، وتداعت الحضارة الثقافية أمام جيوش الإمبراطور العسكرية وحاصر البابا فى قلعته فى الوقت الذى استرد فيه فرانسوا إقليم لمبارديا واتجه لنجدة البابا من حصار قوات شارل إلا أنه صدم إذ وجد أن البابا قد عقد الصلح مع شارل، ومثلما حدث من قبل بين البابا يوليوس الثانى والملك لويس الثانى عشر ملك فرنسا استمر فرانسوا فى الزحف إلى نابولى إلا أنه هزم فى لاندريانو Landriane ،واضطر فرانسوا الأول إلى عقد الصلح فى كمبراى فى٣ أغسطس ١٥٢٩، وقد أطلق على هذه المعاهد سلم السيدات حيث كانت تمثل الجانب الفرنسى الملكة لويز Louise والدة الملك فرانسوا الأول، وعلى الجانب الآخر كانت مارجريت حاكمة الأراضى المنخفضة وعمة الإمبراطور شارل الخامس وأهم ماجاء فى هذا الصلح:

أولا: يتنازل فرانسوا الأول عن ادعاءاته فى فلندرا وارتوا.

ثانيا: يتزوج الملك فرانسوا الأول من ليونور شقيقة الإمبراطور.

ثالثا: يتنازل الامبراطور شارل الخامس عن برجنديا وتعاد إلى فرنسا.

رابعا: إطلاق سراح أبناء فرانسوا الأول فى أسبانيا مقابل مليون قطعة ذهبية.

ويعتبر هذا الصلح انتصارا آخر للإمبراطور شارل الخامس، حيث إنه حقق أهدافه الاستعمارية فى إيطاليا وثبت أقدامه فى غرب الراين وجنوب الألب،إلا أنه وجد أن أعباء الإمبراطورية قد أرهقته فتخفف بأن ولى ابنه فيليب على الممتلكات الأسبانية فى العالم الجديد.

المرحلة الثالثة (١٥٢٩ ـ ١٥٤٧):

بدأ الإمبراطور شارل الخامس منذ عام ١٥٢٩ فى النظر إلى المصلحة العامة للإمبراطورية، فوجد أن إمبراطوريته على حالة يرثى لها فقد كانت ألمانيا تئن بالمشاكل الناجمة عن حركة الإصلاح الدينى اللوثرى، كذلك فقد ازدادت قوة العثمانيين لدرجة أثارت مخاوف الإمبراطور بشدة وذلك فى البحر المتوسط، أما فى داخل القارة، فقد كان توسع العثمانيين فى حوض نهر الطونة يسير سريعا وهذا النهر يخترق أملاك الإمبراطورية، لهذا فقد تحولت سياسته من البحث عن الزعامة السياسية فى أوربا والمنافسة مع فرانسوا الأول إلى البحث عن المصلحة العامة للإمبراطورية.

أما فرانسوا الأول فانه لم يتنازل عن طموحه فى إيطاليا؛ ولهذا فقد عمد إلى التعاون مع أعداء الإمبراطور، حيث تقرب إلى اللوثريين فى ألمانيا وتحالف مع العثمانيين، فقد كانت قوة يحسب لها ألف حساب فى ذلك الوقت، وبدأت الحرب فى هذا الدور فى نوفمبر ١٥٣٥ بسبب وفاة فرنسيسكو سفورزا دوق ميلان فرغب كل من شارل الخامس وفرانسوا الأول فى ضمها إلى حوزته ونشبت الحرب بينهما ولكنها لم تكن مؤثرة فعقد صلح نيس Nice يونيو ١٥٣٩ وتقرر أن تستمر هذه المعاهدة لمدة عشر سنوات إلا أنها لم تستمر إلا لمدة أربع سنوات.

تجدد الصراع مرة أخرى بين الطرفين بسبب تعيين الإمبراطور شارل الخامس ابنه فيليب سنة ١٥٤٢ على دوقية ميلان خلافا لصلح نيس، وهنا تجددت الحروب مرة أخرى وكادت فرنسا أن تصاب فى عقر دارها فى هذه المرحلة؛ وذلك لأن الإمبراطور شارل الخامس زحف على الأراضى الفرنسية قاصدا باريس، ولكن الذى أنقذ باريس من الهلاك وفرنسا من العار هو توجس الإمبراطور شارل من حليفه الإنجليزى، ومن ثم قرر عقد الصلح مع فرنسا وأطلق على هذا الصلح صلح كرسبى Crcspe سبتمبر ١٥٤٤ وأهم بنود هذا الصلح:

أولا: يتنازل الإمبراطور شارل عن ادعاءاته في برجنديا.

ثانيا: تتنازل فرنسا عن بيدمنت وسافوى.

ثالثا: عقد زواج سياسي بأن يتزوج الدوق أورليان ابن فرانسوا الأول من ابنة الإمبراطور شارل الخامس وصداق هذا الزواج أن يقدم الطرف الأول الأراضي المنخفضة ويقدم الطرف الثاني ميلان.

وبهذا الحل الدبلوماسي تكون فرنسا قد حققت أهدافها السياسية في شمال شرق إيطاليا ولكن لم يكتب النجاح لهذا المشروع، إذ توفي الدوق أورليان في مارس ١٥٤٥ وبعد عامين توفي فرانسوا الأول وخلفه والده في مارس ١٥٤٧ وتولى العرش هنرى الثاني.

المرحلة الرابعة (١٥٤٧ ـ ١٥٥٢):

واستؤنفت الحرب في هذه المرحلة لأسباب دينية؛ وقد كانت الظروف تدفع الملك هنرى الثاني ملك فرنسا لاعلان الحرب على الإمبراطورية إذ كان الملك خاضعا لأسرة جيزو الفرنسية تلك الأسرة التي تنتسب إلى بيت أنجو Anjou صاحب الأملاك الواسعة في إيطاليا وكانت هذه الأسرة (جيزو) تبغى إعادة أمجادها في إيطاليا ومهدت الطريق لذلك أمام الملك هنرى الثاني وذلك بتأييد أسكتلندا له حيث إن مارى لويز شقيقة جيزو كانت الوصية على حكم أسكتلندا.

ومن جانب آخر فإن البابا بول الثالث كان على خلاف مع الإمبراطور شارل الخامس حيث أساء ـ في نظره ـ إلى الكنيسة فقد حاول الإمبراطور وضع حل للأزمة الدينية في ألمانيا فعرض من جانبه نظاما ينطوى على الاحتفاظ بجوهر العقيدة الكاثوليكية مع إرضاء البروتستانت في بعض جوانب عقيدتهم وعرف هذا النظام بالنظام المؤقت Interim وكان هذا في مجلس الديت ١٥٤٨، ولهذا فقد غضب البابا بول الثالث على الامبراطور؛ كما أنه تخوف من تحركات الأسبان في شبه الجزيرة الايطالية حيث إن الإمبراطور ضم بارما وغيرها إلى دوقية ميلان بعد وفاة حاكمها، وكان حاكمها الابن غير الشرعي للبابا بول الثالث نفسه، وهنا صمم البابا هنرى الثاني ملك فرنسا على مواجهة شارل الخامس.

فى تلك الآونة كان هنرى مشغولا بالنزاع مع الإنجليز، حيث إن مارى لويز وصية عرش أسكتلندا رفضت إتمام خطوبة ابنتها مارى ستيواريت على إدوارد السادس ملك إنجلترا، حيث إن مارى لوريز كانت كاثوليكية فى حين كان الملك إدوارد بروتستانتيا، ومن ثم فإن إدوارد أرسل جيشا إلى أسكتلندا وهزم الجيش الأسكتلندى فى بينكى Piankie، ولهذا فقد لجأت أسكتلندا إلى الاحتماء بفرنسا وتمت خطبة مارى ستيوارت على دوفان ابن الملك الفرنسى الراحل فرانسوا الأول فبدا فى الأفق انضمام أسكتلندا إلى فرنسا واشتعلت الحرب بين فرنسا وإنجلترا وانتهت فى مارس ١٥٥٠ وضاع ثغر بولونى من الإنجليز مقابل مبلغ من المال تدفعه فرنسا ولهذا فقد تشجع هنرى الثانى على مواصلة هذه الانتصارات ولكن ضد شارل الخامس الإمبراطور ويكون الهدف من الانتصار هو إيطاليا.

كان هنرى الثانى ملك فرنسا ملكا صاحب خبرة عسكرية كبيرة وبالأوقات والمواقع المناسبة للانتصار على العدو وكان هذا سببا فى نجاحه فى هذه المرحلة، حيث إنه قرر أن يكون ميدان الصراع شد شارل على نهر الراين حيث إنه كان يريد الاستفادة من طرفى ألمانيا الأقوياء فى ذلك الوقت وهما اللوثريين الذين كانوا فى نضال مستمر ضد الإمبراطور شارل، وخاصة بعد أن أوقع بهم الهزيمة سنة ١٥٤٧ فى Muhlberg ،والطرف الآخر الأمراء الألمان الذين كانوا يخشون من سطوة الهابسبرج، ولهذا فقد عقد هنرى حلف سامبورد Chamord فى يناير ١٥٥٢ ووقع نائب سكسونيا على هذه المعاهدة فى فبراير ١٥٥٢، ولقد نص الحلف على أن تستولى فرنسا على تول، ومتز وفردان.

ولقد كان لهذه المعاهدة أهمية خاصة فى تاريخ السياسة الأوربية فى بداية العصور الحديثة، حيث إنها كانت الاختيار الحقيقى لسياسة توازن القوى الدولى، وكذلك فإنها أنقذت فرنسا من الهابسبرج.

بدأت الحرب فى فبراير ١٥٥٢ واستطاع الفرنسيون الاستيلاء على تول ومتز وفردان استولى نائب سكسونيا على أوجزبرج، وأصبح الإمبراطور طريد هذا الدوق، ومن ثم فقد لجأ الإمبراطور إلى التمهيد لأن يتولى أخوه فرديناند المركز الإمبراطورى حيث منحه لقب ملك الرومان King of The Romans، وقد استطاع

فرديناند من عقد الصلح بين الامبراطور والأمراء الألمان فيما عرف بصلح بساو Passau وعقد محالفة مع الملك الإنجليزى إدوارد حتى يقوى مركزه أمام فرنسا.

المرحلة الخامسة (١٥٥٢ ـ ١٥٥٩):

بعد أن تم عقد صلح بساو بين الإمبراطور شارل والأمراء الألمان كانت الحرب قد انتهت بالنسبة لهم إلا أن الملك هنرى ملك فرنسا لم يتنازل عن تحقيق أطماعه الفرنسية فى إيطاليا، ولهذا فقد عزم على مواصلة الحرب ضد الإمبراطور، وكانت الحرب فى هذا الوقت فى صالح الفرنسيين، لهذا طلب عقد صلح مع الفرنسيين وسمى هذا الصلح بصلح فوسيل Vaucelles فى فبراير ١٥٥٦ وكانت هذه الهدنة تقضى بالاعتراف بملكية متز وغيرها للفرنسيين وأن تكون نافذة المفعول لمدة خمس سنوات؛ وبعد هذه الهدنة نزل شارل عن عرش الإمبراطورية لأخيه وعن أسبانيا لابنه فيليب وعاد إلى أسبانيا.

لكن هذه الهدنة لم تكن طويلة الأجل فلم تستمر إلا لعدة شهور وذلك لتولى كرسى البابوية البابا بول الرابع الذى عرف بكرهه للأسبان فأراد طردهم من إيطاليا وإخراجهم من نابولى، ولهذا فقد تحالف مع الملك هنرى الثانى الذى كان يسعى إلى حصول على نابلى لأحد أبنائه فما كان من فيليب ملك أسبانيا إلا أن أمر نائبه فى نابولى بالهجوم على الأملاك البابوية ولكن فيليب بصفته حامى الكاثوليكية لم يرد القضاء علي البابا نظرا لصفته كزعيم الكنيسة الكاثوليكية. وعندما قويت قبضة الأسبان على البابا؛ اضطر لعقد صلح مع حاكم ميلان، وفى هذه الأثناء وصلت الجيوش الفرنسية وقامت بغزو نابولى وانسحب حاكم نابولى إلى الجنوب.

حاول فيليب الثانى استمالة إنجلترا بجانبه فى الصراع الدائر ضد فرنسا فقام بزيارة لمارى تيودور Mary Tudor ملكة إنجلترا هو وزوجته وأعلنت إنجلترا الحرب ضد فرنسا وتم حصار القوات الفرنسية فى مدينة سان كانتان San Quentin وبعد أن اشتدت قبضة الأسبان عليهم أرسلت فرنسا جيشا لنجدتهم إلا أنها منيت بهزيمة ساحقة فى ١٠ أغسطس ١٥٥٧.

تعرض الملك فيلـيب إلى ظروف حرجة وضعته فى موقف لايـحسد عليه، إذ إن الجيش الإنــجليزى رغب فى العودة إلــى إنجلترا وثار الجنود الألــمان ضده لتأخر أجورهم فما كان من فيليب إلا أن أمر بتسريح هذا الجيش فى الوقت الذى استطاع فيــه الفرنسيون جمع شــتاتهم وكونوا جيــشا قويا وحاصروا ثغركــالية آخر الأراضى الإنجليزية داخل القــارة وداخل فرنسا حتى وقعت فى أيديهم بــعد ثمانية أيام من الحصار.

ولكن الفرنسيين اصطدموا بجيش فلمنكى وبالأسطول الإنجليزى الذى عرف بقوته وهزموا فى جرافلين Gravelines فى يوليو ١٥٥٨ وبدأت بعــد هذه الهزيمة عقد ترتيبات الصلح الذى أنهى الحرب.

صلح كاتو كمبرليسيس Cateau - Cambersis ٢/ ٣ أبريل ١٥٥٩:

بعد أن منى الجيش الفرنسى بالهزيــمة فى جرافلين تقرر إنهاء هذه الحروب التي استنفدت قوى الدول المتصارعة وأهم ماجاء فى بنود معاهدة كاتو كمبرسيس مايلى:

أولا: فيما يتعلق بالحدود الشمالية الشرقية لفرنسا : حصلت فرنسا على هام Ham لوكاتليه La Catelet وتيرونان Terounanne وسان كـانتان San Quentin وأمام هــذا تنازلت فــرنســا عن بوفيــن وبويون إلى أســقف ليــيح، وتنــازلت عن مارينبرج Marienburg وتيونفيل Thionville ودامفبلير Damvillers ومونتوميدى Montmedy.

ثانيا: فيما يتعلق بإيــطاليا والحدود الجنوبية الشرقية لفرنــسا وافق الفرنسيون على إخلاء مونتفرات Monferrat كورسيكا، سافوى وغيرها.

ثالثا : فيما يتعلق بالحدود الشرقية لفرنسا: ظلت لفرنسا أسقفيات تول ومتز وفردان فلم يطالب بها الإمبراطور.

رابعا: تزوج فيــليب الثانى مــن ابنة هنرى الثــانى ملك فرنــسا،وتزوج دوق سافوى من مرجريت شقيقة هنرى وتم عقدا القران فى ١٠ يوليو ١٥٥٩.

لقد كان صلح كاتوكمبرسيس أساس العلاقات الدولية بين الدول الأوربية على مدى المائة سنة التالية؛ والواقع أنه لاتوجد تسوية أوربية حققت ماحققته التسوية التى أنهت الحروب الإيطالية (كاتو كمبرسيس) حيث إنها أنهت المنافسة بين أكبر أسرتين متصارعتين فى أوربا فى ذلك الوقت الفالو والهابسبرج، كما أنها أعطت أسبانيا مساحات شاسعة لم تكن تتوقعها عند دخولها مضمار الصراع، كما أن هذا الصلح أنهى صراعا أوربيا شاركت فيه أقطاب أوربا القوية فى ذلك الوقت.

إلا أن هذا الصلح كان فى نظر الفرنسيين المعاصرين له كارثة دولية فرنسية، وربما أرجعوا ذلك إلى ضعف الملك الفرنسى هنرى الثانى فى ذلك الوقت،بالرغم من أن الانتصارات كانت بفضل مواهبه الحربية، ونستطيع أن نفهم ذلك من خلال هذه الملاحظات التى أخذت على صلح كاتوكمبرسيس وهى:

أولا: اعترفت المعاهدة ضمنيا بالسيطرة الأسبانية على إيطاليا وتأييد نظام شارل الخامس فى إيطاليا، حيث إن أسبانيا احتفظت بميلان ونابولى، وبهذا وقفت حائلا دون تحقيق الوحدة الإيطالية طيلة ثلاثة قرون وفقدت فرنسا وجودها فى إيطاليا.

ثانيا : تنازل فرنسا عن سافوى كان خطرا على فرنسا إذ إنها حائل ضد المطامع الفرنسية فى إيطاليا وبالفعل استفاد حكام سافوى من ذلك فى دعم مصالح أسرة سافوى.

ثالثا: عادت الأراضى المنخفضة الهولندية إلى حدودها القديمة وسيطرت أسبانيا على معظم إيطاليا.

ومن خلال ذلك اعتقد البعض أن معاهدة كاتو كمبرسيس نصر لأسبانيا ولكننا إذا تمعنا هذه المعاهدة نجد أن هذه المعاهدة كانت السبب فى متاعب كثيرة لأسبانيا خلال القرنين التاليين؛ وذلك لعدة أسباب أهمها:

أولا: كانت فرنسا قد حصلت على ثفركالية واحتفظت بتول ومتز وفردان

مما أتاح لها أن تفكر فى توجيه ضربات قـوية إلى أسبانيا فى الأراضى المنخفضة فى الوقت الذى تراه مناسبا.

ثانيا: يرى المؤرخون أن المعاهدة بعد أن أعطت أسبانيا النفوذ فى الأراضى المنخـفضة قـد أضرت بها؛ ذلـك أن أسبانيـا عملت بعـد ذلك على الاحتـفاظ بممتلكاتها فى هذه الأراضى وهذا كان سبـبا فى إنهاك قوى أسبانيا وأدى هذا إلى ضياع نفوذها ليس فقط فى الأراضى المنخفـضة ولكن أيضا فى البحر المتوسط، كذلك عقب هزيمة الأرمادا سنة ١٥٨٨.

ثالثا: بعد أن أمنت فـرنسا حدودها الشـمالية الشرقـية إلى حد كبيـر عملت على الوصول إلى حدودها الطبيعية، وهذا مـاحاول تنفيذه ملوك فرنسا العظام فى المرحلة التالية مما كان من شأنه تهديد أسبانيا ذاتها.

وفى الحقيقة إن لصلح كاتو كمبرسـيس أهمية على السياسة الدولية الأوربية حيـث إنه قسم الـقرن السادس عـشر إلى نـصفيـن ساد فى أولهـما الصـراع بين الهابسبرج والفالو من أجل الزعامة السـياسية فى القارة، وبالرغم من هذا فإن هذه المعاهدة لم تنه العداء بين الأسرتين إلى أن تـوفيت ابنة هنرى الثامن ملك إنجلترا وعاد العداء مرة أخرى، وفى النصف الثانى من القرن السادس عشر والقرن السابع عشـر ساد الصراع ولكـن بعد أن اتخذت صـفة حروب ديـنية لخدمـة الأغراض السياسية وكان هذا خلال حرب الثلاثين عاما.

أهمية الحروب الإيطالية:

ظهر فى الحروب الإيطـالية المبدأ السياسى الذى ظل مـحور الصراع الدائر فى أوربا بعد ذلك وهو مبدأ التوازن الدولى The Balamce of Power ومعنى ذلك أنه إذا بلغت دولة ما قدرا كـبيرا من القوة السياسية بحيث إنـها تصبح خطرا على الدول الأخرى المجاورة وجب تكوين حلف سياسى عسكري للحد من نفوذ هذه الدولة.

فى هذه الحرب تـأججت المنافسة المـريرة بين أسرتى الفالـو والبربون فى

فرنسا وأسرة الهابسبرج ذلك التنافس الذى استمر لمدة قرنين من الزمان وكان له أثره على السياسة الدولية.

وكذلك فإن هذه الحروب شغلت حكام أوربا الكاثوليك عن مواجهة حركة الإصلاح الدينى مما مهد وساعد بطريق غير مباشر لإنجاح أهداف الإصلاح الدينى والسير فى طريقها،ولم يتنبه حكام أوربا إلى ذلك الخطر إلا بعد أن كانت أسس العقيدة البروتستنتية قد انتشرت فى كل من أوربا الشمالية وألمانيا وإنجلترا.

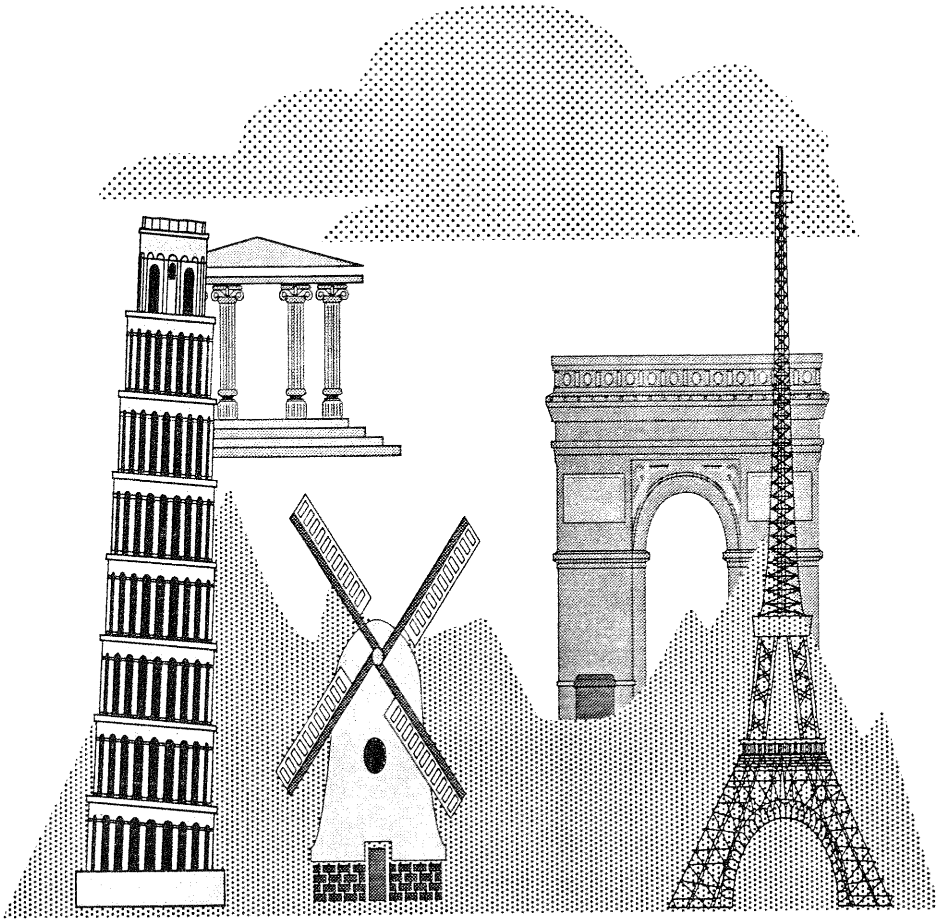
وأخيرا، فقد سبق وأن أشرنا إلى أن النهضة الفرنسية بعد أن قام شارل الثامن بنهب إيطاليا فقد أعجب شارل والملوك الفرنسيون بعد ذلك بهذه النهضة ورغبوا فى نقلها إلى فرنسا، وهذه هى الحسنة التى جنتها فرنسا من الحروب الإيطالية إذ بدأت فرنسا طريقها فى النهضة الحديثة.

وأخيرا، نذكر عن الحروب الايطالية أنها لم تكن مجرد معارك عسكرية بين معسكرين ولكن سعيا وتحركا دبلوماسيا بين المعسكرين، ومن ذلك ظهور مبدأ توازن القوى ومحاولة كل طرف تكوين حلف سياسى عسكرى للوقوف به فى وجه العدو الآخر، وقد تثبت هذا المبدأ الدولى أحيانا باستخدام زواج المصالح أسلوبا فى الصلح والتقريب بين الدول المتصارعة.

الفصل
الخامس

الإصلاح الدينى

The Refomation



لم تكن الـكنيسة، مـستقرة هادئـة، بل إنها تعـرضت منذ البداية لـعوامل مؤثرة، فالجدل الذى أثير حول طبيعة السيد المسيح ظل محتدما بينها وبين كنيسة القسطنطينية، ثـم أدى التوسع العثمانى، ووقوع القسطنطيـنية فى يدهم إلى تهديد أوربا كثـيرا، كلها أمـور كان لها أثرها من إقـلاق الكنيســة العامة، غيـر أنها وإن هددتها فإنهـا لم تضق منها كلية، بل كانـت من عوامل دفعها للتمـاسك ومقاومة تلك الضغوط والأخطار الخارجية.

ولكن كـان هناك نـوع آخر من الأخطـار كانت أشـد وأعنف مـن الأخطار السابقة وكـان أول هذه الأخطار حركة الألبان جـنسيان Albigensian Movement وهم جمـاعة فى لانجدوك بفـرنسا، وكانت هذه الـجماعة تروج لعـدم وجود إله واحد ولكن وجود قوتين للخير والشر، وأقامـوا أكليروسا خاصا بهم مما كان من شأنه تـهديد سلطـة الكنيســة فى روما ولكن تـم القضاء عـلى هذه الحركـة سنة ١٢١٣.

وثانى هذه الأخطـار جاء بانتقال الـبابا كلمنت الخـامس إلى مدينة أفـينيون بفرنسا بدلا من روما التى طالما ظلت مقـر خليفة القديس بطرس، وعرفت الفترة التى ظلت فـيها أفينـون مقر البابـوية بفترة الأسر الـبابلى Babylonic Coptivity واستمرت هذه الفترة لمدة سبعين عاما حتى كادت الكنيسة أن تفقد صفة العالمية، وبعدما عاد البابا إلى روما مرة أخرى فى عـهد البابا جريجورى الحادى عشر سنة ١٣٧٨.

وعقد مجمع دينـى آخر فى فرنسا وآختار بابا آخر ليكون مـقره أفينيون ومن هنا نشأ مـايعرف بالانشقـاق الدينى الأعظم Grand Schism ،حيث أصـبح هناك اثنان من البابوات أحدهما فى روما والآخر فى أفينيون، وبهذا فقدت الكنيسة مالها من التفـرد والعالمية،وكان لهـذه الأحداث أسوأ الأثر من حيث الجـدل الذى أثير حول طبيـعة البابا بصرف النظر عـن كونه فى روما أو أفينيـون وتكون حزبان من رجال الدين يشايع كل فريق منهم بابا.

وأخيرًا، اجتاح أوربا فى النصف الثانى من القرن الرابع عشر الموت الأسود Black Death أو ما يعرف بالطاعون، وكان لانتشار هذا الوباء أسوأ الأثر على أوربا فى هذه الفترة إذ إنه لم يكتف بأنه أودى بمئات الألوف من البشر إلى الموت ولكنه أدى أيضا إلى تغير اجتماعى كبير، فقد بدأت الدول تعمل على قطع الصلات مع الدول المجاورة خوفا من انتقال هذا المرض إليها مما أدى إلى تفكك اجتماعى دولى فى أوربا فى هذه الفترة، وأدى هذا إلى الاعتزاز بالشعور القومى وانتشرت تعاليم دينية متطرفة نتيجة لهذا المرض منها حركة «السياطين» وهم جماعة من الرجال والنساء ظهروا فى أوربا فى فترة انتشار وباء الطاعون، وهذه الجماعة نشرت آراءها الذاهبة إلى أن هذا المرض نقمة من الله على العباد نتيجة للرذائل التى تردوا فيها، ولاسبيل إلى تنقية النفس من هذه الذنوب سوى تعذيبها وحرمانها ويكون هذا عن طريق ضرب الجسد بالسياط، ولقد بالغوا فى هذا إلى حد أنهم كانوا يضعون قطع الحديد على أطراف هذه السياط.

وكان من نتائج هذه الأخطار التى تعرضت لها الكنيسة الكاثوليكية وأوربا أن ظهرت بعض الآراء والعقائد التى تعمل على إصلاح حال الكنيسة ومن أصحاب هذه المبادئ جون ويكلف وجون هس:

جون ويكلف John Wycliffe:

أستاذ علم اللاهوت بجامعة أكسفورد، وكان أشهر الوعاظ فى إنجلترا ولم يكن له اهتمامات واضحة بالسياسة إلا أنه تأثر بانتقال البابوية إلى أفينيون وخضوعها لفرنسا. ولقد أثارت هذه الخطوة الشعب الإنجليزى المعادى للشعب الفرنسى، ولهذا فقد هاجم ويكلف الكنيسة، ولقد تأثرت الحكومة الإنجليزية بهذه الحركة وبالآراء القومية الإنجليزية، فقد أصدرت مرسومين فى القرن الرابع عشر قطعت بهما إنجلترا الصلة بين البابوية والكنيسة الإنجليزية وقضت بعدم أحقية البابا فى اختيار رجال الدين الإنجليز وعدم السماح لرجال الدين الإنجليز بالرجوع إلى البابوية فى النزاعات التى تنشأ بينهما، بل إن على الكنيسة الإنجليزية أن تعمل

مستقلة، وامتنعت إنجلترا عن دفع الضريبة السنوية المفروضة عليها للبابوية ظنا منها أن هذه الأموال سوف تساعد بها البابوية الملكية الفرنسية.

أختير ويكلف ليمثل انجلترا فى اجتماع ١٣٧٤؛ وذلك لحل الخلافات القائمة بين إنجلترا والبابوية وفرنسا وعقد الصلح بينهم وعند عودته من الاجتماع أصدر أول إنتاج علمى له وجاء فى مقدمة هذا الكتاب «إن من الملكية الإنجليزية فى حكم البلاد يرجع لحق الغزو.

ولقد اتهم ويكلف البابوية بأنها تعمل فى صالح الفرنسيين وأن البابا أنوسنت الثالث هذا مرتش، إذ إنه سلم أملاك البابوية فى إنجلترا لملك فرنسا دون أخذ رأى أصحاب هذه الأراضى، وأن هذه الأراضى الإنجليزية ماهى إلا منحة من إنجلترا للبابوية لايجوز للبابوية التصرف فيها كيفما تشاء.

وأنهى ويكلف كتابه بقوله: «إنه لايمكن القول بأن يكون دفع إنجلترا مبلغ سبعمائة مارك للبابوية كضريبة سنوية لايتناسب أبدًا ليكون ضريبة سنوية عن بلد عظيم كإنجلترا، ولقد كان لهذه الآراء أبلغ الأثر على الشعب الإنجليزى الذى عرف بكراهيته لفرنسا وبالتالى للبابوية الخاضعة لها، ومنذ ذلك الوقت أصبح ويكلف نصير القضية القومية وأصبح كتابه هذا مرجعهم.

إلا أن كنيسة إنجلترا اعتبرت ويكلف زعيما هرطيقيا يجب القضاء على أفكاره، وهذا مادفع رئيس أساقفة كانتربرى إلى القبض على ويكلف وزجه فى السجن حتى يتم النظر فى أمره للحد من آرائه الهرطيقية إلا أن جامعة إكسفورد ـ التى كان بها أتباع عديدون لجون ويكلف ـ رأت أن كتاباته صحيحة لاتشوبها صفة الهرطيقية.

حينئذ قوى مركز ويكلف وهذا ما دفعه إلى مهاجمة الكنيسة وقال بأن الكنيسة إنما هى مؤسسة دينية من مسيحيين أتقياء، وليست فقط مقصورة على القسس ورجال الدين، وقال بأنه ليس من شأن البابا إصدار قرار الحرمان؛ ذلك

أن السلطة الروحية ملك للرب فقط ولايجوز لأحد التدخل فيها، كما أنه ذهب إلى أن طريق التوبة الصحيح يكون باعتراف المذنب أمام ربه بهذا الذنب وهو كفيل بأن يغفر له أن شاء وإن يعذبه إن شاء، وأن بيع صكوك الغفران ـ التى تصدرها الكنيسة ـ ماهى إلا بدعة ابتدعتها الكنيسة لزيادة دخلها.

لاقت هذه المبادئ ترحيبا كبيراً من جمهور الإنجليز وكون تلاميذه جماعة عرفت بجماعة اللورديين Lollards وساحوا فى أنحاء إنجلترا للترويج لآراء ويكلف إلا أن ويكلف بعدما تقدم به السن تعرض لاضطهاد متزايد من رئيس أساقفة كنتربورى وأصيب ويكلف بالشلل، وتوفى سنة ١٣٨٤ وتعرضت مؤلفاته للحرق فى بداية القرن الخامس عشر.

جون هس John Huss:

ولد سنة ١٣٧٠ وحصل على إجازة اللاهوت سنة ١٣٩٣ ثم ماجستير الآداب، وقد امتازت تعاليم هس بأنها مزجت بين اللاهوت والفلسفة حيث إنه تأثر بفلسفة أرسطو وظهر ذلك فى ثقافته الممزوجة بين اللاهوت والفلسفة، وقد كان هس أكبر المتحمسين لإصلاح المفاسد التى ظهرت فى الكنيسة عن طريق الوعظ والإرشاد، ولهذا كان له أتباع فى كل الطبقات، وقد تأثر بتعاليم جون ويكلف إلى حد بعيد حتى قيل أن هس تلميذ ويكلف.

ولكن السؤال المطروح هنا كيف انتقلت تعاليم ويكلف من إنجلترا إلى بوهيميا؟ والسبب فى ذلك أن الأميرة آن قد تزوجت ملك إنجلترا وعند انتقالها إلى إنجلترا صاحبها بعض رجال الدين والقسس الذين وجدوا فى تعاليم ويكلف خيرا كثيرا، ولهذا فقد تأثروا بها. وعند وفاة الأميرة انتقل هؤلاء القسس ورجال الدين إلى بوهيميا وروجوا لهذه الآراء التى وجدوها فى إنجلترا.

ومنذ ذلك الوقت انتشرت مبادئ ويكلف فى بوهيميا، إلا أنه إحقاقًا للحق فإن هس كان يعتبر نفسه مصلحا وليس لاهوتيا، ومن ثم فإنه قد رفض الاعتراف ببعض آراء ويكلف. وعمل هس بعد ذلك على مهاجمة الكنيسة رغبة فى

إصلاحها دون الرغبة فى الخروج عليها، ولكن رئيس الأساقفة ساءه موقف هس بمنع أساتذة جامعة براغ من الوعظ والإرشاد ووضع براغ نفسها تحت الحرمان.

إلا أن موقف هس لم يتأزم إلا بعد أن أعلن البابا عن قيام حرب صليبية ضد نابولى ودعا إلى بيع صكوك الغفران لتدعيم هذه الحملة، وهنا أعلن هس أن هذه الصكوك إنما وجدت للإنفاق على مصارفها الشرعية مثل مساعدة الفقراء أو بناء الكنائس وما إلى ذلك. أما بيعها من أجل الإنفاق على حرب صليبية لقتل مسيحيين فهذا أمر يرفضه. لقد كانت آراء هس فى ذلك الوقت أكبر من أن يتحملها العقل المعاصر له فأعلنت جامعة براغ الذى انقطع بعد ذلك فى منطقة ريفية لنشر آرائه المصلحة ولكتابة بعض المؤلفات.

وبعد عامين من طرد هس دعى لحضور مجمع كونستانس الدينى Council of Constance ، وكان الغرض من هذا المجمع هو القضاء على الانقسام الدينى، والإصلاح الكنسى ووضع حد للهرطيقية إلا أن أتباع هس نصحوه بعدم الذهاب، إلا أنه وجد أن فى هذا الاجتماع فرصة حتى ينشر آراءه الصحيحة على جمهرة من رجال الدين ورأى أنه يستطيع إقناعهم بآرائه إلا أن حلم هس لم يتحقق إذ إنه بمجرد وصوله إلى مدينة كونستانس قبض عليه وزج به فى السجن.

ومن ثم وجهت تهمة الزندقة والهرطيقية إلى هس وطلب المجمع منه أن يحدد رأيه فى بعض المسائل الهرطيقية (فى نظرهم). وأعلن هس أنه لايتفق مع ويكلف فى بعض آرائه، إلا أنه أيد جميع أرائه الأخرى ورفض التخلى عن أى مبدأ منها، ولهذا فقد أدان المجمع هس وأمر بإعدامه حرقا،وتم تنفيذ هذا الحكم فى عام ١٤١٥ ظنا منهم أنه بهذه الوسيلة يتم القضاء على الحركات الإصلاحية.

* * * * *

أما من جانب رجال الكنيسة الكاثوليكية فإنهم حاولوا إزالة هذه المساوئ ولكنهم بدلا من أن ينظروا إلى مفاسدهم الدينية الحقيقية عملوا على تحسين وضعهم المادى، وتمثل هذا فى اعتلاء البابا نيقولا الخامس سنة ١٤٤٧، فقد كان

هذا دليلا واضحا على فشل الكنيسة فى إصلاح نفسها كما أنها فقدت البقية الباقية لها من السلطة الروحية التى كانت لها على أوربا وأضحت الكنيسة تحت سلطة باباواتها الضعاف مصدراً للقلق والاضطراب بدلا من أن تكون مهدئة للنفوس.

منذ ذلك الحين بدأت البابوية تسلك طريقها إلى الانهيار حيث بدأ البابوات فى اتخاذ المظاهر العلمانية ولقد عصر النهضة فى مزيد من هذا التدهور نتيجة الانحلال الخلقى الذى بدا يعم ونتيجة تحطيم القيود وانهيار المبادئ وبدا قصر البابا كقصر أمير علمانى تتوافر فيه كل مظاهر التدهور والرذيلة وانهمك البابوات فى جمع الثروة وثارت النزاعات بين البابوات والإمارات المجاورة رغبة من البابا فى توسيع الولايات البابوية التى يحكمها وفرض هيمنته على الآخرين وأوضح مثال على ذلك الصراع بين جمهورية البندقية والولايات البابوية حول امتلاك إقليم رومانا ودخلت البابوية بشكل فعال فى مضمار الصراعات الأوربية الدائرة من أجل السيطرة الاقتصادية والسياسية، ويظهر ذلك فى عهد يوليوس الثانى الحرب الإيطالية وكان من نتائج هذا أن بدأت بعض الكنائس فى الخروج على البابوية ونظر الرعايا إلى البابوات نظرتهم إلى الحكام العلمانيين لا إلى الآباء الروحيين.

ونظرا لانشغال البابوات فى هذه الفترة عن التفكير عن المصلحة العامة للجمهرة المسيحية، فإنهم لم ينظروا إلى الخطر الداهم القادم إليهم من الشرق الإسلامى الممثل فى زحف العثمانيين على أوربا، ولقد كانت هذه هى الفرصة الأخيرة أمام البابوية حتى تظهر فيها بمظهرها القديم المسيطر على العالم المسيحى لو أن أحدا من هؤلاء البابوات دعا إلى قيام حرب صليبية ضد الأتراك العثمانيين ولكنهم لم يغتنموا هذه الفرصة، بل لم تكن الظروف أيضا تهيئ لهم هذه الفرصة.

الظروف التى أدت إلى تأجج حركات الإصلاح الدينى فى أوربا:

أولا: تغير العقلية الأوربية من التفكير الضيق الخناق الذى ساد العصور الوسطى إلى التفكير المستنير، ولهذا فقد رفض أبناء الطبقة البرجوازية (الذين كانوا

أكثر الطبقات تفتحا واستنارة بفضل ما اطلعوا عليه من ثقافات الأمم المختلفة المتعاملين معها، معتقدات العصور الوسطى المتخلفة التى تجعل من البابا روح الله فى الأرض وتجعل من رجل الدين يد الرحمة الربانية وتجعل من الراهب الشخصية المثالية فى المجتمع، كما أن اقتحام هذه الطبقة مجال التجارة والمال جعلها هى المسيطرة على الحياة الاجتماعية. ونظرا لتدهور الإقطاع الوسيط ونظرا للعلاقة القوية بين الاقطاع والكنيسة، حيث إن المراكز الكبيرة فى الكنيسة كانت من نصيب كبار النبلاء الإقطاعيين إلى حقد هذه الطبقة الجديدة عليهم.

ثانيا: الآثار الناتجة عن الحركة الإنسانية: فقد رأى أقطاب الفكر فى هذه الطبقة أن الأصول المسيحية يجب الحصول عليها من الكتاب المقدس مباشرة دون وساطة رجال الدين الذين كثيرا ما أغفلوا أشياء هامة وألبسوا أشياء لاصحة لها لباس الدين وأحاطوا أصولها بالغموض المثير للشك.

ثالثا: نمو الحكومات القومية الراغبة فى إقامة دولة قومية بعيدة عن أى تدخل خارجى، وقد رأت كل حكومة أنه لاسبيل إلى قيام حكومة قومية خالصة مادامت هناك بعض الأملاك التى لايمكن أن تستفيد منها الدولة كالأراضى الخاصة بالكنيسة الكاثوليكية فهى فى حكم ملك أجنبى. كما أن الكنيسة كانت لها سلطات داخل الدولة من خلال فرض الضرائب التى يراها البابوات على الأراضى الخاصة به وفرض الصدقات والتبرعات شبه الإجبارية على رعايا الدولة عامة، ولهذا فقد لجأت الحكومة إلى التخلص من كل هذا عن طريق الحركات الإصلاحية للحد من سلطة الكنيسة داخل الدولة.

رابعا: رذائل الكنيسة التى كانت تزداد كل يوم عن اليوم الآخر، كما أن البابوات اشتطوا فى استغلال سلطاتهم الدينية فى جلب الثروات ومضاعفاتها، ثم هكذا كان من وسائل إرهاق كاهل الرعية كذلك فقد لجأ بعض البابوات إلى تعيين أبنائهم وأقاربهم فى المناصب الدينية دون وجود أدنى معرفة أو ثقافة دينية مما أدى إلى تدهور الكنيسة وتدهور مستوى الثقافة الدينية عامة.

* * * * *

ولقد تولد شعور ملح لإصلاح حال الكنيسة منذ منتصف القرن الخامس عشر وبصفة خاصة، أى منذ تولى نيقولا الخامس البابوية واستمر ذلك الشعور ينمو حتى قيام حركة الإصلاح الدينى على يد مارتن لوثر؛ وذلك نتيجة للرذائل السابق الإشارة إليها، ولقد تطورت عملية المطالبة بالإصلاح من إصلاح الكنيسة ورجالها إلى إصلاح العقيدة ذاتها، ولقد مرت المطالبة بالإصلاح على مرحلتين واضحتين وهما إما أن تصلح الكنيسة نفسها وعلى أيدى رجال منها أى إصلاح من الداخل، وإما إرغام الكنيسة على طريقة معينة وعلى أيدى رجال خارجين عليها أى إصلاح من الخارج، وبالفعل تحرك مصلحو الداخل وكان على رأسهم «يوحنا روكلين» و«ديزديروس أرزم».

يوحنا روكلين John Reuchlin:

إنسانى ينتمى إلى الحركة الإنسانية التى ظهرت فى عصر النهضة وهو متخصص فى الدراسة العبرية، وظل لمدة طويلة الوحيد المتخصص فى الدراسات الإغريقية فى ألمانيا فى مبدأ عصر النهضة، ولقد وظف روكلين دراسته فى خدمة الجانب الدينى حيث إنه ترجم الجزء الخاص بالعهد القديم The old Testament وأثار بكتاباته ضجة من الجدل حول مفاسد الكنيسة ورذائلها وانضم إليه بعض من الآباء ومنهم إليرك فون هتن Huttn ، ولقد نقد روكلين الخرافات والبدع التى أحاط بها رجال الدين العقيدة. وفى النهاية تكون رأى عام معاد للكنيسة. والواقع أن روكلين لم يكن يريد الانفصال عن الكنيسة إلا أنه كان مسيحيا مخلصا للعقيدة ومحبا للكنيسة فى إصلاح حالها.

ديزيديروس إيرزمس (إرزم) Desiderius Erasmus:

هولندى الأصل واسمه الأصلى جيرهار دسون Jearhar Dison تعلم فى جامعة باريس وأكسفورد ويتميز أزرمس أنه كان يقيم نقده على الجدل والبرهان ثم الإقناع، ولهذا فقد كان محبوبا وذا شعبية كبيرة؛ وإلى جانب هذا فقد كان أرزمس

من الإنسانيين البارزين، حتى أطلق عليه الزعيم، وظل كالعلامة فى تاريخ الاستنارة الأوربية حتى جاء فولتير.

قام أرزمس بترجمة القسم الخاص بالعهد الجديد من الكتاب المقدس إلى اللغة اللاتينية من اللغة اليونانية القديمة، وقد اعتمدت هذه النسخة الكنيسة الكاثوليكية بعد ذلك، وقد طبعها أرزمس بجانب الجزء اليونانى فأظهر بذلك أن النسخة المستخدمة فى الكنيسة حتى ذلك الوقت لم تكن عن الوثيقة الأصلية، بل وأثار بكتاباته الرأى العام ضد البابوية والكنيسة التى طالبها بإصلاح نفسها، وكما هو الحال عند روكلين فإن أرزمس هو الآخر لم يكن يبغى الانشقاق عن الكنيسة ولكن كان هدفه أن تصلح الكنيسة من أحوالها.

وبالرغم من مجهودات مصلحى الداخل أمثال روكلين وأرزم إلا أن الكنيسة لم تستجب لهذا الإصلاحات، ولهذا فلم يكن هناك بدا من إرغام الكنيسة على فرض الإصلاح عليها من الخارج وهنا بدأت المرحلة الأشد تأثيرا فى تاريخ الإصلاح الدينى، وكان ذلك على يد أحد رهبان ألمانيا وهو مارتن لوثر.

أسباب قيام حركة الإصلاح الدينى فى ألمانيا :

هناك جملة من الأسباب تفسر قيام حركة الإصلاح الدينى فى ألمانيا قبل غيرها، ومن هذه الأسباب:

أولا ـ طبقة البرجوازيين: كما سبق وأن أشرنا فقد ظهرت طبقة عملت فى مجال التجارة والصناعة وازدادت ثرواتها وتضخمت، وقد حلت هذه الطبقة محل طبقة الأمراء فى توجيه حكم ألمانيا، وكانت هذه الطبقة تعمل على تدعيم مركزها وحماية نفسها عن طريق اللجوء إلى رجال الدين لمواجهة الأمراء والإمبراطو، ولهذا فقد استغل رجال الدين ذلك فى فرض الضرائب والأموال الضخمة على الشعب ولهذا فقد أثقلت كاهل الشعب بهذه الأعباء.

ثانيا ـ طبقة الفرسان: كانت ألمانيا تزخر بعدد كبير من الفرسان،وهؤلاء الفرسان من طبقة النبلاء إلا أنهم فشلوا فى تطوير أنفسهم ومواكبة ركب التقدم الذى بدأ يظهر مع بداية عام النهضة، فقد كان اعتمادهم الأساسى على الأرض فى الوقت الذى تضاءلت فيه قيمة الأراضى الزراعية كمصدر أساسى للثروة. كذلك فإنهم لم يستطيعوا مواكبة تطور أساليب الحرب والقتال، وكانت هذه الطبقة قد أخذت تفقد قدراتها فى الوقت الذى كانت فيه منزلة الفرد تتوقف على قدر ماله وفكره، ولهذا كانت هذه الطبقة تحقد على الطبقة البرجوازية وتتحين الفرصة لضرب النظم الاقتصادية والاجتماعية والسياسية المتطورة.

ثالثا ـ طبقة الفلاحين: كانت هذه الطبقة حقلا خصبا للنهب من الطبقات الأخرى فى وقت كانت هذه الطبقة تئن من التدهور الاقتصادى الذى حل على الزراعة، فلقد كانت هذه الطبقة المجال الوحيد لطبقة الأمراء لنهبها ومجالا سهلا لرجال الدين لفرض الرسوم المختلفة، ولم يكن لها أية امتيازات اقتصادية أو اجتماعية، ولهذا فقد وجدت فى الإصلاح الدينى فرصة لإنقاذ أنفسهم مما هم فيه من ظلم وجور.

رابعا ـ الصراع بين الإمبراطورية والبابوية: كانت هناك رواسب تاريخية فى العقلية الألمانية إزاء البابوية فكثيرا ماكانت تنشأ الصراعات بين الكنيسة والإمبراطورية مثل الصراعات التى تنشأت بين الإمبراطور هنرى الرابع والبابا جريجورى السابع فنشأت لهذه الأسباب كراهية الشعب الألمانى لكنيسة روما.

خامسا ـ اختراع الطباعة: كانت ألمانيا موطن اختراع الطباعة عن طريق الحروف المتحركة مما ساعد على نشر الكتاب المقدس وانتشاره فى ألمانيا، ومنذ ذلك الوقت بدأ الرعايا فى قراءة الكتاب المقدس واكتشفوا أن مايروى عليهم من جانب رجال الدين به مخالفات ومتناقضات لما هو موجود فى الكتاب المقدس، وبدأ منذ ذلك الحين الشك يساور العقول فى حقيقة رجال الدين.

مارتن لوثر: Martin Luther (١٤٨٣ ـ ١٥٤٦):

ولد مارتن لوثر فى إحدى قرى سكسونيا والتحق وهو فى الثامنة عشرة من عمره بجامعة أرفورت بكلية الآداب حيث درس الفلسفة واندمج بعد ذلك فى الدراسات الإنسانية، ثم درس القانون تحقيقا لرغبة والده إلا أنه ترك هذه الدراسة واتجه إلى سلك الرهبنة، وكان هذا بتأثير نفسى، إذ إنه تأثر بالبيئة المحاصرة له والتى نشأ فيها فدخل سنة ١٥٠٦ ديرا من أديرة القديس أوغسطين وعكف على الصلاة والزهد.

بدأ لوثر بعد ذلك سنة ١٥٠٨ بالتدريس فى جامعة وتنبرج Wittenburg لمدة تسع سنوات قام خلالها بواجبه الوعظى والإرشادى على أكمل وجه، ومن خلال دراسته توصل سنة ١٥١٥ إلى مبدأ إمكان التبرير بالإيمان Justification byfaith والتى استلهمها من رسائل القديس بولس. ومعنى هذا المبدأ هو أنه لايمكن التخلص من الخطايا ولكن الصلاة والزكاة والصوم هى وسيلة ليتقرب بها الإنسان إلى خالقه ليصل إلى رحمته. وكان وصول لوثر إلى هذه العقيدة يعنى بداية نضال لوثر ضد الكنيسة الكاثوليكية.

بدأ لوثر أول خطواته الإصلاحية بالاحتجاج على عملية بيع صكوك الغفران؛ إذ إن يوحنا تتزل كان قد بدأ سنة ١٥١٧ فى بيع صكوك الغفران لصالح بعض البابوات والأمراء الألمان ودخل بسببها فى مناقشات علنية مع يوحنا تتزل حول الغفران فى المسيحية يكون عن طريق الندم والتوبة والاعتراف والجزاء، أو التكفير وذلك عن طريق الصلاة والصوم إلا أن بابوات روما استبدلوا التكفير بالاشتراك فى حرب صليبية أو الحج إلى روما عند أول كل مائة سنة وإلى جانب ذلك فقد توسع البابا ليو العاشر، فأضاف بجانب الحج إلى روما زيارة قبور القديسين وتقديم الهبات والصدقات وهبات عن أرواح الأموات، وتحولت المسألة إلى مسألة اقتصادية بحتة خاصة بعد أن خصصت بنوك لجمع هذه الهبات.

ومن ثم فقد كانت هذه الصكوك للانحلال والتسيب، فما أسهل أن يرتكب الفرد الجرائم والرذائل ثم يشترى صك الغفـران حتى يغفر له ما اقترف من ذنوب، ولقد بلغت جراءة تتزل أن أعلن أن الرجل إذا ارتكـب أبشع خطيئة فهذه الصكوك البابوية كفيلة بأن تمنحه الغفران الكامل.

استاء لوثر من هذه الـعملية، وفى عيد الشهداء نوفـمبر ١٥١٧ وفى الوقت الذى كان كثير من المسيحيين متواجـدين فى كنيسة وتنبرج وضع احتجاجا مكونا من خمـسة وتسعـين حجة حـمل فيهـا على عملـية صكوك الغـفران وأوضح أن الغفران شأن من شئون الله وحده ولايمكن لأى شخص مهما بلغت مكانته الدينية أن يقوم بمثل هذا العمل، ودعا من يهمه الأمر إلى مناقشته.

ومن ثم دخل لوثر فى مناقشات علنيـة مع يوحنا تتزل فى الوقت الذى كان فيه البابا مشغولا بمسألة اختيـار الإمبراطور الجديد، وفى أثناء هذه المناقشة أعلن لوثر أنه يجب الاعتمـاد على الكتاب المقدس وحده فى المسائل الـمختلفة وعدم الاعتماد الكامل على رجال الدين.

وجه لوثر دعوته إلى الفرسان والأمراء الألمان حتى ينتزعوا حركة الإصلاح الديـنى إذ آلى علـى نفـسه أن يرغـم الكنـيسـة على الإصـلاح بعـد أن فشـلت المـحاولات الأخرى مـن جانب رجـال الكنيـسة وكـان عدد من هـؤلاء الأمراء والفرسان مستعدا لقبول هذه الـدعوة والانضمام إلى لوثر، وخاصة بعد أن أوضح لوثر مبادئ دعوته وهى:

١ ـ إخضـاع رجال الديـن للسلطـة المدنـية وهذا مـا شجع الأمـراء على الانضمام للوثر.

٢ ـ ليس للبابا حق فى احتكار تفسير الـكتاب المقدس فهو حق مشاع لكل قادر ودارس وليس له الحق فى إصدار صكوك الغفران.

٣ ـ إباحة الزواج للقسس والطلاق للمسيحيين.

٤ ـ عدم إنشاء أديرة جديدة بل وإلغاء بعض الأديرة القائمة.

وبعد أن انتهى البابا من اختيار الإمبراطور الجديد وبعد ثلاث سنوات من تعليق لوثر لقراراته ومبادئه قام البابا بالرد على هذا بأن أصدر ضده قرار الحرمان في ديسمبر ١٥٢٠. إلا أن لوثر رد على هذا بأن نشر ثلاث رسائل وهى: «إلى هيئة النبلاء المسيحيين من الأمة الألمانية بصدد إصلاح العالم المسيحى» وقد وجه لوثر فى هذا الرسالة دعوته إلى أقطاب الفكر الألمانى للمشاركة فى إصلاح الكنيسة وعدم الاعتماد على رجال الكنيسة، وكانت الرسالة الثانية هى «حرية الرجل المسيحى» ويدعو فيها البابا ليو العاشر للسلام، أما الثالثة فكانت «مقدمة عن الأسر البابلى الكنسى» وأوضح لوثر فى هذه الرسالة ضعف الكنيسة ومفاسدها؟ وسميت هذه الرسائل الثلاثة بـ «الرسائل الثلاثة العظمى فى حركة الإصلاح الدينى».

إلا أن هذه الرسائل لم تكن للرد فقط على قرار الحرمان، فقد أحرق لوثر قرار الحرمان فى ساحة كنيسة وتنبرج، وعندما علم البابا بهذا التصرف أوغر صدر الإمبراطور ضد لوثر والذى عقد بعد ذلك مجمعا دينيا فى ورمس Worms يناير ١٥٢١ لمناقشة آراء لوثر إلا أن لوثر أصر على آرائه فأصدر المجمع قراره ضد لوثر بالحرمان واعتبره المجلس خارجا على القانون وأهدر دمه.

إلا أن الفترة مابين عقد هذا المجمع وبين صدور القرارات ضد لوثر كانت كافية للوثر كى يهرب بعد أن تبين نية الإمبراطور ضده فهرب إلى صديقه ناخب سكسونيا والذى أعد له كنيسة وتنبرج للإقامة بها، وفى هذه الفترة التى ظل فيها لوثر مختبئا عمل على ترجمة الكتاب المقدس إلى اللغة الألمانية حتى يكون متداولا بين الناس فى ألمانيا ويستطيعون فهمه، ويتضح أن هذه الفترة كانت فترة انتشار المذهب اللوثرى فى ألمانيا.

يتضح لنا أن انتقال السلسلة الفقارية الاقتصادية لأوربا من الشرق إلى الغرب كان له أسوأ الأثر على مقدرات الشعب الألمانى من حيث التغيرات الاجتماعية والاقتصادية والروحية، إن الطبقة البرجوازية التى كانت تعتمد على التجارة والصناعة لم تلبث أن كسدت تجارتها، ولهذا فإنها كانت تتحين الفرص لتحسين وضعها الذى تدهور كثيرا.

أضف إلى هذا تدهور مركز الفرسان الذين غدوا مجرد مقاتلين بعد أن تفككت ألمانيا إلى إمارات صغيرة يحكم كلا منها أمير، واتجه هؤلاء الفرسان إلى الأعمال المخلة بشرف الفروسية كالسرقة والقتل، بينما كان أمراء الولايات عاجزين عن السيطرة التامة على شئون ولاياتهم بسبب قلة الموارد المالية اللازمة لإدارة هذه الإمارة، ومما زاد الأمر سوءا انتقال القدر الأكبر من موارد الأرض إلى البابوية.

وتأتى أخيراً طبقة الفلاحين التى كانت مجالا للأمراء ورجال الدين للحصول على الضرائب اللازمة لهم ولترفهم، وكانت هذه الطبقة ترغب فى الخلاص مما هى فيه من ظلم اجتماعى وسياسى واقتصادى، فهذه الطبقة لم يكن لها امتيازات اقتصادية، فى الوقت الذى فرضوا على الفلاحين أن يقوموا بعصر عنبهم وطحن غلالهم فى مطاحن الأمير، وأجبروا على تخصيص جزء من عملهم للخدمة فى أرض الأمير ولأعمال السخرة.

ولهذا فإنه مع بداية حركة مارتن لوثر الإصلاحية وجدت كل طبقة فى هذه الحركة مخرجا لها مما هى فيه من أزمات ورأوا فيها قلبا للنظم القائمة وإيجاد نظم جديدة تتمشى مع الصعاب التى يواجهونها، فالطبقة المتوسطة كانت تأمل من وراء هذه الحركة التفوق على غيرها، وطبقة الأمراء كانت ترغب فى حرمان ملكية الكنيسة الكاثوليكية للأراضى الألمانية حتى يستطيعوا مواجهة نفقات الإدارة المحلية وأرادت طبقة الفلاحين أن تخلصهم هذه الحركة من جور الأمراء والفرسان ونهب رجال الدين.

إلا أنه نتج عن هذا الخليط الواضح من الأهداف ظهور جماعات متطرفة تلاعبت بآراء لوثر، وخاصة أنها لم تكن واضحة تماما عند الترويج لها، ووجدوا فى غيابه عند صديقه ناخب سكسونيا فرصة للحصول على مايبغون من وراء هذه الحركة بالقيام بالثورات وكانت أهم هذه الحركات مايلى:

أولا ـ المطالبون بإعادة التعميد(١): وقد نشأت هذه الحركة بسكسونيا سنة ١٥٢١، وقد روجت هذه الجماعة إلى أن التعميد الذى يقوم على تغطيس الطفل لايتوافق مع ماجاء فى الكتاب المقدس، والغرض من هذا التعميد هو إزالة الخطايا، فهذا لايتوافر مع الأطفال حيث إنهم ولدوا بلا ذنوب والأجدى أن يتم التغطيس أو التعميد للبالغين التائبين.

ونادى المطالبون بإعادة التعميد بأنه لايجوز أن يرفع المسيحى على أخيه المسيحى سلاح، كما أنه يجب تصفية الخلافات بينهم دون التقاضى، ولقد تطرف أحد زعماء هذه الحركة كثيرا إذ نادى بتعدد الزوجات واتخذ من نفسه قدوة حيث إنه كان متزوجا من ست عشرة سيدة، إلا أن أصحاب هذه الحركة مع وجود بعض الآراء الصحيحة لهم فإنهم وقعت منهم بعض الاضطرابات التى دعت لوثر إلى تأييد الأمراء البروتستانت للقضاء عليها وإن تطلب ذلك التعاون مع الهيئات الدينية القائمة.

ثانيا ـ حركة الفرسان Knights :

كان لهذه الطبقة من قبل امتيازات وموارد مالية ضخمة نتيجة لما يقومون به فى الحروب إلا أن هذه الامتيازات والموارد المالية فقدت مع انحلال نظام الإقطاع فى ألمانيا ولم يعد لهؤلاء الفرسان موارد مالية أو إمتيازات ولهذا فإنهم كانوا يقومون بأعمال السلب والنهب للفلاحين حتى أضحت هذه الطبقة أشد الطبقات كرها فى ألمانيا.

---

(١) التعميد هو تغطيس الطفل فى الماء المقدس ثلاث مرات وفقا للديانة المسيحية، وهى من الأسرار المسيحية (التوبة ـ مسحة المرض ـ الزواج ـ الكهنوت ـ التعميد ـ العشاء المقدس).

وبعد قيام حركة مارتن لوثر وجد هؤلاء الفرسان فى هذه الحركة فرصة لاستعادة بعض مافقدوه فأخذوا من هذه الحركة ذريعة وقاموا بالهجوم على الكنائس وهدموا التماثيل والأيقونات الموجودة بها، وقد قاد هذه الحركة فارسان هما فرنز فون سيكنجن Franz von Sickgen وصديقة إليرك فون هوتن Elerk von Hutten وقام هذان الفارسان بوضع خطة عسكرية للهجوم على تريف وحاولا طلب المساعدات من المدن المجاورة إلا أنهما فشلا فى ذلك، ولكن لوثر امتنع عن تأييد هذه الحركة، ونتيجة لكره الفلاحين من الفرسان فإن هذه الحركة فشلت فشلا ذريعا وقتل سيكنجن وهرب هوتن بعد ذلك إلى سويسرا حيث توفى هناك فقيرا.

ثالثا ـ ثورة الفلاحين Peasants war:

يتضح لنا أن حركة لوثر وجدت إقبالا شديدا لدى الفلاحين؛ نظرا لأنها تدعو إلى الحرية والإخاء، ولهذا فإنها كانت أقرب ماتكون إلى آمال الفلاحين، كما أنها كانت تدعوا لمبادئ فى بعض الأحيان تكاد تكون هجومية على الكنيسة الكاثوليكية، وهذا هو ما دعى إلى انضمام عدد كبير من الفلاحين إلى الحركة حيث إنهم كانوا يئنون من الأثقال المالية التى ترهقهم بها الكنيسة، فإن أفكار لوثر أصبحت محركا للفلاحين فى هذه الفترة. ولقد كان لوثر نفسه من أبوين من طبقة الفلاحين.

انتشرت ثورة الفلاحين فى كل من الحوض الأدنى لنهرى الألب والراين، وسكسونيا وكارينثيا وتلخصت مطالب الفلاحين فى:

١ ـ إلغاء الرق. وأن يعامل الفلاحون بالطريقة التى وضعها الكتاب المقدس وليس كعبيد.

٢ ـ عدالة القيمة الإيجارية للأرض الزراعية.

٣ ـ قصر ضريبة العشور على الحبوب.

٤ ـ إعطاء الفلاحين الحق فى الصيد.

٥ ـ إعطاء الفلاحين الحق فى تعيين رجال الدين فى مناطقهم.

إلا أنه بدلا من أن تجد هذه الطبقة تأييدا من لوثر مع أن مطالبها لاتتعارض مع الحقوق الطبيعية، ورغم أن لوثر كان أشد من يقدر الآلام التى تعانيها هذه الطبقة نظرا لنشأته، إلا أن لوثر نظر إلى هذه الثورة نظرة أنانية، حيث إنه امتنع عن تأييد هذه الطبقة، والأكثر من ذلك أنه حث على القضاء على هذه الثورة إذ إنه أطلق على هؤلاء الفلاحين «الفلاحون المخربون الذين يسفكون الدماء» وألب عليهم الفرسان والأمراء، وذلك لأنه رأى فى هذه الثورة تهديدا لمذهبه.

وبعدما لاح فى الأفق نجاح هذه الثورة نتيجة للانتصارات التى حققتها نجدها تواجه ثلاث قوى متحدة عسكريا هم الفرسان والأمراء وقوات الإمبراطور، ولم تستطع هذه الجموع من الفلاحين الصمود أمام مدافع الإمبراطور أو جيوش الأمراء المتطورة، وسرعان ما أضحت هذه الثورة وتلك الانتصارات أثرا بعد عين إذ هزموا فى معركة فرانكينها وسن Frankenhausen مايو ١٥٢٥، وتم القضاء على هذه الحركة تماما.

وبنظرة موضوعية إلى هذه الثورة وموقف لوثر منها نجد أن لوثر قد أضاع آمال هذه الطبقة فيه أدراج الرياح،مما أدى إلى انفضاض هذه الطبقة العريضة من الشعب الألمانى من حوله، وبدلا من أن يستفيد من قوة هذه الطبقة كما حدث فى الثورة الفرنسية، جعل مفكرى الثورة من هذه الطبقة وقودا للثورة،ونجده يتخلى عن هذه الطبقة ويسقطها من حساباته ويلجأ إلى الأمراء الفرسان مما دفع الكثيرين إلى القول بأن لوثر كان مؤيدا للسلطة الحاكمة؛ ورغم كل هذا فقد أدت مواقف لوثر من هذه الحركات الثلاثة إحياء الشعور القومى الألمانى وتوجيه ذلك الشعور لتأييد دعوته والدعوة إلى البعد عن استخدام القوة واعتمد على الحكومات الألمانية القائمة.

موقف الإمبراطور شارل الخامس من الحركة اللوثرية:

يتضح لنا أن موقف الإمبراطور كان قد تأثر كثيرا بالأحداث السياسية الخارجية، ولهذا فإنه كان يخشى من وقوع انقسام سياسى نتيجة الانقسام الدينى، ومن ثم فقد عقد مجلس الإمبراطور فى يونيو ١٥٢٦ فى مدينة سبير Speire لبحث المشكلة الدينية إلا أن هذا المجلس كان مؤيدا للوثريين بطريقة غير مباشرة، حيث وجد أن الأخطار الخارجية تتهدده، فالأتراك العثمانيون أصبحوا على مقربة من المجر والبابا كلمنت كان قد انضم إلى حلف كونياك المعادى للإمبراطور؛ ولهذا فقد اعترف الإمبراطور اعترافا رسميا بمركز اللوثريين فى ألمانيا رغبة منه فى توحيد الجبهة الداخلية فى ألمانيا من أجل المساعدة فى مواجهة ما يتهدد الإمبراطورية.

ونتيجة لقرار الإمبراطور السابق نجح فى إيقاع الهزيمة بالعثمانيين فى موهاكس فى ٢٨ أغسطس ١٥٢٦، كما أنه قام بالهجوم على إيطاليا وحاصر البابا مما دفع البابا إلى عقد الصلح مع الإمبراطور، إلا أن الإمبراطور كان ضيق التفكير فلم ينظر إلى أن هذه الأخطار التى واجهها لم تزل قائمة، وأنه فى حاجة إلى أن تكون الجبهة الداخلية موحدة باستمرار حتى يستطع الصمود أمام الأعداء حتى النهاية، حيث نجده فى المجلس الإمبراطورى سبير مارس ١٥٢٩ يقوم بإلغاء القرارات الصادرة فى مجلس سبير الأول ١٥٢٦ والعودة إلى قرارات ورمس التى تعتبر لوثر هرطيقيا خارجا على القانون ومهدر الدم، وكانت هذه القرارات ضربة قاصمة للوثريين وضياعا للمركز الذى أخذوه فى سبير ١٥٢٦.

فما كان من اللوثريين إلا أن احتجوا فأطلق عليهم البروتستانت Protestants وفى ذلك الوقت كان الإمبراطور يرغب فى تكوين لجنة لبحث الأصول التى نشأت منها الحركة المطالبة بالإصلاح الدينى، إلا أن الأحداث الخارجية كانت حائلا دون تحقيق ذلك، ومع هذا فإنه لحل الخلافات الدينية دعا إلى عقد مجلس فى أوجزبرج، وفى هذا المجلس شرحت أسس المبادئ اللوثرية، وفى النهاية أصدر الإمبراطور قراره بإعطاء فترة من الوقت للبروتستانت حتى يعودوا إلى العقيدة الصحيحة وإلا أعمل القتل فيهم.

ومن ثم بدأت عملية الإصلاح اللوثرى تدخل فى طور جديد وهو طور الدفاع العسكرى عن العقيدة، حيث كونت المقاطعات البروتستانتية فيما بينها حلف شمالكلد Schmalkaldik League وأنذر الموقف بصراع مسلح بين المعسكر البروتستانتى والكاثوليك وهنا نجد أن الإمبراطور فى موقف لايحسد عليه، إذ إن الأتراك العثمانيين أصبح خطرهم محدقًا وفرانسوا الأول ملك فرنسا لم يترك فرصة للنيل من خصمه - الإمبراطور شارل الخامس - إلا واستغلها حيث إنه تقرب إلى اللوثريين وتحالف مع العثمانيين وأصبح الإمبراطور وإمبراطوريته فريسة بين فكى الأسد، حيث كان فرانسوا الأول من الغرب والعثمانيون من الشرق والبرتستانت يثيرون الخلافات الداخلية.

وهنا تغلبت روح المصلحة العامة على ألمانيا حيث إنهم وجدوا أن ألمانيا معرضة للهلاك الفعلى من العثمانيين والفرنسيين، وعقد المجلس الإمبراطورى فى مدينة نورمبرج سنة ١٥٣٣، وفى هذا المؤتمر اتفق الجميع - لوثريين وكاثوليك - على تناسى الخلافات الداخلية والعمل على تدعيم الجبهة الداخلية للدفاع عن الإمبراطورية، وأن يبدأ عهد جديد من السلام بين البروتستانت والكاثوليك، وكان معنى هذا هو الرجوع عن قرارات ورمس والعفو عن لوثر الذى أهدر دمه واعتبر هرطيقيا.

لقد كانت هذه لفتة صالحة لانتشار المذهب البروتستانتى، وانضمت المدن الألمانية تباعا إلى المذهب البروتستانتى ومنها أوجزبرج، هامبرج، هانفورد، فرانكفورت بادن، مما ساعد على زيادة وتضخيم المعسكر البروتستانتى أمام الكاثوليك.

وبالرغم من التعهدات التى أخذت فى مجلس نورمبرج من الطرفين إلا أن نفوس المعسكرين كانت لاتزال تحمل الحقد رغم ما بذل من محاولات عديدة للإصلاح بين الكاثوليك والبروتستانت، ومن أجل هذا السبب عقد مجلس راتزبون Ratisbon عام ١٥٤١ والذى حضر الإمبراطور بنفسه للحث على الهدوء

والسلم إلا أنه فشل فى حل المشكلة سلميا، ثم عقد المجمع المسكونى، حيث دعا البابا بول الثالث الكاثوليك والبروتستانت للاجتماع فى مدينة ترنت Trent ١٥٤٥ لحل الخلافات بينهم إلا أن البروتستانت أعرضوا عن هذه الدعوة إذ رأوا أن الروح الكاثوليكية هى الغالبة على هذا المجلس، ورأى الإمبراطور شارل الخامس أنه لاسبيل للقضاء على الانقسامات الداخلية التى أوجدها البروتستانت سوى مواجهتهم بالقوة وخاصة أن الإمبراطور قد تحسن موقفه فى هذه الآونة بسبب هدوء الجبهة العثمانية وعقد صلح مع الملك الفرنسى فرانسوا الأول.

وهنا أمر الإمبراطور قواته بالتعبئة وبدأ فى السير إلى قتال البروتستانت ولكن قبل المواجهة أسلم لوثر روحه ووافته المنية فى ١٨ فبراير ١٥٤٦، وهنا دبت روح الفرقة فى معسكر البرتستانت حيث انحاز موريس دوق سكسونيا إلى الإمبراطور لخلافاته مع أعضاء الحلف البروتستانتى (شمالكلد)، وكان لهذا أكبر الأثر على المعسكر البروتستانتى الذى هزم بعد ذلك فى مهلبرج Muhlberg ٢٤ أبريل ١٥٤٧.

إلاأن الإمبراطور لم يشأ أن يغتنم الفرصة للقضاء على البروتستانت نهائيا بل أراد الوصول إلى حل سلمى معهم دعما لقوته خاصة وأن جبهة شعبية كبيرة كانت لاتزال على البروتستانتية فخاف الإمبراطور من إثارتهم، فى الوقت الذى كان البابا بول الثالث يعمل على الاتفاق مع الملك هنرى الثانى ملك فرنسا، إذا إنه أوجس خيفة من الإمبراطور من أن يفكر فى غزو الأراضى الإيطالية بعد أن انتصر على البروتستانت، هذا بالإضافة إلى أن الدول المجاورة لألمانيا ما كانت لتقبل قيام حكومة مركزية فى ألمانيا تحت حكم الهابسبرج من شأنها تهديدهم بعد ذلك إن سمحت الظروف بذلك.

ولهذا الغرض دعا الإمبراطور المجلس الإمبراطورى للانعقاد فى أوجزبرج مايو ١٤٥٨ وعرض من جانبه نظاما ينطوى على التمسك بجوهر العقيدة الكاثوليكية مع إرضاء البروتستانت فى بعض أمور عقيدتهم، ومنها زواج القسس

وتناول القربان والتبرير بالأيمان وعرف هذا العرض بالنظام المؤقت Interim وبالرغم من هذا فإن هذا النظام المؤقت لم يلق قبولا من البابا أو الكاثوليك أو البروتستانت؛ ذلك أن البروتستانت رفضوا إقامة الشعائر الكاثوليكية داخل أراضيهم فى الوقت الذى رفض فيه الكاثوليك إعطاء البروتستانت أية امتيازات، ذلك أنهم فى رأيهم هراطقة يجب محاكمتهم.

وهنا لم ير الإمبراطور بدا من فرض نظامه بقوة واستخدم القوة فى فرض هذا النظام على المقاطعات البرتستانتينية الجنوبية، أما المقاطعات الشمالية فإنها قاومته بمساعدة مدينة مجدبرج وسارت الأحداث الدولية للإمبراطورية بخطى سريعة فى طريق التدهور والانحلال، ومما زاد الموقف الداخلى سوءا أن ناخب سكسونيا موريس عاد ثانية إلى معسكر البروتستانت.

سارت الحوادث بعد ذلك فى صالح والبروتستانت حيث إنهم قد قوى مركزهم بعد أن انضم إليهم موريس ناخب سكسونيا إذ إنه كان يمثل عمود ارتكاز بالنسبة للمعسكر البروتستانتى، كما أن الملك هنرى الثانى ملك فرنسا كان يسعى للنيل من شارل الخامس بكل وسيلة لهذا لجأ إلى التحالف مع البروتستانت وعقد معهم معاهدتين ١٥٥٢، وفى غضون هذه الأحداث كان الإمبراطور مشغولا فى مسألة وراثة أملاكه وحكم الإمبراطورية، وبعد أن هزم الإمبراطور فى الحرب التى شنها عليه هنرى الثانى ملك فرنسا والتى نجح فيها فى الاستيلاء على تول ومتز وفردان وانتصر عليه ناخب سكسونيا موريس هو الآخر واستولى على أوجزبرج فى فبراير ١٥٥٢ أخذ موريس يطارد الإمبراطور الذى لجأن إلى حماية أخيه، وعقد فرديناند صلح بساو Passau مع موريس وفى يوليو ١٥٥٢ تم الاتفاق على أن يتم عقد صلح فى أوجزبرج خلال ستة أشهر.

وقد وافق الإمبراطور على عقد الصلح مع البروتستانت ودعا المجلس الإمبراطورى للانعقاد فى أوجزبرج فى فبراير ١٥٥٥م ولكنه أناب أخاه فرديناند عنه ليترأس المجلس. وجاء فى هذا الصلح مايلى:

أولا : السماح بالحرية الدينية لأتباع لوثر والإمارات البروتستانتية وألا يتعرض الأمراء الكاثوليك للولايات البروتستانتية وألا يتدخلوا فى معتقداتهم فى الوقت الذى تحترم فيه الولايات البروتستانتية الولايات الكاثوليكية ولا تتعرض لها.

ثانيا : الاعتراف بالمذهبين الكاثوليكى واللوثرى فقط.

ثالثا: نص الصلح على أن تبقى الأراضى التى فقدتها الكنيسة الكاثوليكية فى ألمانيا منذ قيام حركة لوثر وحتى عام ١٥٥٢ فى يد البروتستانت، وماعدا ذلك يعاد إلى الكنيسة الكاثوليكية، وكان الغرض من هذا المحافظة على وضع الكاثوليكية فى ألمانيا.

رابعا: السماح للرعايا البروتستانت والكاثوليك باجتياز كل منهما أراضى الآخر دون التعرض لهم ولممتلكاتهم.

نقد صلح أوجزبرج ١٥٥٥م:

أولا: عجز صلح أو جزبرج: لم يكن لصلح أوجزبرج من الفعالية والنفوذ مايتيح القضاء نهائيا على الخلافات الدينية فى أوربا، إذ إن هذا الصلح لم يكن نافذ المفعول لأكثر من خمس وثلاثين عاما قامت بعدها حرب دينية اشترك فيها عدد من الدول الأوربية، ولهذا فإن صلح أوجزبرج ماهو إلا نهاية مرحلة من مراحل الصراع الكاثوليكى البروتستانتى.

ثانيا : قصر التسامح الدينى: اقتصر التسامح الدينى فى هذا الصلح على المقاطعات الألمانية دون غيرها ولم يشمل الأفراد، إذ إنه أقر المبدأ القائل «الناس على دين ملوكهم»؛ ولهذا فقد كان على الفرد الذى يرى أن مذهبه يخالف مذهب الأمير الحاكم أن يهاجر مرغما بعد بيع ممتلكاته إلى الولاية التى تتمشى مع مذهبه.

كما أن هذا الصلح قصر التسامح على المذهب اللوثرى ولم يعترف

بالمـذاهب الدينية الأخـرى التى ظهرت كـمذهب كلفـن ـ وقد كان أتبـاع كلفن عديدين ـ أو أتباع زونجلى السويسرى.

ثالثا: عدم وجود هيئة تنفيذية: حيث إنه لم تكن هناك هيئـة لتنفيذ القرارات التى صدرت عن صـلح أوجزبرج فى الوقت الذى كان فـيه البروتستانـت يقومون بتنفيـذ القرارات التى تتمـشى مع مصالحـهم دون النظر إلى بقيـة القرارات، ومن ذلك نرى أن مشكلة انتـزاع أملاك الكنيسة ظلت قائمة بعـد صلح أوجزبرج وكان هذا سببا من أسباب قيام الحروب الدينية (حرب الثلاثين عاما).

انتشار المذهب اللوثرى:

١ ـ انتشر المذهب اللوثرى فى شمال وجنوب ألمانيا وفى شمال أوربا، أما إنجلترا فقد ظهرت فيها الكنيسة الإنجليكانية.

٢ ـ انتـشر المـذهب اللوثرى فـى كل من السـويد والدنمـارك (الممـالك الإسكندنافـية) لأن هذه الأراضى كانت حقلا خـصبا لنشر المـذهب الذى يعادى الكنيسة الكاثوليـكية للحصول على أراضيها فنجد أن ملك الـسويد جوستاف فازا اعتنق المـذهب اللوثرى رغبة منه فى الحـصول على أراضى الكنيسة الكـاثوليكية فيها.

وبالرغم من ذلك فإن المذهب اللوثرى لم يـنتشر فى كل أوربا لعدة أسباب أهمها.

أ ـ اعتماد لوثر على مساعدة الأمراء والوقوف بجانبه مما جعل السواد الأعم ينفض من حوله (ثورة الفلاحين).

ب ـ صعوبة فهم أصول العقيدة اللوثرية وخاصة التبرير بالأيمان وعدم عمله بقوة على نشرها خارج ألمانيا.

جـ ـ وللأسـباب السابـقة فقد حدث انقسام فى المعـسكر اللوثرى نتج عنه ضعف المعسكر البروتستانتى أمام المـعسكر الكاثوليكى المنظم وعدم القدرة على مواجهته.

عوامل انتشار المذهب اللوثرى:

١ ـ شخصية لوثر: فقد كان لوثـر يعرف بقوة إيمانه وفهـمه الكامل للروح الألمانية ومعرفة آلامها وآمالها، كما أنه كان ذا قدرة عالية على الإقناع، وقد ظهر لوثر فى وقت كان الـشعب الألمانى من آراء الكنيـسة الكاثوليكية التـى لايستطيع الألمان الوقوف على صحتها لجهلهم بأصول الإنجيل، ولهذا فإنه عند ظهور لوثر وذيوع صيته ظن الشـعب أن المكانة العالية التى طالمـا جاهدوا من أجل الوصول إليـها سوف تتـحقق عـلى يد لوثر، ومن ثـم فقد اتجـه عدد كـبير من الألـمان للانضمام إليه.

٢ ـ زعامـة لوثر: كان لوثر مـن وجهة نظر الشعـب الألمانى زعيم القـومية الألمانيـة الحديثة؛ ذلك أنه رفع شـعار «ألمانيا يـجب أن تكون للألمانيـين فقط» فكان لهذا الشعار أعظم الأثر فى نفوس الألمان، فقد كان الشعب الألمانى يستنكر التدخل الأجنبى فى شئونهم الخاصة، وكان الإمبراطور شارل الخامس فى نظرهم أسبانى يبغى المصلحة الأسبانية أولا على حساب المصلحة الألمانية، كما أن البابا كان في نظرهم إيطاليا يبغى نهب أموال ألمانيا والاستحواذ على خيراتها، ومن ثم وجد الشعب الألمانـى فى هذه الحركة خلاصا لهم مما هم فـيه من تدخل أجنبى فى شئون ألمانيا.

٣ ـ صداقـة لوثر لفردريـك ناخب سكسـونيا: ممـا ساعد لوثر علـى نشر دعوته صداقـته لفردريك ناخب سكسـونيا ومؤسس جامعـة وتنبرج Wittenburg University وقد قدم فـردريك خدمات جليلة للـوثر فقد ساعده عـلى الهرب من قرارات ورمس ١٥٢١، كـما أنه جعل جامـعته منبرًا لـنشر الدعوة اللوثـرية بها، ولهذا فقد كانت هذه الجامعة تقوم بنشر كتب لوثر وآرائه وتوزيعها.

٤ ـ الحكومة الفيدرالية: لم تكن ألمانيا فى ذلـك الوقت موحدة، ولانعنى بموحدة أن تكون ذات حكـومة مركزية كإنجلترا وفرنـسا فى ذلك الوقت، ولكن نعنى منها أن يكون الحـاكم الفعلى فى البلاد شخصا واحدا، إلا أنـنا نجد ألمانيا

منقسمة على نفسها إلى إمارات يحكم كل منها أمير يقوم على إدارتها كيفما شاء، وليس للإمبراطور من سلطة إلا القليل عليه، ولهذا فقد أراد هؤلاء الأمراء أن يكون انفصالهم عن الإمبراطور انفصالا تاما وليس جزئيا كما هو الحال؛ ومن هنا وجد الأمراء فى حركة لوثر حركة من الممكن أن يعتنقوها وحتى يقع بعد ذلك انقسام سياسى نتيجة الانقسام المذهبى ويتحول الأمراء إلى حكام مستقلين.

٥ - **حالة الإمبراطورية السياسية**: ظهر لوثر فى وقت كانت الإمبراطورية الرومانية المقدسة غارقة فى بحر الأزمات حيث إن الإمبراطور شارل الخامس كان منهمكا فى حروب أوربية (الحروب الإيطالية) من أجل السيطرة على شبه الجزيرة الإيطالية والزعامة السياسية والاقتصادية فى أوربا؛ ولهذا فقد دخل فى صراع مع أسرة الفالو الفرنسية والتى كانت أقوى الأسر الحاكمة فى ذلك الوقت فى أوربا، وفى نفس الوقت نجد أن خطر الدولة العثمانية فى تزايد مستمر، كان ملوك فرنسا يتحالفون مع الدولة العثمانية ضد الإمبراطور هذا من جهة، ومن جهة أخرى فمع أن الإمبراطورية كانت تشن حملات على مسلمى شمال إفريقيا لم تكن أسبانيا موالية للإمبراطورية دائما، وكان على الإمبراطور شارل بالأخص أن يضبط أموره السياسية حتى تتمشى مع مصالح أسبانيا فى العالم الجديد، ومن هذا كله نتبين أن الإمبراطور شارل كان على قدر كبير من القوة يستطيع بهذه القوة مجتمعة أن يسحق لوثر وأتباعه إلا أن هذه القوة كانت أضعف من أن تحل كافة المشكلات.

٦ - **الحروب الايطالية**: ساعدت الحروب الإيطالية بما لايدع مجالا للشك فى أن تسير حركة الإصلاح الدينى فى طريقها الصحيح، حيث إنها شغلت حكام أوربا الكاثوليك فى حروبهم من أجل السيطرة السياسية فى القارة، كما أن البابا نفسه دخل فى مضمار الصراع ولم يستطع أن يواجه الصراعات مواجهة حاسمة وأكثرما عمله هو إصدار قرارات الحرمان التى فقدت أهميتها؛ وهذا لأنه كان مشغولا فى مواجهة السيطرة الفرنسية ثم الألمانية على إيطاليا كما أنه كان يعمل على الاستحواذ على إقليم رومانا وفلورنسا الإيطاليين.

انتشار حركات الإصلاح الدينى فى أوربا

زونجلى (١٤٨٤ ـ ١٥٣١):

ظهرت فى سويسرا فى نهاية النصف الثانى من القرن الخامس عشر ومع بداية القرن الرابع عشر حركة للإصلاح الدينى قادها أليرك زونجلى إلا أن الظروف البيئية والاجتماعية التى نشأ فيها زونجلى كانت تختلف عن ظروف نشأة لوثر، فقد كان والد زونجلى عمدة فى إحدى المقاطعات السويسرية وكان له عمان الأول رئيسا لأحد الأديرة والثانى قسيسا.

تعلم زونجلى فى جامعات برن وبال وفيينا وقد عاصر أرزم وتأثر به إلى حد كبير مما كان له أكبر الأثر فى شخصيته وثقافته التى ازدادت تفتحا بعد ذلك، وظهر هذا فى أسلوبه الكلامى. وعمل زونجلى فى السلك الكنسى بفضل تشجيع عميه إلا أنه نتيجة لدراسته التى سبق الإشارة إليها تفوق عليهما وذاع صيته حتى انتقل للوعظ فى كنيسة بزيورخ سنة ١٥١٨؛ بدأ زونجلى يرى فى هذه المدينة الجديدة مالم يكن يراه من قبل، إذ إن زيورخ كانت مدينة المتعة والجمال حينذاك ومدينة المال، وكانت هذه المدينة محط ترحال السياح الذين يودون قضاء أيام سعيدة وكانت كل هذه الأشياء محركا داخليا لزونجلى إذ إنه استاء كثيرا مما رأى ووجد أنه لابد من تغيير كل هذه السلبيات بحركة إصلاح جديدة.

وأثرت كل هذه الأفكار علي زونجلى مما دفعه إلى القيام بحركة إصلاح دينى سريعة واتخذ من زيورخ مقراً للدعوة الإصلاحية والقومية السويسرية وخاصة أنها بدأت فى الانحدار منذ أن لجأ السويسريون إلى العمل كمرتزقة فى الجيوش الأوربية، حيث كانت الإغراءات المادية كبيرة؛ ولهذا دعا زونجلى إلى الارتقاء بالقومية السويسرية والترفع عن كل هذه المهازل واستجابت زيورخ لهذا النداء وكفوا عن تأجير أنفسهم.

أعجب كثير من السويسريين بالأفكار الزونجلية وبدأت المقاطعات السويسرية فى الانضمام إليه وكون التحالف المسيحى المدنى Christian civic

Alliances وازداد عدد أعضاء هذا الحلف منذ ١٥٢٩، وهنا وجد زونجلى أنه من القوة التى يستطيع بـها فرض آرائه بالقوة السياسية؛ ولهذا فإنـه استولى على مدينة زيورخ وجعلها مقراً له وللحلف المسيحى المدنى (الزونجلى) وأدار المدينة إدارة أوتقراطية، إلا أن المقاطعات الكاثوليكية جاء ردها سريعا وكـونت اتحاد أبريل ١٥٢٩ للوقـوف فى وجه الحلف المسيحى المدنى، وعرف هذا الاتحـاد باسم الاتحاد المسيحى The Christian Union وهنا بدا فى الأفق أن الالتحام العسكرى أمر لابد منه، وتحركت قوات الحلف المسيحى المدنى فى يونيو ١٥٢٩، وقوات الاتحاد المسيحى إلا أنهـما تقابلا فى كابل Kappel فى ٢٦ يونيـو ١٥٢٩ وعقد الصلح الأول بين المعسكرين وعرف بصلح كابل الأول ١٥٢٩ وتقرر فيه أن يكون للمقاطعـات المنضمة إلى الحلف المسيحى المدنى الحرية فى اعـتناق المذهب الذى يروقها، أما المقاطعات التى لم تنضم إلى الحلف فقد تقرر ألا يكره أحد أن يتخذ مذهبا معينا. هذا أولا، وأن يكون المذهب الشائع فى المقاطعة هو المذهب الرسمى لها،ومن لايرغب فـى اعتناقه له الحرية فى ترك المقاطعـة والانتقال منها دون التعرض له بسوء.

إلا أن هذا الصلح لـم يستمر إلا لمـدة قصيرة لاتتجـاوز الستة عشـر شهرا ونشبـت الحرب بين الـحلف المسيحى المـدنى Christian Civic Alliances والاتحاد المسيحى The Christian Union فى أكـتوبـر ١٥٣١، وقتل فـى هذه الحرب زونجلى وأصبحت زيورخ منبر الزونجلية مهددة بالانتقام والغزو من قوات الاتحاد المسيحى، وانتهى الأمر بعـقد صلح كابل الثانى ٢٠ نوفمبر ١٥٣١ ونص الصلح على:

أولا: أن تبقى الولايـات الخمس التى يتألف مـنها الاتحاد المسـيحى على مذهبها الكاثوليكى.

ثانيا: فض التحالف المدنى القائم بين المقاطعات البروتستانتية.

ثالثا: أن يتعهد كل من الطرفين بعدم نقض معاهداتهم الدبلوماسية مع الدول الأجنبية.

وكان صلح كابل ١٥٣١ أساس الصلح الذى قـام عليه صلح أوجزبرج بعد ذلك فى ألمانيا ١٥٥٥م.

إن حركـة زونجلـى الإصلاحيـة هذه كـانت حركـة سويسـرية لم تـلق أية مساعدات أو تأثيـرات من حركة أخرى فى ألمانيا، كما أن حـركة زونجلى كانت ثورة سـياسيـة واجتمـاعية، حـيث إنه عبـر أصدق تعـبير عن مـشاكل الشـعب السويسرى. وماتعانيه الطبقة الكادحة من الشعب السويسرى.

جون كلفن John Valvin ١٥٠٩ ـ ١٥٦٤):

ولد كلفـن فى يوليو ١٥٠٩ فـى نويون Noyon، حيث كان والـده يشغل منصبا مرموقا فيها، تعلم كلفـن فى مدارس المدينة ثم تعلم فى جامعة باريس ثم انتقل إلـى السربون لدراسة الديـن، ونزولا عن رغبة والده اتجـه عام ١٥٢٨ إلى أورليانز لدراسة القانون إلا أنه اتجه إلى جـانب القانون إلى دراسة العلوم الإنسانية وتعلم خلالها على يد العالم الإنسانى «ولمر» Wolmar ، إلا أنه عاد مرة أخرى سنة ١٥٣١ إلى باريس، وعنـدما علم بمرض والده الشديد رحل ثـانية إلى نويون إلا أنه وجد والده قد أدركته المنية، وهنا اعـتقد كلفن أن والده قد توفى على أثر التهمة الموجهة إليه من الكنيسـة، حيث إنه وجد اضطرابات فى حسابات الكنيسة القائم عليها، ولهذا فقد وقعت عليه الكنيسة قرار الحرمان.

ومن هنـا كانت بدايـة حياة كـلفن الإصلاحـية حـيث إنه بدأ بالـدراسات الإنسانية فى فرنسـا والتى كان يمدها الملك فرانسوا الأول بكل احـتياجاته ولكنه اتهم بعد ذلـك بأنه على علاقة بالـمؤلف كوب(١)، ولهذا فـقد هرب كلـفن إلى سانتو Saintonge وزار أحد الإنسانيين هناك وهو جاك لوفيفر Jacques le Fevre

ولما بدأت فى فرنسا سنة ١٥٣٤ موجة مـن اضطهاد ضد البرتستانت هرب كلفن إلى بازل، وهناك اتصل كلفن ببعض العلمـاء البروتستانت من أمثال بولينجر

---

(١) أحد الإنسانيين إلا أنه هاجم رجال السربون الدينيين فصدر أمر بالقبض عليه هو وأتباعه.

وكابيتو ودرس على أيديهم وبعد أن نضجت الأفكار عند كلفن بدأ فى كتابة مؤلف يضم أفكاره وآراءه الجديدة التى يرغب فى أن تعم الكنيسة والمسيحية، وطبع هذا الكتاب فى مـارس ١٥٣٦ ، ويسمى «تعاليم الدين المـسيحى» Institutes of the christian Religion ، ويقال إن كلفن تأثر فى الفصلين الأخيرين من هذا الكتاب برسائل لوثر عن الأسر البابلى The Babylonian Coptivity ، ومن كتاب كلفن هذا نستطيع أن نتبين أهم أفكار كلفن وهى:

أولا: يجب أن يكون الكتـاب المقدس هو الشىء الوحيد الـذى يستخلص منه جمهور المسيحيين أصول عقيدتهم دون سواه.

ثانيا: لايوجد غير المسيح شفيعا للناس عند الله.

ثالثا: وجوب الاعتقـاد والإيمان بأن التبربر يكون بالأيمـان وليس بالأعمال فالأعمال ماهى إلا دليل على حب الله[١].

رابعا: وجوب الإيمان بالقضاء والقدر؛ ذلك أنه لكل إنسان خطة ألهية كتبت قبل ولادته يجب أن يسير عليها، ولهذا فكل شىء محسوب قبل حدوثه.

خامسا: وجوب فصل الكنيسة عن سلطة الدولـة، فالكنيسة عند كلفن ماهى إلا سلطـة روحية عـامة لايستـأثر بها فـئة دون الأخرى بـل هى حق مشـاع لكل المسيحيين علمانيين كانوا أم رجـال دين ويشترك الجميع فى إدارتها. وواجبها هو أن تقوم بالآتى:

أ ـ الوعظ والإرشاد ويقوم به القسس.

ب ـ تفسير الكتاب المقدس ويقوم به الدكاترة[٢].

جـ ـ مراقبة أخلاق الأفراد ويقوم بهذا العلمانيون.

د ـ رعاية الفقراء ويقوم به العلمانيون.

سادسا: لم يحدد كلفن نوع الحكومة العلمانية المطلوبة سواء أكانت ملكية

---

(١) يتفق فى هذا مع المبدأ الذى توصل له لوثر.

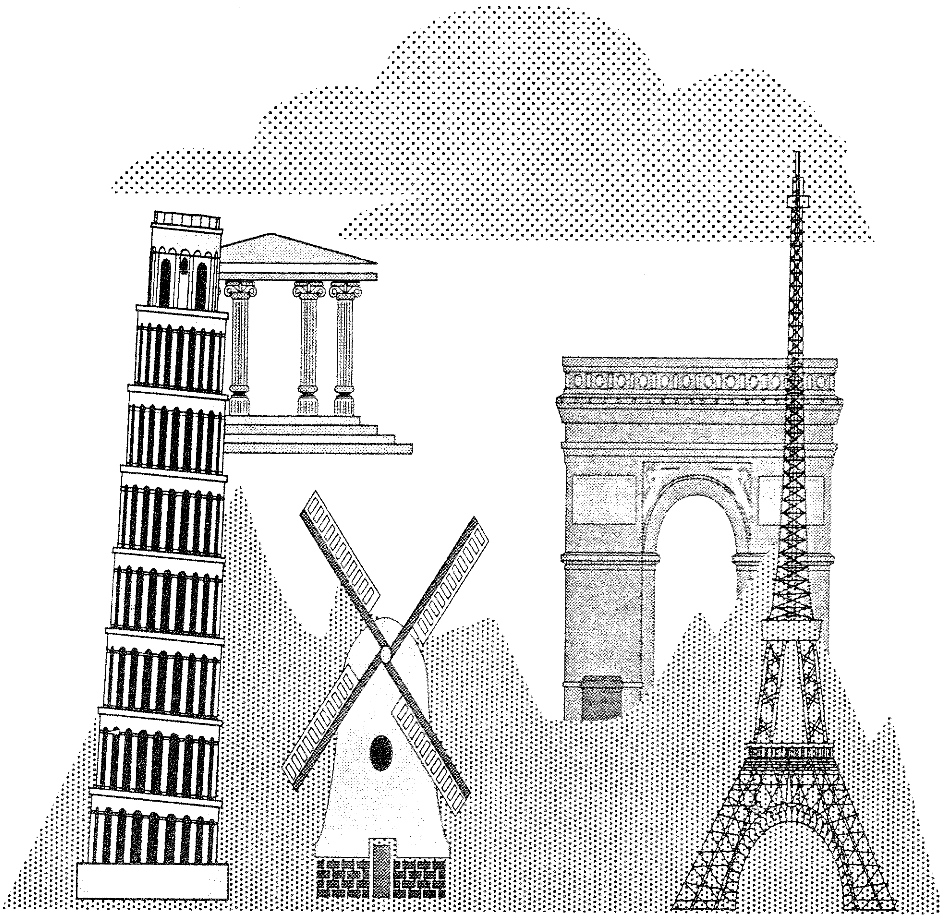
(٢) وهم كبار رجال الدين الذين اختصوا بهذا المجال.

أم استبدادية أم ديمقراطية أم جمهورية مادامت تقوم بواجباتها بالذود عن المسيحية وغرس المبادئ والقيم، وفى حالة ما إذا قامت الحكومة العلمانية بهذا وجب على الرعية طاعتها طاعة تامة.

بدأ كلفن فى تأسيس كنيسة المـدينة على الأسس التى وضعها، إلا أن هذه الأسس لم تلق ترحيـبا كبيرًا من الشعب مما أدى إلـى هجرة كلفن وفارل ١٥٣٨ إلا أنهما عادا مرة أخرى بعد ثلاث سنوات ١٥٤١، وعمل كلفن على نشر مذهبه فى إنجلترا وبولندا وأسكتلندا والأراضى المنخفضة وفى سنواته الأخيرة انضم إليه رجل يدعى تيودور دى بز والذى أطلعه كلفن على أسس مذهبه وجعله اليد اليمنى فى الأكاديمية التـى أسسها كلفن، وأصبح تيودور بعد ذلك أول رئـيس للأكاديمية الكلفنية.

الفصل السادس

حرب الثلاثين عاما ١٦١٨-١٦٤٨



مقدمة

كانت أحداث القرن السادس عشر ماهى إلا إفراز تحرر الفكر وانطلاق الملكات الإنسانية فى جميع الاتجاهات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والدينية، وجاءت مظاهر كل ذلك واضحة فى عصر النهضة الأدبية والفنية وغيرها؛ ومن ثم فقد كان تكون الدولة الحديثة أمرًا طبيعيا مع تطور الفكر الاقتصادى والسياسى؛ ولذلك جاء الإصلاح الدينى نتيجة أخرى لتطور الآفاق الفكرية الإنسانية؛ كما كان الإصلاح المضاد للثورة الدينية تطوراً فى نفس الاتجاه؛ ويلاحظ أن التطور قد وجد المقومات المتحددة لاستمراره بحيث استمر مشكلا لأحداث النصف الثانى من القرن السادس عشر.

إذ كان لتكون الدول الحديثة ومحاولات بعضها إخماد حركات الإصلاح الدينى ما أثرى أحداث النصف الثانى من القرن السادس عشر، ولقد كانت بعض الدول الحديثة تخشى من أن يؤدى الانقسام الدينى بين العقيدة الأساسية (الكاثوليكية) وأنصار الفكر الجديد (لوثر - كلفن - زونجلى) وغيرهم؛ إلى انقسام سياسى يودى بمكاسب الدولة الحديثة، ومن ثم اشتعل الصراع داخل الأمة الواحدة وبين الدول وبعضها البعض، بل إن تلك الدول حاولت أحيانا أن تستخدم ذلك الصراع الدينى فى تحقيق أغراضها السياسية.

إننا لانستطيع أن نحمل العامل الديني وحده كل الاضطرابات والحروب التى شهدتها تلك الفترة وإنما يمكن أن نرجعها فى الواقع لعامل غاية فى الأهمية وهو العامل السياسى الاقتصادى، وتفسير ذلك أنه ومع ارتفاع الأسعار كأمر طبيعى لوفرة العملة المتداولة فى الأسواق الأوربية لتدفق الفضة والذهب من الأراضى الجديدة نتج عن ذلك سيطرة الطبقة الجديدة المتوسطة على الحياة الاقتصادية ولقدرتها وثرائها فرضت سيطرتها على المجتمع وفرضت هذه الطبقة شروطها رغم المقاومة من جانب بعض النظم الحاكمة. ومن جانب آخر وجد

الفقراء فى الأفكار الدينية الجديدة فرصة للتذمر والمشاركة والثورة «ثورة الفلاحين فى ألمانيا»، كل ذلك أسهم بشكل قوى ومؤثر فى تشكيل الأحداث. وبصفة خاصة حرب الثلاثين عاما (١٦١٨ ـ ١٦٤٨).

ولكن كان هناك عنصر فرض نفسه مع بداية القرن السابع عشر وهو نمو قوة الدول المسلحة الجديدة التوسعية، ففرنسا كانت تسعى جديا للوصول إلى حدودها الطبيعية، كما أن إنجلترا وهولندا كانتا فى تنافس لوراثة الإمبراطورية البرتغالية.

لقد امتلأ تاريخ القرن السابع عشر بصراعات تلك الدول إما لتنافسها على المصالح أو لاصطدام مصالحها معها؛ ومع ذلك كان الملاحظ أن ذلك الصراع كان طابعه قوميا لمصلحة الأمة أو الدولة الحديثة دون حاجة منها لأن تضفى على حركاتها دوافع دينية مثل الحفاظ على عقيدة أو مذهب. ولم تجد تلك الدول غضاضة فى تطويع الوضع الدينى إذا ماتعارض مع المصلحة القومية.

تظهر هذه الحقائق بوضوح فى حرب الثلاثين عاما أول حروب القرن السابع عشر، فإن عدد الدول التى اشتركت فى هذه الحروب كان يزيد كثيرا عن عدد الدول التى اشتركت فى حروب سابقة، كما أن هذه الحرب بدأت ولها صفة دينية، غير أنها تحولت بعد ذلك إلى حرب سياسية صريحة بين الدول.

أسباب حرب الثلاثين عاما:

أولا: كانت قد بدأت الحركات التبشيرية لليسوعيين الكاثوليكية الجزويت فى ألمانيا، إلا أنها كانت تلقى مقاومة نتيجة لانتشار تعاليم لوثر المعادية للتعاليم الكاثوليكية بما يتضمن ذلك من تهديد بانتزاع الكنيسة الألمانية من الكاثوليكية إلى البروتستانتية، مما قد يفقد الكنيسة الكاثوليكية أراضى واسعة فى ألمانيا.

ثانيا: بعد انتهاء حركة الإصلاح الدينى وعقد صلح أوجزبرج ١٥٥٥ منحت

الحرية الدينية للإمارات فقط ولم يتمنح للأفراد. كذلك فلم يشمل التسامح الدينى الكلفنية مثلما شمل اللوثرية؛ ممـا كان له أثره فى استئناف الصراع من جديد ضد الكاثوليكية.

ثالثا: الإمبراطور فرديناند الـثانى كان يسوعيا تتحكم فيه الأفـكار اليسوعية؛ ولهذا فإنه كان يرى البـروتستانتية إلحادا يجب الحد منه، ولهـذا فقد قام بسلسلة اضطهـادات ضدهم فى أمـلاكه النمـساوية وبروهـيميـا، وجعل اليـسوعيـين هم المتحكمون فى الـحياة الدينية والفكرية مما كان له أثره فـى نشوب حرب الثلاثين عاما فى أوربا.

رابعا: كان الهدف الأساسى للدول المتحاربة فى حرب الثلاثين عاما تحقيق أطماع سياسية، فـالدنمارك كان ملكها كرستيان الرابع يبـغى الحصول على بعض الممتلكات فى الشمال الألمانى لأولاده، وكان ملك السويد جوستاف أدولف يرى أن البلطيـق بحيرة سويديـة، أما فرنسا فإن دخـولها فى الصراع الـدائر فى حرب الثلاثـين عاما كان مـؤكدا حيث إنهـا كانت فى صراع دائـم مع أسرة الهابسـبرج ولايمكن أن تدع مثل هذه الفرصة دون محاولة الانتصار عليها، ولهذا فإنها قررت دخول الحرب لضرب الهابسبرج.

كانت حرب الثلاثين عاما فى مبدئها حربا أهلية إلا أنها اتسعت لتشمل عددا من دول أوربا وهم الـدنمارك، السـويد، وفرنسـا إلى جانب ألمـانيا التـى كانت مسرحا للعمليات، ولقد كانت هذه الحرب فى البداية تتخذ العامل الدينى سببا فى الصراع، إلا أنه سرعان ما اتضحت الأهداف السيـاسية لكل دولة، ونتيجة لتدخل الدول الأوربية تباعا فى الحرب ولتسهيل الدراسـة فقد قسمت حرب الثلاثين عاما إلى أربـعة أدوار وهـى: الدور البـوهيـمـى البـلاتينـى (١٦١٨ ـ ١٦٢٣) والدور الدنمـاركى (١٦٢٥ ـ ١٦٢٩)، الدور السويدى (١٦٣٠ ـ ١٦٣٥) وأخـيرا الدور

السويدى الفـرنسى (١٦٣٥ ـ ١٦٤٨)، وفيما يلى دراسة لأهـم ماجاء فى كل دور من هذه الأدوار:

أولا ـ الدور البـوهيمى البـلاتينى The Bohemian Palatine Period (١٦١٨ ـ ١٦٢٣):

كان الإمبراطور رودلف يسعى إلى تأسيس حكـومة مركزية قوية فى ألمانيا، ولكنه خشى من أن يحدث انقسام سياسى نتيجة الانقسام الدينى، ولهذا عمل على القضاء على هذا البروتـستانت الدينى، وقام باضطهاد أهالى بوهيمـيا البروتستانت بالرغم مـن إصداره تعهـدا بالتسـامح الدينى، إلا أنـه كان يسعـى للقضـاء على البرتستانـت سعيا جديا، وبعد وفاته قام أخـوه الإمبراطور ماتياس بمتابـعة سياسة أخيه العدائية للبروتستانت.

كان طبيعيا ألا يصمت البروتستـانت على الاضطهادات، فقام أهالى بوهيميا بالثـورة فى ١٦١٨ وهاجموا قـلعة براج مقـر الحكومة فى ٢٦ أغـسطس ١٦١٩ وعندما أعلن فرديناند الثانى إمبراطورا رفضه أهالى بوهيميا وأعلنوا فردريك ناخب البلاتين ورئيس الاتحاد البروتستانتى ملكا على بوهـيميا. ونتيجة لانفصال بوهيميا بدأ الإمبـراطور فرديناند الثـانى فى الاستعـداد للحرب وطلب النجـدة من رئيس الحلف الكاثوليكى المقدس مكسمليـان دوق بافاريا، وكان مكسمليان شديد التأثر باليسوعيين، ومن ثم فقد قدم القوات اللازمة للإمبراطور فرديناند واشتبكت قوات الإمبراطـور والحلف المقدس مع قـوات بوهيميـا البروتستانـتية عند موقـعة التل الأبيض White Hill فى نوفـمبر ١٦٢٠ وانـتصرت قـوات الإمبراطور والـحلف الكاثوليكى المقدس، وكانت نتائج موقعة التل الأبيض على الوجه التالى:

١ ـ انضمام لوثرى سكسونيا إلى الإمبراطور: من النتائج الواضحة لانتصار

التل الأبيض انضام أهالى سكسونيا إلـى حزب الإمبراطور الكاثوليكى الأمر الذى أدى إلى تفكك الاتحاد البروتستانتى على بوهيميا مواجهة الموقف منفردة.

٢ ـ اضطهـاد بروتسـتانت بـوهيـميا: ونتـيجـة لانتصـار التل الأبـيض رأى الإمبـراطور فرديـناند الثانى أن يـقوم بمـواصلة سلسلـة الاضطهادات التـى بدأها الإمبراطـور رودلف الثانى من قـبل للقضاء علـى البروتستانـت فى بوهيميـا حتى يتمكن من تكوين الحكومة المركزية القوية فى ألمانيا بأمان ودون قلاقل، ومن ثم فقد قام بـقتل نبلاء البروتسـتانت فى بوهيميـا وانتزاع أراضيهم وسلمـها إلى نبلاء كاثوليك، وبهذا فقـد تدهورت الأحوال الاقتصادية فى بوهيميـا وأصبح الفلاحون البوهيميون فى عداد الأرقاء.

٣ ـ اضطهاد فردريك رئيس الاتحـاد البروتستانتى: أصدر الإمبراطور قرارا باعتبار فردريك ناخب البلاتينات ورئيس الاتحـاد البروتستانتى خارجا على القانون وطرده من الإمبراطورية وسلم أملاكه فى البـلاتينات إلى مكسمليان رئيس الحلف الكاثوليكى المقدس والذى دخل فى مجموعة مـن المعارك الصغيرة لتحقيق ذلك القرار الإمبراطورى.

٤ ـ تعاطف دول أوربا البروتستانتيـة مع بروتستانت ألمانيا: جذب اضطهاد الإمبراطور فرديناند الثانى لأهالى بوهيميا عطف الدول الأوربية البرتستانتية، وكان من أوائل من أثارتـهم هذه الاضطهادات جـيمس الأول ملك إنجلـترا، إلا أنه لم يكن يريد الدخول فى حرب حقيقية، حـيث إنه كان قد بدأ فى سياسة تهدف إلى السـلام فى القارة عـن طريق التـفاهم بيـن أكبـر دولة بروتسـتانتـية وأكبـر دولة كاثوليكية، وتم هذا بالـفعل بين إنجلترا وأسبانيا إلا أنه طلب من أسـبانيا التدخل للعفو عن فردريك ناخب البلاتينات والذى كان والدا لزوجته. وكذلك فقد أثارت هذه الاضطهادات صاحب سافوى شارل عمانوئيل والذى لم يكن يرغب هو الآخر

فى الدخول فى حرب معلنة وإنما قام بتقديم الأموال اللازمة للاتحاد البروتستانتى لتكوين جيش له؛ وممن أثارته هذه الاضطهادات أيضا الملك كرستيان الرابع ملك الدنمارك ولكنه كان الوحيد الذى تحرك فعلا لنجدة البروتستانت الألمان.

ثانيا ـ الدور الدنماركى The Danish Period (١٦٢٥ ـ ١٦٢٩):

إثر قرار الملك كريستيان الرابع ملك الدنمارك بالدخول فى الحرب الدائرة فى ألمانيا انتقل ميدان الحرب من الجنوب إلى الشمال الألمانى، وهنا كان على الملك كريستيان الرابع أن يواجه جيش الحلف الكاثوليكى المقدس بقيادة تيلى Tilly وجيش الإمبراطور، وكان جيش الحلف المقدس هو الذى أدى إلى انتصار الإمبراطور فى بوهيميا، وكان الإمبراطور يريد أن يكون جيشا يوازن به بين قوات الحلف الكاثوليكى المقدس وحتى لايخضع للحلف إلا أنه وجد أن تحقيق هذه الفكرة يحتاج إلى الأموال الضخمة فى وقت لم يكن فى استطاعته تدبير هذه الأموال.

إلا أن والنشتين ـ وهو أحد نبلاء الكاثوليك فى بوهيميا ـ تقدم إلى الإمبراطور عارضا يحقق للإمبراطور هدفه من تكوين جيش، وذلك عن طريق نشر وعوده بالمرتبات المغرية للجنود هذا إلى جانب الغنائم والأسلاب التى تنتج عن الحروب، ولهذا فقد لاقت دعوة والنشتين هذه ترحيبا وقبولا من الشعب فى ألمانيا وربما كان مبعث ذلك سوء الأحوال الاقتصادية السائدة فى ألمانيا حينئذ، وكان هدف والنشتين من هذا كله هو فرض السيطرة على الإمارات الألمانية المبعثرة وتكوين دولة ألمانية قوية، وكان لهذه السياسة أثرها فى كراهية الأمراء فى هذه المناطق لوالنشتين.

وفى هذا الدور انتصرت قوات الإمبراطور والحلف الكاثوليكى على قوات

كريستيــان واستطاع طرد الملك الدنماركــى من سيليزيا وكان فى مقــدرته الهجوم على الدنمارك ذاتها إلا أنه اكتفى باحتلال مكلنبرج Mecklenlerg .

بعد انــتصار الجيــش الكاثوليكــى وجيش الإمبــراطور على ملك الــدنمارك كريستيان الرابع انتصارا كبيرا رأى والنشــتين فى أن يستكمل سياسته التى سبق وأن بدأها فعلا إذ أراد أن تكون له أملاك مثله مثل بقية الأمراء فى ألمانيا، ومن ثم فقد أنشأ إمارة له علــى أحد فروع نهر الأودر وطلب من الإمبراطور ضــم الدوقية التى استولى عليها تلى (مكلينبرج) وأراد تأسيس مستعمرات بحرية لألمانيا ولكن داخل القارة، ومن ثم فقد اختار أن يكون مقر هذه المــستعمرات ساحل البلطيق، ولهذا فقد حاصر ستر السند إلا أن حصاره لســتر السند وضمه لدوقيات وتأسيس إمارات خاصة به أثارت الرأى العــام للأمراء الألمان ضد هذا المغامــر، ومن ناحية أخرى فقــد تخوف أعضــاء الحلف الكاثوليــكى من أطماع والنــشتين وازدياد نــفوذه فى المنطقة مــما قد يعود بأسوأ الأثر عــلى الحلف بعد ذلك، ولهذا لــم يشأ الحلف تقديم المســاعدات العسكرية له؛ كما أن تحــركات والنشتين تجاه البــحر البلطيق أثارت مخاوف السويد الــتى كانت ترى أن البحر البلطيق بحــيرة سويدية، ومن ثم أرسلت أسطــولا لمساعــدة ستر الــسند، بينمــا أرسلت هولندا وفــرنسا وإنجــلترا المســاعدات العسكرية للــدنمارك، ولهذا فقــد هزم والنشتين وطلــب الصلح من الملك كريستيان الرابع ملك الدنمــارك، وتم عقد الصلح الذى عرف بصلح لوبك Labeck وقضى بأن يسترد الملك الدنماركى أمــلاكه بشرط ألا يتدخل فى الشئون الألمانية مرة أخرى.

ولكن الإمبراطور أراد استغلال قوته فى تنفيذ سياسته القديمة وهى الحد من سلطة البروتستانت والقضــاء عليهم، ومن أجل هذا أصدر فى مارس ١٦٢٩ قرارا يعرف باسم مرسوم استــرجاع أملاك الكنيسة The Edict of Restitution، ومعنى

هذا أن ترد إلى الكنيسة الكاثوليكية ما أخذ منها منذ ١٥٥٢ شاملة ما أعطاه صلح بساو وأوجزبرج للبروتستانت، وكان لهـذا المرسوم أسوأ الأثر على ألمانيا كلها إذ اضطر البروتستانت إلى أن ينبذوا خلافاتـهم الداخلية وأن يواجهوا الخطر المحدق بهم وخاصة أن جيوش والنشتين كانت قد بدأت فى تنفيذ قرار الإمبراطور بل إنهم قاموا بأعمال السلب والنهب.

إلا أن ريشيليو الوزير الفرنسى ـ كان يبغى إعلاء شأن فرنسا بين دول أوربا ـ استطاع التقرب إلى الأمـراء الكاثوليك المتطرفين فى ألمانيـا وطلب منهم الوقوف فى وجه الإمبـراطور وأن يطلبوا منه عزل والنشـتين، حيث إن ريشيلـيو كان يريد تحطيم قوة الهابـسبرج من غير الدخول معهم فى حـرب، ورأى أن والنشتين هذا صخرة أمام فرنسا، ولهذا فقد طلب من أمراء الكاثوليك أن يعملوا على عزله.

وقد أتت أعمال ريشـيلو بنتائج إيجابية إذ إن الحلف الـكاثوليكى طلب من الإمبراطور فى مجـلس الدايت فى يوليو ١٦٣٠ بضرورة عزل والنشـتين لطموحه المتزايد، عبثا حاول الإمبراطور أخذ موافقة أعضاء الحلف على أن يعزل والنشتين فى مقابل أن يكون ابنه ملكا، ولكنهم رفضوا هذا واضطر الإمبراطور إلى الموافقة على طلب الحلف مرغما وعزل والنشتين وبذلك أنقذ البروتستانت من مصير سيئ بسبب عبث جيوش والنشتين.

إلا أن فرنسا لم تـكف عن الكيد للهابسـبرج حيث إن ريشيلو اسـتمر فى تقديم الإغراءات لجـوستاف أدولف ملك السويد للدخـول فى الحرب؛ فى وقت كانت قوة الإمبراطور قد تدهورت بعد عزل والنشتين.

ثالثا: الدور السويدى The Sweddish Period (١٦٣٠ ـ ١٦٣٥):

رأى الإمبـراطور فردينانـد الثانى أن قـوته قد بدأت فى الـتدهور بعـد عزل والنشتين، ولهذا فإنه كان يعمل على تهـدئة الأحوال فى ألمانيا تجاه البروتستانت

وعمل على إرضائهم ببعض العروض إلا أنه لم يكن يعلم أن السبب الحقيقى فى هذه الاضطرابات هو مرسوم استرجاع أملاك الكنيسة، ولذا لم يعمل على سحب هذا القرار، وكان ذلك سببا فى عدم قبول البروتستانت لعروض الإمبراطور، كما أن البروتستانت رأت أن ملك السويد البروتستانتى قد بدأ فى استعدادته لنصرة بروتستانت ألمانيا حيث إنه قام بإنزال خمسة عشر ألفا من قواته إلى الأراضى الألمانية استعدادا للقتال.

كان هدف ملك السويد جوستاف أدولف من الدخول فى الحرب ليس فقط لحماية بروتستانت ألمانيا؛ لأنه كان بروتستانتيا؛ لكن السبب الفعلى كان سياسيا؛ حيث إن جوستاف أدولف كان يرى أن بحر البلطيق بحيرة سويدية ـ كما سبق وأن أشرنا ـ ولهذا فإنه كان قد دخل فى حروب مع بولندا وروسيا تحقيقا لهذا الهدف، ثم جاءت تحركات والنشتين تهديدا لنفوذ السويد التجارى والسياسى فى بحر البلطيق، وقد كان والنشتين قائد جيش الإمبراطور فرديناند الثانى الهابسبرج، ومعنى هذا أنه من الممكن أن تتكرر هذه التعديات مرة أخرى من قائد آخر غير والنشتين بعد ما عزل، ولتأمين السويد من هذا الخطر القائم رأى جوستاف أدولف أن يضع حلا نهائيا عن طريق العمل على القضاء على سلطان الهابسبرج فى ألمانيا حتى يأمن على مصالح دولته تماما من أى خطر قد يتهددها.

بدأ الملك السويدى جوستاف أدولف فى التحرك بقواته من أوزدم Usedom إلى بوميرانيا Pomerania فى يونيو ١٦٣٠، كما اتجه جوستاف أدولف إلى استقطاب الأمراء البروتستانت لدعمه ماديا ومعنويا وأرسل إليهم يدعوهم للانضمام إليه إلا أن استجابتهم لمنشوره هذا كانت سلبية حيث إنهم لم يكونوا يؤيدون أى تدخل أجنبى فى بلادهم، هذه واحدة. والثانية أنهم لم يكونوا يثقون فى قوة جوستاف أودولف العسكرية، ولهذا فإنهم كانوا يخشون أن تتكرر مأساة تخاذل كريستيان الرابع ملك الدنمارك.

إلا أن جيش تيللى انتهز فرصة وجود الملك جوستاف أدولف فى شمال ألمانيا وأراد القصاص من الأمراء البروتستانت اعتقادا منه أن هذه الخطوة سوف تمنعهم من الانضمام إلى الملك السويدى وأوقع بهم هزيمة منكرة فى مجدبرج Megdeburg سنة ١٦٣١ . وهنا اقتنع البروتستانت الألمان بضرورة الانضمام إلى قوات جوستاف أدولف وكان فى مقدمة أمراء البروتستانت جون جورج ناخب سكسونيا وجورج وليام ناخب براندبرج .

حينئذ بدأ جوستاف أدولف فى التحرك تجاه القوات الإمبراطورية وأوقع أول هزيمة بقوات الإمبراطور فى سبتمبر ١٦٣١ فى واقعة برايتنفلد Brientenfeld، وقد كان هذا الانتصار سببا فى رفع الروح المعنوية لدى البروتستانت المحاربين فى جيش جوستاف، بل إن المسالمين فى المدن رحبوا به كمخلص لهم من الكاثوليك؛ ومن هذا المنطلق اندفع جوستاف فى الانقضاض على جيوش تيللى أينما تحركت فأوقع بها الهزيمة على الراين والدانوب ووقعت بافاريا وميونيخ فى يد جوستاف أودولف وأصبح على مقربة من العاصمة فيينا(١).

وهنا رأى الإمبراطور فرديناند الثانى أن عبقرية والنشتين العسكرية هى الحل الوحيد لإنقاذ ألمانيا من خطر جوستاف أودلف أرسل الإمبراطور يطلب من والنشتين العودة إلا أن والنشتين اشترط أن تكون القيادة المطلقة للجيش له دون منازع فقيل.

وعلى ذلك فقد بدأت معارك أوربية قاسية بين أعظم وأكبر قائدين فى ذلك الوقت وهما جوستاف أدولف ملك السويد ووالنشتين قائد الجيش الإمبراطورى وكانت بداية المعارك فى نورمبرج Nuremberg فى صيف ١٦٣٢ ثم فى لتزن Lutzeu فى نوفمبر ١٦٣٢، وقد أسفرت هذه المعارك عن هزيمة جيش الإمبراطور فرديناند بقيادة والنشتين ولكن الهزيمة الأكبر كانت للسويد حيث إنها قد فقدت مليكها الذى جلب لها النصر إذ لقى حتفه فى معركة لتزن.

(١) كانت ميونيخ عاصمة الحلف الكاثوليكى المقدس.

وبعد موقعة لتزن ومقتل جوستاف أدولف بدأ والنشتين فى زيادة أطماعه السياسية حيث إنه بدأ فى المفاوضات مع فرنسا والسويد، وربما كان والنشتين يرغب فى القضاء على أسرة الهابسبرج فى الداخل حتى يرث حكمهم فى ألمانيا، ولذلك فقد بدأ الإمبراطور فرديناند الثانى فى التشكك من ولاء والنشتين بعدما أظهر نواياه السيئة بمحاولة التفاوض مع السويد وفرنسا، ولذا وجه له الإمبراطور تهمة الخيانة العظمى، ولما كان الإمبراطور لايرغب فى حرب أهلية مع والنشتين دبر له مؤامرة وقتل فى ٢٥ فبراير ١٦٣٤ عند بلدة إيجر Egta.

وبعد مقتل جوستاف أودولف كانت ابنته كرستينا قد تولت الحكم وتولى الوصاية عليها وزيره اكسنشترنا والذى حاول عبثا الاستمرار فى الحرب معتمدا على تلاميذ جوستاف أودولف إلا أنه كان مخطئا، ذلك أن التخطيط العسكرى السليم والقيادة الرشيدة قد فقدت مع وفاة الملك، وثبت ذلك حينما هزمت القوات السويدية فى موقعة نوردلنجن Nordlingen فى ٦ سبتمبر ١٦٣٤ أمام جيش الإمبراطور بقيادة ابن الإمبراطور.

وبعد هذه الهزيمة التى منى بها الجيش السويدى رأت فرنسا أنه لايمكن الاعتماد على أية قوة خارجية أخرى لتحقيق هدفها فى القضاء على الهابسبرج حيث إن الساحة كانت خالية من قائد قوى يمكن الاعتماد عليه فى تحقيق رغباتها عن طريق تقديم الأموال أو الإغراءات، ورأى ريشيليو أن انتهاء الحرب قد بدا فى الأفق، ومعنى هذا ضياع فرصة فرنسا لتأكيد تفوقها على الهابسبرج؛ ولهذا كان عليها دخول الحرب بالفعل فأعلنت فرنسا الحرب على فرعى الهابسبرج فى النمسا وأسبانيا سنة ١٦٣٥ .

رابعا: الدور السويدى الفرنسى The French - Swedish Period (١٦٣٥ ـ ١٦٤٨):

جاءت تلك الحرب لخدمة مصالح فرنسا السياسية، وقد كانت فى توقيت مناسب جدا للأحداث السياسية فى ألمانيا لسببين: الأول الاستفادة من السويد لإضعاف ألمانيا والثأر من هزيمة نوردلنجن، أما السبب الثانى وهو إقالة البرتستانت بعد هزيمتهم.

وعلى هذا فقد بدأت الحرب فعلا بين الإمبراطور من جهة والسويد وفرنسا من جهة أخرى، وقد تم وضع خطة للهجوم السويدى الفرنسى على ألايكون الهجوم مشتركا، بل أن تهجم فيه القوات السويدية بقيادة أكسنشترتا من البحر البلطى بإتجاه القلب الألمانى حتى يتم تطويق الإمبراطور وتشتيت قواته العسكرية إلا أن هذه الخطة فشلت بالرغم من أن الإمبراطور كان يحارب بجيشه فقط دون أية مساعدة من الشعب الألمانى، إذ إنه استطاع إنزال الهزيمة بالجيش السويدى وبالجيش الفرنسى سنة ١٦٣٦ وأجبر كلا منهما على الارتداد إلى بلاده، ووجدت قوات الإمبراطور أن أسلم الطرق للقضاء على هذا الهجوم هو تهديد فرنسا ذاتها، ومن ثم فقد توغلت قوات الإمبراطور فى فرنسا وهددت العاصمة الفرنسية باريس.

استطاع السويديون من استعادة قواهم وانتصروا على قوات الإمبراطور المتواجدة فى ويتستوك Wittstock أكتوبر ١٦٣٦، وكان لهذا الانتصار أثره الفعال إذ نشطت قوات فرنسا العسكرية القابعة فى بلادها وقاموا بطرد قوات الإمبراطور فى الوقت الذى كانت فيه قوات السويد تواصل انتصاراتها فى ألمانيا واستطاعت الاستيلاء على براندبرج، سكسونيا، بوميرانيا وتورنيجيا وجزء من فرنكونيا وقد حاول البابا أربان الثامن التدخل لعقد الصلح إلا أن محاولته فشلت، وفى وسط

هذه الأحداث توفى الإمبـراطور فرديناند الثانى سنة ١٦٣٧ وخلفـه فى الحكم ابنه فرديناند الثالث الذى كان ينقص كثيرا عن أبيه فى المقدرة والخبرة العسكرية والدبلوماسية.

استغل الفرنسيون هذه الأحداث واستولوا على الإلزاس على وعبثا حاول الإمبراطور الجديد فرديناند الثالث طلب الصلح سنة ١٦٤٠ لكنه لم يلق أى قبول وتمكن السويديون من القيام بسلسلة من الانتصارات ضد القوات الإمبراطورية وزحفوا فى الأراضى الألمانية حتى أصبحوا على مقربة من فينا.

وفى وسط هذه الأحداث توفى الوزير ريشيليو الفرنسى وخلفه مازران الذى رأى ضرورة مواصلة السير فيما بدأه ريشيليو من قبل، ومن ثم فقد انتصر قائده كونديه سنة ١٦٤٣ على القوات الأسبانية واستولى على ثيونفيل، ثم انتصر فى فرايبورج، وأخيرا فى ونوردلنجن سنة ١٦٤٥، وفى نفس العام كان السويديون قد زحفوا على بوهيميا واتحدت القوات الفرنسية والسويدية بعد ذلك سنة ١٦٤٦ وأصبح جيشا مشتركا وخرب هذا الجيش بافاريا وأوقعوا الهزيمة بالقائد البافارى مكسمليان سنة ١٦٤٨.

وبعد هذه الحرب الطويلة كانت التعب والإعياء قد بدأ يظهران على الدول المتصارعة (السويد ـ فرنسا) وشعر الإمبراطور الجديد فرديناند الثالث أنه لاطاقة له على الاستمرار فى الحرب فى الوقت الذى أحجم الشعب عن مساعدته؛ولهذا فقد عمل الإمبراطور على فتح باب المفاوضات مع كل من السويد وفرنسا، وفى النهاية تم التوصل إلى عقد صلح وستفاليا فى ٢٤ أكتوبر سنة ١٦٤٨ الذى أنهى حرب الثلاثين عاما.

صلح وستفاليا ١٦٤٨:

من المؤكد أن صلح وستفاليا من الوثائق التاريخية الهامة فى العصر

الحديث حيث إنه يشتمل على العديد من المسائل المتعلقة بوضع ألمانيا الحديثة والعلاقات بين المعسكرين البروتستانتى والكاثوليكى، هذا بالإضافة إلى أن صلح وستفاليا كان وثيقة سارت عليها العلاقات الدولية فى أوربا وحتى الثورة الفرنسية ١٧٨٩.

أولا ـ التسويات الدينية:

١ ـ كان صلح بساو ١٥٥٢ وصلح أوجزبرج الـ ١٥٥٥ هو الأساس الذى أقيمت عليه التسويات الدينية فى صلح وستفاليا، إذ تقر أن يكون لكل أمير حرية اختيار المذهب الذى يسرى فى إمارته، وأن يشمل التسامح الدينى الكلفنية مثلما شمل اللوثرية(١).

٢ ـ أما فيما يتعلق بمسألة أملاك الكنيسة الكاثوليكية، فقد تم الاتفاق على اتخاذ عام ١٦٢٤ تاريخا ليحتفظ كل فريق بما فى يديه من أراضى وأسقفيات وإلغاء ماصدر فى صلح براج ١٦٣٥، وبهذا فقد أصبحت أملاك البروتستانت من أراضى وأسقفيات وأديرة مركزة فى الشمال، بينما أصبحت الأراضى والأسقفيات والأديرة الكاثوليكية مركزة فى الجنوب.

ثانيا ـ توزيع الأراضى:

١ ـ **السويد**: حصلت السويد على الأملاك التى حققت الهدف الذى كان يسعى إليه الملك الراحل جوستاف أدولف، حيث إنها حصلت على أسقفية برمن وفردن بالإضافة إلى الجزء الأكبر من بوميرانيا الغربية.

٢ ـ **فرنسا**: حصلت فرنسا على بلاد الألزاس النمساوية وبريستاك باستثناء

(١) وبالرغم من أن صلح وستفاليا قد اعترف بالمذهب الكلفنى إلا أنه لم يمنح التسامح الدينى للأفراد.

مدينة ستراسبورج وتدعم امتلاك فرنسا لتول ومتز وفردان، وكانت قد حصلت عليها سنة ١٥٥٢ وبالإضافة إلى ذلك حصلت على قلعة بينزولو الإيطالية.

ثالثا ـ التعديلات السياسية فى ألمانيا:

١ ـ حصل الأمراء الألمان فى صلح وستفاليا على قدر من الاستقلال بعيدا عن سلطة الإمبراطور، حيث أصبح من حق الأمراء عقد المعاهدات السياسية فيما بينهم ومع الدول الأجنبية مما كان له أكبر الأثر فى تفكك أوصال الألمان.

٢ ـ أصبح ناخب براندبرج هو الذى يلى الإمبراطور فى الأهمية إذ إنه وبعد ماسلبت منه بومبرانيا الغربية حصل على تعويض فى أسقفيات مجدبرج، وغيرها كما أنه دعم حقوقه الوراثية فى بوميرانيا الشرقية وسيطر على دوقية كليف ورافنزبرج، وبهذا فقد أصبح هذا الأمير أقوى الأمراء الألمان قاطبة وأصبحت براندنبرج وماليها هى نواة لمملكة بروسيا الحديثة.

٣ ـ حصل مكسمليان دوق بافاريا على لقب ناخب واحتفظ بالبلاتينات العليا واستقلت بافاريا.

٤ ـ أخذ شارل لويس ابن فردريك الخامس[١] لقب ناخب أيضا مما كان له أكبر الأثر فى زيادة الدوائر الانتخابية فى ألمانيا وحصل على البلاتينات السفلى.

٥ ـ توصلت سويسرا فى هذا الصلح على استقلالها فعليا وانحلت من ارتباطاتها القديمة التى كانت تربطها بالإمبراطورية، كما أن هولندا حصلت على استقلالها هى الأخرى.

وكان لكل هذه البنود أثرها على ألمانيا حيث إنها ظلت مفككة ولايجمع الأمراء سوى مجلس الديت أو المجلس الإمبراطورى فقط.

(١) رئيس الاتحاد البروتستانتى السابق والذى أصبح ملكا على بوهيميا فى بداية حرب الثلاثين.

الأحوال العامة فى القارة بعد صلح وستفاليا:

أولا: لم تعد الصراعات بين الكاثوليك والبروتستانت أمرا مستساغا بعد ذلك فى أوربا وأصبح الاضطهاد للبروتستانت أمرا شاذا مما كان له أكبر الأثر فى توطيد دعائم البروتستانتية فى العالم الأوربى؛ وإذا كان صلح وستفاليا لم يصرح بالحرية الدينية للأفراد إلا أنه ومع تقادم العهد أصبح هذا التسامح والحرية الدينية الفردية شيئا لابد منه ومعترفا بها دوليا وأصبح أحد مبادئ الثورة الفرنسية بعد ذلك والذى روج له مفكرو فرنسا.

ثانيا: يتضح أن الدول الأوربية وبالأخص الإمبراطورية كانت تخشى أن يحدث انقسام سياسى نتيجة الانقسام الدينى، وهذا مادفع الإمبراطور رودلف الثانى إلى اضطهاد البروتستانت وكانت الشرارة لبدء حرب الثلاثين عاما، إلا أن ماكان يخشاه حدث بالفعل

ثالثا: بدأت الدول الأوربية فى هذه الفترة فى التحلل من سيطرة الكنيسة على بلادها فلم تعد للكنيسة باختلاف المذاهب، أى سلطة داخل الدول سوى سلطتها الروحية التى لايمكن أن تملأها مؤسسة غير الكنيسة، أما المتحكم الأول والأخير فى شئون الدولة كان هو الملك فقط دون منازع.

ملاحظات عامة على حرب الثلاثين عاما:

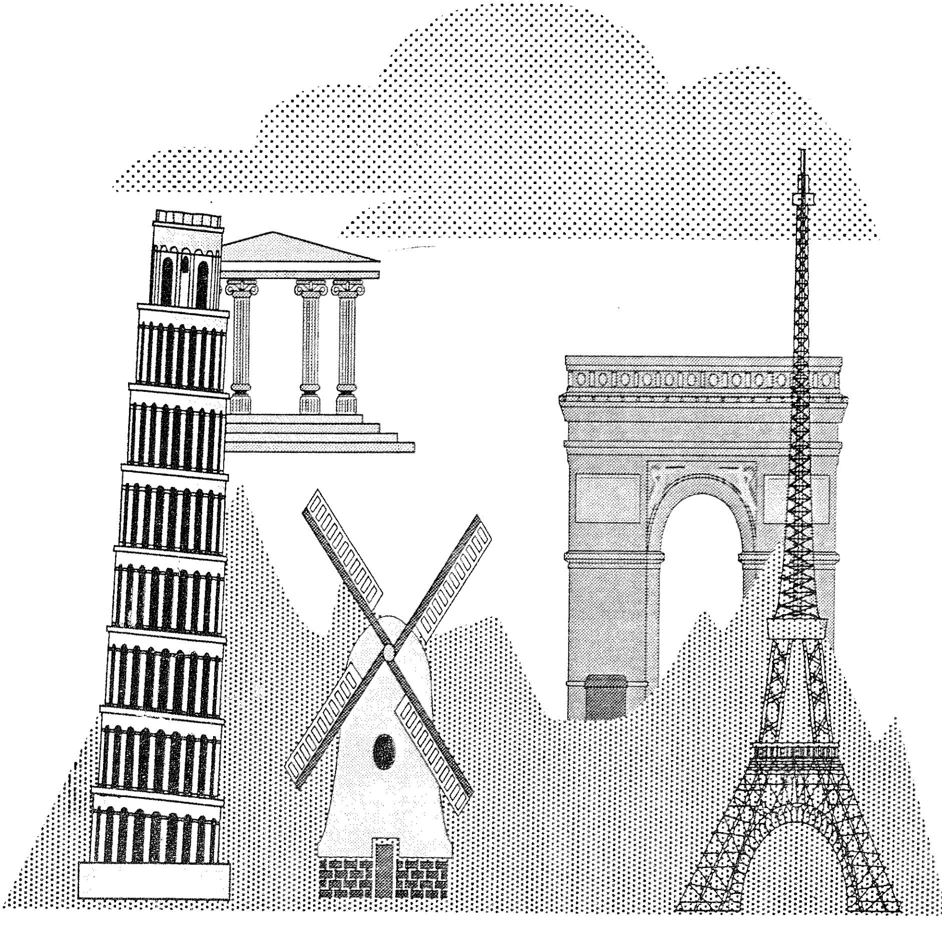
بالرغم من أن حرب الثلاثين عاما كانت فى منشئها حربا دينية إلا أنها سرعان ماسعت لتحقيق أطماع سياسية واقتصادية للدول الأوربية المختلفة، ومن ذلك أن السويد والتى لم تكن لها أية اهتمامات دينية أو سياسية فى القارة نجدها قد دخلت الحرب من أجل الحفاظ على مصالحها السياسية والاقتصادية فى بحر البلطيق بعدما رأت تهديد والنشتين لها، كما أن فرنسا كانت تسعى للقضاء على

الهابسبرج كانت تدعم الأطراف المعادية للهابسبرج فى الحرب، وبعد ذلك نجدها تتدخل فى الحرب فعلا بحجة حماية بروتستانت ألمانيا بالرغم من أنها كاثوليكية؛ ولهـذا فإن حـرب الثلاثيـن فى دورها الأخـير مـرحلة من مـراحل الصـراع بين الإمبراطورية وفرنسا.

كان استخـدام الجنود المرتزقة أمرًا عاديـا فى ذلك الوقت فى أوربا، إلا أن هؤلاء الجنود لم يكن يـعنيهم سوى مصلحتـهم الشخصية مما كـان له أكبر الأثر على أوربا، إذ إن هؤلاء الجنود كانوا سببا فى اضطراب الوضع فى أوربا فى ذلك الوقت، ومن ذلك مـا أحدثته هذه القوات من أعـمال سلب ونهب مع والنـشتين وكذلك ضـد بروتستانت ألـمانيا بعـدما أصدر الإمبـراطور قرار استرجـاع أملاك الكنيسة.

الفصل السابع

فرنسا فى القرن السابع عشر



ريشيليو (١٦٢٤ ـ ١٦٤٢):

وقعت البلاد الفرنسية فريسة الفوضى والتدهور الثقافى والسياسى بسبب وصاية مارى ديمدتشى على لويس الثالث عشر حيث إنه تولى الحكم وهو صغير السن فتولت الوصاية عليه وكان سبب هذه الفوضى والاضطرابات هى أنها كانت أسبانية فى الوقت الذى كانت فيه أسبانيا عدوة الشعب الفرنسى مع أنها كانت تعمل على إقامة علاقات طيبة بين فرنسا وأسبانيا، وهذا ما أصاب البلاد بالاضطراب والفوضى وانقسام الرأى العام.

وتم دعوة مجلس طبقات الأمة فى ١٦١٤ للانعقاد لمواجهة الأزمة إلا أن هذا المجلس لم يسفر عن شيء حيث إنه كان قاصرا على إبداء المشورة والرأى السديد للحكومة فقط وتهيأ المناخ لظهور شخصية قوية من رجال الدين وهو ريشيليو الذى دعا إلى إباحة شغل الوظائف المدنية والسياسية لرجال الدين واظهر تعاطفه مع البيت الحاكم، وتولى ريشيليو ١٦١٦ وزارة الخارجية إلا أنه اضطر إلى الاستقالة بعد ماقتل المستشار الإيطالى للوصية ولكنه عندما عاد إلى الشئون السياسية سنة ١٦٢٤ أصبح ذا نفوذ كبير وسلطان واسع إذ إنه أضحى رئيسا للوزراء والحاكم بأمره المطاع؛ وذلك لأن الملك لويس الثالث عشر أحس بصدق نيته وحبه للأسرة الحاكمة ورغبته فى إعلاء شأن فرنسا داخليا وخارجيا، ولهذا فإنه أطلق يده فى الشئون الفرنسية.

سياسة ريشيليو الداخلية:

كان هدف ريشيليو هو تحقيق النمو، والتقدم لأمته الفرنسية، ولذا فإنه كان يرى أن أطماع الهابسبرج فى أوربا تقف حائلا دون تحقيق الهدف، ولهذا كان يهدف إلى الحد من سلطانهم، ولكنه كان يعلم أنه لايستطيع القيام بهذا الدور مادامت الأحوال الداخلية غير مستقرة؛ ولهذا فإنه كان يعمل على إصلاح الجبهة الداخلية فى البلاد حتى يستطيع تحقيق هدفه هذا، ومن هنا نرى أن سياسته

الخارجية كانت مرتبطة بالسياسة الداخلية، ويتضح هذا من مقولته «عندما شرفتمونى جلالتكم بالمشاركة فى مجالسكم الاستشارية، تبينت بصدق أن الهيجوفوت يشاركونكم فى الحكم؛ وإن النبلاء كانوا يسلكون سلوكا لايدل على أنهم من رعاياكم، كما كان رؤساء الأقاليم منهم يتصرفون وكأنهم حكام مستقلون، وقد أهمل شأن المعاهدات الأجنبية؛ وتغلبت المصالح الخاصة، كما تبينت أن قدر جلالتكم قد تضاءل بحيث كان الناس لايشعرون به، وإنى أعاهد جلالتكم على أن أستغل كل جهودى ونفوذى لتحطيم طائفة الهيجونوت، والحط من كبرياء النبلاء، وأن أسوق كل الرعايا نحو تأدية ما عليهم من واجبات وأن استرد لفرنسا صيتها بين الشعوب الأجنبية.

سياسة ريشيليو تجاه الهيجونوت:

الهيجونوت هم الفرنسيون البروتستانت الذين حصلوا بمقتضى مرسوم نانت ١٦٠٤ على امتيازات سياسية وعسكرية كبيرة، حيث إنه أصبح من حقهم امتلاك الحصون والقلاع فى المدن المختلفة حتى وصلت إلى المائة، كما كانت لهم مجالسهم الخاصة والتى يناقشون فيها المسائل السياسية والدينية وقد رغب الهيجونوت إلى تدعيم قدراتهم العسكرية وبالفعل تم لهم ذلك حتى أضحت قوة الهيجونوت قوة لايستهان بها فى فرنسا.

أصبح الهيجونوت خير عون لأعداء الملكية الفرنسية فى الداخل، ومن ذلك أن كونديه الذى عادى الملكة الوصية مارى ديمدتشى استعان بهم، كما أن مارى نفسها استعانت بهم عندما عزلت عن الحكم؛ ولهذا رأى ريشيليو ضرورة القضاء على هذه القوة بضرب أقوى معاقل الهجيونوت وهو حصن لاروشيل، حيث حاصره لمدة خمسة عشر شهرا استطاع بعدها استعادته فى أكتوبر ١٦٢٨ . وهنا ظهر تسامح ريشيليو الدينى حيث إنه أمن الأهالى على حريتهم وأموالهم ودينهم وسمح لهم بإقامة شعائرهم الدينية كيفما شاءوا دون التعرض لهم.

ثم اتجه إلى جَنوب فرنسا وهزم الهيجونوت فى معركة حاسمة وعقد معهم فى سنة ١٦٢٩ صلحًا أكد فيه ريشيليو على الشروط الدينية التى منحها لهم مرسوم نانت، ولكنه سلب منهم امتيازاتهم السياسية والعسكرية فأصبحوا طائفة دينية فقط لهم معتقداتهم وشعائرهم الدينية التى تحترم دون التعرض لهم.

عمل ريشيلو أيضا على القضاء على قوة نبلاء فرنسا والانقضاض على نفوذهم السياسى، حيث إنهم كانوا عقبة أمام الملكية الفرنسية فى الداخل، فقد كان النبلاء يتمتعون بسلطة جمع الضرائب إلى جانب بعض الامتيازات.

ومن ثم وفى سبيل تحقيق هذا الهدف فإن استخدام Intendonts de Rois(١) بمعنى عمال الملك للقيام بالأعمال الإدارية داخل الأقاليم، وبهذا يحد من سلطة النبلاء فى الأقاليم. وكان هؤلاء العمال موالين للملكية الفرنسية، وبالرغم من هذا فإن النبلاء فى فرنسا ظلوا قوة، ولذا لم ينجح ريشيليو فى القضاء عليهم مثلما قضى على الهيجونوت.

كان ريشيليو واثقا فى قدراته الإدارية والسياسية، ولهذا فإنه لم يكن يعبأ بمعارضة المعارضين له سواء أكانوا رجال دين أم نبلاء أم رجال القصر وسيداته وكان يعمل من أجل استقرار حكم البربون فى فرنسا وخارجها، ولهذا فإنه كان يقوم بمراقبة جميع الموظفين فى الدولة من أصغر موظف وحتى الوزير رقابة فعالة ومباشرة بحيث لايترك له أية فرصة للتلاعب أو التهاون فى المسائل الهامة الداخلية.

إلا أن ريشيليو لم تكن له دراية بالشئون المالية والاقتصادية فى البلاد، ولهذا لم يكن فى استطاعته حل مسألة اضطراب ميزانية الدولة وشئونها الاقتصادية لكنه حاول إنعاش اقتصاد البلاد الداخلى عن طريق التقليل من عدد المعفيين من ضريبة العقار، حيث إنه وجد أن الأراضى الخاصة بالكنيسة والبلاط والنبلاء معفاة

(١) أصبح هؤلاء العمال فيما بعد مستبدين بالأمور فى فرنسا وأصبحوا كالأمراء والنبلاء حتى قضت عليهم الثورة الفرنسية ١٧٨٩م.

من الضرائب تقريبا ومن ثم أصدر مرسوما عـام ١٦٣٤ لتحديد عدد المعفيين من هذه الضريبة.

اهتمام ريشيليو ببناء قوة عسكرية فرنسية:

بالرغم من أن فرنسا قد دخلت فى الحـروب الإيطالية، وبالرغم من أنها لم تجن من ورائها نتائج تذكر، وبالرغم من اشتراكها فى حرب الثلاثين عاما فى عهد ريشيليو، إلا أن ريشيليو كان يرى أن قوة فرنسا العسكرية لاتزال ضعيفة لاتتناسب مع دولة مثل فرنســا، فعندما كان ريشيليــو يقاوم الهيجونوت واشتبـك معهم عند حصن لاروشيــل، وفى جنوب فرنسا كـانت القوات الفرنسـية حينئذ سـتين ألف جندى وزيد هذا العدد مـرة أخرى سنة ١٦٣٨ حتى وصل عددهم مائـة وخمسين ألف جندى.

وبالرغم من جهود ريشيليو فى بـناء الجيش الفرنسى، إلا أنه كان يؤمن بأن الشعب الفرنسى شعب بحرى مرتبط بالبحار لاتساع السواحل الفرنسية؛ ولهذا فإن ريشيليو كان يرغب فى الدخول فى مضـمار الاستعمار الخارجى، ولكن هذا كان يتطلب وجود أسـطول قوى وهذا ما لم يكن متـوافرا، حيث إن فرنسا حـتى عهد ريشيليو سنة ١٦٢٤ لم تكن تمتلك أسطولا قويا لـحماية تجارتها والقيام بالتجارة عبر البـحار، ولهذا فكثيرا مـا كانت السفن الفرنـسية القادمة من الخـارج تتعرض للغرق أو التـلف مما كان له أكبـر الأثر فى تخلف التجـارة الفرنسية الخـارجية. وعندما دخل ريشيليـو فى قتال الهيجونوت فى معسكرهـم الحصين فى لاروشيل وهو حصن ساحلى لجأ إلى استخـدام السفن الهولندية، ومن أجل كل ذلك أنشأ ريشيليو إدارة للبحرية والتجارة وترأس هذه الهيئة وبدأ فى بناء الأسطول الفرنسى، وبالفعل نجح ريشيـليو فى تكوين أسطول فرنسى يمكن استـخدامه فى السلم من أجل التجارة الفرنـسية فى الخارج وحمايتها فى الـحرب، وإذا دعت الحاجة إلى الدخول فى مجال الاستعمار الخارجى مثل هولندا وأسبانيا والبرتغال.

سياسة ريشيليو الخارجية:

كما سبق وأن أشرنا كان ريشيليو يعمل على إعلاء شأن أمته فرنسا فى القارة الأوربية، كما أنه كان يعمل على توطيد دعـائم البربون، ولهذا فإنه جعل السياسة الداخلية والخارجيـة فى عهده لخدمة الاتجاه السابق، وكمـا سبق وأن أشرنا أيضا فإن أسبانيا أو الهابسـبرج عموما كانت العقبة فى سبيل تحقـيق هذا لما كانتا عليه فى القرن السابع عشـر من نفوذ كبير فى الأراضى المنخفضـة (هولندا ، بلجيكا) وشبه الجزيرة الإيطالية طبقا لمعاهدة كاتوكمبوسيس Cateau - Combresis .

إلا أن أسبانـيا بدأت فى الضعـف منذ أن تولى الحكم فـيها الملك فـيليب الرابع (١٦٢١ ـ ١٦٦٥) حيث أسبانيا تعرضت لهزيمة أسطولها فى معركة الأرمادا ١٥٨٨ بعدمـا حاولت عبـثا القـضاء على إنجلـترا كما أن الـثورات اشتـعلت فى الأراضى الخاضعة لها فى إيطاليا (ثورة نابولى)، وقامت الثورة فى كتالونيا وسبب كل هذه الكوارث هو سوء الإدارة الداخـلية لفيليب الرابع واختلال مـيزانية الدولة فى ذلك الحين مما أصاب أسبانيا بالفقر.

وهنا ومن هذا المنطلـق حاول ريشيليو اتخاذ هذه الأزمات الأسـبانية ذريعة وبداية لـلتفـوق على أسبـانيا، إذ بدأ فـى اتباع سـياسة إثـارة الحرب الكـامنة أو الداخلية، يمعنـى إثارة الاضطرابات لأسبانيا فى الداخل وفى المناطـق التابعة لها لإضعافها وإستنفاد قواها الداخلية والعسكرية.

ولقد بدأ ريشيليو سياسته هذه بـعد عام واحد من توليه رئاسة وزراء فرنسا، إذ عقد معاهدة مع جمهورية البندقية وسافـوى حتى يستطيع ضمهما إلى المعسكر الفرنسى بعـيدا عن أسبانيا، وكـذلك كان يساعد منتوا فـى مواجهة أسبانيـا فيقوم بإرسال المساعدات المالية والعسكرية اللازمة لها، واستطاع ضم سافوى نهائيا إلى فرنسـا حينما حاول دوقـها الانضمام إلـى أسبانيا فـأرسل إليه جيـشا سنة ١٦٣٠ فانتصر عليه وضمها إلى فرنسا.

كذلك فقد اتجهت سياسة ريشيليو إلى الأراضى المنخفضة فنجده يقوم بمساعدة هولندا ضد أسبانيا وكان يبغى من وراء هذا فرض السيطرة الفرنسية على الأراضى البلجيكية ويتقاسم بلجيكا مع هولندا، ولكنه لم يستطع ذلك ولم يتحقق هذا الهدف إلا فى عهد لويس الرابع عشر حينما ضم دنكرك والفلندرزو ارتواو وأصبحت هذه المناطق تابعة لفرنسا.

وفيما يتعلق بحرب الثلاثين عاما نجد أن ريشيليو لم يشأ الدخول فى هذه الحرب ربما لاصطباغها بصبغة دينية فى بدايتها، أو ربما لحداثة عهده بتولى الوزارة، وبعد انقضاء عدة سنوات منها كان ريشيليو قد أعلن استعداده للقضاء على الهيجونوت، وهذا دليل على أن دخول فرنسا الحرب لم يكن ظاهرة لنصرة بروتستانت ألمانيا وإنما الأطراف الواقفة فى وجوه أسبانيا، ومن ذلك تدعيم للدنمارك وتدعيمه بالمال والرجال، بهدف إضعاف الهابسبرج.

ولكن بعد موت الملك جوستاف أدولف السويدى رأى ريشيليو أن الفرصة قد تضيع من فرنسا إذا انتهت هذه الحرب دون تقويض نفوذ الهابسبرج وأن الحرب قد أصبحت ذات أهداف سياسية؛ ولهذا فقد أعلن ريشيليو الحرب على أسرة الهابسبرج بفرعيها.

وبالفعل، ونظرا لضعف الهابسبورج فقد انتصرت فرنسا فى هذه الحرب فى النهاية، لقد كان ريشيليو صاحب الفضل فى هذا النصر وفى التمكين للبروتستانت فى ألمانيا ضد الإمبراطور وأسرة الهابسبرج الكاثوليكية غير المتسامحة دينيا.

وقد استطاع ريشيليو ـ ذلك الوزير الذى يعد من أعظم وزراء فرنسا فى ذلك الوقت ـ من أن يرفع فرنسا إلى مصاف الدول العظمى فى أوربا بعدما تم إضعاف أسبانيا كقوة سياسية وبحرية فى ذلك الوقت، وبالرغم من كل هذه الجهود التى بذلها ريشيليو لإعلاء مكانة فرنسا إلا أنه كان مكروها من البيت الحاكم فى باريس، حيث إننا نجد أن شقيق الملك «جاستون أل أوليان» وأمه مارى دميتشى كانا يتآمران لخلعه من منصبه، هذه واحدة؛ وعند زواج جاستون من مونبسيه

الجميلة، وكان أصدقاء جاستون غير موافقين على هذا الزواج أرادوا الانتقام من منفذ هذا المشروع ريشيليو، إلا أنه تم كشف هذه المؤامرة، وبالرغم من هذا فإن مركز ريشيليو عند الملك لويس الثالث عشر لم يتأثر حيث إنه لم يكن يعبأ بأمر أخيه.

الوزير الأعظم مازران (١٦٤٣ ـ ١٦٦١):

عقب وفاة لويس الثالث عشر لم يكن له وريث فى الحكم سوى ابنه لويس الرابع عشر ولكنه كان صبيا، ولهذا تولت والدته الملكة آن الوصاية عليه حتى يبلغ السن الصالح لتوليه الحكم، ونتيجة لعدم دراية الملكة آن الوصية بالسياسة فإنها استعانت بالكاردينال الإيطالى مازران، إلا أن الملكة آن ومستشارها الوزير الأعظم مازران لم يكونا محبوبين من الشعب الفرنسى، فالشعب الفرنسى كعادته وتاريخه لايحب أن يتولى شئون دولته أجنبى، وكانت الملكة آن نمساوية وكان الكاردينال مازران إيطاليا، هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإنهما قاما ببعض الأعمال التى رآها الشعب الفرنسى مسيئة إليه، حتى توافرت العوامل المساعدة للشعب الفرنسى للقيام بثورة احتجاج على الحكم الأجنبى، ومن ثم فقد قامت ثورتان وهما ثورة «الفروند الأولى» و«الفروند الثانية» والتى كادت أن تعصف بالملكية الفرنسية فى ذلك الوقت والسبب فى ذلك أن مازران كان قد استحدث ضريبة على المساكن فى ضواحى العاصمة.

ثورة الفروند الأولى:

بدأت هذه الثورة عندما رفض برلمان باريس الموافقة على الضريبة التى فرضها مازران، وكان هذا الرفض فى أغسطس ١٦٤٨ وكان دعاة هذه الثورة بعض النبلاء المتمردين وأعضاء برلمان باريس، وقد انضم الطرفان إلى بعضهما البعض؛ ذلك أن النبلاء المتمردين كانوا يريدون الحصول على امتيازاتهم وتوسيعها، أما أعضاء برلمان باريس فإنهم كانوا يرغبون فى التأكيد على الحرية المدنية والضمانات الدستورية وإدخال نظام الرقابة على الأموال العامة.

إلا أن الأحداث الخارجية لم تكن فـى صالح الثوار، إذ وصلت الأنباء عن انتصارات فرنسا عـلى أسبانيا فى حرب الثلاثين عاما مـما دفع مازران إلى القبض على رؤساء الثورة، إلا أنه سرعان ما أطلق سراحـهم ثم عهد إلى كونديه بحصار باريس وتضـييق الخناق على الثـوار حتى عقد الـصلح معهم سنة ١٦٤٩ بـعدما تعهدت الحكومة للثوار بالموافقة على بـعض الاقتراحات الخاصة بالشئون المالية التى سرعان ماسحبها مازران ثانية.

ثورة الفروند الثانية:

وسبب هـذه الثورة هى خـوف مازران من كونـديه والذى استطـاع الإيقاع بالنبـلاء فى الفروند الأولى؛ حـيث إنه كان له شـهرة واسعة وثروة طـائلة، وإلى جانب هذا وذاك كان متـعجرفا. فخاف مازران من أن يستغـل كونديه النصر الذى حققـه فى ثورة الفروند الأولى وقام بوضع كـونديه فى السجن ممـا أدى إلى قيام النبلاء بثورة واستطاعوا استقطاب القائد تورين الذى كان على ولاء للملك وطلب الشعب من الحكومة الإفـراج عن كونديه والقبض على مازران، فاستجاب مازران للرأى العام وأفرج عنه وهرب إلى خارج باريس.

وفى فترة بـقاء مازران خارج البلاد أخـذ فى الاستعداد للـعودة إلى باريس أقوى ممـا كان عليه واسـتطاع إعادة تورين إلى الحـظيرة الملكيـة، وبعد أن أتم مازران استعـداده فى الخارج أوقع الهزيمة بوكنـديه ١٦٥٢ والذى كاد أن يقع فى الأسر، وقد كـان لهذه الثورة أكـبر الأثر على الملك الصـغير لويس الرابـع عشر حيث إنه آمن بأنه لن يـكون هناك من يؤتمن على شئون فرنـسا إلا مع ملك قوى يمسك بزمام الأمور بقبضة من حديد.

ولقد كانت ثورة الفروند الثانية أضـعف من الأولى وأسرع فى القضاء عليها من ثورة الفروند الأولى ولكنـها كانت مجرد ثورة أرستقراطيـة على أحوال البلاد ومازران.

سياسة مازران الخارجية:

كان مازران يعتبر أنه تلميذ لأستاذه ريشيليو، ولذلك كان يسعى إلى نفس الأهداف التى كان يسعى ريشيليو إلى تحقيقها وهى إعلاء شأن الملكية الفرنسية فى القارة وتثبيت أقدام أسرة البربون فى الداخل، وكان ريشيليو قد وضع البذور الأولى لسياسته الخارجية وعمل مازران من أجل استكمالها.

كان ريشيليو قد أعلن الحرب قبل وفاته على أسبانيا منذ ١٦٣٥ وعمل على إثارة القلاقل فى الأراضى التابعة لها وكانت هذه هى السياسة التى سار فيها مازران قدما، إذ إن جيوش فرنسا انتصرت فى الأراضى المنخفضة التابعة لأسبانيا سنة ١٦٤٣ فى موقعة روكروا Rocroi ، ودعم مازران الثورات فى نابولى وكتالونيا والبرتغال وعقد تحالفا مع الدكتاتور الإنجليزى اليركرومويل الذى كان يمثل الجمهورية الإنجليزية حينئذ.

وبسبب إثارة القلاقل هذه وبسبب نتائج حرب الثلاثين عاما ضعفت قوة أسبانيا، ومن ثم فقد انتصرت القوات الإنجليزية على أسبانيا فى موقعة الدنز Danes وكان قائد الجيش الإنجليزى هو القائد الملكى الفرنسى تورين وكانت هذه الهزيمة هى بداية النهاية للصراع المرير بين البربون والهابسبرج فى تلك الفترة، وبفضل نتائج حرب الثلاثين ونتائج موقعة الدنز عقد صلح البرانس عام ١٦٥٩ بين أسبانيا وفرنسا فى صالح فرنسا إذ حصلت فرنسا فى هذا الصلح على روسيون Roussillon وجزء من أرتوا Artois وبعض المدن على حدودها الشمالية الشرقية فى لكسمبورج Luxembourg والفلاندرز Flanders وهنولت Henault .

وفى هذا الصلح تم الاتفاق على زواج الملك لويس الرابع عشر من الأميرة الأسبانية ماريا تريزا من أجل تحسين العلاقات بين البلدين، إلا أنه تقرر الاشتراط على أن يتنازل لويس عن ادعاءاته فى حقوق وراثة زوجته فى أسبانيا مقابل دفع مبلغ من المال كبير لفرنسا، ومع ذلك لم يتم تقديم هذا المال فاعتبر لويس

الرابع عشر الاتفـاق كأن لم يكن، وأهم مافى هذا الصلح هو أن فـرنسا هى التى فرضت على أسبانيا شروطا ومعظمها فى صالح فرنسا

وتوفى مـازران بعـد ذلك فى ١٦٦١، وهنـا وجد لويـس الرابع عـشر أن الفرصة قد سنحـت لأن يحكم فرنسا وحده وكان عصره عـصر رخاء وأوج عظمة فرنسا الثقافية والسياسية وأصبحت فرنسا تتبوأ مكانة مرموقة بين دول أوربا.

لويس الرابع عشر (١٦٦١ ـ ١٧١٥):

ورث لويس الرابع عشر دولة متماسكة قوية بفضل سياسة ريشيليو ومازران، وقد توافـرت له جميع العوامـل التى تجعل منه مـلكا عظيما، وقـد حكم لويس الرابع عـشر دولتـه حكمـا استبـداديا، بمعـنى أنه كانـت بيده السـلطة الداخلـية والخارجية فى البلاد. وكانت الدولة هى لويس ولم يكن يهتم بالآراء المعارضة أو المضادة لسـياسته، ولهذا فلم يكن للـبرلمان أى سلطة، وقد كانت سـياسته هذه سببا فى إعلاء شأن فرنسا فى عهـده حتى استحق عن جدارة لقب «الملك العظيم Le Grand Monarque".

سياسة لويس الرابع عشر الدينية:

لم تكن للويس الرابع عشـر اهتمامات واضحة بالشئون الدينـية؛ بينما واتته الفرصة لإظهار السيطرة على البلاد إنتهزها، فحينما تنازع مع بابا روما أعلن قصر سلطات البابا على السلطات الروحية فـقط دونما أى سلطة أخرى فى فرنسا، مما دعا البابا إلى الغضب ولكنه لم يهتم بغضب البابا ومضى فى سياسته قدما، ومنها أنه أعلن أن الكاثوليكيـة هى المذهب الرسمى للدولة ومن ثم فقـد اضطهد طائفة الجانسينيين[١].

(١) طائفة كانوا أتباع جانسن Jansen وكانوا متمسكين بالكاثوليكية كعقيدة وبالكنيسة الكاثوليكية المسيحية الواحدة العالميـة، وكانوا شديدى التمسك بالحياة الـدينية، حتى أنهم أطلق عليهم المتـطرفين الكاثوليك إلا أنهم كانوا مضطهدين من البابا والملك لارتكابهم بعض ما يسىء للملكية.

كان ذاك الجانب المتعلق بالمذهب الكاثوليكى، أما فيما يتعلق بالجانب البروتستانتى فقد كانت مواقف الملك لويس الرابع عشر متغيرة تجاه البرتستانت، ولهذا فإننا يمكن أن نقسم علاقة الملك لويس الرابع عشر مع البروتستانت إلى دورين:

الدور الأول: وهى الفترة التى كانت فى بداية حكم لويس الرابع عشر وفى عهد زوجته الأولى تريزا، حيث إنه كان متسامحا مع البروتستانت ولايتدخل كثيرا فى معتقداتهم.

الدور الثاني: وهو الدور الذى يشمل أيام زوجته الثانية دى مانتنون، وقد كانت زوجته هذه كاثوليكية إلى أبعد الحدود، ولهذا فإنها كانت ترى أن طائفة البروتستانت ملحدين يجب الحد من سلطانهم والتقليل من عددهم، ولهذا اتجه الملك لويس الرابع عشر تحت تأثير زوجته إلى التقليل من شأن البروتستانت وإغلاق كنائسهم شيئا فشيئا حتى سحب المرسوم الملكى نانت وحرمهم من امتيازاتهم، كما أنه حرم على طائفة الهيجونوت الهجرة، فما كان منهم إلا الهرب إلى ألمانيا وغيرها، وهناك حيث حقق الهوجنتون نشاطا صناعيا وتجاريا ضخما فى برلين.

سياسة لويس الرابع عشر الاقتصادية:

اعتمد لويس الرابع عشر فى الشئون المالية على خبير اقتصادى وهو كولبير Colbert والذى عمل على إنعاش مالية البلاد بشتى الوسائل. أقال عددا من الموظفين لم يكن هناك حاجة لهم،وكانوا يكلفون ميزانية الدولة كثيرا، كما أنه اهتم بالتجارة والصناعة؛ ففى مجال التجارة عمل كولبير على تكوين إمبراطورية بحرية فرنسية على غرار ماقامت به هولندا وأسبانيا والبرتغال، فقد رغب فى إقامة مستعمرات على السواحل المؤدية إلى الهند والشرق الأقصى؛ كما أنه رغب فى

امتلاك مصر وضمها إلى فرنسا لضمان الطرق التجارية إلى الهند وربط البحر الأحمر بالمتوسط .

ومثلما أنشأت إنجلترا وهولندا شركات تجارية أسس كولبير شركة الهند الشرقية الفرنسية Compagnic des Indes Orientales برءوس أموال الملكية والأمراء؛ إذ امتنع التجار الفرنسيون عن المشاركة فى هذا العمل الوطنى الضخم مما كان له الأثر فى فشل هذا المشروع الذى اقتصر على استخدام التجار للسفن والمراكز الخاصة بالشركة فقط.

وفيما يتعلق بمجال الصناعة فقد توسع كولبير فى إنشاء المصانع، ولتنشيط الصناعة الفرنسية قام باستجلاب الأخصائيين فى الصناعات المختلفة من كل دولة، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى لتشجيع الصناعة المحلية وحمايتها من المنافسة الخارجية وفرض الضرائب على المصنوعات المستوردة وزاد من هذه الضرائب سنة ١٦٦٧.

بناء الأسطول والجيش فى عهد لويس الرابع عشر:

عهد لويس الرابع عشر ببناء الجيش الفرنسى الحديث إلى لوتليه Le Telli-er وابنه، وقد ادخل لوتليه الأساليب الحديثة فى إنشاء الجيش الفرنسى الحديث، فقد قضى على الفكرة القديمة السائدة من حيث ولاء الجنود للنبيل القائد فقط وجعل الترقيات فى الجيش تعتمد على الكفاءة والمهارة فقط دون النظر لعائلاتهم. هذا وجعل تدريب الجيش تحت إشراف الحكومة فقط.

أما الأسطول فقد تم بناؤه على أيدى كولبير Colbert وعاونه ابنه، وقد جرى إنشاء الأسطول الفرنسى نتيجة للسياسة التى اتبعها كولبير فى العناية بالتجارة الخارجية لفرنسا؛ ولهذا فقد ازداد عدد السفن الفرنسية من عشرين سفينة سنة ١٦٦١ إلى مائة وأربعين سفينة، ونظرا لإيمان كولبير بالارتباط بين البحرية

والتجارة والعسكرية فقد أنشأ إدارة خاصة لهذا حتى يمكن أن تكمل كل منها الأخرى عند الغزو والاستيلاء الخارجى.

وإلى جانب الأسطول الذى أنشأه كولبير كان يوجد أسطولان صغيران أحدهما لحماية ميناء مرسيليا وكان مقره فى برست وطولون، والآخر يستخدم للدفاع عن المياه الغربية والشمالية الغربية لفرنسا.

تقدم العلوم والفنون فى عهد لويس الرابع عشر:

يتمثل التقدم الذى ظهر فى عهد لويس الرابع عشر فى القيام بإنشاء المؤسسات الأكاديمية المختلفة، حيث إننا نجد أنه فى بداية عهده اهتم بالأكاديمية الفرنسية التى أنشأها ريشيليو، وفى سنة ١٦٦٣ قام بتأسيس الأكاديمية الصغرى للرسوم والميداليات La Petite Academie des Inscriptions et Medailles.

وفى ١٦٦٥ أسس مجلة العلماء لنشر الجديد من المعلومات الصناعية، ثم أسس سنة ١٦٦٦ أكاديمية العلوم لتشجيع البحوث العلمية، ثم أسس سنة ١٦٧١ أكاديمية التصوير والعمارة لتشجيع الفنانين الفرنسيين والأجانب.

السياسة الخارجية للويس الرابع عشر:

تمثلت السياسة الخارجية للويس الرابع عشر فى الحروب التى خاضها، وكانت أربعة حروب، وكان الغرض منها المحافظة على الهدف الذى سعى ريشيليو ومازران لتحقيقه بل والزيادة عليه حتى يضمن المحافظة على المكانة التى وصلت إليها فرنسا، ولهذا فقد تبلورت السياسة الفرنسية فى عهد لويس الرابع عشر فى محاولة:

١ ـ وصول فرنسا إلى حدودها الطبيعية (البرانس ـ الألب ـ الراين).

٢ ـ التفوق على أسرة الهابسبرج فى النمسا وأسبانيا وضم الأراضى المنخفضة لفرنسا.

٣ ـ القضاء على الإمبراطورية الهولندية فى العالم الخارجى لأوربا لصالح فرنسا.

٤ ـ إقامة الإمبراطورية الفرنسية فى العالم القديم والعالم الجديد.

٥ ـ القضاء على القرصنة البحرية فى البحر المتوسط.

وفيما يلى عرض لهذه الحروب التى خاضها لويس الرابع عشر:

حرب الوراثة فى الأراضى المنخفضة الأسبانية (١٦٦٧ ـ ١٦٦٨):

طبقا للسياسة الخارجية التى رسمها لويس الرابع عشر لفرنسا فى عهده فإنه كان يهدف إلى القضاء على أسبانيا وضم الأراضى المنخفضة لفرنسا، ولهذا فإنه بعد زواجه من الأميرة ماريا تريزا ابنة الملك فيليب الرابع ملك أسبانيا طلب من الملك فيليب الرابع حقوق زوجته فى الأراضى المنخفضة إلا أن ملك أسبانيا رفض ذلك بناء على صلح البرانس الذى قضى بتنازل لويس الرابع عشر عن حقوق الوراثة لزوجته، إلا أن لويس الرابع عشر تمسك بأن أسبانيا لم تقدم الأموال التى تم الاتفاق عليها فى مقابل هذا التنازل لكن الملك فيليب أصر على رأيه حتى وفاته.

عقب وفاة الملك فيليب الرابع ملك أسبانيا قام لويس الرابع عشر بإرسال قواته إلى فنلندرزا سنة ١٦٦٧ فى الأراضى المنخفضة الأسبانية من دون إعلان حرب، إلا أن القوات الأسبانية فشلت فى التصدى لقوات لويس الرابع عشر والتى انتشرت شمالا وجنوبا. وهنا برز المبدأ القديم والذى ظهر فى الحروب الإيطالية وهو مبدأ التوازن الدولى، إذ إن الدول الأوربية خشيت من ازدياد قوة فرنسا فى المنطقة فقامت بتصفية الخلافات القائمة لتكوين جبهة للوقوف فى وجه فرنسا، إذ

عقدت أسبانيا الصلح مع البرتغال وهولندا مع إنجلترا وسرعان ماتكون حلف ثلاثي للوقوف فى وجه فرنسا مكون من هولندا والسويد وإنجلترا.

ولهذا رأى لويس الرابع عشر ضرورة التوقف عن القتال حتى لايدخل فى حروب أخرى مع قوات الحلف كان من الممكن أن تؤدى إلى تدمير قوة فرنسا الصاعدة، ولهذا توقف عن القتال وأعاد الغالبية العظمى من الأراضى التى احتلها إلى أسبانيا إلى أن تم صلح إلكس لاشبل Aix La Chapelle والذى قضى بإعادة فرانس كومتيه إلى أسبانيا فى مقابل أن تحتفظ فرنسا بما فتحته فى الأراضى المنخفضة، وقد كانت هذه الأراضى مبعثا لانتشار فرنسا بعد ذلك فى أوربا:

الحرب الهولندية (١٦٧٢ ـ ١٦٧٨):

كان السبب الرئيسى فى التوقف عن الزحف الفرنسى فى الأراضى المنخفضة الأسبانية هو تكوين الحلف الثلاثى، ولهذا فقد اعتقد لويس الرابع عشر أن السبب فى عقد هذا التحالف الثلاثى هو المستشار الهولندى جون دى ويت John de Witte ، ولهذا فقد رغب لويس فى تأديب هولندا. وإلى جانب هذا فقد كانت هولندا فى نظر لويس الرابع عشر تعمل على الكيد لفرنسا، حيث إنها كانت ملجأ الهجونوت المضطهدين فى فرنسا، وكانت هولندا تقوم بطباعة كتبهم التى تسىء إلى الملكية الفرنسية، هذا بالإضافة إلى أن هولندا كانت قوة بحرية تجارية لايستهان بها فى البحار الخارجية، وكانت فرنسا تهدف إلى تحطيم هذه الإمبراطورية لترثها بعد ذلك، ولم يكن سبب قوة هولندا البحرية هذه القوة العسكرية ولكن لعدم وجود من يقف أمامها فى ذلك الوقت من الدول الأوربية الكبرى، فقد كانت إنجلترا وفرنسا وأسبانيا، وغيرها من الدول فى حروب قارية متتالية من أجل السيطرة السياسية داخل القارة، فى الوقت الذى قامت فيه هولندا بدعم استقلالها والانطلاق خارج القارة وبناء المستعمرات.

ولكن لويس الرابع عشر لم يكن يرغب فى أن يواجه الموقف الذى واجهه فى حربه السابقة فى الأراضى المنخفضة من حيث تكوين أحلاف عسكرية ضده، ولهذا فقد بدأ فى الدخول فى مباحثات مع ملك إنجلترا شارل الثانى الذى كان مع المذهب الكاثوليكى فوجد كل ترحيب من لويس الرابع عشر، ومن ثم فقد استغل هذه الفرصة وعقد معاهدة دوفر السرية مع شارل الثانى سنة ١٦٧٠ والتى تم الاتفاق فيها على أن تقدم فرنسا الأموال والقوات اللازمة لإنجلترا لجعل إنجلترا كاثوليكية، فى الوقت الذى تعهدت فيه إنجلترا بعدم مساعدة هولندا ووضع العقبات لأسبانيا. وكما استطاع لويس الرابع عشر الوصول إلى إنجلترا عن طريق الدين فإنه استطاع استقطاب السويد عن طريق المال، إذ إنه أعطى رشوة للسويد فى مقابل استقطابها كذلك فقد عقد معاهدة مع الإمبراطورية تقضى بتقسيم أسبانيا وممتلكاتها بعد وفاة ملكها.

ولهذا كان على هولندا مواجهة الخطر الفرنسى وحيدة دون قوة مساعدة لها، ونتيجة لقوة فرنسا التى تزيد كثيرا عن قوة هولندا انتشرت القوات الفرنسية فى الأراضى الهولندية حتى أوشكت على دخول أمستردام، إلا أن الشعب الهولندى كان قد قتل المستشار جون دى ويت وخلفه وليم أورنج الذى استطاع استقطاب الحلف القديم وكون تحالف لاهاى العظيم من كل من براندبرج والإمبراطور وبرونزويك والدنمارك وأسبانيا واتحاد الراين.

انتصرت القوات الفرنسية فى بادئ الأمر إلا أن القضاء التام على هولندا لم يكن أمرا يسيرا فى تلك الظروف فعقد صلح تمويجن سنة ١٦٧٨ لإنهاء الحرب الفرنسية الهولندية، وقد كانت هذه المعاهدة فى صالح فرنسا حيث إنها استطاعت أن تحتفظ بفرانش كومتيه، كما حصلت فرنسا على بعض الأراضى فى شمال شرق فرنسا واستطاعت بها تأمين حدودها. وفى المقابل تنازلت عن بعض المدن.

بعد انتهاء هـذه الحرب رأى الشعب الفرنسى عظمة لـويس الرابع عشر فى مواجهته لاتحاد دولى أوربى وصموده أمـامه والخروج من هذا المأزق بانتصارات لدولة فرنـسا، ومن ثم فقـد أطلق عليه الشـعب لقب الملك الـعظيم Le Grand Monarch عن جدارة واستحقاق فقد كان بالفعل ملكا عظيما.

حرب حلف أوجزبرج (١٦٨٩ ـ ١٦٩٧):

استمر لويس الرابع عشر فى السعى لتحقيق سياسته الرامية إلى تأمين حدود فرنسا وصولا إلى الحدود الطبيعية، ولهذا السبب فقد رغب لويس الرابع عشر فى تكوين لجنـة لمراجعة حدود فـرنسا من خلال المعـاهدات الكثيرة التى عـقدتها، ولهذا فـقد تكونت لـجنة «مجـالس الضم Chabres of Reunion والتى كـانت تقاريـرها فى صالح الـدولة الفرنسـية، ومن هذا الـمنطلق تأكـد سيطرة الـقوات الفرنسيـة على ستراسبورج سنة ١٦٨١ ولـكسمبرج التى احتلهـا أيضا سنة ١٦٨٤ بالإضافة إلى السيطرة على نهر الألزاس.

وأراد لويس الرابع عشر استكمال هذه التوسعات بضم حوض الراين، ولهذا طالب بحق وراثة زوجة أخيه الثانية فى البلاتينات بعد وفاة ناخبها. وكانت القوات الفرنسية قد احتلت البلاتينات منذ ١٦٨٧ بالإضافة إلى كولون.

إلا أن هناك حادثا أثر على فـرنسا وهو قيام الثورة فى إنجلتـرا ضد جيمس الثانى الذى أراد جعل الكـاثوليكية المذهب الرسمى للبلاد، فـثارت إنجلترا ضده واستقـدمت وليم أرانج من هولندا،وقد كـان العدو الألد للويس الرابع عـشر منذ حرب هولندا وفرنسا الذى أعلن ملكا باسم وليم الثالث.

وبعد تولى ولـيم أورانج الحكم بدأ فعلا فى الإعـداد لمواجهة فرنسـا فقام بتكوين المحالـفة العظيمة La Grande Ligne فى سـبتمـبر ١٦٨٩ من هـولندا والسويد وبافـاريا والإمبراطورية وسوابيا وسـكسونيا وفرانكفورت والـبلاتينات من

أجل الحفاظ على صلح وستفاليا والحد من قوة فرنسا التى بدأت فى احتلال كولون، وبدأت الحرب بين فرنسا وقوات المحالفة العظيمة واستطاعت القوات الفرنسية من إحراز الانتصارات على قوات الحلف فى بادئ الأمر، حيث انتصرت على الألمان (قوات الإمبراطورية) سنة ١٦٩٠ فى موقعة Fleurus وانتصر الأسطول الفرنسى على الأسطول الإنجليزى الهولندى فى نفس العام فى معركة بحرية هى Beachy Head .

إلا أن وفاة كولبير الاقتصادى الفرنسى كان لها أكبر الأثر على سير الحرب حيث تدهورت المالية الفرنسية؛ ونتيجة ذلك انتصر الأسطول الإنجليزى على الأسطول الفرنسى فى موقعة Hague سنة ١٦٩٢ ولهذا وجد لويس الرابع عشر أنه لن يستطيع المواصلة حتى النهاية، ومن ثم لجأ إلى عقد الصلح لإنهاء هذه الحرب وتم عقد المعاهدة فعلا فى سبتمبر ١٦٩٧، وعرفت بمعاهدة ريزفيك Ryswick، وقد قبل لويس الرابع عشر التنازل عن كل الأراضى التى استولى عليها بعد صلح تمويجن عداستورابورج والاعتراف بوليم أورانج ملكا على إنجلترا.

حرب الوراثة الأسبانية (١٧٠٢ ـ ١٧١٣):

كانت وراثة عرش أسبانيا والأملاك الخاصة بالملك شارل الثانى الملك الأسبانى فى الخارج قد تحولت إلى مشكلة دولية حيث كانت كل دولة تبغى الاستئار بهذه الممتلكات، فقد رأى لويس الرابع عشر أنه أحق بهذه الوراثة حيث إنه متزوج من أميرة أسبانية، وكذلك فقد رأى الإمبراطور ليوبولد الأول أنه أحق بهذه الوراثة حيث إنه كان ابنا من أسبانية، وأخيرا جوزيف فرديناند ناخب بافاريا الذى رأى أنه أحق بهذا لصلة القرابة مع العائلة المالكة الأسبانية؛ إلا أن هولندا وإنجلترا رأتا ألا يرث أحد من هؤلاء الثلاثة حفاظا على التوازن الدولى فى القارة.

وفى نتيجة واضحة لـلرغبة الإنجليزية الهولندية عقدت المـعاهدات لتقسيم أملاك أسبـانيا بعد وفاة شارل الـثانى وتقرر أن يرث هذه الأمـلاك والعرش ناخب بافاريا جوزيف فرديناند وتحصل فرنسـا على الأملاك الأسبانية فى إيطاليا، ولكن ناخب بافاريا وعلى غيـر المتوقع وافته المنية قبل شارل الثانـى فعقدت معاهدات جديـدة حتى يرث كـارل الأميـر النمسـاوى هذا العـرش غيـر أن هذه المشـاكل والاضطرابات ترجع للأسباب التالية:

أولا: النضال الاستعمارى: كانت أسـبانيا قـد دخلت فى موجة الـكشوف الجغرافية وبناء المستعمرات فيما وراء البحار، ومن أجل تحقيق هذه الغاية دخلت أسبانيا فى موجة من الحروب لاحتلال الأراضى فى العالم الجديد، هذا بالإضافة إلى الحروب الأوربيـة الداخلية والحروب من أجـل بسط السيطرة الأسبـانية على شبه الجزيرة الإيطـالية، كما أنها دخلت فى الصراع الديـنى الذى اجتاح أوربا فى النصف الأول من القـرن السابع عشر، وفى الواقـع فإن أسبانيا استـطاعت تكوين إمبراطـورية أسبانية فى مـاوراء البحار ودعمت حـكومتها داخل القـارة فى بعض الأحيان من خلال السـيطرة على بعض المناطق فى شبه الـجزيرة الإيطالية إلا أن هذا النجاح لم تجن أسبانيا من ورائه سوى تدهور الأحوال داخل أسبانيا حيث إن ملوكها وجهوا اهتمامهم الأكبر لـلأهداف السابقة دون النظر إلى الشئون الداخلية، وبهذا فقـد تأكدت نظرية أن التوسع الاستـعمارى قد لايكون فى مـصلحة الدولة المستعمرة.

ثانيا: التدهور الفكرى: منذ بداية تكوين الـملكية الأسبانية وأسبـانيا تعمل لنصرة المسيحية لإعلاء كلمة الكنيسة الكاثوليكية، وبعدما استطاع الملك الأسبانى فرديناند طرد العرب تماما من شبه جزيرة ليـبيريا منحته البابوية لقب الكاثوليكى، وعندما بدأت البروتستانية فى الانتشار فى أوربا تصدت أسبانيا لها واعتبرت نفسها

زعيمة الكنيسة الكاثوليكية، وقد نجحت فى هذا فى الداخل إلا أن أساليب الكنيسة الكاثوليكية فى الاضطهاد والإرهاب كانت لها أسوأ الاثر على أسبانيا إذا إنها قيدت الفكر، ولهذا عندما بدأت أسبانيا فى الدخول فى مضمار التقدم العلمى فى بداية القرن السابع عشر سرعان ما انطفأت هذه الشرارة مع بداية النصف الثانى للقرن السابع عشر بسبب القيود التى فرضتها الملكية الأسبانية على الفكر لدى الشعب الأسبانى وتردت أسبانيا فى ظلمات التخلف الثقافى والفكرى.

ثالثا: تدهور النظام الاقتصادى: كان رجال الكنيسة والنبلاء يتمتعون بالامتيازات من تلك الامتيازات إعفاء الأراضى التابعة لهم من الضرائب مما كان له أسوأ الأثر على بقية طبقات الشعب الأسبانى وبالإضافة إلى ذلك فإن نظام الضرائب السائد فى أسبانيا حينذاك لم يكن فى حالة متوازنة، بل كان مضطربا. ولم تر أسبانيا من ورائه زيادة مالية بل بالعكس أدى هذا النظام إلى القضاء على بعض الصناعات الأسبانية المحلية.

بداية الحرب : بدأت الحرب الأسبانية فعلا بعد وفاة شارل الثانى من أجل وراثة العرش، وإذا بالدول التى ارتضت بالأمير النمساوى كارل وارثا للعرش الأسبانى تكتشف أن الملك شارل الثانى قد ترك وصية قبل وفاته يوصى فيها بأن يسند العرش الأسبانى لفيليب أنجو حفيد لويس الرابع عشر ظنا منه أن فرنسا ستكون أفضل الدول فى الدفاع عن الأملاك الأسبانية، وقد وافقت الدول المتنازعة على هذا الترشيح، ولكن عندما ذهب فيليب أنجو إلى أسبانيا فوجئ المجتمع الدولى الأوربى باعتراف لويس الرابع عشر بحقوق فيليب أنجو بوراثة عرش فرنسا مما أثار الدول الأوربية التى ترفض اتحاد التاجين، ومن هنا بدأت سلسلة الحروب الأسبانية والتى استمرت لأكثر من عشر سنوات؛ وهنا نشط وليم أورنج العدو اللدود للويس الرابع عشر والاستعداد للوقوف فى وجه لويس **الرابع** عشر مثلما فعل من قبل وكون حلفا عرف بالحلف الأعظم ٧ سبتمبر Grand

من هولـندا والإمبراطـور وإنجلترا فـرد لويس الرابع عـشر بأن اعـترف Alliance بأحقية ابن جيمس الثانى فى عرش انـجلترا، فكان أن أعلنت انجلترا الحرب ضد فرنسا فى مارس ١٧٠٢.

بدأ الفرنسيون فى الـزحف صوب فيينا لإسقاطها غيـر أن القائد الإنجليزى ملبرة انطلق بجـيش مكون من الإنجليز والألمان والهـولنديين فى ١٧٠٤ لضرب الفرنسيين قبل وصـولهم إلى فيينا وبالفعل التقى الجيش الـفرنسى مع جيش ملبرة عند بلنهيم Blenheim، حيث انتصرت على القوات الفرنـسية ومنعتها من الوصول إلى فيينا وتابع ملبرة جهوده للقضاء على قوة فرنسا فاتجه إلى الأراضى المنخفضة وأوقع الهزيمة بالقوات الفرنسية هناك فـقد هزمت القوات الفرنسية مرة أخرى أمام ملبرة فى معركة مالبلاكية، وهنا، رأى لـويس الرابع عشر أنه لاسبيل لإنقاذ فرنسا من المصـير المحتـوم الذى تنتظره سـوى طلب الصلح، إلا أن هولندا وإنـجلترا رفضتا؛ رغبة فـى الحصول على شروط أفضل من تلك المعـروضة من لويس فما كان من لويس، الرابع عشر إلا أن وقف بحزم، وبالفعل نجحت القوات الفرنسية إنزال الهزيمة بالنمسـا فى موقعة ديناين Denain سنة ١٧١٢ ممـا أدى إلى صحوة فى إنجلتـرا وهولندا خوفا من عودة فـرنسا إلى قوتها الـسابقة فوافقـتا على بدء المفاوضات بين الطرفين أدت إلى عقد صلح أوترخت.

صلح أوترخت:

هو مجموعة المعاهدات التى عقدت عقب الحرب بين الدول والحكومات مع فرنسا:

أولا ـ وفيما يتعلق بفرنسا:

١ ـ الاعتـراف بفيليب أنجـو حفيد لـويس الرابع عشر مـلكا على أسبـانيا ومستعمراتها على أن يتنازل عن حقوقه فى وراثة عرش فرنسا.

٢ ـ أن تبقى الألزاس تابعة لفرنسا، على أن تسلم القلاع الخاضعة لها فى الراين الأيمن.

٣ ـ تعترف فرنسا بأحقية أسرة هانوفر فى العرش الإنجليزى وألا تساعد آل ستيورات فى المطالبة بالعرش الإنجليزى.

ثانيا: أن يستولى الإمبراطور على نابولى وميلان وسردينيا والأراضى المنخفضة الأسبانية.

ثالثا: تستولى إنجلترا على مينورقة وجبل طارق من الحكومة الأسبانية وعلى خليج هدسون. ونيوفوند الندو ونوفاسكوشيا من فرنسا.

رابعا: الاعتراف بناخب براندبرج ملكا على بروسيا.

خامسا: إعادة ناخبى كولف وبفاريا إلى إمارتيهما.

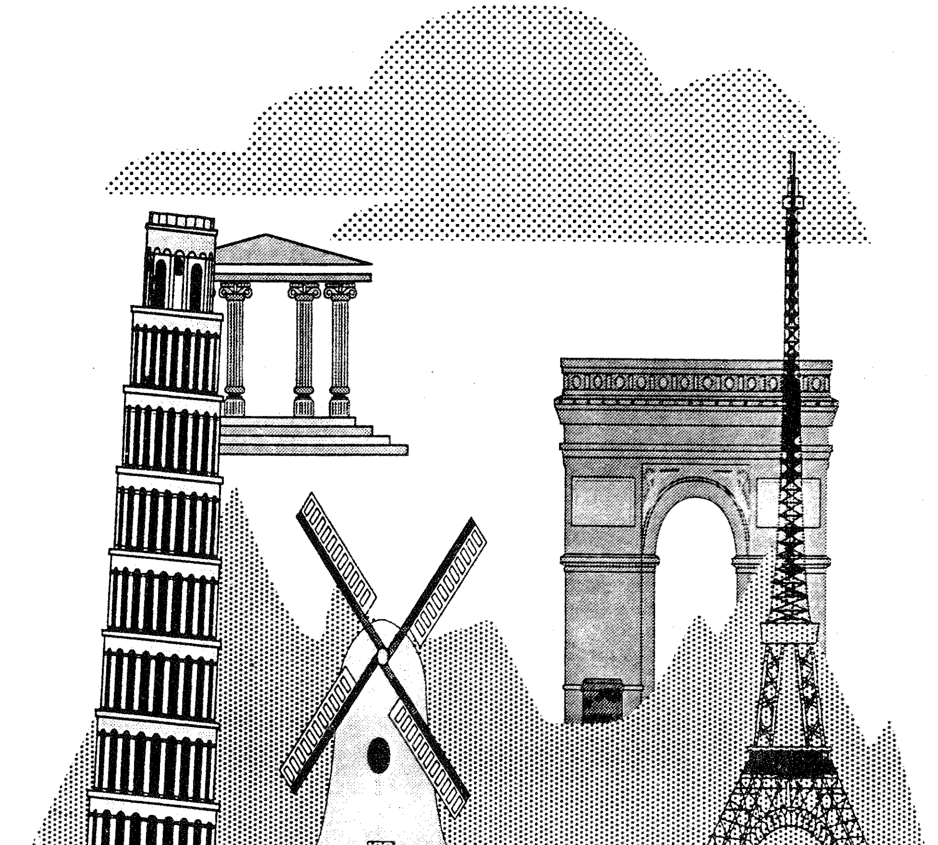
سادسا: ضم صقلية إلى دوقية سافوى والاعتراف بها كمملكة.

سابعا: هدم تحصينات دنكرك.

وبصلح أوترخت تكون قد انتهت الحروب الأسبانية بعدما أنهكت فرنسا عسكريا وماديا وسياسيا، حيث إنها خرجت منهكة القوى، كما أنها فقدت الكثير من الأموال للإنفاق على هذه الحرب، وأخيرا وهو الأهم فشلت فى تحقيق الهدف الذى سعى إليه لويس الرابع عشر فى وصول فرنسا إلى حدودها الطبيعية فى الوقت الذى كانت إنجلترا تسير فى طريق التقدم والازدهار التجارى والتوسع الاستعمارى.

الفصل الثامن

إنجلترا فى القرن السادس عشر (عصر أسرة تيودور) ١٤٨٥-١٦٠٣



يبدأ تاريخ الشعب الإنجليزى كأمة حديثة منذ فتح النورمانديون بلادهم عام ١٠٦٦ بقيادة وليم الفاتح دوق نورمانديا، وقد استوطن النورمانديون البلاد وتناسلوا مع أهلها الإنجليز، ومن امتزاجهم نشأ الشعب الإنجليزى الحديث تحت حكم ملوك أقوياء لم يقتصر حكمهم على إنجلترا فقط، بل أصبحت نورمانديا تابعة للتاج الإنجليزى منذ أن اتخذ وليم الفاتح إنجلترا مقرا له. ثم اتسعت الأملاك الإنجليزية فى فرنسا وأدى ذلك إلى ما يعرف باسم «حرب المائة سنة» وهى الحرب التى كان لها أبعد الآثار فى تاريخ الدولتين، والتى ترجع أصلها إلى تصميم ملوك إنجلترا على البقاء فى ممتلكاتهم الفرنسية، وإلى عزم ملوك فرنسا على إجلاء الإنجليز عن بلادهم، وأخيرا، لم يستطع الإنجليز الاحتفاظ بالأراضى الفرنسية التى كانت تابعة لهم؛ لأن الشعب الفرنسى نفسه أخذته العزة القومية وثار ضد الاحتلال الإنجليزى وتجلت قوته الوطنية فيما قامت به جان دارك من بطولة نادرة، إذ تألبت بفضل حماستها وتضحيتها جميع القوى التى طردت الإنجليز من الأراضى الفرنسية. وبعد عامين فقط من جلاء الإنجليز عن فرنسا شبت بإنجلترا نفسها حرب أهلية وهى «حرب الوردتين» (١٤٥٥ ـ ١٤٨٥) وسميت بهذا الاسم، إشارة إلى الوردة البيضاء التى كانت شعار آل يورك، والوردة الحمراء التى كانت شعار آل لانكستر وهما أسرتان تنتميان إلى أصل واحد ولكنهما تنازعتا على العرش.

وقد فاز آل يورك فى حرب الوردتين عام ١٤٧١، إلا أن ملكهم (ريتشارد الثالث) لم يكن موفقا فى حكمه، وأغضب الشعب بارتكاب أفعال منكرة منها قتل ابنى أخيه إدوارد الرابع، فاستطاع «هنرى تيودور» من أسرة لانكستر أن يكتسب تأييد الشعب وينتزع العرش من أسرة يورك ويؤسس أسرة تيودور القوية التى قدر

لها أن تقود البلاد حقبة من الزمان كانت مليئة بالمصاعب الدينية والسياسية، وقد اعتلى هنرى تيودور الحكم باسم هنرى السابع

هنرى السابع ١٤٨٥ ـ ١٥٠٩.

يعتبر اعتلاء هذا الملك الجديد عرش البلاد أهم حدث فى تاريخ إنجلترا فى ختام القرن الخامس، فقد أنهى عهدا طويلا من الحروب الإقطاعية التى أضعفت الكيان القومى للبلاد، وكان عهده فاتحة لعصر تقدم اقتصادى كبير، قام على سواعد أفراد من الطبقة الوسطى، قاموا بمغامرات وراء البحار، حيث أفسحت الكشوف الجغرافية للاستغلال الاقتصادى، هذا إلى أن حركة النهضة وإحياء العلوم وحركة الإصلاح الدينى كان لها أثرها فى انتعاش الفكر واتساع الأفق، فانصرف الناس فى إنجلترا إلى اكتساب العلوم وجمع الثروة عن طريق التجارة، ولم تعد الخلافات السياسية أو الطائفية تهمهم كثيرا، وأصبح الملك صاحب الحل والعقد فى الشئون السياسية.

وكانت الروح الاستبدادية هى السائدة فى أوروبا فى ذلك العصر، ففى أسبانيا قضى كل من شارل الخامس وفيليب الثانى على كل حقوق دستورية، وفى فرنسا أخذ مجلس الأمة النيابى يضعف بالتدريج حتى ألغى نهائيا عام ١٦١٤، أما إنجلترا فقد ظلت تتمتع بنوع من الحكم النيابى حتى جاء هنرى السابع الذى كان معتدا بسطوته وقوته، فتظاهر بالتمسك بقوانين البلاد والبرلمان، إنما كان ذلك فى المظهر لا فى الجوهر. وقد سار ابنه هنرى الثامن على نهج أبيه. كلاهما لم يعبأ بأنظمة البرلمان ولكنهما كانا يسعيان إلى جعل السلطة كلها للملك عن طريق التسلط على أعضاء البرلمان وإغرائهم بشتى الوسائل ليكونوا أداة طيعة فى يد الملك، وبذلك ضعف الحكم النيابى فى عهد أسرة تيودور، إلا أنها لم تتبدد نهائيا إلى أن أتيح لها فرصة العودة والنمو والانتعاش حتى أصبحت السلطة الفعالة فى الدولة.

ولم يجد ملوك أسرة تيودور معارضة لسلطانهم وساعدهم على التسلط أن

الأسرات الكبيرة انهارت خلال الحروب الطويلة التى كانت تقوم بينها وزال النظام الإقطاعى، وبلغت إنجلترا فى عهد أسرة تيودور درجة من الانسجام القومى لم تشهدها من قبل.

واستطاع هنرى السابع أن يعيد السلام والهدوء إلى البلاد، وفى مقابل ذلك استطاع تدعيم الملكية بإصدار عدة قوانين أهمها القانون الخاص بتأسيس غرفة النجم Star Chamber عام ١٤٨٧ وهى بمثابة محكمة ذات سلطات واسعة لمراقبة تصرف النبلاء ومحاكمتهم، وقانون آخر يقضى بتقديم المعارضين لحكومة الملك وكذلك الذين يؤيدون المطالبين بالعرش إلى المحاكمة بتهمة الخيانة، وقانون ثالث لمنع النبلاء من جمع الأتباع طمعا فى النفوذ، وأخيرا أصدر قانونا بفرض سيطرة الملكية على شئون الصناعة. وهكذا استطاع هنرى السابع أن يؤسس ملكية ذات سلطة تكاد تكون مطلقة ولكنها لم تكن مثل الملكية الاستبدادية التى سادت أوروبا فى العصور الحديثة.

ولم يهتم هنرى بالحروب، وكانت سياسته تتجه إلى التقارب مع أسبانيا عن طريق مصاهرة البيت المالك فيها. ففى سنة ١٥٠١ زوج ابنه آرثر بالأميرة كاترين بنت فرديناند ملك أسبانيا، ولم يدم هذا الزواج طويلا، إذ مات آرثر بعد خمسة شهور من زواجه، فعمد هنرى السابع إلى عقد زواج ثانى أبناء هنرى من كاترين زوجة أخيه الراحل وكان ذلك منافيا لقوانين كنيسة روما. ومع ذلك فقد منحه البابا إذنا بذلك. كذلك وطد العلاقة التى تربط بين العرش الإنجليزى وعرش أسكتلندة (١٥٠٣)، وكان ذلك الزواج نواة للتفكير فى توحيد المملكتين.

هنرى الثامن (١٥٠٩ ـ ١٥٤٧).

اعتلى هنرى الثامن العرش بعد وفاة والده عام ١٥٠٩ ويختلف عهده عن عهد أبيه اختلافا بينا، إذ كان الإنجليز قد سئموا عهد أبيه الذى لم يمنح إنجلترا قوة دولية تبهر الأنظار، وكان هنرى الثامن على استعداد للقيام بأعمال فى القارة

يرفع بها اسمه واسم بلاده وكان المحرك لسياسته هو الوزير العظيم تومس ولزلى Wolsely الذى تربى فى الكنيسة تربية دينية ووصل بذكائه وكفاءته إلى منصب رئيس أساقفة يورك ثم ترقى مستشارا دينيا فكاردينالا إلى أن وصل إلى رتبة نائب البابا، وبذلك أصبح مسيطرا على الكنيسة الإنجليزية. وعندما أصبح وزيرا لهنرى الثامن، كان اليد المحركة لسياسة الملك.

وقد خاضت إنجلترا عدة حروب خارجية ضد فرنسا منذ عام ١٥١٣، ثم تجددت فى عام، ١٥٢٢ وفى عام ١٥٢٥ إلى أن تهادنت مع هنرى على أن تدفع له إتاوة سخية. وكذلك حاولت أسكتلندة فى عهده غزو إنجلترا ولكنها هزمت وقتل ملكها (١٥١٣) وهادنتها إنجلترا مشترطة عليها ألا تمد يد المساعدة لفرنسا.

وقد أدت الحروب التى خاضتها فرنسا لغزو إيطاليا إلى قيام سلسلة من الحروب بين فرنسا وأسبانيا. وأن مبدأ جديدا انبثق فى أوروبا فى ذلك الحين وهو مبدأ المحافظة على التوازن الدولى. وقد اقتحم ولزلى إنجلترا فى النزاع الإيطالى، ولكن بغير نتيجة عادت على البلاد. وقد ناصر هنرى الثامن أسبانيا ضد فرنسا فى الحلف المقدس عام ١٥١١. وقامت قوات إنجليزية بغزو فرنسا، وحازت بعض الانتصارات على الأرض الفرنسية.

وعندما كانت الحرب دائرة بين فرانسوا الأول وشارل الخامس انحاز هنرى الثامن إلى أسبانيا بتأثير من سياسة «ولزلى»، ولكن عندما حدثت واقعة يافيا (١٥٢٥) التى انهزم فيها فرانسوا حول هنرى تحالفه إلى عدوته فرنسا احتفاظا بمبدأ التوازن الدولى، ومع ذلك فلم تستطع إنجلترا تحقيق أية مكاسب من إقحام نفسها فى هذه الحروب.

حركة الإصلاح الدينى فى إنجلترا:

تعتبر حركة إدخال الإصلاح الدينى إلى إنجلترا أهم ظاهرة حدثت فى عهد الملك هنرى الثامن، على أن الإصلاح لم تكن دوافعه عند الملك دينية، بل

ابتدأت الحركة فى إنجلترا سياسية فى أول الأمر ثم انقلبت دينية بعد ذلك، والواقع أن هنرى الثامن كان يعارض حركة لوثر منذ نشأتها وكتب رسالة ضمنها آراءه معارضا فيها مذهب لوثر (١٥٢١) مما دعا البابا إلى منحه لقب حامى حمى العقيدة Defender of the faith وهو لقب كان ملوك الإنجليز جميعا يعتزون بحمله.

وقد ظهرت جماعة من إنجلترا على رأسهم كولت Colet ومور More والمصلح الهولندى أرزمس عكفت على دراسة النسخة اليونانية من الإنجيل (العهد الجديد New Testament) من الناحية العلمية واكتشفوا مثالب ومعايب فى الكنيسة، وكان يطلق على هؤلاء لقب «مصلحى أكسفورد» The Oxford Reformers، ومع ذلك فلم يكن هؤلاء من مؤيدى لوثر ولا يعطفون على حركته، ولم يناهضوا الكاثوليكية كعقيدة للكنيسة، ولكنهم كانوا يبرزون المعايب ويطالبون بالإصلاح.

ولم يكن لأى مؤرخ أن يتكهن بالدور الذى ستعلبه إنجلترا فى حركة الصراع الدينى فى أوروبا لو لم تضطر الظروف هنرى الثامن - لأسباب شخصية محضة - أن يلقى بكل ثقله فى حركة تأييد الإصلاح الدينى، ولولا تلك الأسباب الشخصية لتغير موقف إنجلترا تجاه الحركة.

طلاق كاترين الأرجوانية.

كان هنرى الثامن عاطفيا مغرما بالمرح واللذة الشخصية، وقد ولدت له كاترين العديد من الأطفال لم يعش منهم سوى الأميرة مارى ولم تنجب له ولدا يكون وليا للعهد، وكانت كاترين أكبر منه سنا ولا تشارك زوجها فى نوازعه وميوله الشخصية، وفى الوقت نفسه كان متعلقا بحب آن بولين إحدى سيدات البلاط ووصيفة الملكة، فقرر التخلص من الملكة ليتزوج الوصيفة.

وكان الأمر يبدو صعبا، إذ لابد من صدور قرار من البابا يجيز له طلاق

كاترين، ولابد من إيجاد سبب يستند إليـه البابا فى إصدار قرار بعدم شرعية زواج هنرى الثامن من كاتـرين وكان من عادة البابوات أن يستجيبـوا فى بعض الأحيان لرغبات الملوك، ولكن فى ذلك العام ١٥٢٧، كـانت القوات الأسبانية قد دخلت روما واحتلتها، وأخذ البابا«كلمنت الـسابع » أسيرا عند الإمبراطور شارل الخامس وأصبح خاضعا لنفوذه ولا يسعه إغضابه.

وحاول الكردينال ولزلى أن يستصدر من رومـا قرارا يلغى قرار البابا الأسبق يوليوس الـثانى الذى كان قـد أتاح زواجهما ولكـنه أخفق، ولما كـان ولزلى هو صاحب الرأى فـى استصدار قرار الإلـغاء من روما فقـد حقد عليه هـنرى وعزله وصادر أملاكه واتهمه بالخيانة ولكنه مات قبل المحاكمة سنة ١٥٣٠.

توماس كرمويل:

ولما طالت مراوغة البابا فى مسألة طلاق كاترين، تفاقم الخلاف بين هنرى الثامن والكنيسـة البابوية، واختار الملك رجلا كان يعمـل تحت رئاسة الكاردينال ولزلى، ولكن كان أصلب من الكاردينال، ويعتنـق مبدأ «الغاية تبرر الوسيلة» وهو توماس كرمويل، الذى أشار على الملك بالانفصـال عن كنيسة روما وفصل كنيسة إنجلترا ووضعها تحت سيادة الملك؛ ودلك بأن يحذو الملك حذو الأمراء الألمان الذين تخلصوا من سلطان البابوية ونبذوا كنيسة روما وأنشأوا كنائس أهلية.

وقد اقتنع هنرى بهذ الحل واعتبر نفـسه زعيما من زعماء الإصلاح الدينى، ولكن كان فى داخلية نفسه يهدف إلى توحيـد السيادة على البلاد، إذ كانت تقتسم السيادة قبل ذلك سلطـتان: سلطة الكنيسة ممثلة فى شخص البـابا رئيسها الأعلى وسلطة الملكية، وبالتخلص من سيادة الكنيسة البابوية يستطيع تحقيق مآربه الثلاثة الكبرى: طلاق كاترين والزواج من آن بولين، والاسيتلاء على الأموال التى كانت ترسل فى الأصل إلى كـنيسة روما، وتدعيم سـلطانه على الدولة الحديثـة بفضل سيطرته وسيادته على جميع رعاياه من علمانيين ودينيين

وهكذا ظهر الإصلاح الدينى فى إنجلترا بشكل دينى وسياسى معا، وقد ترك الشعب أمر اختيار المذهب الدينى لمليكه وخضع لما يصدره من قوانين دينية. وساعد الملك على تحقيق ذلك أن البرلمان بمجلسه كان خاضعا له يوافق على تشريعاته.

وقد عين الملك «توماس كرمويل» نائبا عنه فى الأمور الدينية، فأخذ الأخير يعمل على محو الأديرة من البلاد ومصادرة أراضى الكنيسة.

وهكذا استطاع الملك أن يحقق استقلال الكنيسة الإنجليزية ويكون هو رئيسها الأعلى، واستطاع أن يحقق رغبته فى طلاق كاترين والزواج من آن بولين، وأن يملأ خزائنه بالأموال التى كانت تتدفق من إنجلترا على كنيسة روما، وأن يصبح صاحب السلطان الأوحد على رعاياه من دينيين وعلمانيين.

أما الشعب الإنجليزى فكان يشعر شعورا عميقا فى تلك الأيام بضرورة الإصلاح بعد أن تنبهت الأذهان إلى المساوئ العديدة فى الكنيسة الإنجليزية عندما كانت تتبع البابا مباشرة، إذ كانت مفاسد رجالها فى الكنائس والأديرة هى نفس المفاسد التى ثار عليها المصلحون فى ألمانيا وغيرها، وفى نفس الوقت كان الرأى العام مهيأ لتأييد الملكية فى مسعاها لتدعيم سلطانها. إذ فى دعمها أمان من الفوضى التى عانت منها البلاد فى حروب الوردتين، وكان الناس يفضلون أن تزول سلطة البابوية وهى سلطة أجنبية وليست قومية. وساعد على تأييد حركة الإصلاح أيضا أن أحدا ممن تصدوا للمناداة بالإصلاح لم يفكر فى مهاجمة العقيدة الكاثوليكية نفسها أو المساس بها، لقد تحمس البرلمان لتأييد الملكية فى الإصلاح؛ لأن الملك لم يتعرض بسوء للكاثوليكية. ظل الحال كذلك إلى أن انحازت أكثرية الشعب للمذهب الجديد إذ أقدم خلفاء هنرى الثامن على إدخال البروتستانتية فى البلاد.

ومنذ شهر نوفمبر عام ١٥٢٩، عرف البرلمان باسم برلمان الإصلاح أو

لبرلمان(السبع سنوات) لأنه انعقد سنوات متتالية كان الإصلاح الدينى هو همه الأول، فقد أصدر عدة قوانين كان هدفها إصلاح مساوئ الكنيسة وإخضاع رجال الدين فى إنجلترا لسلطة الملك. واشتدت الحملة لتحقيق هذه الأهداف، وبدأت بإصدار البرلمان قانون منع إرسال الأموال إلى روما، وآخر يمنع الكنيسة فى إنجلترا من التصرف فى شئونها بغير موافقة الملك. وتحريم تعيين الأقارب فى الوظائف الكنسية وغير ذلك مما كان يراه النواب ضمن مفاسد الكنيسة.

وفى عام ١٥٣٣ أصدر الملك مرسوما بتعيين توماس كرانمر Cranmer رئيسا لأساقفة كنتربرى، وقد رفض البابا كملنت السابع أن يوافق على تعيينه. ولكن هنرى الثامن لم يعبأ برفض البابا. واستصدر من كرانمر إعلانا بإلغاء زواجه من كاترين، والموافقة على زواجه من آن بولين. وكان ذلك فى مايو عام ١٥٣٣. وبعد ذلك بعدة أسابيع أصدر البابا قرار الحرمان ضد هنرى الثامن الذى كان قد تزوج آن بولين سرا قبل أن يصدر رئيس أساقفة كنتربرى موافقته الرسمية وأنجب منها «إليزابيث» التى جعلها وريثة العرش من بعده، وألغى حقوق ابنته «مارى» التى أنجبها من زوجته الأولى على اعتبار أنها ولدت من زوجة غير شرعية.

وفى نوفمبر ١٥٣٤، أصدر البرلمان «قانون السيادة العليا» الذى نص فيه على أن الملك هو الرئيس الأعلى للكنيسة الإنجليزية وله كل السلطات الروحية والقانونية التى كان البابوات يتمتعون بها فى إنجلترا، ومعاقبة كل من يتعرض لشخص الملك وحقوقه، ثم صدر قانون حل الأديرة، وتبعه قانون آخر بحل الأديرة الكبيرة حتى أصبح عدد الأديرة التى حلت حوالى ستمائة دير ذهب إيرادها الكبير لخزانة الملك، وبإضافة هذا الإيراد إلى ما صودر من إيراد الكنيسة فى أراضيها وممتلكاتها، يكون الملك قد استولى على ما يقرب من خمس الأراضى الزراعية بالبلاد، فضلا عن مقادير كبيرة من الثروة المنقولة وترتب على هذا ازدياد قوة الملكية، والإقدام على عدة مشروعات لتقوية الدولة نفسها؛ فأنشأ هنرى

الثامن أسطولا قويا، وحصن الشواطئ، بل إنه استطاع أن يقوم بحرب ضد فرنسا (١٥٤٣ ـ ١٥٤٦) وشرع فى تنظيم أيرلنده، ووحد بين شمال إنجلترا وجنوبها وحاول قبيل موته أن يضم أسكتلندا إلى التاج الإنجليزى ولكنه فشل فى هذا السبيل.

وقد أدت حياته العائلية المتغيرة إلى تغير نظام الوراثه لمن يخلفه، فقد تخلص من زوجته آن بولين وتزوج بعدها جين سيمون، وثلاث أخريات متتاليات، ولكنه أنجب ابنه إدوارد من جين سيمون الذى استصدر له من البرلمان قانونا يجعل ولاية العهد من نصيبه، فإذا مات من غير وريث خلفته «مارى» بنت كاترين، فإذا لم يكن لها وريث خلفتها أختها إليزابيث. وهكذا انتقل الملك إلى ابنه إدوارد السادس وفى الوقت نفسه اعترف القانون بشرعية بنوة مارى ابنة كاترين. وفى سنة ١٥٤٧ مات هنرى الثامن وخلفه ابنه إدوارد السادس.

الملك إدوارد السادس (١٥٤٧ ـ ١٥٥٣) والبروتستانتية:

كان إدوارد السادس لا يزال قاصرا فى العاشرة من عمره عندما مات أبوه. فأقيم عليه خاله «ارل هرتفورد» وصيا، وقد منحه الملك لقب دوق سمرست واعتبر دوق سمرست صاحب الحماية على المملكة. وقد حدث تغيير جذرى فى العقيدة الإنجليزية فى ذلك العهد، فقد كان سمرست على المذهب البروتستانتى ولذلك ألغى كل القوانين التى اضطهدت البروتستانت، ثم تحول لمناهضة الكاثوليك وأغلق كثيرا من كنائسهم، وحول دخلها إلى خزينة الملك، وفى عهده سارت حركة الإصلاح الدينى شوطا بعيدا من ذلك أصدر كتاب الصلوات العامة Book of Common Prayer باللغة الإنجليزية، وهو الكتاب الذى طبع الكنيسة البروتستانتية بطابع قومى وجعل الفردية وحرية الاعتقاد أساسا للبروتستانتية الإنجليزية. على أن مركز سمرست أخذ يتزعزع بسبب كثرة أعدائه، ومواجهة الصعوبات الداخلية التى نشأت عن الهزات الدينية، وانتشار حركة (إغلاق الحقول

Enclosures) وسببها أن أصحاب الأراضى الصالحة للزراعة فضلوا أن يحولوها إلى مراعى للأغنام لتصدير صوفها، وأقاموا أسيجة حول الأراضى وطردوا منها المنتفعين بها من صغار المزارعين، وبذلك تحولت المساحات الزراعية الكبرى إلى حقوق مسورة لتربية الأغنام، فقل العمل الزراعى وسادت البطالة واشتدت الحاجة بهؤلاء الذين طردوا منها، وكانت الطبقة التى آلت إليها هذه الأراضى أشد حرصا على جمع المال من طبقة الأشراف القدامى، وبلغ بهم الجشع أن وضعوا أيديهم على كثير من الأراضى التى تجاور أملاكهم وهى الأراضى التى كان الناس يعدونها مباحة يتعيش منها الفقراء.

وحاول «سمرست» أن يقوم بعمل من شأنه التخفيف عن الطبقة الفقيرة التى أضيرت بسبب أطماع كبار الملاك، فتعرض لسخط الفريقين، إذا اعتبره كبار الملاك مسئولا عن اضطراب البلاد، واتهموه بأنه كان مبذرا فى أموال البلاد، وأنه جمع لنفسه ثروة طائلة من مال الكنيسة، كذلك غضب عليه الرأى العام بسبب الدعايات التى دبرت ضده، وأدى كل ذلك فى النهاية إلى القبض عليه وخلعه من منصبه عام ١٥٤٩ . ثم كان نصيبه الإعدام عام ١٥٥٢ .

وخلفه فى منصبه إيرل وارويك Earl Warwick، وهو أحد الأشراف من كبار ملاك الأراضى والذى كان له الفضل فى إخماد ثورة الفلاحين. وقد منحه الملك لقب دوق نورثمبرلاند Northumberland وكان من دهاة السياسة، وليست له ميول دينية معينة، إلا أنه تظاهر بالتمسك بالبروتستانتية تمشيا مع الملكية؛ ولأن معظم الوزراء كانوا يدينون بذلك المذهب، انتشر المذهب البروتستانتى فى لندن والمدن الساحلية، أما فى داخل البلاد فقد كان نموه بطيئا.

ولما مرض الملك إدوارد السادس وأشرف على الموت عام ١٥٥٢، رأى الدوق نورثمبرلند أن سلطانه مهدد بالزوال إذا آل العرش إلى مارى التى كانت كاثوليكية متعصبة، لذلك سعى فى تحريض الملك على أن يحدث تغييرا فى نظام

الوراثه من بعده، بأن تلى العرش ليدى جين جراى Jane Gray . وهى حفيدة لإحدى شقيقات الملك هنرى الثامن، وكانت حجته فى هذه الفكرة أن مارى وإليزابيث ابنتان غير شرعيتين ولكن مؤامرته فشلت؛ لأن الشعب لم يكن راضيا عن هذه الخطوة، فقد كان للوريثة الشرعية «مارى» أنصار كثيرون ممن يدافعون عن مبدأ شرعية العرش القانونية. وتولت الحكم صاحبة الحق فيه الأميزة «مارى» ابنة هنرى الثامن من زوجته الأولى كاترين الأرجوانية.

الملكة مارى (١٥٥٢ ـ ١٥٥٨):

وكانت مارى شديدة التدين والتمسك بالكاثوليكية، ولذلك كان أول قرار اتخذته هو إعادة العلاقات مع كنيسة روما، ثم ألغت جميع القوانين الدينية التى سنت فى عهد إدوارد السادس، هذا إلى أنها تزوجت «فيليب الثانى» ملك أسبانيا أشد الملوك تعصبا للكاثوليكية، وقد أثار هذا الزواج غضب الشعب الإنجليزى كله لما كان يحمله من بغض للأسبان، وقد ترتب على هذا الزواج قيام ثورة بإنجلترا تزعمها السير توماس ويت Thomas Wyatt ولكن تمكنت الملكة من القضاء على الثوار وأعدم زعيم الثورة، وأمرت فى الوقت نفسه بإعدام جين جراى مع أنها لم تكن لها يد فى قيام تلك الثورة.

ثم بدأ عهد من الاضطهاد للبروتستانت، وارتكبت الفظائع ضدهم من سجن وتقتيل وإحراق حتى لقبها البعض بمارى السفاحة، وكان حكمها حقبة خطيرة من الاضطهاد الدينى لم يسبق لها مثيل فى التاريخ الإنجليزى.

وقد كان زواجها من فيليب شؤما عليها وعلى البلاد. فلم يكن هناك من يرضى أن تصبح إنجلترا تابعة لأسبانيا. فغادرها فيليب ذاهبا إلى الأراضى المنخفضة، ومن ذلك الحين لم يعد إلى إنجلترا إلا عندما وصلها ليحرض الملكة مارى على أن تشترك معه فى الحرب ضد فرنسا، ولبت مارى دعوته وكانت العاقبة وخيمة على البلاد، وذلك أن الإنجليز كانوا قد أهملوا تحصين كاليه

Calais فلما نشبت الحرب بينهم وبين فرنسا انتزع الفرنسيون المدينة عام ١٥٥٨. ولم تكسب إنجلترا من مغامرة ملكتها سوى ضياع ميناء كاليه آخر ما بقيت لها من فتوحاتها بالقارة الأوربية فى العصور الوسطى.

وضج الشعب من سوء الحال وزاد عدد الداخلين فى المذهب البروتستانتى فقد ارتبطت الكاثوليكية فى ذهنهم بالدماء المراقة، وتضحية المصالح الإنجليزية فى سبيل أسبانيا، وكان معظم الإنجليز يخشون أن ينجب زواجها بفيليب وليا للعهد تجرى فى عروقه الدماء الأجنبية، ولكنها ماتت قبل أن تحل تلك الكارثة. وخلفتها على العرش أختها إليزابيث.

الملكة إليزابيث (١٥٥٨ ـ ١٦٠٣):

اعتلت إليزابيث العرش وعمرها خمس وعشرون سنة وحكمت البلاد حتى بلغت السبعين من عمرها، ويعتبر عهدها الطويل من أزهى عصور التاريخ البريطانى، حتى أن المؤرخين أطلقوا على النصف الثانى من القرن السادس عشر «عصر إليزابيث» وفيه نمت القومية البريطانية وأصبح لبريطانيا السيادة البحرية التى ساعدت على رقى البلاد وعظمتها وفيه توطد نهائيا نظام الكنيسة الإنجليكانية، واتسع النشاط البرلمانى وازدهرت الحياة الأدبية.

وقد اشتهرت إليزابيث بقوة الإرادة والمشاركة الفعلية فى حكم البلاد رغم أنها استخدمت رجالا أكفاء ولكنها لم تتنازل عن دورها كملكة قوية، لأنها كانت معتدة بنفسها معتقدة أن إنجلترا فى ذلك العهد أحوج ما تكون إلى حاكم قوى، ولذلك كان عصرها عصر قوة وتفوق لإنجلترا.

وقد استطاعت إليزابيث أن تطبع إنجلترا بالطابع البروتستانتى على الرغم من أنها لم تتعمق فى دراسة أى من المذهبين، ولم تتعصب فى داخلية نفسها لأيهما، ولم تستهوها العواطف الدينية، ولذلك لم تتعجل فى قطع العلاقات مع كنيسة روما.

ولم يسعها إلا اتباع سياسة الحل الوسط معتمدة على البرلمان، باتخاذه أداة لتنفيذ هذه السياسة، وانتهت تلك السياسة بتدعيم صرح الكنيسة الإنجليكانية، أو ما سماه بعض المؤرخين بنظام إليزابيث الكنائسى، وهو النظام الذى يستند إلى قانونين: قانون السيادة العليا The act of Supenrmacy وقانون المذهب الواحد The act of uniformity

أما القانون الأول فقد أكد لصاحب العرش السيادة العليا فى جميع الشئون الروحية والزمنية على السواء، وألزم رجال الدين بأن يقسموا يمين الولاء والاعتراف بسلطان الملكة فى شئون الكنيسة وعدم الخضوع لأيه سلطة أجنبية فى جميع الشئون الدينية والقضائية. وبهذا القسم حرم الأساقفة الكاثوليك - الذين كانوا عماد الحركة الكاثوليكية فى عهد مارى - من التصرف فى أسقفياتهم.

كذلك نص قانون السيادة العليا على معاقبة المعارضين له وكل من يقبل الخضوع لأية سيادة أجنبية فى الشئون الدينية أو الزمنية.

أما قانون المذهب الواحد فقد أقر نوع العبادة التى تضمنها كتاب الصلاة الثانى الذى صدر سنة ١٥٥٢ مع إدخال تعديلات فى تفصيلات العقيدة تسهل للمعتدلين من البروتستانت والكاثوليك أن يقبلوه، وقد عبر ذلك القانون بعض التقاليد والطقوس بما لا يتنافى كثيرا من الكاثوليكية وحدد الرأى فى مسألة القربان بالجمع بين الوجود الحقيقى للقربان وبين اعتباره حفلة تذكارية، ولإسداء الحمد والشكر، واعتبر زواج القسيس شرعيا مع عدم تشجيعه. كما طلب من القساوسة أن يعتدلوا فى اختيار ملابسهم بحيث تكون بسيطة متواضعة. وبذلك أصبح نظام الكنيسة الإنجليكانى كاثوليكى المظهر، بروتستانتى العقيدة، ولذلك لقى فى مبدأ الأمر معارضة شديدة من جانب البروتستانت المتطرفين.

أما المعتدلون من البروتستانت فقد وافقوا على النظام الجديد عازمين على العمل بالتدرج على أن يتفق مع عقائدهم، وقد عرف هؤلاء بالمتطهرين

بالبيوريتان Puritans أما المتطرفون من البروتستانت الذين عرفوا بالانفصاليين Separatists فقد تعرضوا للمحاكمات والعقوبات التى فرضها قانون المذهب الواحد.

كذلك عارض المتعصبون من الكاثوليك نظام الكنيسة الإنجليكانى، بل كانوا أشد خطرا على سيادة الملكية من البيوريتان والانفصاليين حتى أن بعضهم عمد إلى التآمر على حياة الملكة إليزابيث للتخلص من النظام الإنجليكانى الذى كانت تحميه. ولذلك تطلعوا إلى فيليب الثانى ملك أسبانيا وبابا روما لكى تنجح مؤامراتهم ضد العرش.

ولم يكن هناك مفر من الاحتكاك بين البروتستانت والكاثوليك على الصعيد الدولى، فانحازت إليزابيث إلى البروتستانت تؤيدهم فى الأراضى المنخفضة، وإلى الهيجونوت (البروتستانت) تؤيدهم فى فرنسا، وفى مقابل ذلك عمد فيليب إلى التدخل فى شئون أيرلنده والعمل على إثارتها ضد الحكم الإنجليزى.

كذلك أفضت الحوادث إلى توتر العلاقات بين إليزابيث ملكة انجلترا ومارى استيوارت ملكة اسكتلنده (زوجة فرانسوا الثانى ملك فرنسا)، فقد كانت مارى استيوارت محور المؤامرات التى يدبرها الكاثوليك ضد إليزابيث. وهدفهم الرئيسى تنصيب مارى استيوارت ملكة على عرش إنجلترا بدلا من إليزابيث.

ولكن الظروف ساعدت إليزابيث على التخلص من مارى استيوارت عندما كانت تحكم أسكتلندة بنفسها بعد وفاة زوجها فرانسوا الثانى، وقام النزاع بينهما وبين خصومها من رجال الدين والنبلاء واتهامهم إياها بقتل زوجها . وثار الشعب عليها فلجأت إلى إنجلترا طالبة حماية غريمتها إليزابيث، وبعد عدة أعوام غدرت بها الملكة وأعدمتها عام ١٥٨٧؛ لأنها كانت تشعر أن بقاءها فيه خطر يتهدد عرشها، واعتقدت اليزابيث أن مارى ستيوارت كان لها ضلع فى قيام الفتن والمؤامرات التى كانت تدبر فى السنين الأخيرة ضدها.

المنافسة بين إنجلترا وأسبانيا وحملة الأرمادا:

كانت إليزابيث حريصة على استقلال البلاد والميل إلى السلام، ولكن المنافسة التى استمرت بين إنجلترا وأسبانيا فى أواخر عهد إليزابيث لم تترك منفذا للسلام بين البلدين، فبينهما خلاف دينى شديد وصراع على التجارة وامتلاك المستعمرات فى أمريكا، وبدأ الاحتكاك بتأييد فيليب الثانى لحقوق الملكة مارى استيوارت فى عرش إنجلترا، ومساهمته فى تدبير مؤامرة لاغتيال إليزابيث لتحل مارى ستيوارت محلها، وفى الوقت نفسه كانت إليزابيث تساعد الهولنديين فى ثورتهم على الحكم الأسبانى وتمدهم بالمال والسلاح ثم ما لبث أن أمدتهم بالعون العسكرى، وبذلك صار الداء سافرا ينتظر الشرارة التى تشعل الحرب، وكان العامل الأكبر فى قيام الحرب المنافسة الملاحية فى البحار والمغامرات التى قام بها فريق من المغامرين الإنجليز فى المناطق التى يعتقد الأسبان أنها احتكار لهم، فتم إنشاء مستعمرة إنجليزية فى فرجينيا بأمريكا الشمالية على يد السير والترالى. وتم للسير فرنسيس دريك الطواف حول الأرض وعاد إلى إنجلترا يحمل الذهب والفضة والنفائس التى سلبها من السفن والمدن الأسبانية. وكان الملاحون المغامرون من الإنجليز يعمدون إلى تخريب مدن الأسبان فى أمريكا وسلبها، وفى سنة ١٥٨٧، حمل «دريك» على ميناء قادس الأسبانى بست سفن حربية دمر به بعض السفن الراسية فيه وقاد بعضها الآخر إلى السواحل الإنجليزية، وقد حدث كل هذا فى الوقت الذى قرر فيه فيليب غزو إنجلترا.

وقد نفذ فيليب عزمه بتجهيز أسطول ضخم أطلق عليه اسم «الأرمادا» وكان على إنجلترا أن تواجه الخطر المقبل عليها بما تستطيعه من قوة دفاع، وكان الأسطول الإنجليزى يتكون من عدة سفن صغيرة الحجم ولكن قيادته كانت بين قواد بحريين أكفاء، وأخذت السفن الحربية الإنجليزية تقوم بهجمات موفقة على الأسطول الأسبانى الضخم، فالتجأ إلى الساحل قرب كاليه، ولما اضطره الإنجليز إلى الخروج ثانية إلى عرض البحر لم تستطع سفن الأرمادا أن تقاوم الأسطول

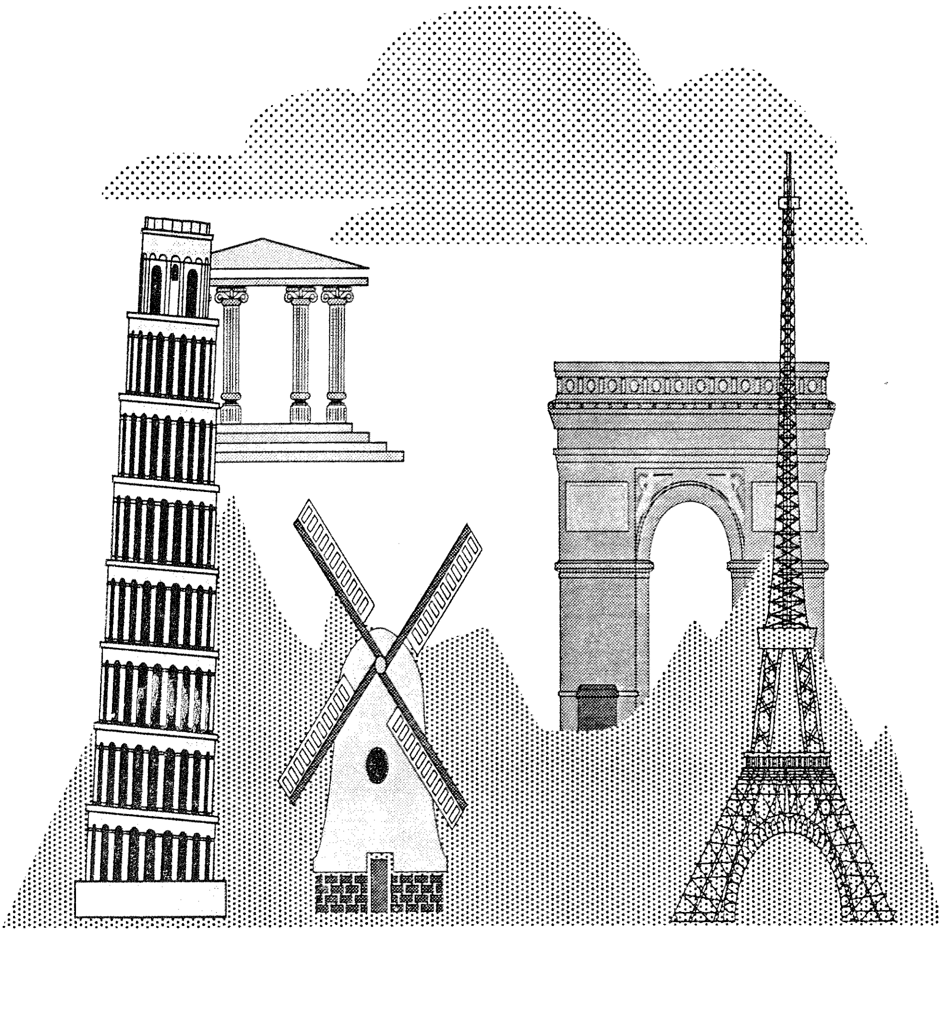
الإنجليـزى على صغر سـفنه التى تفوقـت فى الحركة والسـرعة فتشـتت الأرمادا وانهزم الأسبان بعد معركة كبرى، ومـن نجا من سفن الأسطول حطمته العواصف الشديدة الـتى هبت على بحـر الشمال والمحـيط الأطلنطى، ولم يـعد الأسطول الأسبانى الضخم إلى شواطئ أسبانيا سوى ٥٤سفينة غير صالحة للقتال بعد ذلك.

وكـان المـصيـر الذى آلـت إليـه الأرمادا الأسـبـانيـة أول دليل عـلى أن الإمبـراطورية الأسبـانية لم تـعد فوق مـستوى الـهزيمة فـزال شبح الخـوف من الأسبان، وضاعت من ملك أسبانيا فرصة محـاربة البروتستانتية فى إنجلترا بل لقد أكملت هزيمة الأرمادا عملية تحويل إنجلترا إلى بلاد بروتستانتية.

الفصل التاسع

إنجلترا فى القرن السابع عشر

(آل ستيوارث وثورة البيوريتان)



جيمس الأول (١٦٠٣ ـ ١٦٢٥).

وعندما توفيت الملكة إليزابيث عام ١٦٥٣، ورث التاج الإنجليزى ابن مارى استيوارت الذى كان ملكا على أسكتلندة باسم جميس السادس، وبتوليته العرش الإنجليزى أصبح يطلق عليه اسم جميس الأول.

وكان عهده فاتحة عهد جديد للوحدة بين إنجلترا وأسكتلندة وهى الأمنية التى كثيرا ما اطلع إليها ملوك إنجلترا وساستها منذ عهد هنرى الرابع، ومع ذلك فإن فكرة الوحدة لم ترق لبعض المعارضين؛ لأن الخلاف بين الشعبين كان له جذور تاريخية عمقية، ولذلك حرصت أسكتلندة على الاحتفاظ ببرلمانها وقوانينها وموظفيها، وهكذا لم تكن الوحدة إذ ذاك تتمثل إلا فى وجود ملك واحد على رأس البلدين، ولم تتحسن العلاقات بينهما إلا بعد زمن طويل.

وكان من سوء الحظ أن تبدأ وحدة التاج بين البلدين بملك مثل جيمس الأول ذى الشخصية البغيضة والأفق الضيق والذى اتصف بالعناد والضعف والجبن، ولم يكن أفعاله وتصرفاته مما تشرف الملوك، حقيقة سعى لتثقيف نفسه ونال حظا وافرا من العلم إلا أن مقدرته العقلية وحكمه على الأشياء وتصرفه فى أمور الدولة أثبت أنه لم ينتفع بثقافته ولا بعمله. كذلك عجز عن اكتساب محبة الشعب ولم يحاول ذلك؛ لأنه كان يكثر من الحديث حول حقوق الملك الإلهية فى الحكم، وكان يرى أن من حق الملك أن يصدر أى قانون دون أن يستشير فيه أعضاء البرلمان وإن كان لا يمانع فى قبول ما يقترحونه عليه إذا راق رأيهم. وكان يدعى أنه فوق القانون بحجة أنه هو الذى يصدر القوانين وأن الملك «لا يستمد قوته من الشعب بل من الله الذى اختاره أبا لشعبه، وأنه وحده الذى منحه السلطة لتوطيد النظام وإقامة العدل فى البلاد، فهو مسئول أمام الله وحده وليس لأحد من الشعب أن يحاسبه على أعماله».

على أنه كان من حسن حظه فى مجال السياسة الخارجية أنه تولى العرش فى ظروف موفقة، فقد تمكنت إنجلترا من دحر أسطول الأرمادا الأسبانى وتخلصت من أكبر خطر كان يتهددها قبل أن يلى الحكم إذ ضعفت أسبانيا فى البر والبحر وفقدت مكانتها، ورأى جيمس أن يحدد علاقة إنجلترا بها فعقد معها معاهدة سلام عام ١٦٠٤، وقد أثار فى البلاد عاصفة من السخط بسبب سياسته الخارجية الودية نحو أسبانيا، كما أثار سخط البرلمان بسبب تجاهله للدستور وتحدى البرلمان فى اختصاصاته المالية عندما حاول أن يفرض ضرائب غير مباشرة أو قروضا، متذرعا بما له من حقوق، ولم يكتف بذلك بل لقد صارح اللوردات وأعضاء مجلس العموم أن اختصاصاتهم التى يدعونها ليست قائمة على حق لأنها منحة الملك، وأن واجب النواب قاصر على إقرار موارد الدولة والتعبير فقط عن آراء ناخبيهم، أما تخطيط السياسة القومية وتنظيم كنيسة الدولة فمن شئون السياسة العليا التى يبت فيها الملك وحده.

وقد أثارت تلك الأفكار الاستبدادية أعضاء البرلمان فتقدموا باحتجاج سجلوا فيه: «إن حرية البرلمان وامتيازاته واختصاصاته حقوق أصيلة قديمة لا شك فيها توارثها الشعب الإنجليزى، وأن المسائل الخطيرة والشئون العاجلة بالملك والدولة والدفاع عن البلاد وعن كنيسة إنجلترا، ووضع القوانين وصيانتها وإنصاف المظلومين كلها موضوعات ومسائل من اختصاص البرلمان، يتشاور فيها أعضاؤها ويتنافسون».

وقد هال الملك تلك المعارضة الجريئة من أعضاء مجلس العموم وأمر برفع تلك الصفحة من مضبطة المجلس وحل البرلمان واتهم بعض أعضائه بالخيانة العظمى وتفاقم الخلاف بينه وبين البرلمان، وظل ذلك الخلاف محتدما إلى أن مات جيمس الأول فى عام ١٦٢٥ وتولى العرش ابنه شارل الأول.

شارل الأول (١٦٢٥ ـ ١٦٤٩):

اعتلى شارل الأول العرش فورث عن أبيه تركة مثقلة بالخلاف بين الملك والبرلمان، وكان يشبهه فى نزعته الاستبدادية وصلابة رأيه، وفى عجزه عن كسب

محبة الشعب وعاش حياته فى صراع دائم مع مجلس العموم ووضع ثقته فى دوق بكنجهام Duke of Buckingham الذى كان موضع سخط الشعب منذ عهد جيمس الأول، وقد حاول شارل فى مستهل حكمه أن يبهر الأمة بانتصارات حربية على أسبانيا ولكن حملته باءت بالفشل، كذلك حاول أن يناصر الهيجونوت فى فرنسا ضد وشلييه وفشلت الحملة التى أرسلت لمساعداتهم فى «لاروشيل» ونتج عنها تدعيم قوة روشلييه وضياع هيبة الملكية الإنجليزية وسمعتها فى فرنسا.

واضطر شارل إلى جمع المال بعد الخسارة الفادحة التى أصيبت بها الخزانة الإنجليزية، وكان كلما أراد مالا بطريق غير شرعى (أى موافقة النواب) يلجأ إلى وسائل نفرت منه الشعب، إذ كان يفرض قروضا إجبارية على طبقة التجار وأصحاب السفن والصناع وغيرهم من الطبقة الوسطى فكانت هذه المظالم سبيلا إلى ازدياد عوامل الثورة وخصوصا أنه كان يأمر بسجن كل من يمتنع عن إقراض الملك المال المفروض عليه، وانفجر الشعب مطالبا بتحديد نفوذ الملكية بحيث لا يسجن أحد دون محاكمة عادلة، وكان لذلك صدى قوى فى البرلمان. فاجتمع أعضاؤه فى عام ١٦٢٨ وقرروا إعداد وثيقة سميت ملتمس الحقوق The Petition of Rights، وتعتبر من أهم الوثائق فى التاريخ الإنجليزى، طالبوا فيها:

(أ) أن لا تفرض جباية القروض والضرائب والهبات بدون موافقة البرلمان.

(ب) أن لا يسجن أحد من الرعية سجنا تعسفيا ولا يعامل إلا بما تقضى به قوانين البلاد.

(جـ) وأن لا يجبر الشعب على إيواء الجند والبحارة فى منازل المواطنين أو استضافتهم بأى حال من الأحوال.

وقد اعتبر الملك هذه المطالب التى جاءت فى (ملتمس الحقوق) افتئاتا على حقوقه وتقييدا لسلطته، فرفضها فى بداية الأمر ثم قبلها بعد تردد طويل، لأنه كان فى أشد الحاجة إلى موافقة البرلمان على صرف الأموال التى طلبها، وفعلا قرر المجلس الموافقة على صرفها ولكنه أعد مذكرة ناشد فيها الملك أن يأمر بعزل دوق بكنجهام، فغضب «شارل» واعتبر هذا الطلب ـ رغم أنه صيغ

بعبارات ودية نحو الملك ـ تدخلا فى (حـقه الإلهى) فى الحكم، وتأزمت الحالة فى عام ١٦٢٩ بين الملك والبرلمان، حيث قرر شارل أن يحكم بغير البرلمان ولم يكن للبـرلمان حق قانـونى فى الاجتماع إلا بـدعوة من الملك، ومـما زاد الأمر خطورة تفـاقم النزاع الدينى أيضـا بين الملك والمـجلس وكان الشـعب من ورائه يؤيـده ضد الـملك، بـسبـب ما ذاع من أنـه يمـيل إلى الـعودة إلـى المـذهب الكاثوليكى، ولا سيمـا أن زوجته كانت تدين بالكاثوليكية، واشـتد سخط الملك على مجلس العموم بعد عدة جلسات ساد فيها الهياج والشغب، ورفض المجلس أن ينفض بأمر من الملك، وبقى رئيس المجلس فى مكانه وأعلن المجلس القرار التالى فى نفس الجـلسة: «إن كل من يدخل فى الدين بدعا كاثـوليكية، وكل من يشير بـجباية الضرائب قبـل موافقة البرلمـان، وكل من يؤدى هذه الضريبة يعـتبر عدوا للملكية والمصلحة العامة».

بعد ذلك أصدر الملك مرسوما بحل البرلمان، ولم ينعقد المجلس إلا بعد إحدى عشرة سنـة (١٦٣٩ ـ ١٦٤٠)، كان الملك يحكم أثناءها حكمـا استبداديا مطلقا، كان من نتائجه تهيئة الشعب للقيام بثورة أطاحت به فى النهاية.

وفى أثنـاء حكمه غـير الدسـتورى انتهـز شارل الأول ووزراؤه فرصـة حل المجلس لجباية الضـرائب بوسائل مختلفة، وكان أشدها تعسفـا ما سمى «بضريبة السفن» وهى الضريبـة التى فرضها لإعداد أسطول كانت إنجلتـرا فى أشد الحاجة إليه، فلم يتبع العادة القديمة التقليدية وهى تكليف كل ميناء بتقديم عدد معين من السـفن لحكومـة البلاد، بل فـرض ضريبـة عامـة لهذا الغـرض يدفعـها جمـيع المواطنين، وضج الشعب من تعسف حكومة شارل فى جمع هذه الضريبة التى لم يسبق أن وافـق عليها البـرلمان، وحدثت حـادثة دلت على أن الشعـب لا يسمح للملك أن يسـير على هذا المنهج الاستـبدادى، فقد امتنع عن دفع هـذه الضريبة أحد أعيان الطبقة الوسطى فى الريف واسمه جون همدن Johe Hampden مفضلا المحاكمة والـسجن على الإذعان لأوامر الملك، ولما رفع أمره لـلمحكمة حكم ضده المحلفون بأغلـبية صغرى، ولكن محاكمته جـعلت منه بطلا وأثارت سخط

الشعب على الحكم الاستبدادى وتزعزعت الثقة التى ربطت الشعب الإنجليزى زمنا طويلا بملوكه.

وليم لود:

وكان الملك قد اختار وليم لود WilIam Laud ليكون مستشاره فى الشئون الدينية فقد كان معجبا به وبآرائه، ولذلك عينه رئيسا لأساقفة كنتربرى أكبر منصب دينى فى الدولة(١٦٣٣)، وبدأ لود يطبق نظرياته ومبادئه، فحاول إجبار جميع رجال الدين على استعمال كتاب الصلوات ودفع الشعب الإنجليزى إلى قبول طقوس دينية كان الناس عندئذ يعتقدون أنها تميل نحو طقوس كنيسة روما وفرض على المعارضين الذين رفضوا قبول تعليماته عقوبات، ثم إنه كان يُمنع من القساوسة عن العمل بتقاليد كنيسة الحكومة الرسمية يحاكم أمام المحكمة العليا، وكان بعضهم يحرم من أرزاقه أو يحكم عليه بالجلد فى بعض الأحيان، وكان كل ذلك مدعاه لفرار أعداد كبيرة من البيوريتان الذين هاجروا إلى هولندة والآخرون إلى أمريكا حيث طبقوا النظم التى كانت تعرف باسم«نيو إنجلند» وهناك طبقوا النظم التى كانت سائدة فى إنجلترا ولذلك احتفظت نيو إنجلند بكثير من المميزات الأساسية للحكومة الإنجليزية، وظل أهل هذه الولايات أكثر عطفا على إنجلترا من سكان بقية البلاد التى عرفت بعد ذلك بالولايات المتحدة.

نزاع شارل مع الأسكتلنديين:

ثم قامت ثورة كبرى ضد الملك فى أسكتلندة فقد اشتدت العداوة بينه وبين الشعب هناك لأنهم رفضوا أن يقبلوا كتاب الصلاة الإنجليكانى الذى حاول شارل الأول ومستشاره رئيس أساقفة كنتربرى أن يفرضاه عليهم، وكانوا فى الوقت نفسه يعارضون حق الملك الإلهى فى الحكم، ويحقدون على تصرفات رجال الدين الذين كانوا آلة البطش فى يد الملك، وكان الأسكتلنديون وهم من غلاة البروتستانت ـ قد قرروا ألا يحنوا هامتهم لتدخل الملك فى كنيستهم ومذهبهم، ووضعوا ميثاقا سمى بالتحالف القومى The National Covenant عام ١٦٣٨

تسابق الاسكتلنديون جميعا إلى التوقيع عليه. وبموجب هذا الميثاق يتعهد كل من وقعه أن يبذل أقصى ما لديه من نفس ونفيس لمقاومة أى محاولة لفرض أى نظام دينى يخالف العقيدة، وحاول شارل الأول فى بادئ الأمر أن يفتح باب المفاوضات معهم للتوفيق أو الإقناع، إلا أنه اكتشف أنه أمام أمرين، إما أن ينحنى للعاصفة ويتخلى عن فرض سياسته وإما القتال، واختار القتال.

وكان المال أول عقبة فى سبيل القيام بحملة ناجحة ضد الأسكتلنديين، ولذلك فشلت حملته الأولى عليهم فشلا ذريعا واضطر إلى عقد صلح معهم عام ١٦٣٩، ولكنه اعتبر هذا الصلح هدنة يستعد بعدها للحرب من جديد بعد أن يحصل على المال اللازم، وهو لا يستطيع الحصول عليه إلا إذا دعا البرلمان للموافقة على الاعتمادات اللازمة لمحاربة اسكتلندة.

واضطر مكرها إلى دعوة المجلس بعد أن دام توقفه بعد حله أحد عشر عاما، فانعقد المجلس عام ١٦٤٠، ورغم أن الأعضاء كانوا على استعداد للموافقة على تدبير المبالغ من أجل الحرب، إلا أنهم وجدوا الفرصة سانحة لحث الملك على أن يرفع المظالم التى كانت الأمة تشكو منها، وأخذوا يناقشون هذه المظالم، وإذا بالملك يغضب على المجلس ويأمر بحله ولم يمض على اجتماعه سوى ثلاثة أسابيع (١٣ أبريل - ٥مايو ١٦٤٠)، ولذلك عرف هذا المجلس باسم البرلمان القصير.

وعاد شارل من جديد إلى محاولة قمع الحركة الأسكتلندية فى نفس العام (١٦٤٠) وكانت حملته الثانية أشد فشلا من حملته الأولى مما جعله يسلم فعلا بهزيمته ويعود يائسا إلى استدعاء البرلمان بعد أن تبين له أنه لا يستطيع الحصول على المال إلا إذا كان على استعداد للقضاء على ما يشكو منه الشعب، وكان الموقف دقيقا؛ لأن الجيش الأسكتلندى كان قد عبر نهر التويد Tweed واحتل درهام ونوثمرلند وطالب بمبلغ من المال ثمنا للتفكير فى الانسحاب.

البرلمان الطويل:

وجاء المجلس الجديد بعد انتخابات جديدة تمخضت عن دعوة الأعضاء السابقين أنفسهم، ويسمى فى التاريخ باسم البرلمان الطويل The Long Parliament إذ لم يقدم ملك من الملوك على حله مدة واحد وعشرين عاما.

وما إن بدأ المجلس عمله حتى أثبت استقلاله بالعمل وأصبح منافسا على قدم المساواة لسلطة الملك، بل لقد شعر الملك أنه أصبح تحت رحمة البرلمان، وكان أول أعمال هذا المجلس الانتقام من «إيرل استراتفورد Stratford» رئيس الوزراء وكلود رئيس الأساقفة، بأن قرر زجهما فى السجن، ووجه المجلس تهمة الخيانة للأول ثم أعدم فى عام ١٦٤١ ووقع الملك نفسه قرار الإعدام بعد تردد طويل ومحاولة يائسة فى إنقاذه، ونجا «لود» مؤقتا من الإعدام ،لكن بعد أربعة أعوام نفذ الحكم (١٦٤٥).

وبدأ أعضاء مجلس العموم يعملون على إزالة مساوئ العهد، وبدأوا بإصدار قرار بأن يجتمع المجلس كل ثلاثة أعوام على الأقل حتى وإن لم يستدعه الملك، وأعلن أن البرلمان الحالى لا يحل إلا برغبة أعضائه، ثم ألغى المجلس المحاكم الخاصة وحل محكمة «غرفة النجم Star Chamber» وهى محكمة أنشأها هنرى السابع وكانت تساعد الملوك على إخضاع الأشراف وجمع المال منهم ومن غيرهم بوسائل غير قانونية - واستخدمها شارل الأول كأداة لمعاقبة أصحاب الآراء الحرة من البيوريتان - كذلك ألغى المجلس المحكمة العليا High Commission التى كانت تحكم ظلما على المعارضين للملك ولكبير الأساقفة «لود»، ثم أصدر قرارات بإلغاء ضريبة السفن وأعلن أنها غير قانونية، وبالجملة فقد قضى المجلس على النظم التى اتبعها شارل فى حكم البلاد واضطر شارل الأول إلى مسايرة البرلمان، ولكن كان يضمر فى نفسه الانتقام والإطاحة به فى أول فرصة تسنح له.

وقد لاحت الفرصة للملك عند ظهور الخلاف بين أعضاء المجلس على المسائل الدينية، وبقدر اتحادهم وإجماعهم على اتخاذ الإجراءات السياسية تجاه الملك، لم يتحدوا بنفس القوة تجاه المشكلات الدينية عندما عرضت للمناقشة، فقد كانت هناك أقلية تعارض التطرف فى معاملة الكنيسة الإنجليزية القومية، وبذلك انقسم النواب بين أغلبية تريد الإطاحة بما سموه حكومة الأساقفة Episcopacy وأقلية محافظة تساير الملك وتدافع عن الكنيسة.

وقد وجد الملك فى الخلاف بصيصا من الأمل فى عودة سلطانه وممارسة سياسته القديمة أى المؤامرات ضد البرلمان، ولما أحست الأغلبية البرلمانية بما يحاك ضدها صممت على فضح ما يدبر فى الظلام ليعرفه الشعب جميعا، وحرر الأعضاء احتجاجا أطلقوا عليه اسم«الاحتجاج الأعظمThe Grand Remonstrance (ديسمبر ١٦٤١) ضمنوه كافة مساوئ شارل واحدة بعد الأخرى وهى المساوئ التى أفقدت الملك ثقة ممثلى الشعب، وطلب إلى الوزراء أن يكونوا مسئولين من ذلك الحين أمام المجلس، وقرر المجلس طبع هذا الاحتجاج وتوزيعه على الشعب فى جميع البلاد.

فأثار ذلك حنق شارل وقرر أن يقضى على المجلس باستعمال القوة، وفى ٤يناير ١٦٤٢ ذهب على رأس حرسه إلى مجلس العموم بقصد إرهاب المعارضين والقبض على الزعماء الخمسة الذين قادوا حركة المعارضة، وتقديمهم للمحاكمة بتهمة الخيانة، ودخل المجلس بنفسه للقبض عليهم فلم يجدهم، إذ علموا بما كان مخبأ لهم وفروا من مصيرهم المجهول، وعلمت لندن بما حدث فثارت الجماهير وتحرج موقف الملك ورأى من الحكمة أن يفر هو وأسرته إلى الريف خوفا من جموع الجماهير المعادية فى لندن ومعظمهم من البيوريتان.

الحرب الأهلية تبدأ عام ١٦٤٢ (ظهور كرومول):

أصبح لا مفر من المواجهة الحربية بين الملك والبرلمان، وأخذ الكل يستعد لخوض المعركة، وما لبثت الحرب الأهلية أن اندلعت فى جميع البلاد، وسمى أعوان شارل أنفسهم بالفرسان Cavaliers ومعظمهم من النبلاء، والكاثوليك وانضم إليهم قلة من أعضاء المجلس الذين كانوا يؤيدون نظام الكنيسة الإنجليزية،وكان حزب الملك قد سيطر على معظم المقاطعات الشمالية والغربية. أما أنصار البرلمان فقد عرفوا بذوى الرءوس المستديرة Round Heads؛ لأنهم قصوا شعورهم إظهارا لبغضهم ونفورهم من أعدائهم النبلاء الذين اعتادوا إرسال شعورهم حتى أكتافهم، وكانوا يسيطرون على شرق وجنوب إنجلترا.

وقد وفق ذوو الرءوس المستديرة إلى قائد مقدام قدر له فى النهاية أن يدمر

الملك ويخلعه عن العرش وينهى تلك الحرب الضارية، وهو إليفر كرومول Olivar Cromwell.

وقد كان إليفر كرومول بيوريتانيا ورعا، ألف جيشا جديدا يمتاز أفراده بالحمية الدينية والإخلاص للمبدأ والعقيدة البروتستانتية، وكانت تلك القوة العسكرية شديدة البأس حتى استحقت اللقب الذى أطلق عليها عندما سميت بالحديدية Ironside .

وظلت الحرب عدة سنين، وقد تمكن الفرسان فى السنة الأولى من الحرب (١٦٤٣) أن يتفوقوا على خصومهم من حيث استخدام سلاح الفرسان. ولكن بعد تلك السنة أصبح النصر حليف البرلمان وحزبه إلى أن انهزم الملك هزيمة نهائية فى موقعة نازبى Nazeby سنة ١٦٤٥، ويئس شارل وسلم نفسه للجيش الأسكتلندى الذى كان يعسكر فى الشمال ويحارب فى صف حزب البرلمان (١٦٤٦) فسلمه الاسكتلنديون إلى أعدائه. وبقى شارل فى الأسر بجزيرة ويت مدة سنتين.

وكان فى مجلس العموم أعضاء مازالوا يميلون إلى تهدئة الأحوال وعودة الملك إلى العرش بعد المفاوضات معه على الشروط الواجب اتباعها. إلا أن كرمول وأنصاره صمموا على عدم التسامح مع الملك الذى أطلقوا عليه اسم (رجل الدماء The Man of blood)، ووجوب محاكمته وإعدامه.

وفى ٦ ديسمبر ذهبت قوة من الجنود يرأسها الكولونيل برايد Pride إلى المجلس وطرد برايد كل عضو مشايع للملك، وكان عدد من طرد منهم من مجلس العموم مائة وثلاثة وأربعين عضوا، ولم يبق بالمجلس سوى ستين عضوا فقط من أكبر خصوم شارل وأشد أعدائه، ولكنهم من الوجهة الشرعية أصبحوا لا يمثلون الشعب كله، ولكنهم على كل حال أخذوا يمارسون سلطتهم، وكان أول قرار لهم هو محاكمة شارل، وأعلنوا أن مجلس العموم الذى يمثل الشعب والحكم بإرادته هو السلطة العليا فى البلاد ومصدر كل الأحكام، وما من حاجة إلى ملك أو مجلس اللوردات لتعطى قراراته صبغة قانونية، وقرروا فى الحال

تأليف محكمة خاصة كان أعضاؤها من أشد الناس حقدا على شارل وانتهوا إلى الحكم عليه بالإعدم، وفى ٣٠يناير ضرب عنق الملك فى ساحة هويت هول أمام القصر الملكى بلندن.

كرومول والحكومة الجمهورية:

وأعلنت الجمهورية فى الجزر البريطانية وأطلق عليها فى تلك الفترة اسم رابطة الشعوب البريطانية Commonwealth وأعلن المجلس أن حكومة إنجلترا أصبحت جمهورية بلا ملك ولا مجلس لوردات، وحاول كرمول أن يقيم حكما صالحا فى البلاد وأخذ مع أنصاره يضع دستورا جديدا أطلقوا عليه اسم «أداة الحكم Instrument of Government » وبموجب هذا الدستور أصبحت إنجلترا جمهورية من الناحية النظرية، ولكن كرمول الذى كان يحمل لقب حامى الدولة كان فى واقع الأمر يحكم كملك بغير تاج، إذ كان يتمتع بسلطة تفوق فى بعض الأحيان السلطة التى كان يتمتع بها شارل الأول.

وعادت النظم البرلمانية القديمة بعد أن أدخل عليها بعض التعديلات ولم يكن للبرلمان الجديد سلطة دستورية كاملة، ولم تكن العلاقات بين كرومول ومجلس العموم ودية دائما؛ لأن أعضاءه كانوا يرتشون ويسندون الوظائف إلى صنائعهم وأقاربهم، فضاق كرومول بهم وأمر بحل المجلس (١٤٦٣) وإجراء انتخابات جديدة، ولما انعقد المجلس الجديد أثبت فشله فأمر بحله أيضا، وأصبح زمام الأمور كلها بيد كرومول (حامى الجمهورية) وحكم البلاد حكما دكتاتوريا معتمدا على براعته السياسية الداخلية، إلا أنه كان ناجحا فى سياسته الخارجية، فقد عقد تحالفا مع فرنسا وساعد الفرنسيين فى حربهم ضد الأسبان، ونالت إنجلترا فى نظير ذلك ميناء دنكرك وجزيرة جاميكا، ومات كرومول سنة ١٦٥٨.

عودة الملكية

ظهر ضعف النظام الذى أوجده كرومول بعد وفاته، فقد كانت **البلاد** فى أشد الحاجة إلى شخصية قديرة تستطيع أن تقوم بأعباء الحكم فى دراية وحكمة،

ولكن ولده ريتشارد الذى خلفه فى رئاسة الجمهورية كان ضعيف الشخصية على الرغم من أنه كان شابا ميالا إلى الخير والإصلاح، فلم يستطع أن يسيطر على الموقف كأبيه، فقد واجه عدة صعوبات لم يكن فى مقدوره مواجهتها بالحزم الواجب. أولها أطماع بعض الجمهوريين الذين ظهر منهم زعماء يطمعون فى القيام بانقلابات سياسية، وثالثها الملكيون الذين يرغبون فى عودة ملوك أسرة استيوارت، وأخيرا الأحزاب الدينية التى تريد فرض مذهبها بالقوة فى البلاد.

واتضح لريتشارد أنه أضعف من أن يواجه الموقف المعقد فتنازل عن العرش، وبقى على الجيش أن يتصرف. وكان أقوى القواد شخصية فى ذلك الحين الجنرال منك Monk ، وكان هذا القائد من المحافظين الذين يرغبون فى إرجاع الملكية، فكاتب شارل الثانى وهو ابن شارل الأول، الذى كان يعيش فى منفاه بهولنده، وطلب منه العودة إلى إنجلترا لاعتلاء العرش. وقبل شارل وبذلك انتهت الجمهورية وعادت الملكية إلى آل استيوارت.

شارل الثانى (١٦٦٠ ــ ١٦٨٥):

كان الملك الجديد كأبيه يميل إلى الحكم المطلق والاستبداد بالرأى، وعلى الرغم من المصير الذى لقيه شارل الأول جزاء استبداده وبطشه فإن ملوك أسرة استيوارت الذين حكموا البلاد بعد عودة الملكية حاولوا عبثا مواصلة الحكم الأتوقراطى القديم.

ولكن شارل الثانى كان حذرا فى علاقاته بالبرلمان الذى أطاح بأبيه، فكان يحرص على عدم إثارته أو إغضابه حتى لا يندفع البرلمان مرة أخرى فى طريق التطرف، كما أن الطبقات الممثلة فى البرلمان كانت قد سئمت الاضطرابات التى حدثت بالبلاد مدى عشرين سنة، ولذلك كان المجلس الذى انتخب بعد تولية شارل الثانى يميل إلى مسالمته وجعل الوفاق سائدا بين الملك والبرلمان؛ ولذلك ظل الحكم البرلمانى مدعما مدى ثمانية عشر عاما لم يحدث خلالها ما يدعو إلى حل المجلس، كذلك كان أعضاء البرلمان فى ذلك العهد على استعداد لدعم الكنيسة الرسمية ووافق على عدة قوانين ضد البيوريتان، وكان أهمها قانون

(توحيد المـذاهب)، الذى صدر فى عام ١٦٦٢ ويقضى بأن كل قـسيس لا يؤمن بما ورد فى كتاب الصلوات يفقد منصبه.

وكان الملك شارل الثانى يميل شخصيـا إلى كنيسة روما الكاثوليكية، واتبع مع الكاثوليك سيـاسة التسامح، ولذلك كان الناس يتـخوفون من أن يكون هدف الملك إرجاع المذهـب الكاثوليكى، وبدأ البرلمان الذى ناصـره فى بداية حكمه - يرتاب فى سياسته الدينية، فأصدر فى عام ١٦٧٣ قانون (الاختبار Tesi Act» بأن يلتزم جميع رؤساء الدوائر والموظفون بالمـشاركة فى طقوس الكنيسة الإنجليزية، ويحرم إسناد الوظائف الحـكومية من مدنية وعسكرية إلى غـير الذين على مذهب الكنيسة الإنجليزية.

وقد تبينت سياسة شارل الثانى للرأى العام الإنجليزى عندما وقع معاهدة مع لويس الرابع عشر فى عام ١٦٧٠ وعد بموجبـها أن يؤيد الكنيسة الكاثوليكية وأن يساعد لويس فى حـروبه المتوقعة مع الهولنديين، ووعـد لويس فى نظير ذلك أن يمد شارل بالجنود والأمـوال تأييدا له ضد أية ثورة شعبية تقـوم ضده فى إنجلترا عندما تسنح الفرصـة له بالانضمام إلى الكنيسة الكاثولـيكية فى روما،عندئذ أدرك الشعب أن ملكهم يعبث بكرامة بلاده، فتصبح كأنها تابعة لعدوتها القديمة فرنسا، وأنه يسعى فـى إقامة الحكم المطـلق وترسيخ الكاثوليـكية الرومانية فـى إنجلترا بمساعدة دولة أجنبية.

ثورة عام ١٦٨٨.

ولما لـم يكن لشارل الـثانى وريث من بعـده أصبح أخـوه جيمس الـثانى (١٦٨٨ ـ ١٦٨٩) وريثـه الشرعـى. وكان جـيمس مـعروفـا بتـحمـسه الشـديد للكاثوليكية وعزمـه على إعادتها كمذهب رسمى للبلاد مهـما كلفه الأمر. وكانت وراثته للعرش مثارا للمناقشة فى البرلمان، فقد اقترح فريق من الأعضاء أن يصدر المجلس (لائحة الحرمان Exclusion) لمنع جـيمس من وراثة العـرش. وعند مناقشة هذا الاقـتراح انقسم الأعضاء إلى فريقين. وكـان هذا الاختلاف فى الرأى على إصدار قانون الحرمان أساسا لتكويـن نظام الحزبين فى البرلمان الإنجليزى،

وظهر إلى وجود حـزب الهويج Whigs ويتكون من أنصار البـيوريتان وهم الذين أيدوا من قبل قيام الثورة الإنجليزية الأولى ضد شارل الأول. وأما. الحزب الآخر فهـو «حزب الـتورى Tories» وأعضـاؤه هم المـحافظـون الذين يؤيدون الـملك وأغلبهم من رجـال الدين والنبلاء والأعيان، وبالـجملة فهم ذوو الميول الـرجعية المتمثلة فـى حق الملك المطلق فى الحكم، وكانوا يقولـون: إن الخضوع لحاكم كاثوليكى مستبد خير من إثارة حروب أهلية، إذ حاول البرلمان حرمان جيمس من حقوقه الوراثية ـ ولكن حزب التورى لم يكـن من القوة فى مجلس العموم بحيث يستطيع منع التـصديق على قانون الحرمان، إلا أن مجلس اللـوردات ـ وأغلبيتهم من هذا الحزب ـ أنقذ الموقف وقرر رفض القانون.

ولما فـاز جيمس الثـانى بالعرش فى عـام ١٦٨٥، أثبت عدم جدارته بـثقة الشعب والبرلمـان، بل أنه فقد ثقة حزب التورى الذى ناصـره ودافع عن حقوقه. فقد تحدى الـملك البرلمان بأن أصدر «لائحـة» التسامح Declaration of Indulgence التى ألغت القوانين التى صدرت من قبل ضد الكاثوليك وغيرهم من أعداء البروتستانت، وأقدم على تعيين عدد من الكاثوليك فى وظائف الحكومة ومناصب الجيش، وبهذه الإجراءات أغضب كلا من التورى والهويج على السواء.

وكان أمل الشعب الوحيد هو أن جيمس كـان مسنا، وله ابنة بروتستانتية من زوجته الأولى سوف تـخلفه فى العرش، ولكن جيمـس لم يلبث أن رزق ابنا من زوجته الثـانية الكاثوليكـية، وتبعا لقـانون وراثة العرش يصبح الـولد أحق بولاية العهد، وبطبيعة الحال سوف يولى على عقيدة أبيه.

ولم يعد أمام الشعب إلا حل واحد هو أن يـقرر البرلمان خلع الملك وولى عهـده ويدعو ابنتـه (مارى) إلى تولى العـرش. ووافق فعـلا أعضاء الحـزبين فى البرلمان على اتخاذ هذا الإجراء، ولما كانت مارى متزوجة من وليم أورانج حاكم هولنده، فـقد ذهب وفد مـن البروتستـانت لدعوة وليـم إلى القدوم إلى إنجـلترا ليـتولى الـعرش، ولبى ولـيم ومارى الدعـوة، على اعـتبـار أنها رغبة الشـعب الإنجـليزى، وفـى عام ١٦٨٨ نزل ولـيم أرض إنجلـترا وزحـف بجيـشه عـلى

لندن، وناصره الشعب البروتستانتى وتخلى جيش جيمس عن الدفاع عن عرشه ففر إلى فرنسا واستطاع وليم أن يقضى على المقاومة الكاثوليكية.

وقد أطلق الإنجليز على ثورة ١٦٨٨ ضد آل استيورات اسم (الثورة المجيدة Clorious Revolution) ، واعتبروها نجاحا سياسيا ودستوريا جعلت الشعب مصدر السلطات؛ لأن الشعب ممثلا فى نوابه هو الذى استدعى وليم لاعتلاء العرش، والواقع أن تلك الثورة مهدت السبيل لإعلاء كلمة الشعب وأخذ الملوك الإنجليز يفقدون سلطانهم الفعال على الحكومة شيئا فشيئا، ولم يجرؤ أحد من ملوك إنجلترا فيما بعد على رفض أى قرار أصدره مجلس النواب.

إعلان الحقوق:

وقد توج البرلمان انتصاره بإصدار قانون أطلق عليه «إعلان الحقوق» (١٦٨٩) بين فيه افتئات جيمس الثانى على حقوق الشعب. واشترط فيه على الملك الجديد ومن يليه مراعاتها،وأنه لا يجوز للملك إلغاء أى قانون، أو أن يقوم بزيادة الضرائب أو فرض ضرائب جديدة أو تشكيل جيش إلا بموافقة البرلمان، ومنع سجن أى مواطن من غير محاكمة قانونية. وقد وافق وليم ومارى على كل الشروط التى وردت فى إعلان الحقوق، وتولى وليم العرش باسم «وليم الثالث». والواقع أن قانون الحقوق كان من الناحية العملية دستورا يقيد سلطات الملك ويحمى سلطات البرلمان.

ثم صدرت بعد ذلك عدة قوانين لتدعيم السياسة الجديدة، ومنها قانون التسامح الدينى (١٦٨٩) وهو القانون الذى منح البروتستانت ـ الخارجين على نظام الكنيسة الإنجليكانية ـ مزاولة طقوسهم الدينية ولكنه لم يسمح لهم بمزاولة الحياة السياسية والخدمة العامة. كذلك صدر «قانون التسوية Act of Settlement» (١٧٠١) الذى نص على أنه لا يجوز لكاثوليكى أن يلى العرش، وبذلك استبعدت سلالة جيمس عن عرش إنجلترا. وأصبح التاج بعد وليم الثالث من حق «آن» لأن وليم ومارى لم ينجبا وريثا للعرش.

وأخيرا، صد قانون الوحدة Act of Union وبموجبه أصبحت أسكتلندة

وإنجلترا مملكة متحدة. وقد أغرى الإنجليز الأسكتلنديين بقبول الوحدة بما سوف يعود على أسكتلندا من الخير العميم باكتسابهم كافة امتيازات الإنجليز فى المستعمرات وقوانين الملاحة وكل الفوائد الاقتصادية. ومنذ عام ١٧٠٧ تكونت المملكة المتحدة لبريطانيا العظمى، وصار المصطلح «بريطانى» يطلق على الإنجليزى والأسكتلندى.

خصائص الثورة الإنجليزية:

للثورة الإنجليزية آثار بعيدة المدى، إذ أصبح الإنجليز فى نظر العالم المتمدين أكثر الشعوب تقدما وأعرقهم فى الحكم الدستورى. فأخذت كثير من الأمم تحاول اقتفاء أثرهم والاقتباس من قوانينهم الدستورية التى صدرت منذ القرن السابع عشر.

ويمكن تلخيص النتائج التى ترتبت على الثورتين الإنجليزيتين فيما يلى:

١ ـ المجالس النيابية:

توطدت فكرة إنشاء المجالس النيابية لإصدار القوانين وفرض الضرائب وتقرير سياسة الدولة بعد أن كان ذلك من حق الملك أو مجلس الوزراء.

٢ ـ تركيز الحياة النيابية فى مجلسين:

كانت الحياة النيابية تتمثل فى مجلسين: مجلس اللوردات، ويمثل الأرستقراطية الإنجليزية، ومجلس العموم يمثل الديمقراطية بأجلى معانيها. وكما كانت إنجلترا أسبق الدولة إلى التمتع بالحياة الدستورية فقد أخذت عنها الشعوب الأخرى؛ ولذلك تجد نظام المجلسين قد طبق فى أغلب دول العالم كفرنسا وبروسيا واليابان وأسبانيا ومصر وغيرها.

٣ ـ التمثيل النيابى على حسب الدوائر الانتخابية:

أخذت معظم دول العالم عن إنجلترا نظامها الانتخابى، حيث أصبح **عضو** البرلمان يمثل دائرة انتخابية على حسب التقسيم الجغرافى الذى تراه **الدولة،** فالعضو لا يمثل طبقة اجتماعية أو اقتصادية معينة ولا يمثل حزبا سياسيا خاصا

ولكنه يمثل جميع سكان دائرته. وقد كان أعضاء البرلمان الإنجليزى فى أول أمره يمثلون أربع طبقات اجتماعية كبيرة: الطبقة الأرستقراطية الإقطاعية، وطبقة رجال الدين، والطبقة الوسطى للزراع، والطبقة الوسطى فى المدن (البورجوازية)، وقد كان مجلس اللوردات يضم نواب الطبقتين الأولين بالتدريج، وأصبح ممثلو الطبقة الوسطى (البورجوازية) يمثلون الدوائر التى انتخبوا فيها سواء من الريف أو المدن.

٤ ـ الوعى السياسى لحقوق الفرد:

كان للثورات الإنجليزية على الأخص ثورة البيوريتان أثر بالغ فى إدراك الفرد لحقوقه السياسية، ففى العصور الوسطى كانت المجالس النيابية تمثل الطبقات وتدافع عن امتيازاتها ولكن فى القرن السابع عشر نمت فى إنجلترا روح الفردية التى تعارض امتياز الطبقات، وكان من أسباب نمو هذه الروح أن ثوار الطبقة الوسطى «ذوى الرءوس المستديرة» كانوا يكرهون الاعتراف بتميز الطبقة الأرستقراطية عليهم وبذلك سرت روح الشجاعة وحرية الرأى بينهم، ونادوا بالمساواة بين الطبقات وبأحقية كل فرد فى انتخاب نوابه الذين يشتركون فى وضع القوانين التى سيخضع لها. وتلك هى الفكرة التى تسود العالم الآن.

٥ ـ نظام الحزبين Two Party System :

نشأ هذا النظام فى إنجلترا عندما انقسم الأعضاء إلى حزبين عندما عرض قانون الحرمان، فنشأ حزبا الهويج والتورى، وظل حزب الهويج بعد ذلك يعمل على إضعاف سلطة الملك بينما حرص حزب التورى على المحافظة على تلك السلطة. وتطور الحزبان حتى سمى أولهما بالأحرار والثانى بالمحافظين، ويقول المعجبون بالحياة النيابية فى إنجلترا، إن سر نجاح الحياة النيابية هناك يعود إلى نظام الحزبية.

٦ ـ نظام مجالس الوزراء Cabinet System :

يعتبر نظام مجالس الوزراء كنتيجة غير مباشرة للثورات الإنجليزية فى القرن السابع عشر، فقد كان من عادة ملوك استيورات أن يختاروا مجموعة من كبار

السياسيين ذوى النفوذ، كانوا عادة من الأشراف كمستشارين لهم يعاونونهم فى شئون الحكم. كالإشراف على المالية أو الشئون الحربية، وكانوا يجتمعون عند الملك للمباحثة فى المسائل العامة وقبل ثورة ١٦٨٨ كان مجلسهم يتكون من أعضاء المجلس المقربين، أما بعد الثورة، فقد اعتاد الملوك بالتدرج على اختيارهم من بين زعماء الحزب الذى يملك الأغلبية فى مجلس العموم. وعندما تولى العرش الملك جورج الأول وهو الزوج الألمانى للأميرة الإنجليزية «آن» سنة ١٧١٤، خطا نظام مجلس الوزراء خطوة أخرى، فقد كان الملك لا يعرف الإنجليزية ولا يهتم بشئون البلاد، فسمح للمجلس أن يستقل بتصريف شئون الحكم دون أن يحضر اجتماعاته.

وهكذا خطا نظام الحكم خطوتين: أولاهما اختصاصه بإدارة الشئون العامة. وثانيتهما اعتماده على ثقة الأغلبية فى مجلس العموم ثم خطا بعد ذلك خطوة ثالثة فى الربع الثانى من القرن ١٨ هى اختيار «رئيس لمجلس الوزراء».

٧ ـ تطور النظريات السياسية (جون لوك):

وأخيرا، فإن الثورات الإنجليزية قد أثرت فى تطور نظريات الحقوق الطبيعية والسيادة الشعبية، فقد ألف كبار الأدباء من مؤيدى الثورة كتبا تبحث فى أصولها ونتائجها، كان أشهرها كتاب جون لوك الذى نشره بعد الثورة مباشرة وقد كان لوك معارضا للحكم الأوتوقراطى. فقد كان أبوه من الزعماء البيوريتان الذين ثاروا ضد شارل الأول، وقد اضطر جون لوك نفسه إلى الفرار منفيا فى هولنده أيام حكم الملك شارل الثانى وجيمس الثانى. فلما قامت ثورة ١٦٨٨ استطاع العودة إلى إنجلترا حيث عين فى منصب حكومى فى عهد وليم أورنج ومارى. وقد عالج فى بحوثه النظريات السياسية التى قامت الثورة على أساسها، بطريقة منطقية رياضية (وقد كان لوك مغرما بالرياضة والعلوم)، فقد قال: إن كل فرد له حقوق طبيعية فى الحياة، والحرية، والتملك، وقد تعارف الناس على تأسيس الحكومات لحماية هذه الحقوق. فإذا فشلت الحكومة فى القيام بمهمتها، فإن للشعب الحق فى الثورة عليها وطردها من الحكم. فالشعب إذن هو السيد الحقيقى والقوة التى تسند العرش. تلك هى نظرية السيادة الشعبية، ولما كان

«الشعب» هو مجموعة من الأفراد متساوين فى الحقوق. فيجب أن تتحكم أغلبية هؤلاء الأفراد فى تقرير الأمور، وعلى ذلك فقد كان من رأيه مادامت الحكومة تهدف إلى حماية حرية الأفراد فليس من حقها أن تتدخل فى حرية المواطنين الدينية، واستثنى من ذلك الإلحاد والكاثوليكية. وقد انتشرت مذاهب لوك السياسية فى أمريكا وفرنسا وغيرها. وقد اتخذت كمبررات لقيام الثورة الأمريكية حتى لتراها مثبتة فى إعلان الاستقلال، ورددها رجال الثورة الفرنسية فى خطبهم التى حملوا فيها على الحكم الأوتوقراطى فى فرنسا سنة ١٧٨٩. وبالجملة فقد اعتبرت نظريات لوك قاعدة لمعظم دساتير العالم.

الديمقراطية ليست نتيجة مباشرة للثورات الإنجليزية:

ولكن ليس معنى هذا أن الديمقراطية التى تعتنقها الآن معظم الشعوب هى نتيجة مباشرة للثورات الإنجليزية، وتتبين لنا تلك الحقيقة عند دراسة نوع الحكومة الإنجليزية فى نهاية القرن السابع عشر وفى أثناء القرن الثامن عشر، أى بعد انتهاء تلك الثورات.

لم يكن البرلمان الانجليزى ديمقراطيا فى القرن الثامن عشر:

فقد كان مجلس اللوردات يتكون من الأشراف والرؤساء الدينيين الذين تعينهم الحكومة، كان مجلس العموم يتكون من النواب الذين يختارهم الشعب. ولكن لم يكن حق الانتخابات عاما، لا تستطيع الطبقات الفقيرة أن تشترك فى الانتخابات. والواقع أن الأشراف الأغنياء كانوا يتحكمون فى انتخاب ما يقرب من نصف عدد أعضاء مجلس العموم، وكان الأغنياء فى المدن الكبيرة يتحكمون فى انتخاب النائب، إذ كان كثير من المواطنين محرومين من حق الانتخاب. أضف إلى ذلك أن عددا من المدن الكبيرة لم يكن لها ممثل فى المجلس، وبالجملة فقد كان البرلمان يمثل الطبقات العليا كالأشراف وكبار الملاك وأغنياء التجار.

الحكومة الإنجليزية كانت أرستقراطية:

كانت تحكم إنجلترا فى النصف الأول من القرن الثامن عشر حكومة (اليجاركية) من النبلاء وكبار الأغنياء من حزب (الهويج) وانتشر الفساد والرشوة

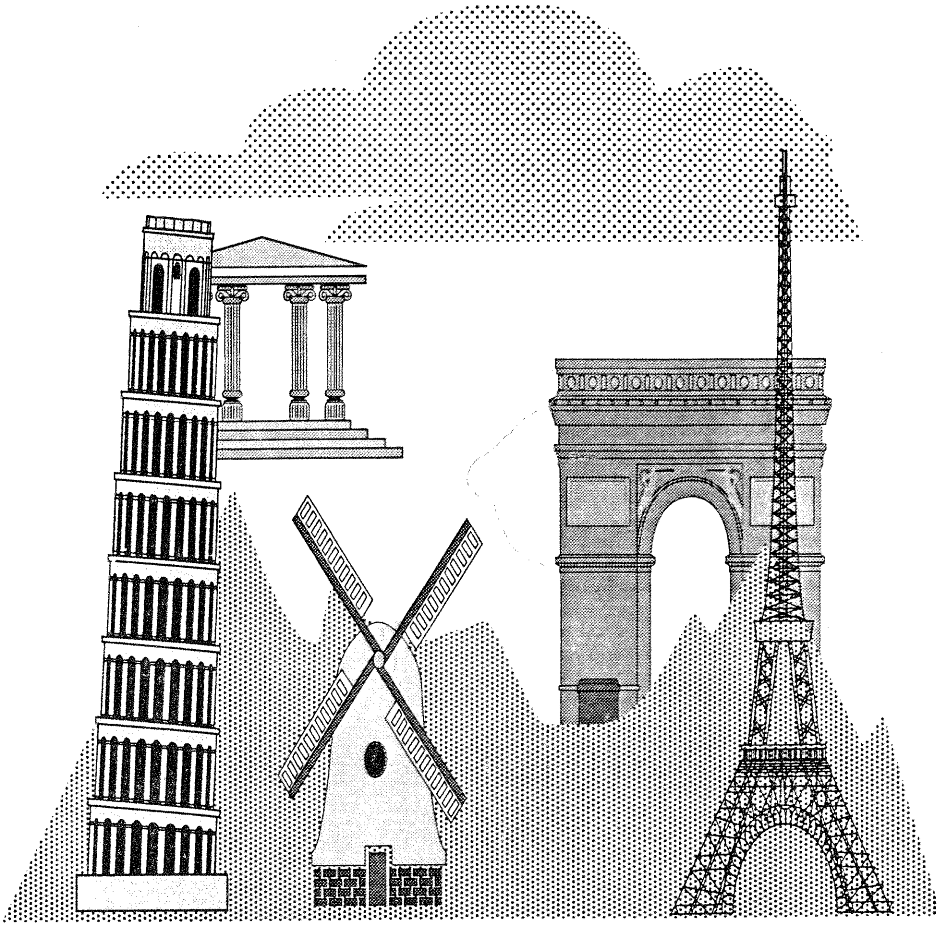
بين الزعماء الذين اتخذوا الوطنية وسيلة للوصول إلى الحكم والثراء وإرضاء الشهوات، فكبار الملاك مثلا وضعوا قانونا يمنحهم حق تصدير القمح، مما جعل جمهور الشعب يضج من غلاء الخبز وندرته، ومثل ذلك القانون الذى وضع لخدمة كبار التجار وأصحاب المصانع بتخفيض رسوم الجمارك على الواردات من المواد الخام والمصنوعات التى يصدرونها إلى الخارج. وبذلك يقع الغرم كله على عاتق الشعب.

والخلاصة أن الثورة الإنجليزية على الحكم الأوتوقراطى لم تتمخض عند تأسيس الديمقراطية بروحها ومعناها فى إنجلترا ولكنها أنتجت حكومة أوليجاركية من النبلاء والأعيان وكبار التجار فلم تكن حكومة تمثل الشعب بأجمعه.

أما الآثار الحقيقية التى ترتبت عليها فهى مجموعة من الدساتير والآراء والنظريات كانت هى الأسس التى قامت عليها الديمقراطية فى القرون التالية، إذ ورثت الديمقراطية منها التمثيل النيابى والمسئوليات الوزارية ونظام الحزبين، وحكم الأغلبية ونظام تقسيم الدوائر الانتخابية، ونظرية السيادة الشعبية.

الفصل العاشر

ظهور روسيا



كانت أوروبا الكاثوليكية تمتد من شواطئها الغربية حتى بولنده، أما ما وراء ذلك فى اتـجاه الشـرق ـ حيث كـانت توجد دوقـية مـوسكو النـاشئة ـ فـكانت الأرثوذكسية هى المـذهب الشائع، والسلافية هى اللغة السـائدة. ويبدأ تاريخ هذه الدوقية بوضـوح فى عهد إيفان المرعب(١٤٦٢ ـ ١٥٠٥) الذى اسـتطاع أن يعلن استقلاله عن الإمبراطورية المغولية فكان ذلك بداية لنمو دولة جديدة.

وكانت هذه الـدوقية تقوم وسط سـهول واسعة ممـتدة شرقا وغـربا وجنوبا وشمالا. ولا تسـتطيع أن تجد بسهـولة حدودا طبيعـية ترتكز عليهـا. ولهذا كان اختلاط المـسكوف بالعناصر المغولية أمرا طبيـعيا،ولكن حيث إن الإمـبراطورية المغوليـة كانت قد انهارت،وحيث إن السـويد كانت قد أصبحت دولـة قوية تمد سلطانهـا على شواطئ بحـر البلطيق،وحـيث إن بولنده الكاثولـيكية كانت تـمثل حاجزا قويا فى وجه أى توسع من جانب دوقية موسكو فى اتجاه الغرب، وحيث إن الأتراك العثمـانيين كانوا فى ذروة قوتهـم وبسطوا حمايتهم علـى خانات القرم فسـدوا الطريق إلى البحـر الأسود أمام الروس، اتجـه الروس إلى الانتشـار نحو الشرق.

كان الروس فى اتجـاههم شرقا لا يقومـون بمجرد عمليـات غزو وتوسع، وإنما كـانوا يقومون بعمـل حضارى متعـدد الجوانب حتى بعـد أن عبروا الأورال وتوغلوا فى سيبيـريا. كانوا يقومون ببناء المدن ويقومون بأعـمال تجارية ناجحة. أدت إلى انتعاش البلاد ماديا. ونظرا لما كان فى روسـيا الشمالية من ثروة ضخمة متمثلة فى الحـيوانات ذات الفراء، جاء المغامرون الأوربيون الـباحثون عن الفراء والثروة إلى روسـيا. ومن أول من وصل إليهـا من هؤلاء المغامريـن «الإنجليزى ريتشارد تشانسلر». Richard Chanceller جـاءها عن طريـق ميـناء أركانـجل الشمالى.

وهذا يبين لنا كيف أن الطرق القصيرة الموصلة بين أوربا وروسيا كانت غير مستخدمة على نطاق واسع.

فلقد كانت الملكية فى السويد تدرك أن روسيا - وقد اتسعت مساحتها - لا يجب أن تحصل على فرص تمكنها من الاتصال المباشر مع مراكز الحضارة الأوروبية حتى لا تتطور. وحتى تستطيع السويد - فى نفس الوقت - من الاحتفاظ بما تحت يدها من أراض على طول الشواطئ الجنوبية للبلطيق.

أما بولنده الكاثوليكية. فكانت معادية لروسيا السلافية الأرثوذكسية بل كانت بولنده تطمع فى السيطرة على روسيا. وكان البولنديون حينذاك - إذا قيسوا بالروس - يعتبرون متقدمين عليهم تقدما كبيرا، ولذلك كانوا كذلك حجر عثرة أمام الاتصال المباشر الروسى بقلب أوربا.

أما الدولة العثمانية فكانت عدوا تقليديا ومكروها شديد الكراهية لدى الروس، لا بسبب الخلاف فى الدين، وإنما أيضا لأن العثمانيين هم الذين استولوا على القسطنطينية مقر البطريك الأرثوذكسى، الأمر الذى كان يوغر صدور الروس باستمرار ضد الأتراك العثمانيين، ومن ثم كان من المستبعد أن يفتحوا طريقا بين الروس والبحر المتوسط.

لهذا كان ميناء أركانجل عظيم الأهمية بالنسبة للروس، إذ كان المنفذ الوحيد الروسى الذى يفتح أمامهم باب الاتصال بأوروبا. ولكنه كان بابا يغلق لفترات طويلة خلال الشتاء بسبب تجمد المياه. ومن ثم كان على حكام روسيا أن يسعوا إلى المياه الدافئة ولن يتم هذا إلا بعد وقت ليس بقصير.

بعد إيفان المرعب، عانت البلاد من موجة من (الفوضى عنيفة). ولم تستقر الأمور إلى حد ما إلا بعد أن انتخب الأمراء «ميشيل رومانوف» - وكان لا يزال صبيا - قيصرا عليهم (١٦١٣). فكان هذا هو مؤسس أسرة «رومانوف» - التى ستستمر على عرش روسيا حتى الثورة البلشفية فى ١٩١٧.

كانت أيام ميشيل رومانوف عصيبة، وكانت البلاد أشبه بما كانت عليه أوروبا فى أعقاب تفكك إمبراطورية شرلمان. كان للنبلاء قوة كبيرة تستطيع أن تفرض نفسها على القيصر، وكان القيصر يرى أن مستقبل البلاد يتطلب حكما مركزيا قويا. وكان حينذاك أمامهم مثال مخيف عن مصير الدولة التى لا يحكمها

ملك قوى السلطة. فقد كانت بولندة تحت سيطرة وتوجيه النبلاء،وكانوا فى صراع فيما بينهم حتى أدى الأمر إلى تدهورها، وكان آل رومانوف يرون أن الطريقة المثلى لتجنب مثل هذا المصير هو وضع كافة السلطات فى يد القيصر. ولذلك ستظهر فى روسيا ملكية مطلقة مستبدة مشابهة لتلك الصورة التى طالعتنا فى دول أوروبا القومية خلال فترة الانتقال من العصور الوسطى إلى عصر النهضة الأوروبية.

أما الكنيسة الأرثوذكسية فى روسيا فكانت متخلفة إلى حد كبير عن الكنيسة الكاثوليكية. وكانت السلطات الحاكمة قد أقامت بطريركية مستقلة فى روسيا فى ١٥٨٩ بعد أن تبين لها أن بطريق القسطنطينية غير حر فى تصريف أمور الكنيسة لوجوده فى قلب العاصمة العثمانية (القسطنطينية).

وليس معنى هذا أن الكنيسة قبعت وراء جدار العقائد المذهبية وإنما كانت تعيد النظر فى أحوالها وقدرتها على القيام برسالتها. وكانت مجالات الإصلاح الكنسى واسعة فى روسيا حينذاك بل وكانت ملحة منذ أن انساق رجال الدين أنفسهم إلى تقاليد انحرفت بهم - فى نظر بعض رجال الدين - عن جادة الصواب وتمسكوا بما تحت أيديهم من نسخ من الإنجيل محرفة. وأدرك كبار رجال الدين فى الكنيسة الأرثوذكسية أن الوقت قد حان لإعادة النظر فى هذه الأخطاء (منتصف القرن السابع عشر).

وشرع المصلحون الدينيون يغيرون ويلغون بعض ما رأوه بعيدا عن المسيحية الصحيحة. ولكن هذه الاتجاهات الإصلاحية - شأنها شأن أى إصلاح جديد - كان يلقى مقاومة من المتشبثين بالماضى الرافضين للتعديلات. بل لقد كان عدد كبير من صغار رجال الدين يقاوم هذه الاصطلاحات ويرى فيها خروجا عن الدين المسيحى. وكان من اليسير على صغار رجال الدين أن يحضوا الفلاحين - بصفة خاصة - على عدم الانصياع لما أدخله المصلحون من أساليب ومفاهيم جديدة فى الكنيسة الأرثوذكسية. ولجأ المصلحون إلى الحكومة، وإلى القوة، ولكن ستكون لهذه الإصطلاحات ولتلك الأساليب العنيفة التى استخدمت

لتنفيذها نتائج خطيرة، إذ أعدت أذهان الفلاحين للثورة على الحكومة عندما تحين الفرصة.

ولقد كان لدى الفلاحين الكثير من الدوافع التى تحضهم على الثورة ضد الحكومة وضد كبار الملاك والنبلاء. وكان هؤلاء النبلاء وكبار الملاك يعتمدون على إقطاعاتهم الواسعة، وكان استمرار ارتفاع دخول كبار الملاك منها يتوقف على استمرار بقاء الفلاح فى أدنى المستويات. وكلما سنحت فرصة أمام الفلاح للفرار أو الثورة على هذه الأوضاع كانت الحكومة والنبلاء وكبار الملاك يوجهون إليه أشد الضربات ويفرضون عليه أقسى القوانين التى ترغمه على أن يرتبط بالأرض وأن يصبح مجرد قن (عبد)، بل وعلى أن يصبح مجرد سلعة يتداولها كبار الملاك.

وخلال فترات الفوضى التى كانت تتعرض لها البلاد بسبب الحروب الداخلية كان الفلاحون ينتهزون هذه الفرصة للفرار من الأراضى، الأمر الذى كان يصيب الإنتاج الزراعى بتدهور كبير. وطبقا للاتجاهات الفكرية السائدة فى ذلك العصركان علاج هذه المشكلة يتم بالضغط والإرهاب وتكبيل الفلاح بقيود أشد من تلك التى كان يعيش تحتها.

ولذلك صدرت القوانين التى تعطى للنبلاء ولكبار الملاك حق استرداد الفلاحين (الأقنان) حتى ولو مضى على فرارهم أكثر من خمس عشرة سنة، وبالتالى أصبح قرار الفلاح من سيده يعنى أنه لجأ إلى الثورة والتمرد، وأن لا خلاص له من العبودية إلا إذا استمر فى ثورته وتمرده.

وفى مثل هذه الظروف، وفى بلاد مترامية الأطراف، كان من الممكن أن تتكون جماعات كبيرة العدد نسبيا من الفلاحين قادرة على حمل السلاح والعمل تحت قيادة تدافع عن مصالحهم. وكان ستيفن رازين من أشهر من قاد الفلاحين فى ثورة عارمة ضخمة.

كانت ثورة الفلاحين تحت قيادة (رازين) - فى نظر بعض المؤرخين - واحدة من الثورات الطبقية التى هدفت إلى تجميع قوى الفلاحين ضد كبار الملاك

والنبلاء. وكانت فعلا ثورة لتحرير الفلاح من الظلم ومن العبودية، ولكنها كانت ذات أهداف تسلطية أكثر منها محاولة لإعادة تنظيم المجتمع مثلما حدث بعد ثورة أكتوبر ١٩١٧.

وعلى أى حال كانت ثورة عارمة، استطاعت أن تجتاح الكثير من أراضى وممتلكات كبار الملاك والنبلاء، واستولت على عدة مدن ولكنها لم تكن ثورة قادرة على خلق نظام جديد تستطيع أن تستند إليه لمتابعة حركتها ضد القوى المناهضة لها، بل لقد كانت هذه القوى المناهضة لثورة الفلاحين أكثر تنظيما، وعلى رأسها جيش الدولة نفسها. ولم تلبث أن ضعفت الثورة، وسقط قائدها نفسه فى يد أعدائه وأعدم فى ١٦٧١.

وقعت هذه الأحداث الكبرى خلال السنوات القليلة التى سبقت اعتلاء بطرس عرش روسيا فى (١٦٨٢). وكان هذا سببا فى أن تصبح البلاد فى أيامه أكثر هدوءا عن ذى قبل، وأن تحصل بذلك على الفرصة التى تمكنه من إعادة النظر إلى أجهزة الدولة كلها لرفعها إلى مستوى العصر.

لم يحكم بطرس فى أول الأمر منفردا، ولم يكن سوى صبى يشارك أخاه فى العرش تحت وصاية أختهما صوفيا. ولكن الفتى كان طموحا، وكان أخوه ضعيف الفكر ناقص العقل، فلما بلغ السابعة عشرة من عمره نحى أخته جانبا، وبعث بها إلى أحد الأديرة، لينفرد هو بالحكم.

يعتبر بطرس ـ الذى لقب بالأكبر ـ واحدا من مؤسسى الدولة. وكان ـ مثل غيره من مؤسسى الدول ـ شديد التمسك بالسلطات كافة. ولعل هذا هو طبيعة التطور فى مثل هذه الظروف. فمؤسس الدولة يكون عادة فى حاجة إلى سلطات استثنائية حتى يواجه مرحلة الانتقال، فالأفكار جديدة. والمعارضون كثيرون، والعقبات بعضها متوقع وكثير منها غير متوقع، والحفاظ على ما أنجز من إصلاحات يتطلب قبضة قوية تستطيع أن تواجه كافة الظروف. ولكن ذهب بطرس الأكبر فى الحكم الملكى المطلق إلى أبعد مما ذهب إليه ملوك أوربا حينذاك.

لم تكن هناك مؤسسات قوية تستطيع أن تشاركه الحكم أو أن تفرض نفسها

عليه، كان هناك مجلس الدوما، ولكنه كان قد ضعف وكذلك كان حال المجلس الوطنى.

كان الأول مجرد مجلس مؤلف من كبار مستشارى القيصر، وأما الثانى فكان أشبه بأن يكون مجلسا للنبلاء ولكبار الملاك من مختلف الولايات. وكان نمو القيصرية يعنى ضعف مثل هذه المجالس.

ومن ثم كانت مهمة بطرس فى التفوق على (الدوما) وعلى (المجلس الوطنى) يسيرة، فقوض ما تبقى منهما، وعلى أنقاضهما أنشأ مجلس الشيوخ Se-nato ولكنه مجلس يأتمر بأوامر بطرس، إلى جانب هذا أنشأ حكومات محلية مهمتها تنفيذ أوامره. أو بمعنى آخر كانت الأجهزة الداخلية تحت سيطرته بوضوح.

كذلك عمل بطرس الأكبر على السيطرة بقوة على الكنيسة وخاصة أنها ـ كانت تقاوم مجهوداته الكبيرة لإدخال الحضارة الغربية إلى البلاد، وكان هو يرى فى هذه المقاومة مظهرا من مظاهر التخلف، فقرر أن يتحكم فى اتجاهات الكنيسة، وأن يجعلها أداة تسير وفق سياسته فانتهز وفاة البطريرك، وتجاهل تعيين بطريرك جديد، ثم وضع الكنيسة تحت إشراف لجنة من الأساقفة، ووضع رقيبا من قبل الحكومة على أعمالها، ولم يلبث أن أصبح القيصر على رأس الكنيسة.

كان بطرس قد أدرك أن روسيا متخلفة عن الدول الأوروبية فى كافة مجالات الحياة. وكان يرى أن مستوى الفكر فى أوربا أرقى بكثير منه فى روسيا، وأن مستوى إعداد الجيوش وتسليحها وبناء السفن والأساليب التجارية المحلية والعالمية أكثر تقدما بكثير جدا مما هو فى روسيا. وفوق هذا وذاك شاهد خلال تنقلاته فى أوروبا نظما عسكرية أعطت الدول الأوربية تفوقا وأمنا كانت روسيا فى حاجة ماسة إليهما لمواجهة قوى مجاورة لروسيا تحصرها فى السهول الواقعة بين الشرق الأقصى وأوربا، فلا هى بقادرة على أن تشارك أوربا تطورها، ولا هى بقادرة أن تنفذ إلى بحر البلطيق ولا البحر الأسود.

لقد كان بطرس موقنا بالحاجة إلى رفع مستوى الإنتاج، بل وبأن رفع

مستوى الجيش مثلا لا يعنى فقط استخدام الأسلحة وإنما رفع المستوى الفكرى أيضا لدى ضباط جيشه.

وعزم بطرس على أن ينقل الحضارة الأوربية إلى روسيا، وكان هو نفسه قد عاشها فى أحواض السفن فى أمستردام، وفى بلاط ملوك أوربا. فاستقدم من أوربا الألوف من الفنيين فى مختلف فروع الحضارة الأوربية. وعنى بصفة خاصة ببناء جيش عصرى يستطيع أن يكسر الحصار الذى ضربه السويديون والبولنديون والأتراك العثمانيون.

إن مثل هذه الخطوات الجريئة الإصلاحية التى تستهدف تغيير شكل الدول تغييرا جذريا تتطلب رءوس أموال ضخمة. وكان بطرس يرى أن الشعب مسئول عن تقديم هذه الأموال التى تنفق على رفع مستواه. وأسرف بطرس فى فرض الضرائب حتى لقد كانت تفرض على أشياء عجيبة. وكان عبء هذه الضرائب يقع على الفلاحين أكثر من غيرهم لسبب بسيط وهو أنهم أكثر استقرارا وفى متناول رجال الحكومة. ولهذا زادت القيود المفروضة على الفلاحين (الأقنان).

وفى التجارة، عنى بطرس بفتح مجالاتها، آخذا بالمذهب الاقتصادى الشائع حينذاك (المركانتيلية Mercantilism) وهى نظرية تقوم على أساس جعل الميزان التجارى لصالح البلاد بأن تكون صادراتها أكثر ـ إلى أقصى طاقة ممكنة ـ من وارداتها. ولهذا عنى بطرس الأكبر برفع قدرات بلاده الإنتاجية حتى توفر حاجتها من الإنتاج الصناعى، وتمكن الرأسمالية المحلية ـ بمساعدة الحكومة ـ من تكوين شركات كبيرة إنتاجية، حتى ترتفع معدلات التصدير ـ بواسطة الأسطول التجارى الروسى الذى أنشأه حديثا ـ إلى أقصى الدرجات.

وحتى خلال عملية خلق صناعات حديثه فى ذلك الوقت وهى مرحلة كان من الممكن أن تعطى الفلاح الروسى فرصة للتخلص من العبودية بالانتقال إلى المصنع، لم تترك هذه الفرصة له. إذ الفلاح القن تحول إلى عامل (قن) فى إن المصانع وفى عمليات التجديد والتطوير فى روسيا على عهد بطرس.

أما فى مجال السياسة الخارجية، فقد كانت أولى جهوده موجهة ضد

الأتراك العثمانيين الذين كانوا يسيطرون على سواحل البحر الأسود. وكان بطرس يدرك قيمة الوصول إلى مياه البحر وجاءته فرصة طيبة لتحقيق هذا الاتجاه بعد اعتلائه العرش بمدة قصيرة. إذ انتهز فرصة اشتباك الإمبراطورية الرومانية المقدسة فى حرب مع الدولة العثمانية، وأعلن الحرب على الأخيرة وحصل من وراء هذه الحرب على «أزوف» Azov.

٢ـ الجبهة البولندية، وكانت ضعيفة ولكنها تعطى الفرص لقوى أخرى كى تتوسع على حساب بولندة وبالتالى تصبح خطرا على روسيا.

٣ـ الجبهة الفارسية، وهذه لم تعد مقصورة على مناطق التقاء الحدود العثمانية الروسية، وإنما امتدت إلى تسابق بين القيصر والسلطان العثمانى على الاستيلاء على أكبر قدر من ممتلكات الأسرة الصفوية الفارسية المنهارة.

كانت المشكلة السويدية متداخلة مع المشكلة البولندية، فقد كانت بولندة كاثوليكية ضعيفة، وكانت جاراتها طامعة فيها، وكان على العرش البولندى رجل من أسرة فازا السويدية، ولكن كان الفرع الحاكم فى بولندة متمسكا بكاثوليكيته وكانت هذه الأسرة لا تزال متمسكة بمطالبها فى عرش السويد، وكانت أسرة فازا البولندية ـ من جهة نظرها ـ تريد أن تعيد الإيمان الى السويد، وكان ملوك السويد ابتداء من جوستاف أدولف يسعون إلى تقويض هذه الأسرة الكاثوليكية، بل واحتلال بولندة نفسها.

ولربما كان فى استطاعة ملوك السويد أن يحققوا أهدافهم كاملة لو لم تتدخل الإمبراطورية الرومانية المقدسة (الإمبراطورية النمساوية) لإنقاذ بولندة الكاثوليكية من براثن بروتستانت الشمال. ولكن الأحقاد ظلت دفينة تنطلق من وقت لآخر. والآمال تنتظر من يؤججها. وعندما اعتلى شارل الثانى عشر عرش السويد تحركت آمال السويد بقوة فى اتجاه بولنده(١٧٠٠).

كان شارل الثانى فتيا مزهوا بفتوته، زهوا بلغ به حد التهور، أحرز الكثير من الانتصارات على أعدائه فى ألمانيا فكان ذلك عاملا جوهريا فى إيمانه بكفاءته الخارقة، وقدرته على أن يذل أقوى الرجال والجيوش. وكان يعتقد اعتقادا راسخا

أن جيشه ـ الذى كان يضرب بقوة فى ألمانيا تارة وفى بولندة أخرى ـ لا يمكن أن ينهزم أمام أولئك الروس الأجلاف الذى كون منهم بطرس الأكبر جيشا ليدافع به عن بلاده ضد جيش السويد الذى كان مضرب الأمثال فى التنظيم والقوة.

ولكن كانت القوى العديدة التى أذلها السويديون تنتظر الفرصة لتتحالف فيما بينها ضد السويد. وعندما توفى ملك السويد فى ١٦٩٧ عقد بطرس الأكبر حلفا مع كل من الدنمرك وبولندة ضد السويد. ولكنهم وجدوا أنفسهم أمام ملك (شارل الثانى عشر) جيد شديد فى العنف لا يتورع عن نقل المعركة إلى قلب أراضى أعدائه. فقد انتصر على الدنمرك وعلى أمير ساكسونى ليلتحم بعد ذلك بجيش بطرس الأكبر.

كان جيش بطرس كبيرا يناهز أربعة أضعاف جيش شارل الثانى عشر. ولكن الجيش السويدى كان موقنا من النصر، وكان يعتمد على قيادة ملتهبة الحماس، وكانت التجربة قاسية بالنسبة لبطرس الأكبر فقد انقض شارل الثانى عشر على الجيش الروسى فى موقعة نافارا Navara (نوفمبر ١٧٠٠) فدحره وشتت شمله تشتيتا.

حقيقة كان بطرس الأكبر قد أدخل بعض التعديلات والتجهيزات الحديثة على جيشه قبل (نافارا) ولكنه من بعدها أسرع فى سياسة إعادة بناء الجيش على أسس حديثة. ولقد أعطاه شارل الثانى عشر هذه الفرصة. وأغلب الظن أن شارل كان يستخف بالروس وبقيصرهم. وكان هذا أحد الأخطاء القاتلة التى وقع فيها شارل الثانى عشر.

فقد انتهز بطرس الفرصة تماما، وأعاد تشكيل جيشه وأسند قيادته إلى قائد عبقرى هو شرمتييف Sheremetief، وتولى هذا القائد مهمة الاستيلاء على الولايات البلطيقية التى كانت تحت يد ملك السويد. بينما، بعد أن صفى شارل الثانى عشر مشاكله مع بولنده وساكسونى والإمبراطورية النمساوية وضع خطته الجزئية ضد روسيا موضع التنفيذ.

هبط شارل الثانى عشر بجيشه إلى روسيا، وكان هذا من مصلحة بطرس

الأكبر، بل لقد أمعن بطرس فى استدراجه إلى داخل روسيا، وكانت كافة الظروف تخدم بطرس الأكبر، من حيث طول مواصلات خصمه، واشتداد البرد، وكان بردا منقطع النظير فى خلال تلك العمليات العسكرية.

وفى بلتانا دارت الدائرة على الجيش السويدى وتشتت حتى أنه لم يبق تحت قيادة شارل الثانى عشر سوى عدة مئات استطاع بهم أن يفر إلى الأراضى التركية (العثمانية).

فتح هذا الانتصار الكبير أبواب أوربا أمام بطرس الأكبر، وأعطى الروس ثقة بأنفسهم بعد هذا الفوز على خيرة جيوش العالم حينذاك فزحفت القوات الروسية غربا للتوغل فى بوميرانيا (ألمانيا) ولتحاول أن تصل إلى مواجهة ستوكهلم، وتحالف بطرس مع بروسيا التى انتهزت الفرصة وتوسعت على حساب السويد كما توسع بطرس فى الأجزاء الشرقية من فنلنده الحالية، وأطلت روسيا على بحر البلطيق.

جاء هذا النصر فى الوقت الذى كانت فيه عمليات بناء العاصمة الجديدة - سان بطرس بورج - تسير قدما لتكون نافذة روسيا على الغرب، ونمت هذه العاصمة حتى أصبحت واحدة من كبريات مدن العالم.

أما بالنسبة لفارس فكانت لدى بطرس الأكبر آمال نحو التوسع عبر ولايات فارس القوقازية وتحويل بحر قزوين إلى بحيرة روسية. وتصادف أن كانت فارس تعانى مر العناء من غزوة أفغانية مدمرة، وصراعات متعددة بين القوى المتنافسة على العرش وكان مير محمود (الأفغانى) قد اغتصب العرش من الشاه حسين الصفوى (الشاه الشرعى) فى ١٧٢٢. فتجنب بطرس الأكبر الاعتراف بمير محمود الأفغانى، وبعث بسفارة إلى الشاه حسين.

ادعى الروس أن الغرض من هذه السفارة هو المطالبة بتعويض عما أصاب قافلة روسية من خسائر تكبدتها على يد خان (خيوه) التابع لإيران، وأما الغرض الخفى فكان محاولة لجس نبض قوى فارس تمهيدا للقيام بعمل عسكرى ضدها.

وخلال هذه السفارة الروسية أدركت الدبلوماسية الروسية أن (مير محمود)

على جانب كبير من الجهل السياسى والإستراتيجى. وذلك عندما شكا إليه الدبلوماسيون من اختلال الأوضاع فى شمال فارس. فبدلا من أن يؤكد عزمه على السيطرة والتحكم فى تلك الجهات قال للروس أنه لا يملك القدرة على السيطرة على القبائل فى تلك الجهات. فما كان من بطرس ـ بعد أن علم بذلك ـ إلا أن هبط الفولجا على رأس جيش مؤلف من ٢٢ألف مقاتل معلنا أنه لم يزحف على فارس طمعا فى أراضيها، وإنما إنقاذا لها من الطاغية الأفغانى.

استولت القوات الروسية على (دربند)، وبينما هى تتابع زحفها وتوسعها وصل مبعوث من قبل السلطان العثمانى معلنا أن استمرار الزحف الروسى على حساب الدولة الإيرانية لا يعنى إلا الحرب ضد الدولة العثمانية Casus Belli، ولما كان بطرس الأكبر لا يرغب فى الاشتباك مع العثمانيين فى حرب من أجل التوسع فى أرض إيرانية آثر أن يتوقف الزحف وأن يدخل فى مفاوضات مع الباب العالى لتسوية الخلافات والوصول إلى حل يرضى الطرفين على حساب إيران.

ولم تلبث أن دارت المفاوضات بين الطرفين، واتفقا على اقتسام فارس فى معاهدة وقعت فى ١٧٢٤. قضت بأن تحصل روسيا على سواحل بحر قزوين وبعض الولايات الفارسية الشمالية حتى نهر آراس. ولكن لم يلبث بطرس الأكبر أن توفى فى ١٧٢٥ بينما ظهر فى فارس قائد من طراز جديد عنيف ضد كل من يحاول أن يضع يده على أرض فارسية وهو نادر شاه فآثرت الحكومة الروسية أن تعيد إلى فارس ما سبق أن استولى عليه بطرس الأكبر.

حقيقة تعرضت أمور روسيا بعد وفاة بطرس الأكبر لعدة أزمات ولكن بعد أن تولت «كاترين الثانية» العرش عادت روسيا إلى نشاطها العسكرى الكبير خاصة ضد بولنده والدولة العثمانية وفارس.

فبالنسبة للدولة العثمانية انتصرت روسيا فى حربها الطويلة (١٧٦٨ ـ ١٧٧٢) وأرغمت السلطان العثمانى على عقد معاهدة كوجك قينارجى (١٧٧٤) التى تمثل نهاية قوة الدولة العثمانية. كانت كاترين الثانية منتصرة، وكانت جيوشها قد سيطرت على خانات القرم، وإلى جانب هذا كانت جيوشها من شمال البلقان

صوب قلبه فى اتجاه الآستانة قادرة على أن تفرض شروطا قاسية للغاية على السلطان ولكن شروط (كوجك فينارجى) ـ رغم شدتها ـ خفيفة الوطأة نسبيا، وهذا يرجع فى حقيقة الأمر إلى نظرية التوازن الدولى.

لقد كانت الإمبراطورية النمساوية وحكومة بروسيا تنظران بعين القلق الشديد إلى التوسع الكبير الروسى فى البلقان، فلقد كان هذا البلقان (العثمانى) هو نفسه مجال الإمبراطورية النمساوية الحيوى الذى تسعى إلى التوسع فيه، أما وقد انطلقت روسيا فى اتجاه البلقان فإنها أصبحت على مستوى من التفوق يخل بالتوازن الدولى ويتطلب من الإمبراطورية النمساوية تدخلا سريعا وحاسما ضد نمو القوة الروسية هناك. ومن هنا كانت الأمور تشير إلى قرب أزمة بين سان بطرسبرج وفيينا قد تتحول بسرعة إلى حرب.

وكانت بروسيا لا تريد أن تقع مثل هذه الحرب التى لا بد وأن تجد نفسها متورطة فيها، وكانت الأحوال المالية لفردريك ـ ملك بروسيا ـ سيئة لا تتحمل حربا كبيرة أوروبية كتلك التى خاضتها بروسيا من قبل (حرب السنوات السبع ١٧٥٧ ـ ١٧٦٣)، ومن ثم كان من مصلحة بروسيا أن تجد وسيلة توقف بها الصدام بين الدولتين الكبيرتين، وتحقق للجميع مكاسب تبقى على التوازن الدولى ولا تخل به. ولذلك تركزت الاتجاهات فيما يلى:

١ ـ عدم انطلاق روسيا فى البلقان بأن تعقد معاهدة مع الدولة العثمانية (كوجك فينارجى) تعيد معظم ما فقدته الدولة العثمانية فى البلقان إليها.

٢ ـ اقتسام كل من روسيا وبروسية والنمسا لبولنده.

ومعنى هذا أن التوازن الدولى أصبح أداة لتحطيم الدول، وليس أداة دولة أوربية كبرى لمنع أخرى من التوسع على حساب دولة ثالثة. لقد ذهبت بولنده ضحية للنظرية الجديدة للتوازن الدولى.

وكان نجاح التقسيم الأول لبولنده فى ١٧٧٢ مثيرا لشهية الدول الثلاث لتكرار عملية التقسيم، وخاصة أن التقسيم تم بلا حرب وبلا تكاليف، بينما حصلت الدول المعتدية على مكاسب كبيرة على حساب الضحية بولندا.

ففى ١٧٩٣ اتفقت كل من بروسيا وروسيا على اقتطاع أجزاء من بولندا بينما تعوض النمسا فى الإلزاس واللورين بعد الاستيلاء عليهما من فرنسا (الثورة) ولكن الذى حدث هو أن بروسيا وروسيا حصلتا على حصتهما فى بولندا دون أن تتمكن النمسا من الحصول على الألزاس واللورين فخرجت خاسرة من ناحية، ومن ناحية أخرى كانت النمسا ترى أن ذلك الاتساع الذى حصلت عليه كل من روسيا وبروسيا أخل بالتوازن الدولى، وأنه لابد من أن تحصل النمسا على توسع فى مجال جديد أو تنقل قواتها التى كانت تحارب فرنسا (الثورة) فى ١٧٩٥ إلى القتال ضد بروسيا وروسيا على أرض بولندا من أجل الحصول على قسم منها. فأدى هذا إلى التقسم الثالث لبولندا الذى أزالها من الخريطة.

كانت عمليات التقسيم المتتالية هذه التى كانت تلاقى مقاومة من جانب الشعب البولندى، هى من الواقع صورة من صور المقاومة القومية الوطنية المبكرة. ولكت لم تستطع هذه المقاومة أن تغير شيئا من النكبة التى حلت بالبلاد.

ومما ساعد على أن تنحدر بولندا إلى هذا المصير المروع:

١ ـ أن بولندا الضعيفة كانت بين قوى عنيفة بعضها كان ناشئا (بروسيا وروسيا) وبعضها قديم (الدولة العثمانية والإمبراطورية النمساوية).

٢ ـ كانت بولندا تحصل على تأييد وعطف أوربا بسبب مجهوداتها المضنية ضد الدولة العثمانيية ولكن منذ أن بدأ الوهن يدب فى الدولة العثمانية، بدأت قوى النبلاء تشعر أن البلاد البولندية بعيدة عن الخطر، فانصرف النبلاء إلى الاقتتال على المناصب والأراضى والحكم، الأمر الذى أنهك البلاد إلى حد كبير.

٣ ـ كان جعل العرش انتخابا سببا فى أن يتقاتل الطامعون فيه مما كان يصيب بولندا بالخراب والدمار من وقت لآخر، خاصة وأن نبلاء بولندا أنفسهم كانوا غير متفقين، بل كانوا مستعدين باستمرار للاستعانة بالقوى الأجنبية.

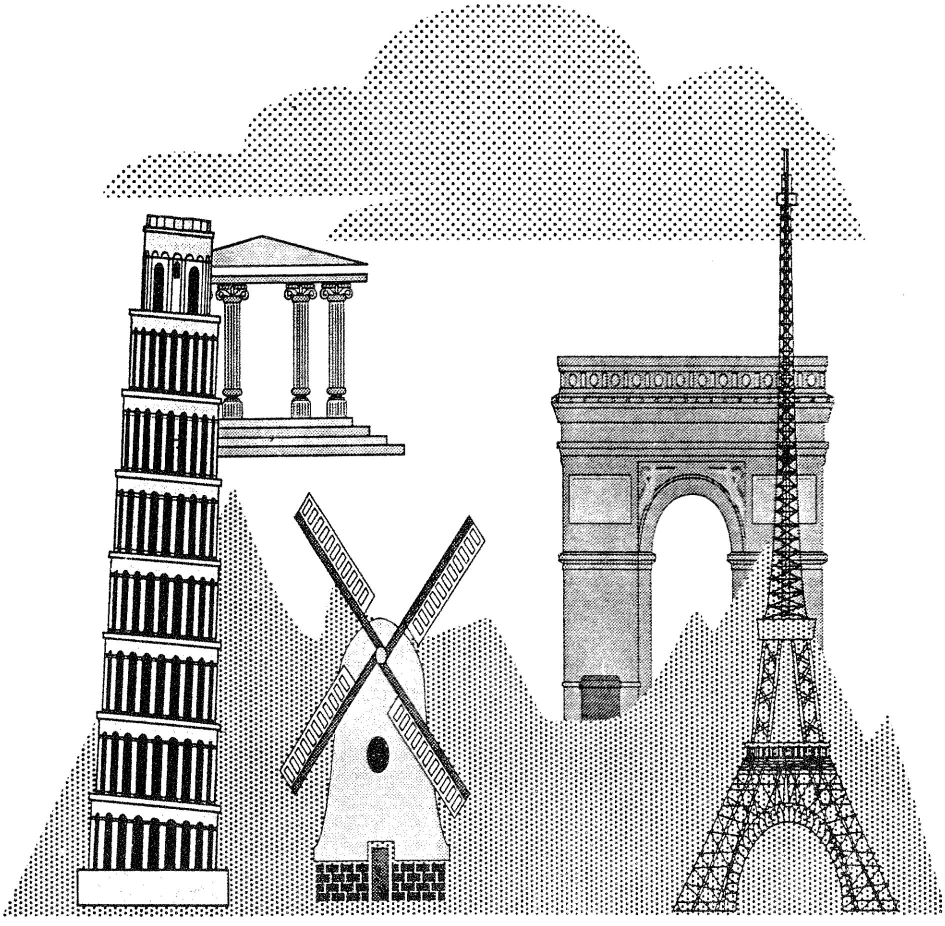
كانت هناك أقسام كبيرة من الشعب البولندى نفسه غير عابئة بمصير البلاد،

فقد كـان الشعب المستـعبد بواسطة النبـلاء غير معنى بـما يحدث من تقسـيمات لبلاده، وكان اليهود ـ وكانوا أقلية كبيرة ـ لا يهمهم أن يكونوا تحت حكم نمساوى أو بروسى أو روسى إذ كانوا يعنون فقط باستمرار أرباحهم المالية.

وبينمـا بولندا فى طريـقها إلى الزوال كـانت هناك دولة كـبيرة علـى النظام الأوروبى تظهر فى العالم الجديد وهى بروسيا.

الفصل الحادى عشر

ظهور بروسيا وأثره على توازن القوى خلال القرن الثامن عشر



تعتبر بروسيا واحدة من أهم الدول الـتى ظهرت فى العصر الحديث، ومنذ أن أصبحت قوة لها مكانتها فى أوروبا منذ منتصف القرن الثامن عشر ارتبطت كثير من السياسات الأوربية فى قلب القارة بالموقف الذى يتخذه ملك بروسيا.

والنواة التـى بدأت منها بروسـيا هى مقـاطعة براندنبـورج بين نهرى المـيز والألب. وهى واحدة من المقاطعات التى انحدرت من العصور الوسطى. وكانت قد أنشئت مقاطعـة براندبورج كمركز متقدم ضد هجمـات السلاف بين نهر الألب وبولندة.

وكان هذا المركز Mark يسند إلى موظف كبير - يلقب«ماركراف» - بواسطة إمبراطور الدولة الرومـانية المقدسة. ولم يلبث لماركراف أن حـصل - بسبب نمو قوته خلال القرن الرابع عشر - على منصب ولقب ناخب للإمبراطور.

وقد عـانت هذه المـقاطعة الـكثيـر من الاضطرابات الداخـلية حتـى أسند الإمبراطور سجـسموند حكمها إلى فـردريك هوهنزلرن الذى ستستـمر أسرته فى الحكم حتى نهاية الحرب العالمية الأولـى ١٩١٨. أى سيمتد حكمها زهاء خمسة قرون.

ولم يكن موقع أو إمكانيات براندنبورج يوحـى بأنها ستتطور على هذا الحد الكبير لتصـبح فى أواخر القرن التاسع عشر، دولة أوروبيـة عظمى. ولكن مما لا شك فيه أن لأسرة هوهنزلرن دورا كبيرا فى دفع هذا التطور فى هذا الاتجاه. وهو تطور كان يعتـمد باستمرار على قوة عـسكرية أكبر من المتوقع. فـلقد عنيت هذه الأسرة منذ إسناد براندنبورج إليها بأن يكون لديها من الأسلحة النارية- وكانت من الأسلحة المتقدمة حينذاك- ما يمكنها من أن تلعب دورا رئيسا فى منطقتها.

كان حكام مقاطعة براندنبورج من بيت هوهنزلرن فى خضم مضطرب خلال أزمة الحروب الدينية التى اجتاحت ألـمانيا خلال النصف الأول من القرن السادس عشر. وخلال هذه الأزمة، وجد ناخب براندنبورج أن مصلحته تتركز فى أن يقف

إلى جانب الأمراء الألمان اللوثريين ضد الإمبراطور شارل كنت (الخامس)، بل وتحول الناخب نفسه إلى اللوثرية. ومع هذا ظل الهوهنزلرن حكام مقاطعة براندنبورج على هامش الأحداث الكبرى حتى إذا ما امتدت سيطرتهم إلى بروسيا Prussia برز دورهم فى المجال الدولى. إذ إن امتداد حكمهم إليها وإلى بواميرانيا يعتبر من أهم تطورات أوروبا خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر ونظرة عامة على أوضاع بروسيا قبيل سيطرة الهوهنزلرن عليها تبين كيف آلت هذه المقاطعة الكبيرة إليهم.

كانت بروسيا فى القرن الخامس عشر تحت سيطرة ما عرف باسم الفرسان التيوتون Teuton. وكانوا على قوة وصلابة مشهورة فى نشر كلمة الكنيسة فى تلك الجهات الموحشة. ولم تلبث أن دارت المعارك التقليدية بين القوى المحيطة بالمنطقة. وكان طبيعيا أن يصطدم هؤلاء الفرسان التيوتون بالدولة الكبيرة المجاورة لهم (بولندا) التى كانت صاحبة الحق فى أراضى التيوتون. وبعد جهود مضنية من الطرفين احتفظت بولندا بشطر من بروسيا (بروسيا الغربية البولندية) وانفرد التيوتون بما عرف باسم بروسيا الشرقية.

وحيث إن نظام الفرسان التيوتون كان ملائما لتلك القرون السالفة من العصر الوسيط فإنه لم يلبث أن أخذ فى التدهور حتى أصبحت بروسيا الشرقية دوقية تحت حكم فرع من فروع أسرة هوهنزلرن الحاكمة فى براندنبورج. فكان طبيعيا أن يكون هناك تقارب وطيد بين فرعى الأسرة، وحانت فرصة ذهبية لتوحيد ممتلكات الفرعين تحت حكم منتخب براندنبورج جون سجسموند فى ١٦١٨ فى أعقاب وفاة حاكم بروسيا الشرقية دون وريث. فأصبح جون سجسموند حاكما على بروسيا الشرقية وعلى براندنبورج، وأصبح منذ ذلك الوقت أميرا له مكانته فى سياسات وسط أوروبا.

كانت بروسيا تعانى حينذاك من عدم وجود المقومات لتكوين دولة. فمن حيث القوة البشرية كانت بروسيا الشرقية قليلة السكان بسبب الفقر المنتشر فى تربة المنطقة، وعدم توافر ثروة معدنية تعين على تجمع السكان حولها، كما أنها كانت متطرفة فى اتجاه شمال شرق أوروبا وهى مناطق أقل فى مستواها الحضارى

عن بقية أجزاء أوروبا الغربية. وكان الفارق الحضارى بين بروسيا الشرقية وأوروبا الغربية واضحا. ولكن هناك شبه إجماع لدى المؤرخين الفرنسيين والإنجليز على أن هذا الشعب البروسى - رغم تلك المستويات المتدنية من الحضارة - أعطى لأسرة الهوهنزلرن طاقة بشرية صلبة العود، تطيع حكامها «طاعة عمياء» على حد قول بعض هؤلاء المؤرخين. فعوض ذلك الكثير من نواحى النقص فى مقومات الدولة هناك.

ومن ناحية الموقع كانت بروسيا الشرقية تجاور بولندا، وكانت مملكة لها وزنها حينذاك. ولكت المعضلة الصعبة الحل - التى كانت تواجه المسئولين عن الدفاع عن بروسيا - هى أن بروسيا كانت مجرد امتداد للسهل البولندى، فلم تكن لبروسيا حدود جغرافية يمكن أن تستند إليها عسكريا وسياسيا، ولهذا كانت مسئولية الحكام من أسرة الهوهنزلرن فى برلين كبيرة ومعقدة وخاصة أن وراثة الهوهنزلرن لبروسيا لم يؤد إلى قطع نهائى لما كان بين بولندا وبروسيا من علاقات إقطاعية. ولهذا عمل حكام الهرهنزلرن علَى التخلص نهائيا من هذه القيود الإقطاعية.

وفى الوقت الذى أصبحت فيه بروسيا تحت حكم هوهنزلرن براندنبورج، كان هؤلاء قد مدوا سيطرتهم (١٦١٤) على كليفز Cleves وعلى بعض الأراضى الألمانية الصغيرة الواقعة على الرين، وبذلك أصبحت هناك ثلاث مجموعات من المناطق الواقعة تحت حكمهم عندما وقعت حرب الثلاثين عاما (١٦٦٨ - ١٦٤٨):

١ - بروسيا الشرقية وتفصلها عن براندنبورج أراضى بروسيا الغربية البولندية وبوميرانيا.

٢ - براندنبورج.

٣ - ممتلكات الهوهنزلرن على الرين وهى الدوقيات الصغيرة كليفز، مارك، رافنزبرج Cleves Mark, Ravensberg

على هذا النحو كان الهوهنزلرن مسئولين عن الدفاع عن ممتلكاتهم المتناثرة

فى وجـه قوى كـبيـرة تقع علـى مقـربة منهـا: من شـرق (بولندا) ومـن جنوب (الإمبراطورية النمساوية) ومن شمال (السويد) ومن غرب (فرنسا).

إن مثل هذه الأوضاع الإستراتيجية والسيـاسية التى كانت تفرض نفسها على الهوهنزلرن حثتهم على اتباع سياسة خاصة سواء نحو الدول الكبرى المجاورة، أو نحو الأقاليم الواقعة تحت حكمهم، كـما كانت تحث على أن يصبح توحيد هذه الوحدات السـياسية وتـرابطها سيـاسيا وجغـرافيا هدفا سـياسيا مـن أهداف أسرة الهوهنزلرن.

كان يتـطلب تحقيـق هذا الهدف الاستـيلاء على المقـاطعات الفاصـلة بين ممتلكات الهوهنزلرن، وبالتالى كان هذا يـتطلب أيضا حروبا ضد القوى المتعددة سواء الملكة لتلك المقاطعات الفاصلـة بين ممتلكات الهوهنزلرن، أو القوى التى كانت تكره نمو قوتهم.

ولقد كان من سوء حظ الهوهنزلرن أن نـشبت حرب الثلاثين عاما (١٦١٨) فى نفس العام الذى ضمـوا إلى حكمهم بروسيا الشرقيـة، ومن ثم لم تكن هناك فرصة مواتية لأن يسـتخدم الهوهنزلرن إمكانيات بروسيا الشرقـية فى تقوية جانب براندنبورج أمـام القوى المتصارعـة فى تلك الحرب الطويلة الطـاحنة. وكان من سوء حظ الهـوهنزلرن أيضا أن تكون (ألمـانيا) بالذات هى مسـرح الحرب خلال تلك المـحنة الطويـلة فأصيـبت البلاد الواقـعة تحت حكـم الهوهنزلـرن بأضرار مروعة. وهـناك مثلان يضربـان على مدى التخـريب الذى أصاب البلاد فـبرلين، عاصمة الهوهـنزلرن، هبط تعداد سكانها من ١٤ألف نسمـة إلى ستة آلاف فقط. أما الثانى فيتـعلق بفرانكفورت، إذ لم يبق بها من سكانها الاثـنى عشر ألفا سوى ألفين فقط. هـذا بالنسبة للمدن، أما بالـنسبة للأرياف فقد كانت الـخسائر أبشع وأكثر فظاعة. فقـد تلاشت مئات القرى، وخربت مساحات واسعـة بأكملها حتى باتت شبه مهجورة.

لقد كـانت ضخامة الـجيوش المشـتركة فى حرب الـثلاثين عامـا، وقسوة التخريب الذى حل بالبلاد من العوامل التى جعلت جورج وليم هوهنزلرن (١٦١٩ ـ ١٦٤٠) قزما بجوار العمالقة.

على أن فتـرة حكم جورج وليام هوهنزلـرن كانت فى نفس الوقت مفـعمة بدروس علمت الهوهـنزلرن الكثير من علوم السـياسية والحرب. ولقد أفـاد كثيرا فردريك وليم (١٦٤٠ ـ ١٦٨٨) ـ الذى خلف جـورج وليم ـ من تلك الدروس. ومما ساعده على ذلك أن اندماج بروسيا وبراندنبورج تحت حكم الهوهنزلرن كان قد مرت عليه فتـرة طويلة نسبيا وبدأ يؤتى ثماره. ولا شك أن شـخصية فردريك وليم القوية تختلف عن شخصية جـورج وليم الضعيفة. ولكن يجب أن نضع فى الاعتبـار أن الظروف التى حكم خلالهـا فردريك وليم تختلف عـن ظروف سلفه اختلافا رئيسيا.

لقد جـاء جورج وليم إلى الـحكم مع بداية حـرب الثلاين عـاما، والدول الكبرى لا تزال فى عنفوان قوتها، وكانت رغباتهم جامحة فى الزحف وفى خوض المـعارك، بينـما بدأت مـفاوضـات الصلح بيـن القوى المـتصـارعة ابتـداء من ١٦٤٣. ومن ثم كانت مهمة فردريك وليم هى المساهمة فى توزيع المكاسب على مائدة مفاوضات عقد الصلح، ومن ثـم يحب أن يفرض نفسه على هذا الموقف، وأن يلفت النظر إلى قدرته فى التأثير على الأوضاع.

لقد كـان فردريك وليم يدرك ـ بعد أن تـولى الحكم ـ أن قدراته العـسكرية محدودة، وأنه إذا كان يريد الارتفاع إلى مستوى المساهمة فى المفاوضات الدائرة فيجـب أن يخلق جيشـا يحقق به هذا الـهدف. وحيث إن جيـشه كان مؤلـفا فى غالبيتـه العظمى من المرتزقة الذيـن لا يمكن الاعتماد على إخلاصـهم المشكوك فيه. فقد سرح هـؤلاء المرتزقة وكون جيشا جديدا من رعيـته هو، مرتبطا به كل الارتباط.

وليس معـنى هذا أن فردريك وليم أعـد جيشا ضخـما جرارا، فإن جـيشه الجديد لم يتـجاوز الثمانية آلاف جـندى، إلا أن هذا العدد كان كافيـا لأن يحقق أهدافا كثيرة لفردريك وليم، والسبب فى هذا هو أن حجم الجيوش ـ بصفة عامة ـ لم يكن كبيرا، وكانت الأسلحة الـنارية ـ لا تزال ـ محدودة الاستخدام، وكان فى استطاعة جيش ـ مـثل جيش فردريك ـ أن يتزود بأسلحة نارية تـمكنه من التصدى لجيش دولة كـبيرة مثل الإمبـراطورية الرومانية المقـدسة. حقيقة ربـما يكون من

العسير على جيش الـهوهنزلرن ـ الصغير نسبيا ـ أن يتغلـب على جيش دولة كبيرة أوروبية عريقة فى التاريخ العسكرى، ولـكن ظروف صراعات العصر كانت تمكن الهوهنزلرن من أن يصلوا إلى أهدافهم فى حرب ضروس.

فلقـد كانت الأمور الأوربـية والاتجاهـات السياسـية لا تتحـكم فيهـا قوة الجيوش فقط. وإنما كذلك نظرية توازن القوى. وبالتالى ستكون هناك دول كبرى فى حاجة إلى جيش الهوهنزلرن ضد قوة أخرى تهدد باختلال هذا التوازن. وحيث إن ممتلكات الهوهنزلرن على مقربة من قلـب الإمبراطورية الرومانية المقدسة فإن جيش هذه الأسرة الحاكمة يجب أن يحسب حسابه وخاصة أن فردريك وليم عنى بتجهيزه وإعداده أعظم عناية. فلا غـرو أن عرف كيف يمنع السويد من التهام كل بوميرانيـا خلال حرب الثلاثين عامـا أو فى صلح وستفاليا ١٦٤٨ إذ اسـتحوذ هو على جزء من بوميرانيا ضمه لممتلكاته.

لقد كان استيلاء فردريك وليم على هذا الجزء من بوميرانيا من العوامل التى رسخت من مسئولية الهوهنزلر إزاء توحيد ممتلكاتهم.

كان هذا التوحـيد بخطوات دبلوماسـية وعسكرية. وكان فردريـك نفسه فى حاجة إلى اعتراف بعـض الدول الأوربية وخاصة الطامعة فى بروسيـا الشرقية مثل السويد، كـما كان فى حاجـة لأن يصفى كافة الارتـباطات الإقطاعية الـتى كانت تربطه بملك بولندا، ولهذا تحالف مع السويد ضد بولندا حتى حصل على اعتراف السويـد به دوقا على بروسـيا الشرقيـة. ولم يلبث أن انتـصر على السويـديين فى ١٦٧٥ فى معركة فهربلن Fehrbellin التى تعتبر «إرهاصا للعظمة الآتية فى الأيام المقبلة».

تابع خليفته وابنه فردريك (١٦٨٨ ـ ١٧١٣) سـياسة أبيه فى الحصول على مكانة سامية فى أوروبا بهذا الاتساع الذى بلغته ممتلكات الهوهنزلرن. فأخذ يحث إمبراطور الدولة الرومانية المقدسة على إعلانه ملكا على بروسيا. وظل الإمبراطور ممتنعا حتى اضطر إلى ذلك.

فقد وجد الإمبراطور نفسه فى حاجة إلى مساعدة فردريك ـ أمير براندنبورج ودوق بروسيـا ـ فى حرب الوراثة الأسبـانية. فوافق فـردريك أن يقدم المـساعدة

المطلوبة فى مقابل الحصول على لقب «ملك بروسيا» ولقد كان هذا صعبا على الإمبراطور، إذ إنه بذلك كان يخلق مملكة قوية ـ إلى حد ما ـ بجواره مباشرة. ولكنه كان مضطرا فمنحه لقب ملك. وتوج فردريك نفسه فى ١٧٠١ فى كاتدرائية كونجزبرج Konigsberg

وليس فردريك هو أول أمير أو دوق ألمانى يحصل على لقب ملك. وإنما سبقته أسرة هانوفر الألمانية التى اعتلت عرش إنجلترا، وهناك منتخب ساكسونى الذى أصبح ملكا على بولندا ولكن هناك فارق بين إعلان ملكية بروسيا وهاتين المملكتين وغيرهما، فلقد كانت الملكية فى كل من إنجلترا وبولندا ترتبط ارتباطا واهيا بهانوفر وسكسونى. أما بالنسبة لبروسيا فإن ملكها جعل ممتلكاته المشتتة تحت تاج واحد، وظهرت دولة جديدة على جانب من القوة والاتساع على مقربة من قلب الإمبراطورية الرومانية المقدسة.

وعلى يد فردريك الأول ـ ملك بروسيا ابتداء من ١٧٠١ ـ ستبذل مجهودات كبيرة لتقوية الجيش البروسى ووضع كافة قدرات المملكة فى خدمة الجيش أولا وقبل كل شىء.

ولقد سبقت الإشارة إلى نمو ذلك الجيش الصغير نسبيا على يد المنتخب الأعظم فردريك وليم (١٦٤٠ ـ ١٦٨٨) وقيمته الكبيرة فى تحقيق أهدافه. ولكن عند تكوين هذا الجيش برزت له قيمة كبرى. فبينما كانت مملكة بروسيا غير مترابطة الأجزاء وكانت عبارة عن وحدات إقليمية منفصلة كان الجيش على غير ذلك، كان الجيش بوتقة صهرت كافة الشخصيات وجعلتهم كتلة واحدة تدافع عن ملك واحد، وهكذا ظهر إلى الوجود جيش بروسى متحد اتحادا تاما قبل أن تظهر الدولة المتحدة.

ولقد وضع المنتخب الأعظم فردريك وليم، ومن بعده ابنه جورج وليم. ومن بعده ابنه فردريك الأول الغالبية العظمى من دخل المملكة فى خدمة الجيش. وكان دخل مملكة بروسيا منحصرا فى مصدرين كبيرين رئيسيين:

١ ـ دخل الممتلكات الملكية.

٢ ـ الضرائب.

وعلى العكس تقريبا من بقية الدول الأوربية حينذاك كانت ممتلكات التاج تستطيع أن تنفق على الإدارة الحكومية وعلى متطلبات الجيش. وكلما زادت هذه المتطلبات وضعت الحكومة الملكية ونفذت مشاريع اقتصادية كبيرة تكون مدخولاتها وقفا على النفقات الحكومية، وبوجه خاص على الجيش. أصبح نمو الإنتاج الاقتصادى المرتبط بحاجيات الجيش يتحكم فى مستوى الازدهار فى البلاد.

فلقد أقيمت فى برلين مصانع للأسلحة النارية (البنادق والمدافع) ومصانع لإعداد الذخائر. وغير ذلك من الصناعات اللازمة لجيش بمستوى ذلك العصر.

ووجد المنتخب الأعظم فى طبقة اليونكرز البروسية الأرستقراطية مصدرا هاما للضباط اللازمين لجيشه. وكان هؤلاء يمجدون العسكرية النظامية المتفانية فى خدمة الأسرة الحاكمة. ولا شك أن انتشار العقيدة اللوثرية كان له أثره الكبير فى شدة الولاء من جانب هؤلاء اليونكر - للأسرة الحكامة الهوهنزلرنية. فالمعروف أن اللوثرية تفرض على أتباعها الولاء العميق للأمير الحاكم. ومن هنا كانت صفات طبقة اليونكرز - إلى جانب تعلقهم العقائدى بالأسرة الحاكمة - تضفى على الجيش البروسى مظهرا رائعا من العزه بالجيش والأرض والملك. وأسس فردريك الأول مدارس لتدريب أبناء طبقة اليونكرز وأصبحوا مفخرة بروسيا من بعد.

وفى سبيل ذلك الازدهار الصناعى لسد حاجات الجيش، وسعيا وراء الأيدى العاملة الفنية، والمهارات التجارية فتح المنتخب مملكته أمام هجرات من سويسرا وهولندا ومن هوجونوت فرنسا. ومن اليهود المهاجرين من بولندا. وباستثناء اليهود، كانت عقيدة أولئك المهاجرين هى البروتستانتية بمختلف أشكالها.

ولكن الملوك من أسرة الهوهنزلرن لم يفتحوا أمام الفلاحين مجالات التقدم. بل أغلقوها فى وجوهم، فقد ضحى المنتخب بالفلاحين فى سبيل كسب الأرستقراطية البروسية إلى جانبه، وفى سبيل الحد من مطالباتها بنظم حكم دستورية أو تمثيلية تحد من سلطاته المطلقة، ولقد رضيت الأرستقراطية باستعباد

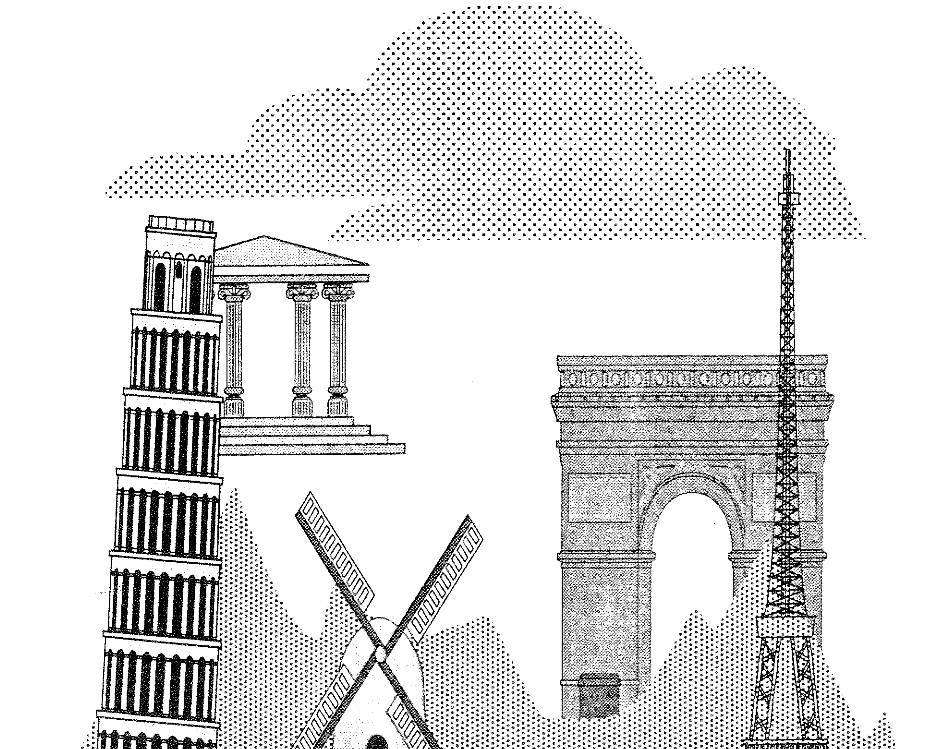
الفلاحين فكان هذا سببا من أسباب تخلف القاعدة الشعبية الألمانية عن غيرها ـ نسبيا ـ خاصة إذا قيست بمثيلتها فى إنجلترا.

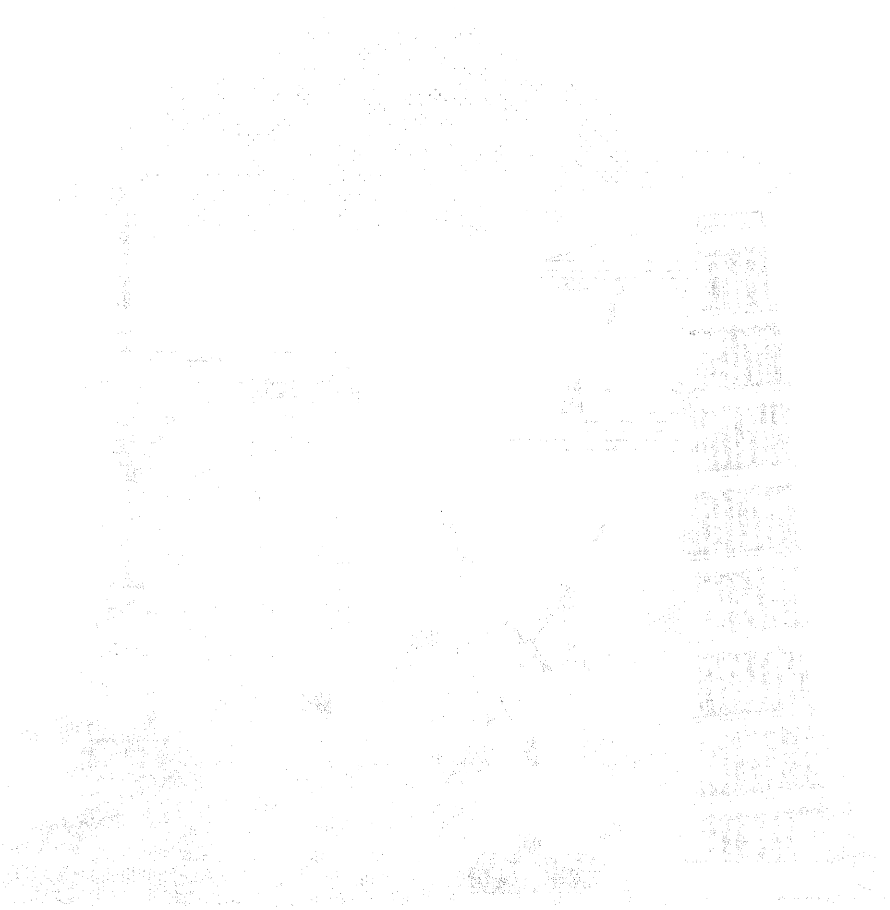
وأدت هذه السياسة الداخلية الصارمة إلى نتيجة أخرى هامة وهى ضعف عوامل نمو الطبقة الوسطى فى بروسيا. وكان مظهرها فى بروسيا يختلف عنه فى بقية دول غرب أوروبا، فالطبقة الوسطى فى بروسيا كانت أغلبيتها من موظفى الدولة، وهؤلاء فى خدمة الحكومة والجيش، ولا تستطيع أن تشكل قوة قادرة على فرض نفسها على الحكم أو الجيش.

وعلى أى حال استطاعت ملكية الهوهنزلرن أن تستخدم جيشها هذا فى الحصول على مكاسب أرضية هامة، بعد أن خاضت غمار حروب مريرة فى قلب أوروبا، وفى أواسط القرن الثامن عشر. وخلال حروب القرن الثامن عشر هذه انقلبت معايير التوازن الدولى. وهذا يتضح خلال حرب الوراثة البولندية. وحرب الوراثة النمساوية (٢) (١٧٤٠ ـ ١٧٤٨) وحرب السنوات السبع (١٨٥٦ ـ ١٧٦٣) فقد كشفت هذه الحروب عن قيمة بروسيا الجديدة فى توجيه سياسات أوروبا. ووضعت الإمبراطورية النمساوية فى مآزق خطيرة أكثر من مرة ووضعت فرنسا على حافة الثورة الداخلية، وأعطت بروسيا إنجلترا فرصة لتصبح صاحبة إمبراطورية عالمية فى العالمين القديم والجديد.

الفصل الثانى عشر

حروب القرن الثامن عشر
١٧٤٠ - ١٧٦٣





كان ظهور بروسيا، وظهور روسيا، وكل منهما على أحد جوانب الإمبراطورية الرومانية المقدسة (الإمبراطورية النمساوية) سببا فى أن تتعقد علاقات الدول الأوربية بعضها ببعض. فلقد كانت بروسيا ملكية بروتستانتية، وروسيا أرثوذكسية، أما الإمبراطورية النمساوية فكانت ملاذ وأمل الكاثوليكية فى أن تستعيد تفوقها - على حساب البروتستانت - فى أوروبا وخارج أوروبا. ولكنها كانت امبراطورية تعانى من التفكك الداخلى الشديد، فهى مشكلة من قوميات متعددة، وبالتالى كانت تضم عددا من المجتمعات المتباينة المختلفة التقاليد وكانت القوى التى تربط هذه الإمبراطورية بعضها ببعض قوى بوليسية عسكرية، أو مذهبية شديدة (مثل اليسوعيين).

وكانت ممتلكات الإمبراطورية متصلة ابتداء من قلب أوربا فى اتجاه الشرق حتى مناطق الصدام الصليبى بينها وبين الدولة العثمانية فى شمال البلقان، ولكن كانت هذه الإمبراطورية النمساوية قد حصلت على الأراضى المنخفضة (بلجيكا) من أسبانيا بمقتضى معاهدة أوترخت ١٧١٣. فإذا بهذه الممتلكات المجاورة لفرنسا - عدوة النمسا التقليدية - تصبح عبئا على الإمبراطورية بسبب الصعوبة البالغة فى الدفاع عنها أمام غزو الجيش الفرنسى لها.

وكانت ظروف النمسا فى الثلاثينيات والأربعينيات من القرن الثامن عشر تغرى القوى المعادية المتربصة بها بأن تنقض عليها متحالفة أو فرادى، وتجلى هذا فى أعقاب وفاة الإمبراطور شارل السادس فى أكتوبر ١٧٤٠. وكان شارل السادس هذا قد ضحى بالكثير من أراضى النمسا ومصالحها التجارية من أجل الحصول على موافقة ملوك أوروبا على أن ترثه ابنته ماريا تريزا على العرش وأراضى الامبراطورية وكانت هذه المرأة على الطراز من نساء القرن الثامن عشر العنيدات ذوات الطموح العالى دون أن تكون لديها المواهب الخارقة التى كانت تتطلبها ظروف منتصف القرن الثامن عشر الذى ظهر خلاله عدد من عباقرة الفنون السياسية والعسكرية دون أن يظهر أمثالهم فى النمسا. بل لقد كان جيش النمسا حينذاك ضعيفا، لا يتناسب مع مساحة تلك الإمبراطورية الواسعة.

ولقد كان مجرد إسناد العرش إلى امرأة حينذاك كفيلا بأن يثير انشقاقا فى داخل النمسا نفسها، وكفيلا بأن يحث الطامعين فى العرش الإمبراطورى بأن يمتشقوا الحسام لانتهاز الفرصة، وكان هناك عدد ليس بالقليل من المطالبين بالعرش. وكانت حجتهم تسندها أحيانا دولة قوية معادية للنمسا، فلقد أخذت فرنسا جانب أحد المطالبين بالعرش وهو شارل ألبرت منتخب بافاريا. رغم أن ملك فرنسا كان قد تعهد من قبل بالاعتراف بماريا تريزا إمبراطورة بعد وفاة أبيها.

كذلك تطلعت بعض الدويلات والدولة إلى اقتطاع أجزاء من الإمبراطورية انتهازا لهذه الفرصة، فأسبانيا كانت تطمع فيما تملكه النمسا من مساحات واسعة فى إيطاليا، وتطلع ملك سردينيا شارل إيمانويل إلى أن يضع يده على ميلان. وفرنسا كانت تطمع فى الأراضى المنخفضة (النمساوية) ولوكسمبورج. وكان أوغسطس منتخب ساكسونيا يطمع فى بعض الممتلكات النمساوية متخذا من زوجته النمساوية وسيلة لذلك.

ولكى تقطع ماريا تريزا الطريق على أولئك المطالبين والمدعين بأحقيتهم فى العرش الإمبراطورى، أعلنت زوجها إمبراطورا.

ولكن أخطر طامع فى ممتلكات الإمبراطورية النمساوية كان فردريك الثانى ملك بروسيا (١٧٤٠ ـ ١٧٨٦) وكان رجلا عبقريا بلا جدال، وكان يدرك حقيقة هامة وهى أن مملكته صغيرة ومحدودة الموارد. وأن ملوك أوربا فى تحالفاتهم وعداوتهم يضعون توازن القوى فى أوروبا نصب أعينهم، وأن بلاده خلال ما سينشب من حروب ستكون ميدانا لها. ومن ثم فإن التمسك بأهداب الفضائل السياسية ـ وهى فضائل كانت تنقص ملوك وحكومات أوروبا حينذاك ـ كان فى نظره من تراث الفلاسفة. وأن عليه أن يلعب بالسيف والقلم واللسان وبكافة الوسائل لمواجهة العمالقة الرابضين حوله وعلى مقربة من مملكته.

ولهذا شن فردريك الثانى هجوما مفاجئا استولى به على سليزيا مفتتحا بذلك حرب الوراثة النمساوية.

لقد كان هذا الاستيلاء الغادر لقطعة من أثمن أراضى الإمبراطورية النمساوية كفيلا بأن ترد عليه الإمبراطورية النمساوية بإعلان الحرب وخوض المعارك. ولكن عاملا آخر جعل النمسا شديدة الحماس لقتال فردريك الثانى. فبروسيا كانت فى نظر حكومة النمسا تابعا لها حتى وقت قريب. فإذا به يوجه الضربة إلى (سيده). ومن ثم كان استيلاء فردريك الثانى على سيليزيا ضربة قاسية جدا لماريا تريزا، وأشد منها قسوة الانتصار الكبير الذى أحرزه على جيش النمسا فى موقعة ملوويتز، تلك المعركة التى كشفت أمام ملوك وأمراء أوروبا مدى الضعف الذى كان عليه جيش الإمبراطورية النمساوية.

فتحرك شارل ألبرت منتخب بافاريا والمطالبة بعرش الإمبراطورية. وتحركت من ورائه فرنسا. وأدركت إنجلترا أن القوى المعادية للنمسا تستطيع أن تمزقها، فحثت الحكومة الإنجليزية ماريا تريزا على أن تستجيب إلى مطالب فردريك الثانى فى سيليزيا وتتنازل عنها، وبذلك تتخلص من هذه الحربة القوية الموجهة إلى قلب الإمبراطورية النمساوية.

ولقد كانت الفرصة مواتية لأن تصل ماريا تريزا مع فردريك الثانى إلى تسوية على هذا الأساس، حيث إن فردريك كان ينظر بعين القلق إلى التدخل الفرنسى ولكن ماريا تريزا رفضت رفضا باتا أن تتنازل عن سيليزيا. وبالتالى أعطت لفردريك الحجة التى جعلته يتحالف مع شارل البرت وفرنسا فى ١٧٤١.

ويعتبر عام ١٧٤١ من أسوا الأعوام التى مرت على الإمبراطورية النمساوية فقد استولى البافاريون على ميونيخ وضغطوا على فيينا العاصمة، وضغط الفرنسيون على الإمبراطورية، وضغط الجيش البروسى فى اتجاه العاصمة فيينا من جهة أخرى. وفى هذه السنة كان من المتوقع أن تنهار الإمبراطورية النمساوية أمام أعدائها المنتصرين الذين توغلوا كثيرا فى قلب الإمبراطورية، حتى لقد فرت ماريا تريزا نفسها إلى المجر، بينما أعلن شارل ألبرت فى فرانكفورت نفسه إمبراطورا باسم (شارل السابع). ولكن لم تلبث أن تحولت مجريات الأمور بعد وقت وجيز نسبيا لصالح ماريا تريزا. وذلك بسبب قيام ماريا تريزا بتحرك سياسى وعسكرى بارع من أهم مظاهره:

١ ـ كانت ماريا تريزا بعيدة النظر عندما لجأت إلى المجر، وناشدت الأرستقراطية المجرية أن تهب لإنقاذ الإمبراطورية من أعدائها ووجدت ماريا تريزا فى المجر القوة التى أعانتها على متابعة القتال.

٢ ـ عدلت ماريا تريزا من موقفها المتصلب إزاء فردريك وقبلت وجهة النظر الإنجليزية وتنازلت عن سيليزيا له فانسحبت القوات البروسية من الأراضى النمساوية لتشرع القوات الإمبراطورية فى هجوم كبير على مراكز الفرنسيين والبافاريين.

٣ ـ تحولت الاتجاهات فى إنجلترا بقوة بعد دخول الحرب إلى جانب النمسا المهيضة الجناح. على اعتبار أن هذا التفوق الفرنسى العسكرى فى قلب أوروبا وفى الأراضى المنخفضة كفيل بأن يهز هزا عنيفا «التوازن الدولى» بشكل يضرب بالمصالح الإنجليزية. ولهذا لم يلبث أن اعتزل السياسى الكبير الإنجليزى والبول السياسة، لأنه كان من دعاة السلام وخلفه فى الوزارة كارتريت إذ وضع سياسته على أساس توجيه الحرب بقوة ضد فرنسا، حتى ولو لم تكن الحرب معلنة بين الدولتين. فأرسل جيشا إلى هانوفر (الإنجليزية) للدفاع عن الأراضى المنخفضة النمساوية، وبدأ هذا الجيش عملياته العسكرية بنجاح ضد الجيش الفرنسى.

كان طبيعيا أن ينسج الإنجليز من أعداء فرنسا حلفا كبيرا. وتمت المجهودات الإنجليزية بنجاح فى جمع كل من الإمبراطورية النمساوية وشارل إيمانول (ملك سردينيا) مع إنجلترا فى حلف وقع فى وورمز فى ١٧٤٣.

كانت حصة شارل إيمانول من ذلك التحالف مغرية جدا. وكان دوره عظيما أيضا. كان انضمامه إلى حلف وورمز، يعنى أن فرنسا أصبحت مهددة من جهات ثلاث وربما أكثر. فالجيش الإنجليزى يعمل من قواعده فى هانوفر، والجيش النمساوى يضغط على الألزاس واللورين، وها هو شارل إيمانول يستطيع من قاعدته فى (سافوى) أن يضغط على فرنسا من الشرق.

لعبت فرنسا هى الأخرى بنشاط فى المجالات الدبلوماسية وفى مجال توازن القوى الأوربية كما تستطيع أن تواجه تكاثر القوى عليها، ففى السنة التى عقد فيها «حلف وورمز» كانت فرنسا قو توصلت إلى تفاهم مع جارتها أسبانيا فيما عرف باسم «معاهدة فونتنبلو» ١٧٤٣ وكان من العوامل التى ساعدت على عقد هذه المعاهدة وجود فرع لأسرة البوربون يحكم فى أسبانيا ويطمع فى وراثة النمسا فى إيطاليا. ولهذا اتفق الطرفان الفرنسى والأسبانى على المحافظة على استمرار مملكة الصقليين تحت حكم «دون كارلوس» ومنع القوى الطامعة فى إيطاليا والمعادية لكل من فرنسا وأسبانيا من الحصول على أهدافها هناك.

ودارت الحرب بين «حلف وورمز» و «حلف فونتنبلو» ولكن ظل هناك رجل قوى خارج هذه الأحلاف يراقب بدقة تطور الأمور، ونعنى بذلك فردريك الثانى ملك بروسيا. ولقد كانت التطورات تسير بسرعة - حتى قبيل عقد حلف وورمز ضد فرنسا.

فقد أحرز الجيش الإمبراطورى عدة انتصارات مبدئية عندما طرد القوات البافارية من ميونخ، وهزم القوات الفرنسية، وعندما اضطر شارل ألبرت إلى التنازل عن العرش نهائيا لماريا تريزا (١٧٤٢) ثم اتجهت جيوش الإمبراطورية النمساوية إلى مهاجمة الإلزاس واللورين، لتصبح فرنسا فى موقف المدافع عن نفسها، وكانت فى موقف دقيق للغاية لأن إنجلترا كانت حينذاك بمثابة مدفع كبير مصوب إلى قلب فرنسا من الشمال باستمرار، ولأن شارل إيمانويل - ملك سردينيا - أصبح بمثابة خنجر فى جنب فرنسا من الشرق. أو بمعنى آخر لقد أصبحت فرنسا فى ١٧٤٢ فى موقف مشابه لما كانت عليه الإمبراطورية النمساوية فى ١٧٤١ وبدأ كأن هناك خطة لاقتسامها.

ولكن فردريك الثانى - أدرك خطورة ذلك الانتصار النمساوى على فرنسا، فإنه إذا جثت فرنسا على ركبتيها فدور بروسيا آت عن قريب. ولهذا تحرك فردريك الثانى فجأة وبسرعة.

ولم تلبث القوات البروسية أن تفوقت، فاستولى فردريك الثانى على براغ (١٦ سبتمبر ١٧٤٤) وهزم النمساويين فى هوهنفريدبرج وفى سوهر وأرغم النمسا على عقد صلح درسدن التى حفظ سيليزيا وجلاتز لفردريك وبدأت تطورات الحرب - بصفة عامة - تسير لصالح فرنسا. فبينما انشغلت القوات النمساوية بمنازلة الجيش البروسى، ركزت فرنسا جهودها العسكرية ضد الجيش الإنجليزى وحلفائه فى الأراضى المنخفضة وانتصر الفرنسيون فى فونتنوى (١١ مايو ١٧٤٥) ثم فى لوفلد (٢يوليو ١٧٤٦).

ولكن آمال ملك فرنسا لويس الخامس عشر - فى إحلال شارل إدوارد، والمطالب بإعادة أسرة استيوارت إلى الحكم، محل جورج الثانى الهانوفرى على عرش انجلترا - لن تتحقق بسبب صلابة وتمسك الشعب الإنجليزى بأسرة هانوفر البروتستانتية. بل لقد استعان الإنجليز بجيش روسى مولوه بأموالهم، الأمر الذى أضاع آمال فرنسا فى الإبقاء على سيطرتها على الأراضى المنخفضة.

وفى هذه السنوات بدا كأن القوى المتصارعة لا تستطيع أن تغير من خريطة أوروبا تغييرا جوهريا ولم يحرز أى من الخصوم نصرا مؤزرا يرغم الطرف الآخر على الخضوع لشروطه؛ ولهذا اتجهت النيات إلى إنهاء الحرب وتم ذلك فى صلح إكس لا شابل فى أكتوبر ١٧٤٨، فهو صلح لم يحسم أية معضلة كانت سببا من أسباب الحرب فيما عدا إنهاء مشكلة وراثة العرش النمساوية بالطريقة التى تريدها ماريا تريزا إذ اعترف ملك أسبانيا بفرانسيس إمبرطورا، وأعطيت (بارما) فى إيطاليا إلى دوق فيليب الأسبانى.

أما فيما يتعلق بالعلاقات الفرنسية الإنجليزية فى هذا الصلح. فقد اعترف لويس الخامس عشر بملكية هانوفر فى إنجلترا، وانسحبت من الأراضى المنخفضة التى تعتبرها انجلترا خط الدفاع الأول عن هانوفر، بل وعن إنجلترا نفسها. وأما إنجلترا فأعادت حصن لويزبورج - فى كندا - إلى فرنسا بينما أعاد الفرنسيون مدراس – فى الهند إلى الإنجليز (شركة الهند الشرقية البريطانية).

على هذا النحو تصالحت الدول الأوروبية المتصارعة دون أن تضع حلا نهائيا للمشكلات العويصة التى كانت كفيلة بأن تؤدى إلى الحرب مرة أخرى. فلقد كانت ماريا تريزا تنظر والألم يعتصر قلبها إلى فردريك وهو يتمتع بسيليزيا الممتدة كالخنجر فى قلب النمسا، وكانت فرنسا وإنجلترا فى صراع استعمارى شبه متواصل فيما وراء البحار فى العالمين الجديد والقديم. ولقد صور المؤرخ الإنجليزى فيشر طبيعة هذا الصراع تصويرا رائعا عندما قال:

«لم يكن نزاعا بين بلاطين أوحكومتين، وإنما كان نزاعا بين الأفراد... وبين الملاحين والتجار والمهربين والمغامرين، قاطعى الأخشاب والمستعمرين والتجار والأحرار والشركات التجارية المتنافسة، فهم يتشاجرون ويتنازعون إما فى البحر الأسبانى أونيوفوند لاند أو على طول شواطئ نهر الأهيو وسانت لورنس، أو تحت سماء الهند المحَرقة بين حقول الأرز..، أو حقول قصب السكر وأشجار المانجو فى البنغال. فكان لا مناص من أن تؤدى المنافسة المطلقة على التجارة والاستعمار ومحاولة السيطرة فى آسيا وأمريكا إلى اصطدامات لا حصر لها بين الأنجلو سكسونيين ومنافسيهم من اللاتين. واستفحل أمر المشاحنات غير الرسمية، فأصبحت حروبا غير رسمية».

لقد كان لابد من صراع أوربى واسع النطاق، مرة أخرى. وكان على كل قوة أوروبية فى هذا الصراع الجديد أن تبحث عن حلف تستطيع أن تعتمد عليه اعتمادا مستمرا. وبدت خلال فترة الهدنة المسلحة بين (١٧٤٨ - ١٧٥٦) بعض الحقائق السياسية والإستراتيجية التى لا يمكن أن يتجاهلها ملوك أوروبا عند عقد المحالفات والمحالفات المضادة.

١ - أدركت ماريا تريزا أن العدو الحقيقى لها هو بروسيا وأنه لمن الخطر المروع على النمسا أن يقع تحالف بين روسيا وفرنسا عدوة النمسا التقليدى.

٢ - أن روسيا يمكن أن تشكل ظهيرا للنمسا، وأن تغرى بالتوسع على حساب بروسيا.

٣ ـ أن روسيا هى الأخرى تنظر بعين الحقد والخوف من نمو قوة فردريك الثانى ملك بروسيا.

٤ ـ هذا فيما يتعلق بالنمسا وعداوتها العميقة لبروسيا، أما بالنسبة لفرنسا فقد أدركت هى الأخرى أن حليفها ملك بروسيا لا يتورع عن الانقلاب عليها إذا ما توسعت فى الأراضى المنخفضة أو فيما وراء نهر الرين. وأن آمالها فى الأراضى المنخفضة لا يمكن أن تتحقق إلا برضاء النمسا رضاء واضحا وعن طريق تعاون الطرفين النمساوى والفرنسى فى إعادة رسم خريطة أوروبا بما يحقق لكل منهما أهدافه.

٥ ـ أدركت فرنسا، أن الحرب فيما وراء البحار ستكون ضارية، وكانت قد اتبعت كل من فرنسا وإنجلترا سياسة مختلفة عن الأخرى لمواجهة الحرب المقبلة فى المستعمرات. فقد اعتمدت فرنسا على جيشها البرى كقوة قادرة على أن تفرض على الإنجليز صلحا لا يضيع على فرنسا مستعمراتها، بيما عنيت إنجلترا بأسطولها الحربى على اعتبار أن الحصار البحرى البرى سيؤدى إلى سقوط المعاقل الفرنسية فى المستعمرات الواحد بعد الآخر. خاصة أن نسبة الفرنسيين فى كل المستعمرات كانت أقل من (١ ـ ١٠٠) من حيث العدد، أما من حيث المساحة فقد كانت ممتلكات الإنجليز وما تحت السيطرة فى كل العالمين الجديد والقديم (الهند) كان يفوق ما كان تحت يد الفرنسيين، الأمر الذى كان يشير إلى رجحان كفة الإنجليز فى حروب المستعمرات الصغيرة والكبيرة على السواء وخاصة أن الحكومة والشعب الإنجليزى كان معنيا أكثر بأمر الإمبراطورية البريطانية فيما وراء البحار بعكس الحكومة الفرنسية.

هذه الظروف كانت موضوعة تحت عين السياسى العجوز النمساوى مستشار الإمبراطورية النمساوية منذ ١٧٥٣ الكونت ونجل فون كاونتز ريتبرج الذى بذل جهده من أجل تحطيم التحالف الفرنسى ـ البروسى. وعزل فردريك الثانى، ثم سحقه بمساعدة كل من فرنسا وروسيا. ولم تثمر الجهود الأولى التى قام بها كاونتز

فى أول الأمر إلا قليلا. ولكن كانت الاتجاهات تشير إلى أن إمكانية النجاح ليست مستحيلة.

ترأس كاونتز بنفسه بعثة دبلوماسية بين ١٧٥٠ - ١٧٥٣ ولكنها لم تستطع أن تقنع البلاط الفرنسى بأهداف السياسة النمساوية. إلا أن الموقف بدأ يتغير لصالح سياسة كاونتز عندما تصاعدت الصدمات بين الفرنسيين والإنجليز فى المستعمرات خلال صيف ١٧٥٥.

انتهز النمساويون هذه الأزمة وعادوا إلى عرض مقترحاتهم على البلاط الفرنسى. ومما ساعد على أن يعيد الفرنسيون النظر فى موقفهم أن دى برنيس - سفير فرنسا لدى بلاط فيينا لعدة سنوات مضت - كان مقتنعا بهذا الاتجاه، فكلفه لويس الخامس عشر بأن يتسلم المقترحات التى عرضها السفير النمساوى ستار همبرج.

وكان طبيعيا أن يسارع فريدريك الثانى ملك بروسيا إلى اتخاذ إجراءات مضادة لذلك التقارب النمساوى الفرنسى وإلا أصبح بين شقى الرحى، بل لقد أدرك أيضا أن قوى شرق أوروبا تتكتل ضده. فلقد أصحبت سياسة روسيا الخارجية توجه بواسطة الكونت بستوزيف رومين المعروف بعدائه لبروسيا والذى كان مستعدا كل الاستعداد لأن يضع يده فى يد «ماريا تريزا».

كان على فريدريك أن يسعى إلى التقليل من عدد أعدائه إلى أقل درجة ممكنة ووجد أن فى استطاعته أن يبعد فرنسا عن ألمانيا عن طريق الاتفاق مع إنجلترا، فقد كان يعلم أن الحرب بسبب المستعمرات وشيكة الوقوع بين فرنسا وإنجلترا فدعا الإنجليز إلى ضمان حياد ألمانيا فى هذه الحرب المقبلة، وتم هذا الاتفاق بين الطرفين فى يناير سنة ١٧٥٦ فيما عرف باسم اتفاقية وستمنستر.

أدت هذه الاتفاقية البروسية الإنجليزية إلى ردود فعل شديدة فى كل من باريس وفيينا، فقد استشاط سياسيو قصر فرساى من تلك الاتفاقية التى عقدها فردريك الثانى مع أشد أعداء فرنسا (إنجلترا).

وهناك من المؤرخين من ينتقد هذا الموقف الفرنسى أشد الانتقاد ويتهم بلاط فرساى بأنه أساء استخدام هذا الاتفاق، ووجهة نظر هؤلاء المؤرخين الإنجليز أن هذا الاتفاق كان يعطى لفرنسا فرصة واسعة لكى تكثف جهودها العسكرية ضد إنجلترا فى الصراع الاستعمارى فيما وراء البحار، أن هذا الاتفاق الإنجليزى البروسى - علاوة على ذلك - لم يشر لا من قريب ولا من بعيد إلى مصير الأراضى المنخفضة النمساوية تلك الأراضى التى كانت عين فرنسا باستمرار عليها والتى كانت فى متناول الجيوش الفرنسية بكل سهولة.

وفى اعتقادنا أنه انتقاد يقوم على أسس واهية؛ ذلك أن الإستراتيجية الفرنسية طبقا لخطط مستشارى لويس الخامس عشر كانت تعتمد أساسا على الانتصار فى المعارك البرية فى قلب القارة الأوروبية، وكان من العسير جدا على فرنسا أن تبعث بجيوشها إلى كندا أو إلى الهند. أما بالنسبة للأراضى المنخفضة فإن إنجلترا - بل وروسيا نفسها - كانت ترى فى استيلاء فرنسا على الأراضى المنخفضة تهديدا مباشرا لها.

لقد دفع ذلك الاتفاق البروسى الإنجليزى لويس الخامس عشر - بتحريض من عشيقته الجميلة غير السياسية مدام بمبادور - إلى أن يعمل على الانتقام من فردريك الثانى. فعقد فى أول مايو ١٧٥٦م الحلف الدفاعى المعروف باسم حلف فرساى الأول وفيه اتفق الطرفان على أن ينزل كل منهما ٢٤ ألف مقاتل فى حالة تعرض أى منهما لهجوم دولة ثالثة.

ولكن هذه المعاهدة ليست نصرا سياسيا أو عسكريا «لكاونتر» أو «ماريا تريزا» حيث إن هذه المعاهدة لم تشتمل على الهدف الرئيسى «لماريا تريزا» وهو إذلال فردريك الثانى - الذى كان يحتقرها - واسترداد سيليزيا منه.

ومع هذا فلا شك أن هذه المعاهدة كانت فاتحة انقلاب دبلوماسى كبير اشتهر «بالثورة الدبلوماسية».

نتيجة أخرى هامة نتجت عن ذلك الاتفاق الإنجليزى البروسى (اتفاقية

وستمنستر) وهى أن بـلاط القيصرة إليزابيث الحانقة على فـردريك الثانى ـــ بسبب النكات البذيئة التى كان طلقها علـيها ـ أدرك أن إنجلترا تقف ضد التوسع الروسى على حسـاب بروسيا. وترتب عـن هذا تقارب بين بلاطى سـان بطرسبرج وفـيينا يهدف إلى تعاون ثلاثى روسى فرنسى نمسـاوى ضد بروسيا، ولن يتم هذا التعاقد إلا فى آخر يوم من عام ١٧٥٦.

كان فردريك يرقب بعناية تلك التطورات الـدبلوماسية العسكرية، وأدرك أنه لا يستـطيع انتظار إنقـضاض العمـالقة عليه مـجتمـعين، وأدرك أنه عليـه أن يبدأ التحرك فـجأة وبسرعة حتى يـضرب النمسا بالذات قـبل أن تستكمل استـعداداتها العسكرية. وحتى يتمكن من أن يضرب كل جيش من جيوش أعدائه على حدة.

بدأت حرب السنوات السبـع بهجوم شنه فردريك الثانى على سـاكسونيا فى أواخر أغسطس ١٧٥٦ فأرغم جيش ساكسونيـا على الاستسلام فى برنا فى أكتوبر ١٧٥٦ ولكن لم يلبث أن منى الجيش البروسى بالفشل الذريع فى يونيو ١٧٥٧.

والأشد من هذا على بروسـيا أن فرنسا وقعت مع النمسـا فى أول مايو سنة ١٧٥٧ معاهدة فرساى الثانـية وفيها تعهدت فرنسا بأن تحتـفظ بجيش فرنسى يبلغ ١٠٥ آلاف من المرتزقة الألمان، وأن تدفع للنمسا مبلغا ضخما كمساعدة نقدية، وفى مـقابل كـل هذا لم تطلـب فرنسـا إلا أربع مـدن فى الأراضى المنـخفـضة النمسـاوية على أن يحكم دوق فـيليب ـ زوج ابنة لويـس الخامس عشـر ـ الجزء الباقى من تلك الأراضى المنخفضة. هذه الشـروط كلها كانت تتوقف على استرداد «ماريا تريزا» لسيليزيا.

وهكذا تعهدت فرنسا بأن تخوض حـربا مكلفة جدا لا تتوقع من ورائها أى مكسب إلا إذا أحرزت نصرا حاسما ونهائيا.

لم يلبث أن وقعـت روسيا والنمسا محـالفة دفاعية هجومـية (مايو ١٧٥٧) وانضمت السـويد إلى هذا التحالف الكبـير الموجه ضد بروسـيا (مارس ١٧٥٧)

وتحولت الأمور بشكل قاس ضد فردريك الثانى فى مختلف الميادين حتى فى هانوفر التى كان يعتمد عليها إلى حد كبير. فقد اجتاحت الجيوش الفرنسية هانوفر وأرغمت دوق كمبرلاند على عقد هدنة فى سبتمبر ١٧٥٧ هى أقرب إلى الاستسلام منها إلى الهدنة. وغزا جيش روسى بروسيا الشرقية فى أغسطس (١٧٥٧)، واستولت القوات النمساوية على برلين فى أكتوبر من نفس تلك السنة.

لقد أصبح موقف فردريك الثانى غاية فى الحرج، وسعى إلى إنقاذ نفسه وبلاده بالوصول إلى تفاهم مع لويس الخامس عشر وإحياء ما كان بين بروسيا وفرنسا من تحالف قديم، ولكن دون جدوى، ولم يعد أمام فردريك الثانى إلا أن يخوض المعركة معتمدا على مقدرته وصلابة جيشه.

وفى روسباخ، فى نوفمبر ١٧٥٧ أحرز فريدريك انتصارا ضخما على الجيش الفرنسى، وبعد أسابيع قليلة أحرز انتصارا آخر رائعا على الجيش النمساوى فى موقعة ليوثن، واستطاع فريدريك بعد هذا أن يقف أمام القوى الكبيرة المحدقة به. وأن يهزم جيش روسيا فى زورندوف التى تعتبر أكثر معارك القرن دموية وضحايا.

كذلك تحسن الموقف فى الميدان الذى كان يعمل فيه الجيش الإنجليزى. فقد حمى الجيش الإنجليزى - الجناح الغربى لبروسيا - من أى هجوم قد يشنه الفرنسيون.

وليس معنى هذا أن فردريك كان قادرا على أن يتحول إلى الهجوم وإلى التوسع على حساب جيرانه الكبار. فلقد كانت هناك أخطار كبيرة لا تزال تهدد بروسيا تهديدا مباشرا. ففى نفس العام الذى انتصر فيه فردريك الثانى فى «زورندورف» قام الجيش السويدى بغزو (بومبرانيا)، كما أحرز الجيش النمساوى انتصارا على البروسيين فى (١٧٥٩) فى موقعة هشكيرش فى ساكسونيا.

لقد كانت بروسيا - مهما كانت الأوضاع - فى متناول جيوش الأعداء وكانت الحرب من جانب دولة كبرى يبلغ تعدادها تسعين مليونا ضد بروسيا التى لا تزيد

إلا قليلا عن خمسة ملايين نسمة. ومن ثم كان فى استطاعة أعداء بروسيا أن يعيدوا بناء جيوشهم، وإنزال الجديد منها إلى حومة الوغى.

ولكن بالنسبة لبروسيا، كانت الطاقة البشرية فيها محدودة. وحتى إذا تمكن فريدريك من تجييش جيش جديد ليحل محل القوات الكثيفة التى خسرها خلال القتال الذى دار ١٧٥٦/ ١٧٥٧ فإنه ما كان ليستطيع أن يعوض خسارته فى زهرة شباب الجيش البروسى التى فقدها خلال معارك تلك السنوات الأولى من الحرب. لقد حافظ فريدريك على مستوى قواته رغم الخسائر الكبيرة التى نزلت به، وظلت له مكانته كصاحب جيش رهيب، ولكن فى الحقيقة لم يعد الجيش الجديد قادرا على أن يلبى حاجات فريدريك وبروسيا مثلما كانت عليه الحال من قبل.

وخلال ١٧٥٩/ ١٧٦٠ بدا واضحا أن جيش فردريك - الذى هبط تعداده إلى الثلث - لا يستمر فى القتال على تلك الصورة أمام جيوش كثيفة يمكن هزيمتها، ولكن يمكن أن يقود غيرها إلى الميدان. حقيقة كان الإنجليز يقدمون إليه مساعدات عسكرية كبيرة، ولكنها لم تكن كافية لمواجهة احتمالات الحرب وتطوراتها المضطربة.

بلغت متاعب ومخاوف فردريك أوجها عندما هزمه الجيش الروسى فى معركة «كدرسدورف» (أغسطس ١٧٥٩). حتى أنه كتب إلى وزيره فنكنشتين:

«. . . إننى لأعتقد أننى فقدت كل شىء. ولن أبقى على قيد الحياة لأشاهد خراب بلادى».

ولكن الحقيقة أنه كانت لا تزال أمام فردريك الثانى فرصة لاستعادة مكانته. وأكبر فرصة كانت تخدم فردريك هى أن أعداءه النمساويين والروس كان كل منهم يشك فى نيات الآخر، وقد تصاعدت هذه الشكوك لدى القائد الروسى سالتيكوف عندما كانت القيصرة إليزابيث تحتضر ووضعت الأمور فى يد الدوق الكبير بطرس المعجب بفردريك. ولهذا لم يتابع سالتيكوف تحركاته بعد انتصاره الكبير فى

«كندرسدورف» فأعطى الفرصة لفردريك الذى انتهزها ووضع يده على معظم ساكسونيا.

وفى نفس الوقت كانت الحكومة الفرنسية قد أدركت عظم تعهداتها إزاء النمسا وصغر العائد عليها من وراء تلك الحرب المكلفة، فدخلت فى مفاوضات جديدة مع النمسا وانتهت المفاوضات بمعاهدة فرساى الثالثة (مارس ١٧٥٩) التى خفضت التزامات فرنسا إلى النصف عسكريا وماليا.

ولعب القدر دوره كذلك فى إنقاذ فردريك من جيرانه العمالقة، فقد ماتت إليزابيث - قيصرة روسيا - فى ٥ يناير ١٧٦٢ واعتلى الدوق العرش باسم (بطرس الثالث) الذى أمر على الفور بعقد هدنة مع فردريك الثانى، ولم يلبث أن عقد الصلح معه وسحب جيوشه من بوميرانيا وغيرها من أراضى بروسيا. ولم يلبث أن عقدت السويد الصلح مع بروسيا فى مايو ١٧٦٢.

حقيقة، لا يكاد فردريك الثانى يتنفس الصعداء لقى بطرس الثالث مصرعه لتعتلى العرش القيصرة كاترين الثانية الطموحة، وهذه التطورات وقعت فى وقت كانت فيه قوة الإمبراطورية النمساوية قد ضعفت ولم يعد فى استطاعة ماريا تريزا أن تتابع هذه الحرب المكلّفة وأصبح من المستبعد أن تستعيد سيليزيا من بروسيا.

أدت هذه الظروف إلى أن تتجه دول أوروبا إلى التفاوض وإلى عقد الصلح. وتم ذلك فى إتفاقية هبرتسبورج فى ١٥ فبراير/ شباط ١٧٦٣ التى أعادت الأمور إلى ما كانت عليه قبل وقوع الحرب. فعادت ساكسونى - التى كان فردريك يطمع فى جزء منها - إلى حاكمها الأول، ولكن دون تعويض له عما أصيبت به هذه الإمارة من تخريب مروع خلال المعارك العديدة التى دارت على أرضها خلال تقدم الجيوش الحليفة والمعادية. وأما سيليزيا فظلت ضمن مملكة بروسيا، وظلت بروسيا ـ تحت حكم فردريك الثانى وحتى مماته فى ١٧٨٦ ـ إحدى دول أوروبا الكبيرة.

فى ١٧٦٢ انتهى الحلف البروسى - الإنجليزى ـ أيضا. فلقد كان إيرل

بيوت ـ صاحب النفوذ على ملك إنجلترا الشاب جورج الثالث ـ مصرا على ضرورة إخراج إنجلترا من الحرب فى ألمانيا. وخاصة فى أعقاب إعلان إنجلترا الحرب على أسبانيا فى يناير ١٧٦٢. بل لقد ذهب« إيرل بيوت» إلى حد الاتصال بماريا تريزا بقصد إحياء التحالف القديم بين النمسا وإنجلترا، وأثار«بيوت» غضب فردريك عندما لوح الأول بنيته فى الضغط على فردريك من أجل إرغامه على تقديم تنازلات أرضية لأعدائه فى مقابل عقد الصلح. كذلك كانت هناك معارضة متصاعدة من جانب الإنجليز للاستمرار فى حرب كسبتها إنجلترا فى المستعمرات حيث سيطرت إنجلترا على المستعمرات الفرنسية فى كندا، وعلى ما كان لدى فرنسا من معاقل فى الهند. ومن ثم فاستمرار إنجلترا فى الحرب لن يقدم مكاسب جديدة تعوض إنجلترا عما تنفقه على الحرب من أجل بروسيا.

ومن ناحية أخرى لم يكن فردريك بالملك الذى تضحى من أجله إنجلترا دون مقابل. فقد كان خلال بعض مراحل الحرب مستعدا لأن يضرب عرض الحائط بمصالح حليفته إنجلترا. كما كان يقدم عروضا لعقد صلح منفرد مع خصومه من وراء حلفائه الإنجليز. وكان هذا واضحا عام ١٧٥٧.

ثم إن العلاقات الوثيقة التى أقامها فردريك الثانى مع القيصر بطرس الثالث على حساب الدنمرك- التى كان يطمع فردريك فى أن يستولى على مقاطعتى شلزويج وهولشتين- أثارت سياسيى إنجلترا حيث إن مثل هذه الأطماع لم تكن تتمشى مع طبيعة علاقاته مع بريطانيا. وخشيت الحكومة البريطانية من أن يستخدم فردريك الثانى الأموال التى تقدمها الخزانة الإنجليزية إليه فى تمويل حرب يشنها فردريك ضد الدنمرك، أو فى أن يتابع تلك الحرب التى طال أمدها ضد النمسا، وبذلك انفرط عقد التحالف الإنجليزى البروسى.

أدت تلك الظروف إلى توقف الحرب فى كافة الميادين، وكذلك بين فرنسا وإنجلترا، وانتهت بعقد صلح باريس ١٧٦٣ الذى اشتركت فيه كل من هاتين الدولتين إلى جانب أسبانيا ونص هذا الصلح على ما يلى:

١ ـ بالنسبة لإنجلترا تحصل على كل كندا ونوفاسكوشيا ورأس بريتون كما حصلت إنجلترا على السنغال فى إفريقية وعلى جرينادا وسان فنسين والدومنيك وتوباجو فى جزر الهند الغربية ومينورقة فى الحوض الغربى للبحر المتوسط، كما حصلت على فلوريدا الأسبانية. وبذلك تكون إنجلترا قد خرجت من الحرب وقد ربحت مستعمرات شاسعة فى العالم الجديد، ولو أضفنا إلى هذا أنها أصبحت صاحبة اليد العليا فى الهند ـ بعد طرد الفرنسيين من معظم معاقلهم ـ لتبين كم أصبحت عليه تلك الإمبراطورية من الاتساع.

٢ ـ أما فرنسا فقد خسرت معظم مستعمراتها، ولكنها احتفظت بلويزيانا، وببعض المواقع الصغيرة المحاطة بالإنجليز فى الهند. مع حقوق الصيد فى نيوفوندلاند.

٣ ـ وإما أسبانيا فقد خسرت فلوريدا، ولكنها استردت هافانا ومانيلا.

وإذا كانت حرب السنوات السبع التى قوضت الخزينة الفرنسية، ووجهت ضربة قاسية للملكية الفاسدة ولطبقة النبلاء الجوفاء وأضاعت على فرنسا مستعمراتها ومهدت بذلك للثورة الفرنسية، فقد مهدت حرب السنوات السبع كذلك لثورة سكان المستعمرات الإنجليزية فى أمريكا الشمالية وتحولت هذه الثورة إلى حرب الاستقلال الأمريكية.

وهكذا فى أواخر القرن الثامن عشر كانت أوضاع أوروبا ـ من مختلف الجوانب ـ قد تغيرت عما كانت عليه فى مطلع عصر النهضة، ليس فقط من حيث ظهور دول جديدة، مثل الأراضى المنخفضة وروسيا وبروسيا، ولكن كذلك من حيث النمو الكبير فى القدرات الاقتصادية والعسكرية لبعض الدول وتفوقها على دول كان لها المكان الأول فى أوربا.

فإنجلترا تحولت من دولة قومية إلى إمبراطورية مترامية الأطراف من العالم الجديد إلى العالم القديم، وكانت صاحبة أكبر أسطول محيطى، وتفوقت بذلك على أسبانيا والبرتغال وفرنسا وهولندا (الأراضى المنخفضة).

حقيقة أدت الثورة الأمريكية إلى استقلال الولايات المتحدة الأمريكية عن (الدولة الأم) إنجلترا ولكن المستعمرات الأخرى - مثل (كندا) و (الهند) - كانت تقدم لإنجلترا مجالات استثمارية واسعة النطاق، امتدت حتى الصين وبدأت تخترق الشرق الأوسط.

على أن الثورة الصناعية التى ظهرت أول ما ظهرت فى إنجلترا فى أواخر القرن الثامن عشر هى التى دفعت بالتفوق الإنجليزى إلى مراحل عليا تجلت خلال القرن التاسع عشر.

أما فرنسا التى بهرت العالم بما أحرزته من تقدم حضارى خاصة فى عهد لويس الرابع عشر، فقد توالت عليها المحن العسكرية خلال عهد هذا الملك وخليفته لويس الخامس عشر، وأصبحت أوضاع فرنسا الاجتماعية والإدارية والاقتصادية فضلا عن الفكرية تتطلب تغييرا جوهريا.

وإلى الشمال من فرنسا كانت دولة (الأراضى المنخفضة) التى تميزت بنشاط استعمارى واسع لم يكسر شوكته إلا منافستها لإنجلترا، ولقد عانت الأراضى المنخفضة كثيرا من موقعها بين دول كبيرة متضاربة المصالح. وكانت الأراضى المنخفضة فى القرن الثامن عشر تضم ما يعرف حاليا بهولندا وبلجيكا.

وفى أقصى الشمال كانت دولة السويد التى كانت تضم إليها حينذاك النرويج كانت لها مواقع قوية فى شمال ألمانيا لم تستطع الحفاظ عليها أمام الضربات التى وجهت إليها من روسيا وبروسيا. بل لقد أصيبت السويد فى أواخر القرن الثامن عشر بانقسامات داخلية مريرة أضعفت من مكانتها.

وفى شبه جزيرة أيبيريا كانت أسبانيا لا تزال تحتفظ بإمبراطورية واسعة فى أمريكا اللاتينية. ولكن أسبانيا كانت قد فقدت أيام عزها، وتعرضت لمحن عسكرية خاصة أيام حرب الوراثة النمساوية وحروب لويس الرابع عشر، الأمر الذى أفقدها الكثير من فعاليتها، ولكن ظلت من الدول الأوربية التى يحسب حسابها.

وأما البرتغال فقد فقدت بعضا من قدرتها وساعدها فى ذلك التحالف بينها وبين بريطانيا حتى لقد أصبح هذا التحالف أمرا تقليديا.

وظلت شبه الجزيرة الإيطالية مقسمة إلى العديد من الدويلات والإمارات المتنافرة. وكانت إيطاليا لا تزال مجرد تعبير جغرافى. وكانت للإمبراطورية الرومانية المقدسة اليد العليا فى إيطاليا.

وكانت الإمبراطورية الرومانية المقدسة ذات تاريخ ومكانة كبيرة تحت حكم أسرته الهابسبورج فى فيينا، وكانت تعانى من نمو الدول المجاورة ومن الضغط العثمانى فى البلقان حتى ضعفت الدولة العثمانية فأصبح البلقان منطقة تتنافس عليها روسيا والإمبراطورية الرومانية المقدسة على حساب الدولة العثمانية.

أما البلقان فكان ميدان صراع صليبى بين الدولة العثمانية والإمبراطورية الرومانية المقدسة وكانت روسيا قد تولت هى الأخرى مسئولية تقويض الدولة العثمانية وكذلك إيران.

ولم يكن فى الشرق الأقصى من دولة على مستوى الحضارة الغربية، فالإمبراطورية الصينية كانت تتقلص وتتدهور بينما كانت اليابان لا تزال فى عصرها الإقطاعى. وكانت بلاد دولة الشرق الأقصى لا تزال غير قادرة على تكوين صورة واضحة عن العملاق الأوربى الذى كان يتهيأ بقوة ليفرض نفسه ـ عندما تسنح الفرصة ـ على الشرق الأقصى.

وبصفة عامة نمت إمكانيات أوربا الاقتصادية وتزايدت أعداد السكان وتطورت أساليب البحث، وأدى ذلك إلى كشوف علمية واسعة النطاق فى مختلف المجالات، ونمت الحركة الأدبية والفنية والموسيقية وأصبحت أوروبا تعنى الحضارة الحديثة المتقدمة.

وترتب على كل هذا نمو حجم التجارة المحلية والتجارية العالمية وما تبع ذلك من استخدام نظم جديدة مالية، جعلت عملية انتقال رءوس الأموال وتداولها

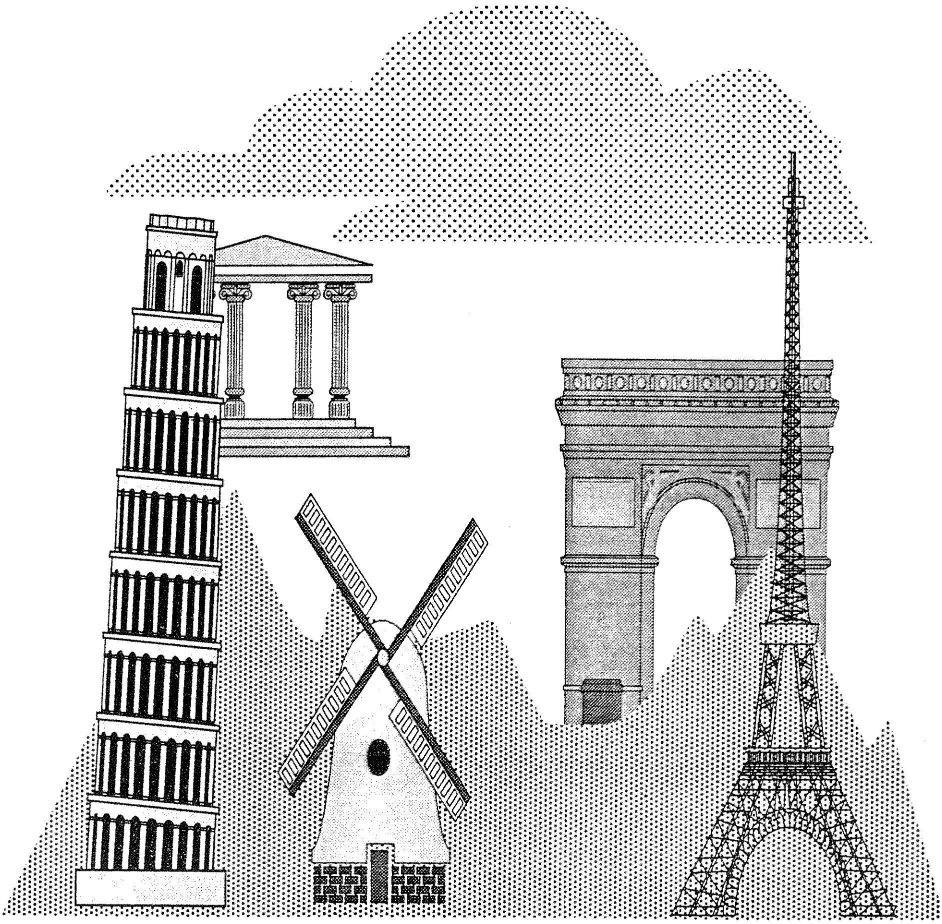
تتمتع بنوع من السرعة والسيولة جعلتها هى المتحكمة فى أسواق النقد الدولية فى عصر كانت فيه الشركات الكبرى تنمو بسرعة وتتحكم فى التوجه السياسى.

وإذا ما ألقينا نظرة سريعة على الفكر الفلسفى فى القرن الثامن عشر فإنها تقودنا بسرعة إلى القول بأن الفلسفة بلغت مركزا رائعا لا نزال متأثرين به حتى الآن. وهذا الفكر الفلسفى ما هو إلا جزء من تيار فكرى مجدد ظهر فى مختلف المجالات، حيث ظهرت مؤلفات وموسوعات ونظريات وضعت العالم على طريق تطور جوهرى وقعت أحداثه المعقدة فى القرن التاسع عشر.

وإذا كانت هناك نقاط تحول كبرى رئيسية فهى تلك الثورة الصناعية والكشوف العلمية العديدة واستقلال الولايات المتحدة الأمريكية والثورة الفرنسية فلقد غيرت تلك التطورات من وجه أوروبا.

الفصل الثالث عشر

الثورة الفرنسية ونابليون



إن ظروف وأسباب الثورة الفرنسية من الكثـرة، والتعدد، والتعقد والتشابك مما يجعل من العسير عمليا حصرها على أساس عوامل وأسباب خارجية، وأخرى داخلية، أو أسـباب سياسية وأخـرى اجتماعية، وثـالثة اقتصادية، ورابـعة دولية، وخامســة فكرية، ومع هذا عند محـاولة كشف الظروف والأسبـاب التى أدت إلى نشوب الثورة الفرنسية فى ١٧٨٩ بالذات نجد أمامنا مجموعة من العوامل الرئيسية يمكن أن تصنف فى مجموعات وهى:

١ ـ طبيعة التطور الفكرى لفرنسا خلال القرن الثامن عشر.

٢ ـ العلاقة بين مختلف الفئات الاجتماعية.

٣ ـ العلاقة بين الملكية والحكومة من جهة والشعب من جهة أخرى.

٤ ـ الظروف الاقتصادية على اعتبار أنها أبرز القوى المحركة للأزمات.

٥ ـ التوازن الدولى وعلاقات فرنسا بـالدول الكبرى الأخرى.. وبالتكتلات الأوروبية.

والفكر التقدمى غالبا ما يكون سابقا علـى نشوب الحركات التقدمية نفسها، ولقد انطلق الفـكر التقدمى فى فرنسا قـويا خلال القرن الثامن عشـر لا فى مجال الإصـلاح السـياسى والاقتصادى، ورفع شـأن الفرد، وإنما كذلك من حيث دفع العالم الأوربى إلى أفكار عالمية من أجل خير البشرية جمعاء.

وإذا كانـت أفكار وروائع فـولتيـر، ومونتـسيكـو، وروسو، هيـأت أذهان الفرنسـيين لإعادة النـظر فى حياتهم الـعامة، وفى علاقـة الفرد الفرنـسى العادى بحكومته، وفى مكانة فـرنسا الدولية، إلا أن هذه المؤلفات الراقية الفـكر العميقة التحليل لايـدرك حقيقة قيمـتها إلا فئات محدودة مـن المثقفين الفـرنسيين. ولا يستطيع العامة المهضومى الحقـوق أن يقدروا قيمة التحول من الحكم الأتوقراطى

إلى الحكم البرلمانى أو شبه البرلمانى إلا بمقياس إشباع حاجاتهم الاقتصادية وآمالهم وتطلعاتهم الفرنسية.

فلقد كانت مؤلفات مونتسيكو، وانتقادات فولتير اللاذعة لملكية البوربون، سابقة على الثورة الفرنسية، ومع هذا لم تتحرك الأمور فى اتجاه الثورة إلا بعد أن احتدت الأزمة الاقتصادية. وهذه الأزمة ليست فقط مرتبطة بخزينة الدولة، وإنما كذلك بالأفراد. وإن الطرفين (الدولة، والشعب) وصلا إلى حافة الإفلاس، أو تصوروا ذلك، حتى أصبحت أية أعباء جديدة مثيرة لأشد مشاعر القلق والمخاوف فى النفوس، من أعلى المستويات فى دوائر البلاط الفرنسى، إلى الفرد العادى الفرنسى.

ولا يعنى هذا أنه كان من الممكن تجاوز الأزمة الاقتصادية الناشبة فى ١٧٨٩ بطريقة ما، كأن يسهم النبلاء فى دفع ضريبة أعلى قليلا، أو أن تسهم الكنيسة لإنقاذ الخزينة، وكانت للكنيسة أموال وعقارات ضخمة معفية من الضرائب. ولكن المشكلة الاقتصادية ليست فى حد ذاتها هى الدافع الذى أدى إلى الثورة بقدر ما كانت القشة التى قصمت ظهر البعير.

إن جوهر المشكلة هو أن الاتجاه العام الذى كان سائدا هو ضرورة إعادة النظر فى أوضاع البلاد الداخلية بالذات، وإنها أوضاع لا يمكن أن تليق بشعب فرنسا العظيم. وهذه الأوضاع كانت مهزوزة فعلا بشكل شديد، وإن كانت ليست بمختلفة كثيرا عن أحوال بلاد القارة الأوربية - باستثناء إنجلترا - ولكن الفكر التقدمى فى فرنسا كان سباقا وقوى التأثير فى شعب أصبح مقتنعا تماما بإعادة النظر فى أسلوب حياته، وعلاقة الأفراد بعضهم ببعض، وعلاقة الشعب بالحكومة. ومن ثم كانت النظم القائمة المهزوزة فى طريقها إلى الزوال أو بالأحرى على يد شعب أصبح غير مؤمن بها ولا يرى فيها النموذج الذى يتطلع إليه كفرنسى.

كانت فرنسا تحتل المكانة الأولى فى عالم التقدم الفكرى فى اتجاه إنسانى واضح. وهذا الاتجاه الإنسانى سيكون له أثره الكبير فى رفع مكانة الفرد الفرنسى

كإنسان، ورفع فرنسا إلى تزعم حركة تحرير الفرد من مظاهر الطغيان التى كان يزخر بها العالم حينذاك. ومع أن المعانى التى وردت فى شعر فولتير ليست بالجديدة ولكن خطورتها كانت فى أنها خاطبت عواطف الفرنسى مباشرة فى ثوب إنسانى راق. بل لقد كان فولتير لاجئا لدى فردريك الأكبر ملك بروسيا، وهو أحد أقطاب الملكية المستبدة المستنيرة، ومع هذا كان نقده لملكية البوربون فى فرنسا يحث الفرنسيين على إعادة النظر فى الأسلوب الاستبدادى الذى يحكم به هؤلاء البوربون فرنسا منذ عدة قرون طويلة.

وهو فى دفاعه عن حق الإنسان فى أن يعيش بسلام بعيدا عن يد البطش الكنسى المتعصب، أيا كان مذهب الفرد، مس وترا حساسا شديد الرنين قادرا على لفت الأنظار إليه، وأعنى به أن الشعب الفرنسى ـ فى المدن بالذات ـ قد انتقل تماما من عصر التعصب المذهبى الدينى إلى عصر التحول نحو العلمانية. وبالذات كان النقد الموجه من جانب فولتير للكنيسة فى فرنسا ولرجالها يثير التحدى الكبير فى نفوس أهل المدن، ويدفعهم إلى تعميمات قاسية فى حق الملكية والكنيسة، مع أن حقيقة الأمور كانت أقل مما تصوره المثقفون الفرنسيون إبان الثورة الفرنسية. ولكن الشيء الذى غرسته أشعار وكتابات فولتير هو أنه على الشعب الفرنسى أن يعيد النظر فى أوضاع تلك المؤسسات القائمة، السياسية والدينية، والاجتماعية وأن ينظر من زاوية أخرى زاوية الفرد الفرنسى الإنسان الذى يجب أن يحيا حياته الطبيعية دون تدخل تعصبى من جانب الكنيسة أو الحكومة. لقد كان فولتير يخاطب الشعب الفرنسى باسم الإنسانية ـ وهى روح العصر حينذاك. وبالتالى كان لكل ما يقوله أثره الكبير فى النفوس حتى ولو تغاضى عن بعض الأفكار السامية.

وبينما كانت أدوات فولتير فى الدعوة إلى إحداث تغيير فى أوضاع الشعب الفرنسى هى الشعر والنقد اللاذع، كانت الأداة التى استخدمها مونتسيكو صعبة الفهم على قدرات الشعب الفكرية ولكن كتابه «روح القوانين» لقى ترحيبا كبيرا ورائعا لدى الفئات المثقفة الفرنسية بالذات، فإن «روح القوانين» محاولة لوضع نظم الحكم اللائقة بالشعب فى إطار واضح وهو متأثر بالدستور الإنجليزى، وهو

لا يعطى نظام حكم جديد، وإنما يركز على أساسين فى العلاقة بين الشعب والحكومة:

١ـ تقييد عمل الحكومة حتى لا تتصرف فى أمور البلاد وكأنها ملك كبير للبلاده.

٢ ـ فصل السلطات :التشريعية والتنفيذية والقضائية بعضها عن بعض.

وهذان الأساسان هما دعوة أخرى قوية للمثقفين بأن يعيدوا النظر فى شكل الملكية البوربونية الحاكمة التى كانت تتصرف فى أمور البلاد وكأن الملكية البوربونية هى الدولة، أو كما قال لويس الرابع عشر (أنا الدولة).

وكتاب «العقد الاجتماعى» لروسو، وغيره من مؤلفاته، كان دعوات صريحة بأن يعاد النظر فى أوضاع البلادو وأن تطلق حريات الفرد، على اعتبار أنه إنسان يمكن أن يدرك بالتجربة والخطأ والممارسة الفعلية الحرة، ما يجب أن يقوم به وأن التحكم فى الإنسان هو من معوقات تطوره التقدمى. ومع هذا لم يعترض على ظهور دكتاتور لمواجهة أزمة معينة، ومع ذلك فالاتجاه الفردى الإنسانى الديمقراطى واضح فى كل كتاباته، وهو اتجاه يدفع بقوة الشعب نحو إعادة النظر فى علاقته بالحكومة، وفى أسلوبه فى الحياة.

وفى القرن الثامن عشر كانت هناك حركة هادئة، عملية، معقدة، ولا تعنى كثيرا بالتطلعات العاطفية، وإنما تضع فى اعتبارها المقومات الاقتصادية على أساس أنها هى المصدر الحقيقى للقوة، وأن الإصلاح الاقتصادى المقترن بإطلاق قدرات العامل هو الذى سيعيد للشعب الرخاء والرفاهية، على اعتبار أن العامل هو المنتج الحقيقى وأن القيود المفروضة على نشاطه يعوق تقدمه وتقدم الإنتاج، على أن هناك مسئوليات حكومية كبرى فى مجال التعليم والتجارة والضرائب فيجب أن يكون هناك تعليم عام، وضريبة أرض موحدة، وحرية تجارية.

وهنا حقيقة هامة، وهى أن تنفيذ تلك الاتجاهات ما كان ليتم على يد حكومة فرنسا قبل الثورة؛ لأنها اتجاهات ضد القوى الحاكمة، أو المرتبطة بالحكومة، وضد التركيب التقليدى للمجتمع الفرنسى حينذاك من حيث إنه مقسم

هناك شعور بالحاجة إلى حماية الملكية الفرنسية من خطر ما داخلى، حيث إن كل تلك العوامل التى أدت إلى الثورة الفرنسية كانت غير واضحة ولم تنسجم فى خطر ماثل إلا فى ١٧٨٩.

ومع أن النظم الاجتماعية فى فرنسا كانت شبيهة بتلك التى كانت تسود فى الدول الأوربية الأخرى وخاصة الإمبراطورية النمساوية، بروسيا، أسبانيا، البرتغال والدويلات الإيطالية، إلا أن الفارق الهام هو أن الفرنسى كان أكثر شعورا بالغبن الواقع على الشعب على يد الملكية المطلقة وعلى يد الطبقة المميزة. وأدرك عن حق أن بعض الأعباء الملقاة على الفلاح الفرنسى مستمدة من تراث العصور الوسطى عندما كان للنبيل فضل على الفلاح بدفاعه عنه وحمايته. أما فى العقود الأخيرة فالنبلاء يتمسكون ببعض الضرائب يحصلونها من الفلاحين لا لشىء إلا أنها مقررة منذ القديم على الفلاح، بل كان الفلاحون مرغمين على العمل فى ضياع النبلاء.

وكان مما يزيد الهوة بين الفلاح والنبيل أن الأخير لم يظهر بمظهر العطف على الأول. بل ما كان النبيل يعيش فى ضيعته، وإنما يهمه الحصول على أكبر مبلغ من إيجارات الأرض بغض النظر عن أى اعتبار. بعكس معظم النبلاء الإنجليز الذين كانوا يعيشون فى ضياعهم بين الفلاحين يكتسبون ولاءهم وإن كانوا مثل النبلاء الفرنسيين يبتزون جهد الفلاح.

ثم هناك الامتيازات الضرائبية التى أعفى منها أكثر الطبقات إسرافا وعدم إنتاج، أى النبلاء ورجال الدين، بينما ألقيت أعباء الضرائب على الفلاحين إلى جانب ضرائب إقطاعية لا هدف من ورائها سوى إثراء النبلاء، وفرض السخرة على الفلاحين فى ضياع النبلاء.

وإنه لما يدفع النفس إلى التمرد على الأوضاع القائمة، أن يجد الإنسان صعوبة فى الحصول على بعض الضروريات الملحة (الطعام). فتصبح أسعارها غالية للغاية،ولكن لا يستطيع الفرنسى أن يستغنى عنها أبدا ويوميا فكان هذا يملأ النفس حقدا وتمردا على الحكومة ويجعل الأفراد مستعدين للمشاركة فى عمل ما

ضد هذه الحكومة خاصة إذا كانت هناك آمال واضحة فى التخفيف من حدة تلك الضرائب والاحتكارات.

وكان أهل المدن بصفة خاصة أكثر الناس إدراكا عن قرب للامتيازات الطبقية، والمشكلات الاجتماعية والاقتصادية التى تنزل على رءوس الطبقة الثالثة (العامة) دون غيرها. كانت طبقة النبلاء ورجال الدين واضحة فى إسرافها فى المدينة والريف على حد سواء. ولكن احترام النبلاء ورجال الدين كان قد قل كثيرا جدا فى المدينة عنه فى الريف بسبب المباذل التى حطت من قدر هذه الطبقة المميزة.

ومن ناحية أخرى، كان نظام الطوائف الحرفية يحول دون انطلاقة تجارية على ذلك الشكل الذى كانت تتمتع به الفئات التجارية الإنجليزية. فكان جمود نظام الطوائف، وعدم القدرة على تعديله، مع الشعور بأن هناك من فئات الشعب الأخرى من يعيش فى رفاهية على حساب الشعب الكادح، كل هذا كان يعد النفوس للتحرك لتغيير النظام الاجتماعى القائم.

ثم إن فرنسا التى كان يحكمها لويس السادس عشر، كانت فى حقيقة الأمر عبارة عن مقاطعات متعددة كل منها لها جماركها الخاصة بها، الأمر الذى جعل القدرات التجارية لدى الشعب الفرنسى مقيدة تقييدا شديدا، دون أن يجد التجار فى الحكومة أداة لإعادة النظر فى هذه القيود وإزالتها.

وكانت فرنسا قد استنفدت الكثير من طاقتها خلال حروب لويس الرابع عشر، ولويس الخامس عشر، دون أن تحرز غير المجد العسكرى فى ساعات المعركة، والهزيمة فى نهايات الحروب كما هو متمثل فى معاهدة أوترخت ١٧١٣، ومعاهدة باريس ١٧٦٣. بينما استطاعت بريطانيا أن تخرج من كل حرب وقد حصلت على مساحات واسعة من المستعمرات، على حساب فرنسا بصفة خاصة. حقيقة حاربت فرنسا ضد إنجلترا بنجاح خلال حرب الاستقلال الأمريكية. وأدت تلك الحرب إلى أن تفقد إنجلترا جانبا كبيرا من مستعمراتها الأمريكية، وحرمان الأسطول البريطانى من أن يصبح هو المنفرد بالسيادة على

المحيطات. ولكن ذلك لم يستمر إلا لفترة قصيرة، إذ سرعان ما استعاد الأسطول البريطانى تفوقه فى المحيطات والبحار. ولا شك أن من الأسباب الرئيسية التى أدت إلى ذلك هو:

١ ـ أن الدولة الأوربية لم تعن بالإفادة من الضربة البحرية التى وجهت لإنجلترا خلال حرب الاستقلال الأمريكية، أو بالأحرى لم تستطع الإفادة من هذه الفرصة فكان ذلك فرصة ذهبية للإنجليز. إذ أصبح أمامهم فسحة من الوقت لإعادة تنظيم سلاحهم البحرى دون إزعاج كبير من أعداء بريطانيا. ولم تشعر دول أوروبا بالتغيير الذى حدث فى البحرية البريطانية؛ لأنها لم تتأثر به مباشرة. ولكن فرنسا هى التى تأثرت مباشرة بنمو البحرية البريطانية وتفوقها بل إن فرنسا جعلت الدولة الأوروبية الأخرى فى حاجة إلى هذا الأسطول البريطانى، وذلك عندما هددت الثورة الفرنسية ملكياتِ أوربا فتحالفت مع إنجلترا ضد فرنسا الثورة.

٢ ـ إن بريطانيا كانت فى ثورة صناعية أو انقلاب صناعى، استوعب الكثير من قدراتها الإنتاجية، كما تمكنت من الإفادة من مستعمراتها بأساليب أكثر قوة. فكان أن تدفقت الثروات على بريطانيا فى نفس الوقت الذى كانت فيه بريطانيا تحارب بقوة «فرنسا الثورة» ونابليون بعد ذلك. وهكذا بينما كانت بريطانيا تستمد قوتها الاقتصادية من مستعمراتها كانت فرنسا تستمد قوتها من ذاتيتها هى. وكان الأسطول البريطانى درع الانقلاب الصناعى والتجارة البريطانية خاصة مع المستعمرات. ولم تدرك الدول الكبرى أن ميزان القوى فيما وراء البحار قد اختل بذلك اختلالا جوهريا. وأن بريطانيا أصبحت هى المتفوقة فى الطرق العالمية المؤدية الى إفريقية وآسيا والأميريكتين. ولم تدرك الدول الكبرى هذا، بينما أدركت بسرعة أن فرنسا القوية التى تسيطر على البلجيك ـ مثلا ـ هى السبب فى الإخلال بالتوازن الدولى. والأمر الذى جعل فكرة الإخلال بالتوازن الدولى قاصرة على توازن القوى فى داخل القارة الأوربية بغض النظر عما هو حادث فى المستعمرات وفيما وراء البحار. بل فى خلال حروب الثورة الفرنسية أصبحت هذه الإمبراطورية البريطانية الواسعة، وذلك الانقلاب الصناعى، فى نظر الأوتوقراطيات الأوربية المحاربة للثورة، نعمة كبرى تتيح لهم فرصة القضاء على الثورة الفرنسية فى عقر دارها.

٣ ـ لقد كانت الدول الكبرى الأوربية ـ سواء البحرية أو الداخلية ـ مشغولة بمشكلات أوربية عويصة للغاية، وتجعل الحكم فى أى صراع مقبل للجيش البرى لا للأسطول البحرى. ومن أهم تلك المشاكل التى شغلت أذهان كل من روسيا وبروسيا والإمبراطورية الرومانية المقدسة (النمسا) موضوع اقتسام بولندة والتوسع على حساب الدولة العثمانية.

فلقد استطاعت روسيا ـ منذ أيام بطرس الأول ـ أن ترتفع بسرعة إلى مصاف الدول الكبرى، وأن تتوسع بنجاح على حساب الدولة العثمانية وتبلور ذلك فى معاداة كوجك قينارجى ١٧٧٤، واندفعت نحو التوسع على حساب بولنده التى كانت تسير نحو تدهور سريع فى مختلف المجالات السياسية والاقتصادية والعسكرية. فكان ذلك فرصة واسعة لكى تتطلع جاراتها الى التوسع على حسابها. ولم يكن الهدف من التوسع على حساب بولنده هو مجرد ضم أراض جديدة وإنما كان للمحافظة على التوازن الدولى، فلقد كانت كل من بروسيا والنمسا تخشيان كل الخشية ان تسيطر روسيا على كل بولنده، إذ ستصبح روسيا بذلك قادرة على الوثوب على قلب الإمبراطورية الرومانية المقدسة بسهولة. حقيقة كانت مستويات العكسرية الروسية أقل من مستويات العسكرية البروسية او النمساوية، ولكن اتساع الخليفة البشرية والاقتصادية لروسيا تجعل روسيا مرهوبة الجانب. لقد بدت روسيا كعملاق قد فغر فاه فى اتجاه أوربا، أما إنجلترا فقد كانت عملاقا أيضا ولكنه كان يفغر فاهه فى اتجاه المستعمرات وما وراءها لا نحو أوربا. ولهذ سنجد مخاوف أوربا من نمو روسيا أو من نمو فرنسا أكثر من مخاوفها من نمو إنجلترا.

تلك هى الظروف العامة الأوربية التى سبقت نشوب الثورة الفرنسية فى ١٧٨٩. وكما يبدو أنها ظروف تساعد على نشوب حركة إصلاحية. أو ثورة من تلك الثورات المطالبة بالإصلاح وتغيير نظام الحكم فى دولة معنية دون أن تتحوك كما حدث للثورة الفرنسية صوب العالمية. ولكن الحقيقة هى ان الثورة كان لابد من ان تقوم ان آجلا او عاجلا. فى الوقت الذى تتوافر فيه الظروف المهيئة لها.

فقد كانت الثورة فى الأذهان تنتظر الحادثة التى تجعل كل العيون والأذهان تلتفت إليها وتتجمع فيها وتنطلق منها. ولكن لماذا وقعت الثورة فى ١٧٨٩ بالذات؟

إن عام ١٧٨٩ لا يختلف كثيرا عن الأعوام السابقة له. فلم تحدث فيه أزمة اقتصادية جعلت الفلاح يموت جوعا، والعمال يتساقطون هنا فى مصانعهم، حقيقة كانت هناك مجاعات فى القرى، قبل ١٧٨٩، وكان هناك فقر مدقع بين سكان المدن، وكانت هناك مشكلة الطعام. ولكن كل هذا كان موجودا فى ١٧٨٩ وقبل ١٧٨٩.

الواقع أن المجاعة لم تشتد، ولكنها وضعت الفقراء على حافة الانهيار، فهم لا يستطيعون التنازل عن شىء أو حتى قبول هذا الوضع الذى يمكن أن نعبر عنه بأنه وصل إلى الدرجة التى لا يستطيعون أن يسيروا صوب الموت هلاكا وجوعا أو فى حياة تعسة لا قيمة لها. وإنما أصبح لدى هؤلاء الفقراء اتجاه عام هو: لماذا لا يحاولون السير فى الاتجاه الصحيح وهو مواجهة القوى المسئولة عن الفقر لعلها تستطيع أن تحصل منها على شىء يقيم أودها. وعندما اشتدت الأزمة الاقتصادية وأصبحت الخزينة خاوية فى أعقاب حرب الاستقلال الأمريكية، وكان من المتعذر جدا على الحكومة أن تفرض ضرائب جديدة، حيث إن جميع فئات الشعب كانت غير مستعدة لأن تدفع المزيد من الضرائب. ومع أن طبقة النبلاء ورجال الدين كان فى إمكانهم أن يسهموا فى إنقاذ الخزينة بتقديم المبالغ المطلوبة. ولكن النبلاء ورجال الدين كانوا قد عزموا أيضا على عدم المساهمة فى خزينة الدولة على اعتبار أن دخلهم أصبح يمثل الحد الأدنى الذى لا يمكن أن يقبلوه. وإذا كانت الحكومة فى حاجة إلى أموال جديدة فعليها أن تفرض ضرائب جديدة على العامة.

ولقد حاولت حكومة لويس السادس عشر حل مشكلة فقر الخزينة عن طريق عدد من كبار رجال الاقتصاد الفرنسيين وعلى رأسهم ترجو وكالون ونكر. وكل منهم كان مخلصا فى محاولاته، بطريقته الخاصة، لإنقاذ الخزينة.

كان ترجو Turgot يريد إصلاح الجهاز الإدارى والمالى الحكومى، والحد من سلطة الكنيسة، وفرض ضرائب عادلة، وإطلاق حرية التجارة داخل فرنسا

وخارجها، وإعادة النظر فى امتيازات الطبقة المميزة، ولم يستطع ترجو أن يقوم بخطوة تنفيذية ما، ولكنه كشف أن إنقاذ فرنسا من الإفلاس وإصلاح أمورها إنما يجب أن يتم بواسطة قوة أخرى غير الحكومة الفرنسية وغير الملكية البوربونية الضعيفة التى يسيطر عليها كبار النبلاء ورجال الدين.

ولحرب الاستقلال الأمريكية نتائج على فرنسا سلبية وإيجابية، فإن فرنسا التى خرجت من حرب الاستقلال الأمريكية مرفوعة الرأس منتصرة على عدوتها اللدود بريطانيا، قد تأثرت ميزانيتها إلى درجة كبيرة بسبب النفقات الباهظة التى تكبدتها فرنسا خلال تلك الحرب. ومع أن الاقتصادى الفرنسى الكبير نكر Neck-er استطاع أن يجهز الأموال اللازمة لتمويل حرب الاستقلال الأمريكية إلا أن ذلك مجرد أساليب سطحية فقط لمواجهة أزمة معينة حتى إذا ما حاول "نكر" إدخال إصلاح إدارى صدر قرار عزله فى (١٧٨١). ولكنه ترك وراءه بيانا كشف مدى التدهور الذى أصاب الخزينة الفرنسية.

وكانت المحاولة الثالثة الجدية للتغلب على عجز الخزينة على يد كالون سببا فى فتح مجالات جديدة لم تكن متوقعة، حيث إنه كشف جوانب أخرى من عوامل الضعف الاقتصادى حين أكد أن المشكلة تكمن فى أن فرنسا مظهريا دولة واحدة، بينما هى فى الحقيقة عبارة عن «ولايات وأقطار منفصلة ذات إدارات مختلفة متنوعة، لا تعرف مقاطعاتها شيئا عن بعضها البعض، وبين أن هناك مناطق تتحمل أعباء ضرائبية باهظة وأخرى تكاد تكون معفاة. وانتقد بشدة الامتيازات على اعتبار أنها العقبة المنيعة ضد أى توازن فى توزيع الضرائب. وحيث إن الحل الفردى لن يجدى فليكن عن طريق هيئة عامة يكون لها القدرة على فرض رؤيتها لإنقاذ البلاد من الإفلاس على كل الأطراف حتى تلك المميزة.

ولهذا دعا كالون (مجلس الأعيان) وهو أشبه ما يكون بمجلس الدولة وكان هذا المجلس مؤلفا من أعضاء من الطبقة المميزة. وكان كالون يعتقد أنه بجمع مثل هؤلاء الأعيان، واطلاعهم على حقيقة الموقف المالى المنهار للدولة سيؤدى إلى أن يقترح هذا المجلس فرض ضرائب جديدة على طبقتهم المميزة القادرة على أن تسد هذه الطبقة العجز بإنقاص دخلها بنسبة بسيطة للغاية. ولكن هذا

المجلس فشل فى معالجة القضية المالية وتخلص منها بأن أشار إلى عقد «مجلس طبقات الأمة» على اعتبار أنه هو المسئول عن دراسة مثل هذه المشاكل المعقدة واقتراح الحلول اللازمة.

لقد كانت دعوة «مجلس الأعيان» إحياء لتقليد قديم وتوقف العمل به، وما كان هذا إلا لأن البحث عن إنقاذ لميزانية الدولة أصبح يتطلب الالتجاء إلى كافة الحلول والأساليب الممكنة، الحديثة منها والقديمة.

ولم يثر عقد وحل «مجلس الأعيان» أيه أزمة حادة، وإن أثار تساؤلا واستياء فى دوائر المثقفين وكبار رجال الدولة. وحيث إنه مؤلف من الطبقة المميزة، وإنهم رفضوا المساهمة فى إنقاذ ميزانية الدولة، فقد تطلعت الأنظار إلى مجلس أوسع نطاقا ويضم ممثلين عن كافة فئات الشعب حتى إذا ما انتهى الأمر بفرض ضريبة أو بإيجاد حل مناسب للأزمة المالية فإن الطبقة المميزة لم تكن وحدها هى الملتزمة بتنفيذ هذا الحل وإنما يكون معها ممثلو العامة الذين يمكن ـ من وجهة نظر الطبقة المميزة ـ أن يتحملوا العبء الأكبر من الضرائب الجديدة التى قد يقترحها مجلس طبقات الأمة. هذا من وجهة نظر الطبقة المميزة.

أما البرجوازية، المطالبة بإصلاحات جوهرية، وسكان المدن والفقراء فقد رأوا فى دعوة مجلس طبقات الأمة، فرصة رائعة لأن يحمل أبناء الشعب بأنفسهم فكرة الإصلاح وينفذونها. وكانت النفوس مهيأة لمثل هذه الانطلاقة، ولكن مما لا شك فيه كانت الدعوة إلى انتخاب «مجلس طبقات الأمة» فى حد ذاتها كفيلة بأن تثير فى الأذهان شتى الآمال: حكم الشعب لنفسه، الحكم النيابى البرلمانى، الإصلاح عن طريق الشعب، المساواة فى الأعباء.

وحيث إنه كان من المتبع أن تقدم كل دائرة عن طريق ممثلها إلى الحكومة بيانا بالشكاوى والأمانى والمقترحات. فقد ظهرت فى الفترة التى سبقت عقد «مجلس طبقات الأمة» مجموعة ضخمة من هذه البيانات. المطالبة بالحكم الدستورى أو بإصلاح ضرائبى على أساس أن يكون الرأى النهائى لممثلى الشعب عند فرض ضريبة جديدة. وفعلا تم تشكيل مجلس طبقات الأمة المكون من ثلاث

حجرات يجتمع فيها ممثلو الشعب الذين رأوا أن الفرصة قد واتتهم لإصلاح أحوال الأمة.

كان من المفروض أن تجتمع طبقات الأمة كل طبقة فى حجرتها، فواحدة للنبلاء، وأخرى لرجال الدين، وثالثة للعامة، ولما لم تضع الحكومة أى لائحة لنظام عمل المجلس، أصبح الأمر بيد المجلس وأصبح عليه أن يحدد الأسلوب الذى سيعمل به. فكان أن دب الخلاف بين رجال الدين والنبلاء من جهة، والعامة من جهة أخرى، حيث إن عدد الطبقة الأخيرة كان مساويا لعدد الطبقتين المميزتين. ومعنى التصويت على أساس عدد الحجرات فإن العامة لاشك سيخسرون نتائج التصويت باستمرار لأنهم سيصبحون بنسبة ١ ـ ٢ بعكس إذا أخذ التصويت على أساس أن المجلس كل متكامل وأن يكون التصويت حسب أغلبية الأعضاء ككل، أو بمعنى آخر هل تظل مقدرات فرنسا بيد الطبقة المميزة أم آن الأوان لأن يشترك ممثلو العامة فى الحكم. وهل سيظل «مجلس طبقات الأمة» مجرد مجلس استشارى أم أنه قد آن الأوان ليتحول إلى مجلس نيابى على مستوى العصر. أليس لجمهورية الولايات المتحدة الأمريكية مجلس نيابى، وهى جمهورية حديثة جدا؟ فلماذا لا يكون لفرنسا مجلس نيابى. . ولهذا كان إصرار ممثلى العامة قويا وثابتا ضد محاولات تذويبهم فى الطبقتين المميزتين (النبلاء ورجال الدين) وبقدر ما كان النبلاء ورجال الدين يخشون من تفوق العامة عليهم، كان ممثلو العامة متمسكين بأن يكون لهم الرأى فيما سيصدر من قرارات. كما كان رجال الدين والنبلاء يعتقدون ـ وكانوا على حق ـ أن من بين صفوفهم كثيرين يعطفون على مطالب ممثلى العامة، بينما العكس غير صحيح. بل لقد كانت أعداد ليست بالقليلة من ممثلى رجال الدين مستعدين للتعاون مع ممثلى العامة.

لم تعد المشكلة المالية هى محور الجدل وإنما أصبحت المسألة المطروحة هى: ألا يحق لممثلى العامة أن يعلنوا أنهم هم أصحاب الحق فى التحدث باسم الأمة؟ وكان هذا مخيفا للملكية، وللنبلاء. وحاول لويس السادس عشر أن يفرض مشيئته على المجلس. ولكن الأزمات سبقت إجراءاته. فقد أعلن ممثلو العامة أنهم سيستمرون فى عملهم من أجل وضع دستور للبلاد. واجتمعوا فى ملعب

التنس عندما وجدوا غرفهم فى «مجلس طبقات الأمة» غير مهيأة لعقد اجتماعاتهم. وتحد (العامة) التهديد الملكى باستخدام القوة. وأصبحت (الجمعية الوطنية) - وهو الاسم الذى أطلقه على أنفسهم ممثلو العامة - قوة لها أثرها فى توجيه الأمور فى مواجهة الملكية وأعوانها من النبلاء وكبار رجال الدين.

ولكن الجمعية الوطنية اتجهت بسرعة لتصبح أداة بيد قوتين أحدهما على جانب كبير من الذكاء واتساع الأفق، وهى البرجوازية فى داخل الجمعية الوطنية وخارجها، والثانية شعب باريس الذى ألهبت حواسه تلك الأحداث والبطولات التى قيلت عن تحدى ممثلى العامة للملكية والحكومة. وأصبحت باريس ومن ورائها فرنسا تسير فى تيارات متعددة:

أ - الجمعية الوطنية تدرس وضع دستور يرقى بفرنسا إلى أعلى مستويات الفكر العالمى والدفاع عن الإنسانية.

ب - الشعب الباريسى وقد سلح نفسه وجعل من نفسه درعا لممثلى العامة، ووقع تحت تأثير عقليات شديدة السخط دموية عنيفة.

جـ - الملك وبلاطه كان عنيفا فى معارضة ممثلى العامة، وهدد باستخدام القوة فأصبح بذلك هدفا للجمعية الوطنية وللشعب وأصبح البلاط ورجال الدين الكبار والنبلاء قوى معادية صريحة للجمعية الوطنية وللشعب.

وأصبح الموقف لا يحتمل هذا التطور، فالشعب والجمعية الوطنية أصبحا فى جانب والملكية والنبلاء فى جانب آخر. وكان الأسلوب الوحيد المتبقى للملكية هو استخدام الجيش. وفعلا بدأت الاستعدادات العسكرية من كل من الجانبين. وسرعان ما تحولت الأمور لصالح الشعب. إذ انضمت قوات من الجيش الفرنسى إلى «الحرس الوطنى» الذى تكون حديثا للدفاع عن حقوق الشعب، ووجهت البرجوازية الذكية جموع الشعب فى ١٤ يوليو إلى الباستيل رمز العبودية واللاإنسانية فاستولت عليه. فكان أول عمل عسكرى تقوم به جموع الشعب ضد رمز الاستبداد الملكى، وأثبت الشعب قدرته عمليا بأنه الجدير بأن يصرف الأمور بنفسه وبواسطة ممثليه. وأدرك الملك لويس السادس عشر أن

الخطر يكمن فى استمرار الصدام بينه وبين الشعب فلجأ إلى استرضائه عن طريق إعادة نكر إلى الوزارة، واعترف بقيمة سقوط الباستيل. ولكن كل هذا لم يعدل من وجهة نظر شعب باريس فى الملك، حيث ظل فى نظره مجرد ملك ارتاع من قوة الشعب فخضع وانحنى للعاصفة.

ومضت الجمعية الوطنية فى طريقها نحو وضع الدستور. وحتى صدوره وقعت أحداث جسام قضت على لويس السادس وعلى ملكية البوربون بعد سنوات قليلة من الثورة الفرنسية، فبعد سقوط الباستيل فقدت الملكية نهائى احترامها واضطر الشعب إلى أن يفرض رقابة صارمة على الملك حتى أصبح شبه معتقل فى قصره، وبدأ الشعب يهاجم النبلاء فى ضياعهم وقصورهم. وبالتالى بدأ سيل الفارين المهاجرين إلى خارج فرنسا ليصبحوا بعد ذلك خطرا عسكريا يهدد فرنسا بحرب أهلية فضلا عن تحريضهم لملوك أوربا لشن حرب ضد الثورة الفرنسية.

بهذه التطورات يكون النظام القديم قد أخذ ينهار، الملك معتقل، والدستور يعد، والضرائب لا تدفع،والطبقات المميزة تفر أمام الشعب، والحرس الوطنى يدافع عن الثورة، أما الجيش الملكى فقد انفرط عقده، وفى هذه اللحظات كان المواطن الفرنسى يكتشف نفسه، متآخيا مع أخيه فى الوطن متساويا معه فى الحقوق، وشعر بفرديته وإنسانيته. وبمسئوليته إزاء مواطنيه ووطنه وإزاء العالم حيث ارتفع صوت الثورة الفرنسية لا فى فرنسا فقط وإنما فى كل أرجاء أوربا فى أعقاب صدور «إعلان حقوق الإنسان».

إن فرنسا التى كانت تعانى من هذه التطورات السريعة الجذرية أصبحت فى أمس الحاجة إلى حكومة قوية تسيطر على زمام الأمور. ولكن التطورات السريعة لم تعط الفرصة مبكرا لظهور شخصية حاكمة قوية ترضى عنها كل الأطراف المتصارعة. فكان طبيعيا أن تتصاعد حدة التشريعات الثورية، وتتصاعد معها حدة الرجعية المعارضة. وتبلور هذا فى أزمة بين الحركة العلمانية، التى كانت تسيطر على اتجاهات الثورة، ورجال الدين الذين كانوا يتعاطفون جزئيا مع الثورة،

ولكنهم صدموا مؤخرا بأن الثورة تكاد لا تقيم لهم وزنا عندما صادروا أملاك الكنيسة وأصدروا تشريع الانتخاب العلمانى للقسس، والقضاء على النفوذ البابوى فى الكنيسة الفرنسية.

كما تبلورت هذه الأزمة فى محاولة الملك الفرار من معتقله،ولسوء حظه أنه قبض عليه قبل مغادرته البلاد، وعثر على وثيقة تركها خلفه يؤكد فيها بطلان ما سبق أن صدق عليه من تشريعات، فثبتت خيانته للثورة وهى خيانة لا تغتفر فى ظروف تتصاعد فيها الأزمات.

وبعد تلك الحادثة بقليل أتمت الجمعية التأسيسية وضع الدستور فى ١٤سبتمبر ١٧٩١، وحلت الجمعية نفسها وأوصت بتكوين جمعية تشريعية. وعندما تألفت هذه الجمعية التشريعية تزعمها الجيروند البرجوازيون أعداء الملكية دعاة الجمهورية. وكان على الجيروند أن يدافعوا عن مكاسب الثورة بذلاقة اللسان التى اتصفوا بها. ولكن الأساليب الأخرى كانت تعوزهم.وكان العبء عليهم كبيرا حيث الأحوال الداخلية غاية فى الاضطراب، والمهاجرون، وملوك أوربا يتوعدون الثورة الفرنسية بشن حرب لتخليص البلاد منها. وهنا بدأت المؤثرات الخارجية تصبح أكثر فعالية فى توجيه التطورات فى داخل فرنسا، كما تعرضت داخلية البلاد بسبب المخاطر الخارجية وتعدد القوى المناهضة للبلاد لمذابح دموية أشهرها مذابح سبتمبر ١٧٩٢.

فلكى يكسر الجيروند شوكة فرانسيس إمبراطور الدولة الرومانية المقدسة حرضوا البلجيك على الثورة عليه باسم حق تقرير المصير. ولكسر دعايات البابوية الواسعة النطاق ضد الثورة انتزعوا منه أفينيون، وعندما هاجم الجيش البروسى الأراضى الفرنسية رفعوا من معنويات الثوريين الفرنسيين وعمقوا فيهم روح القومية الفرنسية وسموا بالرسالة التى يحملها الفرنسى للعالم المتمدين. ومع هذا انتصر الجيش البروسى انتصارا محدودا ولكنه كان مزعجا لثورة لا تزال فى المهد وتعانى من قوى عديدة معادية لها سواء فى الداخل أو فى الخارج. ولكن سرعان ما استطاع الجيش الفرنسى أن ينتصر فى فالمى.

فلقد دفعت فرنسا بكل حماس جيشا، وإن كان فجا قليل الخبرة، إلى قتال الجيش البروسى - الذى أصابه الوهن وفقد ميزاته الأولى أيام فردريك الأكبر - فى موقعة فالمى (٢٠/ ٩/ ١٧٩٢) وفيها انتصر جيش الثورة الفرنسية، وانتشى الثوار بخمرة النصر. لقد ضخم الفرنسيون من قيمة هذا النصر، ووصفوه بكل معانى البطولة والإقدام. حقيقة كان النصر حليف الجيش المؤمن بالفكرة التى يحارب من أجلها. وكانت الأفكار والمبادئ التى لدى الجندى الفرنسى تجعله مؤمنا بالنصر وبالموت من أجل النصر، من أجل فرنسا، والثورة، وإنقاذ للإنسانية مما هى فيه من ظلمات الجهالة والرجعية.

وأدى التدخل العسكرى البروسى إلى سقوط الملكية فى فرنسا، حيث أعلن فى ٢١/ ٩/ ١٧٩٢ وقيام الجمهورية ليعدم الملك فى ٢١/ ١/ ١٧٩٣.

وسارت فرنسا من تطرف لآخر، حتى وقعت تحت توجيه أمثال دانتون وروبسبير، ورغم ما أوتى به دانتون من بعد نظر حين أكد على وحدة البلاد والدفاع عن الجمهورية على اعتبار أنها منار الإنسانية الجديد، إلا أنه كان دمويا عنيفا فى سبيل تحقيق أهدافه. وكان تأليف لجنة الأمن العام وتزعمه لهذه اللجنة اليعقوبية عاملا حاسما فى سقوط الجيروند. ولم يلبث أن خرج دانتون من لجنة الأمن العام ليحل فى زعامة الثورة والإرهاب الخطيب المفوه روبسبيير. ولم يوضع حد لهذا العهد الإرهابى إلا بعد أن اطمأنت فرنسا على زوال الخطر الخارجى عليها الأمر الذى ساعد على اهتزاز (المؤتمر الوطنى) المنتخب حديث حينذاك.

شهد عهد دانتون وروبسبيير السيطرة الفرنسية على بلجيكا وعلى نهر الشلدت، وكانت بريطانيا تراقب تطورات الأحداث فى داخل فرنسا. وكل ما يعنيها هو أن لا تمس تلك التطورات مصالحها أو مكانتها. ولكنها بصفة عامة كانت تنظر بعين القلق إلى نمو الثورة وتفوقها؛ لأن انتصار الثورة يعنى أن فرنسا مقبلة على عهد قوة ونشاط جديد يهدد التفوق البريطانى، ذلك التفوق الذى كان يقوم على أساس تحديد إمكانيات فرنسا الهجومية والاقتصادية.

ويحاول بعض المؤرخين أن يضفوا على إنجلترا نوعا من الفكر الإنسانى عندما أعلنت الحرب على فرنسا بقولهم: إن الشعب الإنجليزى تأثر وحنق بسبب إعدام لويس السادس عشر. والواقع أن هناك ملوكا عديدين سقطوا دون أن يحنق

الشعب البريطانى مادام ذلك لايعنيهم. أما الحقيقة التى جعلت بريطانيا تعلن الحرب على فرنسا فهى فتح نهر الشلدت للتجارة، الأمر الذى يقضى على كثير من نشاط ميناء لندن المواجه له.

وفى الوقت الذى أصبحت فيه فرنسا الثورة فى حرب ضد إنجلترا والنمسا وبروسيا، وشعرت فرنسا بالضغوط الخارجية الشديدة حتى انسحبت من بلجيكا، وبسبب الضغط العسكرى البحرى البريطانى على ميناء طولون الحربى، وبالضغوط الداخلية بسبب ثورة إقليمى ليون وفاندى وبسبب تفشى عدم الثقة فى الداخل.. فى هذا الوقت اضطر رجال الثورة وعلى رأسهم اليعاقبة بزعامة روبسبيير - إلى اتخاذ إجراءات حازمة لمواجهة هذه الأخطار. ومن هذه الإجراءات إنشاء «لجنة الأمن العام». . Committee of Puhic Safty «ولجنة الضمان العام» Committee of Public Security ومحكمة ثورية. وتنادى اليعاقبة مع العامة على تحمل المسئولية وبذل جهود أعظم من أجل الثورة ومبادئها فطبق التجنيد الإجبارى، وقضى على تمردات الأقاليم الفرنسية، وفتحت كل من بلجيكا وهولندا!.

حقيقة تمت معظم هذه الإنجازات فى الوقت الذى كان فيه روبسبيير - الزعيم اليعقوبى المفوه - يوجه الأمور بصرامة وقسوة دموية فى وجه أى شخص أو هيئة يشك فى خيانتها أو حتى معارضتها له. وبتحقيق فتح البلجيك، والقضاء على التمردات الإقليمية لم تعد هناك حاجة إلى قسوة روبسبيير الدموية. ومن ناحية أخرى كانت قسوته تلك سببا فى أن يرهبه الصديق قبل العدو. ومن ثم كان الاتجاه قويا نحو تخليص فرنسا منه. وما كان هذا ليتم إلا بانقلاب. وقد نظم «بارا» انقلابا ناجحا عرف باسم «انقلاب ترميدور» فى ٢٨تموز ١٨٩٤ قضى على روبسبيير وأدى إلى تشكيل «حكومة الإدارة» التى اتبعت سياسة معتدلة دون أى تهاون مع الرجعية، وكان الناس يشعرون أنهم فى حاجة إلى هذه الحكومة المركزية القوية غير الدموية. وفى أيام هذه الحكومة ظهرت شخصية نابليون بونابرت لأنه - كضابط فى الجيش - دافع عن وجود حكومة الإدارة، وقاد جيوش فرنسا فى حرب مدوية فى إيطاليا ومصر.

كانت حكومة الإدارة تواجه موقفا عدائيا شديد الصلابة من جانب النمسا

وإنجلترا، أما بروسيا فعقد صلحا مع فرنسا فى ١٧٩٥، وهولندا تحالفت مع فرنسا (١٧٩٥) وأسبانيا انسحبت من الحرب متنازلة عن جزيرة سان دومنجو لفرنسا. ومن ثم كان على بريطانيا والنمسا أن تفرضا صلحا على فرنسا أو أن تفرض عليهما فرنسا صلحا. وكانت الظروف كلها تحث على البحث عن قائد فرنسى ماهر يستطيع أن ينفذ أهداف حكومة الإدارة العسكرية، وكان نابليون بونابرت أمامها لينفذ خطة من اثنتين: إما أن يهاجم النمسا أو يهاجم بريطانيا. ولكن ثبت أن بحر المانش بما فيه من أسطول بريطانى كبير يجعل غزو بريطانيا فى عقر دارها مجازفة كبرى فى الوقت الذى تظل فيه الإمبراطورية الرومانية المقدسة شوكة خطيرة فى ظهر فرنسا. ولهذا فضلت حكومة الإدارة أن تبدأ بضرب النمسا لأنها أقرب إلى فرنسا، ولأن توجيه حملة فرنسية إلى إيطاليا ـ التى يسيطر عليها النمساويون ـ سيعطى لفرنسا مكاسب واضحة تجارية وأرضية، وخاصة أن الإيطاليين كانوا مستعدين للترحيب بالجيش الفرنسى لكراهيتهم الشديدة لحكامهم النمساويين. وبتوجيه ضربة ناجحة إلى الوجود النمساوى فى إيطاليا، يكون الفرنسيون قد هزموا خصمهم العنيد (الإمبراطورية الرومانية المقدسة)، ويكون بابا روما قد أصبح فى متناول أيديهم. فلقد عانت فرنسا الثورة كثيرا من تحريضات البابوية لرجال الدين الفرنسيين ضد الثورة، وأيدت المهاجرين، وحرضت الأقاليم على التمرد ضد الحكومة، ولقد كان للبابوية ـ من وجهة نظرها ـ عذر فى ذلك خاصة عندما ظهر لها أن الثورة الفرنسية متطرفة فى علمانيتها حتى لقد ظهرت عبادة الكائن الأعظم فى بعض الأوقات.

وعلى أى حال فقد أسندت قيادة الحملة الفرنسية إلى نابليون بونابرت. وكان رجال جيشه مطيعين لقائدهم الذكى، متحمسين لإنقاذ الشعوب من ملوكهم وحكامهم المستبدين. فخاضوا سلسلة من المعارك الناجحة فانتصروا على مملكة سردينيا وفرضوا عليها هدنة شيراسكو Cherasco وهزموا جيش البابوية فى «انكونا» وكسروا النمساويين وأرغموهم على عقد صلح ليوبن Leoben فى ١٧٩٧/٤/١٨ ثم على عقد معاهدة كمبو ـ فورميو (أكتوبر ١٧٩٧). وفيها أصبحت فرنسا سيدة إيطاليا، بينما أرضى نابليون بونابرت كبرياء الإمبراطورية الرومانية المقدسة بأن منحها جمهورية البندقية المهيضة الجناح.

وبقيت بريطانيا فـى الميدان وحدها. وأعدت فرنسا جيشـا لغزوها فى عقر دارها. ولكن ثبـت أنه حتى فى الوقت الـذى أصبحت فيـه بريطانيا وحـدها فى الحرب، لا تستطيع فرنسا غزوها بسـبب الأسطول البريطانى فى المانش. ولذلك أخذت الأنظار تتـحول إلى تقليم أظافر بريطانـيا فى المستعمـرات. وكانت فكرة تكوين مستعمـرة فرنسية فى مصر والسيطرة على البحـر الأحمر والاتصال بالقوى المناهضة للاستعـمار البريطانى فى الهند مسيطرة على أذهان وزيـر خارجية فرنسا حينذاك (تاليران) وعلى نابليون بونابرت الذى أصبح مسموع الكلمة فى مخططات فرنسـا العسكرية منذ انتـصاراته المدوية فى إيـطاليا. **وفعلا قاد نابـليون بونابرت حملته المشهورة إلى مصر، إلا أن أحلامه فيها تحطمت للأسباب الرئيسية التالية:**

١ ـ كانت حـملته فـى نظر المصـريين، وكل المـشرق الإسلامى، حـملة صليبيـة. ومن ثم أصبحت الحملة تعـيش على أرض معادية كثيـرة الثورات ضد الجند الفرنسيين.

٢ ـ إن السلطات العثـمانية لم تصدق تبريرات حكـومة الإدارة بشأن إرسال قوات إلى مصر لمجرد ضرب المماليك الذين ظلموا التجار الفرنسيين، ولذلك ما أن انتصر نلسن ـ قائد الأسطول البريطانى فى البحر المتوسط على أسطول الحملة فى موقعة أبى قيـر البحرية ـ حتى أعلن السلطان الحرب على فرنسـا متـحالفا مع كل من إنجلترا وروسيا، ثم دخلت النمسـا الحرب فتكون التحالف الدولى الثانى ضد فرنسا.

٣ ـ حاول بونـابرت التوغل إلى مـا وراء فلسطين فـفشل أمام أسـوار عكا وظلت الحملة الفرنسية محاصرة.

هذه النتـيجة السلبـية، وانتصارات دول التـحالف الدولى على فـرنسا فى أوربا حث نابليـون بونابرت على العودة إلى فرنسـا لعله يستطيع إنقاذ فـرنسا مرة أخرى من أعدائها. ومع أنه عـاد إلى فرنسا بعد هزيمتين كبيرتيـن (موقعة أبى قير البحريـة وأمام أسوار عكا) إلا أن مجرد الـحديث عن أن نابليون بـونابرت، قاهر النمسـا فى إيطاليا، وفاتح مصـر، قد بلغ فلسطين ومـهد المسيح كان كـفيلا بأن يطغى على حـقيقة الفشل الذى مـنيت به الحملة الفرنـسية على مصر منـذ أيامها

الأولى. هذه الشعبية هى التى مهدت له الوصول إلى الحكم على إنقاض حكومة الإدارة التى أثبتت أنها عاجزة حتى عن المحافظة على فتوحات نابليون بونابرت أثناء غيابه فى مصر. وبانقلاب عسكرى بسيط (انقلاب برومير) أسقط حكومة الإدارة وظهرت القنصلية وكانت مؤلفة من ثلاثة كان أقواهم بونابرت فلم تلبث أن أصبحت قنصليته ومنفردا بالحكم.

ويمتاز عهد القنصلية ١٧٩٩ ـ ١٨٠٣ بأنه عهد إنجازات داخلية وخارجية كبيرة الأثر فى تاريخ فرنسا، ففى الداخل بلغ نابليون ذروة العبقرية التشريعية والتنظمية ولكن كانت سياسته إزاء الحرية الفكرية والنيابية فى داخل فرنسا غير موفقة إلى حد كبير. فقد وضع نفسه فوق جميع التيارات. وجعل من نفسه المسئول عن إنقاذ الأمة من فوضى الصراعات الداخلية عن طريق توهين النشاط الحزبى والبرلمانى. وإذا كان توهين النشاط الحزبى مستساغا لمواجهة أخطار خارجية كبيرة، إلا أنه أنشأ نظاما نيابيا هزيلا ممثلا فى مجلس التربون Tribu nate أما فى سياسته الضرائبية فكان عادلا ومشرعا فذا، وأسس بنك فرنسا فى ١٨٠٠. وحيث إنه كان يعتقد أن الدين فقد دوره الكبير فى تماسك الأمة حينذاك، عمل بنجاح على التوصل إلى اتفاق مع البابوية كسبها إلى جانبه دون أن يعطيها نفوذا ما فى البلاد.

أما موقفه من أعداء فرنسا فى الخارج (بريطانيا والنمسا وروسيا) بوجه خاص، فقد قرر أن يضربهم بسيفه،ومرة أخرى انقض على النمسا فهزمها فى مارنجو (١٨٠٠) وهوهنلندن وأرغمها على عقد صلة لونيفيلLuneville فى فبراير ١٨٠١ وأعاد بذلك سيطرته على إيطاليا لتظهر فيها مرة أخرى جمهوريات صغيرة إيطاليا تابعة لفرنسا هى: جمهوريات ليجوريا وسيزاليين Liguria, Cisa'pine كما أنشأ جمهورية باتافيا فى «هولندا» و«هلفاتيا» فى سويسرا.

ومرة أخرى وقفت بريطانيا وحدها فى وجه فرنسا. وفى هذه المرة لم تفقد حلفاءها فقط بسبب انتصارات نابليون بل ظهرت عصبة الحياد المسلح League of Armed Neutrality بزعامة كل من روسيا والدنمرك والسويد. وكان هدف هذه العصبة هو تطبيق مبدأ حرية البحار ولو بالقوة المسلحة، حيث إن بريطانيا كانت

تصر على أن يقوم أسطولها ـ فى أوقات الحرب ـ بتفتيش سفن الدول المحايدة دون وجه حق. ولكن بريطانيا دائما تضع مصالحها فى المقدمة حتى لو تعارضت مع القانون الدولى، أو بمعنى آخر أن القانون الدولى هو الذى يخدم المصالح البريطانية. ولهذا عزمت الحكومة البريطانية على منع دول الحياد المسلح من التمتع بمبدأ (حرية البحار). وبدون إعلان حرب أو سابق إنذار ـ اقتحم الأسطول البريطانى ميناء كوبنهاجن ودمر الأسطول الدنمركى (٢/٤/١٨٠١) وكان ذلك ضربة قاضية لعصبة الحياد المسلح، حيث إن الأسطول الدنمركى كان أكثر أساطيل دول العصبة فاعلية.

كان تحطيم الأسطول الدنمركى وانفراط عقد عصبة الحياد المسلح بوفاة بول قيصر روسيا المعجب بنابليون، وإرغام الحملة الفرنسية على الجلاء عن البلاد المصرية، واستقالة بت Pitt رئيس الوزارة البريطانى أعنف عدو لنابليون ـ وشعور إنجلترا بأن استمرار الحرب لن يسمح لها بأن تكسب شيئا جديدا، وشعور نابليون بأن الوصول إلى تفاهم مع بريطانيا يعينه على توطيد تفوقه فى أوربا.. كل هذا جعل الاتجاهات فى باريس ولندن تتجه نحو عقد صلح بين الطرفين بعد حرب دامت منذ ١٧٩٣ ولم تهدأ إلا بعقد صلح أميان فى ١٨٠٢.

وقد حفظ هذا الصلح لبريطانيا تفوقها البحرى فضلا عن مستعمراتها وسيطرتها على سيلان وترانيداد ومالطه. بينما بقيت لفرنسا كل مكاسبها. أو بمعنى آخر كان صلحا يعترف بالوضع القائم لدى كل من الطرفين باستثناء تعديلات بسيطة وأصبحت إمبراطورية نابليون(غير المعلنه فى البر) فى أوربا فى مواجهة الإمبراطورية البريطانية البحرية.

إن وجود مثل هاتين الإمبراطوريتين الكبيرتين وجها لوجه لا يمنع من اشتباكها سوى صلح لا يقر إلا بالأمر الواقع ليؤدى إلى صدام عاجل، خاصة إذا لم تقم بين الطرفين ثقة متبادلة ولم تكن هناك من مظاهر التعاون السلمى إلا القيل، فحتى التجارة الطبيعية بين البلدين كانت شبه متوقفه. وكان الإنجليز تواقين إلى إعادة فتح باب هذه التجارة لما تدره عليهم من مكاسب كبيرة كدولة يقوم جزء من اقتصادها على النقل من المستعمرات إلى أوربا، وعلى نقل منتجاتها هى أوربا وفرنسا. وكان كل طرف يعرف أن صلح أميان ما هو إلا هدنة مسلحة

لن تلبث أن تنهار سببا فى أن يقدم كل من الطرفين على أعمال تثير الطرف الآخر. فقد أبت بريطانيا إخلاء مالطه. وكان نابليون يرى أن بريطانيا تريد الاحتفاظ بها حتى تستمر هى صاحبة اليد العليا فى البحر المتوسط. وهذا صحيح إلى حد بعيد جدا. وكانت بريطانيا ترى فى استمرار سيطرة نابليون على بلجيكا وامتناعه عن عقد معاهدة تجارية معها يمهد لتدمير اقتصاديات بريطانيا فى أوربا خاصة وأن نابليون كان يزداد قوة شيئا فشيئا لا فى داخل فرنسا فقط بل خارجها كذلك.

وتطورت الأمور بسرعة ووقعت الحرب بين الطرفين. وبدأ نابليون - وقد أعلن نفسه إمبراطورا فى ١٨٠٣ - باجتياح نابلى وهانوفبر (البريطانية). وحرض أسبانيا على مهاجمة البرتغال الحليفة التقليدية لبريطانيا وكان بت - وقد عاد إلى الحكم فى بريطانيا - يدرك أن هزيمة نابليون تتطلب تأليب الدول الأوربية عليه حيث لا قدرة لجيش بريطانيا على ذلك. أو بمعنى أن يفيد من كراهية الدول الأوربية التى هزمها نابليون من قبل وأن يحضها على امتشاق الحسام لتسترد ما فقدته. وكانت النمسا فى الحقيقة تبحث عن وسيلة تسترد بها كرامتها وما فقدته من نفوذ كبير فى إيطاليا، وبالتالى كانت أكثر الدول الكبرى تحمسا إلى امتشاق الحسام ضد نابليون.

لقد كانت النمسا - وغيرها من الدول الأوربية الكبرى - ترى أن نابليون قد أخل بالتوازن الدولى بسبب اتساع نطاق البلاد التى يسيطر عليها (هولندا/ بلجيكا/ إيطاليا / هانوفر). وإنه يجب أن يعاد التوازن الدولى بهزيمته وإعادة فرنسا إلى ما كانت عليه أيام لويس السادس عشر.

ومعنى هذا أن الدول الكبرى الأوربية كانت ترى فى اتساع فرنسا فى أوربا إخلالا بالتوازن الدولى، بينما لا ترى فى اتساع بريطانيا فيما وراء البحار فى المستعمرات إخلالا بهذا التوازن الدولى. وهو فى الواقع تفسير لمفهوم التوازن الدولى لصالح بريطانيا. وكان هذا التفسير مقبولا لدى الدول الكبرى لأن الخطر البريطانى غير واضح بينما الخطر الفرنسى ماثل أمام الأعين.

نجح بت Pitt فى تكوين تحالف دولى جديد انضمت إليه الإمبراطورية

الرومانية المقدسة(النمسا) وروسيا. ولكن استطاع نابليون أن يحرز انتصارات عسكرية كبرى رفعته الى ذروة العبقرية العسكرية حينذاك. ففى (أولم) ثم (اوسترلتز) و(فريد لاند) شتت بضربات فذة جيوش النمسا وروسيا (١٨٠٥). وطغت هذه الانتصارات الكبرى على أنباء هزيمة لا تقل أهمية عن تلك المعارك، ونعنى بذلك انتصار نلسن مرة ثانية انتصارا حاسما على الأسطول الفرنسى فى موقعة الطرف الآخر. فتلك المعارك البرية، ومن بعدها موقعة بينا (١٨٠٦) التى أذل فيها نابليون ـ وقد دخل برلين نفسها ـ بروسيا إذلالا ساحقا، وتلك المعركة البحرية (الطرف الآخر) وضعت مرة أخرى الإمبراطورية البرية الفرنسية فى وجه الإمبراطورية البحرية البريطانية.

فلقد قضى نابليون بانتصاراته تلك على الإمبراطورية الرومانية المقدسة التى أصبحت منذ ١٨٠٦ تعرف بالإمبراطورية النمساوية. وأصبحت كلمة نابليون هى العليا فى ألمانيا المفككة إلى دويلات بدلا من النمسا وبروسيا اللتين احتفظتا ببعض النفوذ على أجزاء من ألمانيا. ثم دخل فى مفاوضات مع قيصر روسيا (إسكندر) وعقدت اتفاقية تلست Tilsit السرية (١٨٠٧) التى تمثل ذروة قوة نابليون.

أما وقد أصبح نابليون ـ بعد اتفاقيته مع قيصر روسيا، وكسر شوكة كل من النمسا وبروسيا ـ صاحب الكلمة العليا فلم لا يغلق كل أوربا فى وجه إنجلترا ليدمر تجارتها، ومن هنا خرجت فلسفة (الحصار القارى) ـ التى أعلنها نابليون غداة دخوله برلين بعد معركة يينا Jena ـ والتى وافق قيصر روسيا على تطبيقها فى اتفاقية تلست Tilsit والهدف هو منع دخول التجارة الإنجليزية إلى أوربا.

ولكن سياسته كانت تقوم على افتراضات خاطئة، فالموانى ليست هى الطريق الوحيد لدخول التجارة البريطانية إلى داخل أوربا. ثم إن أوربا نفسها كانت فى حاجة إلى إنجلترا،وكانت مستعدة لقبول التجارة البريطانية المهربة فى وقت شعرت فيه أوربا بأنها تحت أقدام مارد جبار يهيمن عليها بحد السيف،ولا شك أن أوربا عانت كثيرا من هذا الحصار القارى، وأصبحت تتطلع إلى اليوم الذى تتخلص فيه من قيوده. ومع أن بريطانيا أصيبت بأضرار جسيمة من جراء تعطيل

تجارتها مع القارة الأوربية إلا أنها استطاعت أن تعوض كثيرا من خسائرها بتوسيع تجارتها مع الأسواق الأمريكية والشرقية، فضلا عن أن مستعمراتها أمدتها فى هذه الظروف الحرجة بمقومات المقاومة الاقتصادية فى وجه نابليون وحصاره القارى.

وأغلب الظن أن الأضرار التـى حاقت بالبلاد الأوربية كانت أكـثر من تلك التى حاقت ببريطانـيا من جراء تنفيذ الحصار القارى، فلقـد تدهورت اقتصاديات هولندا تدهورا شديدا. وكـان على عرشها حينذاك لويس ـ أخـو نابليون ـ وحاول لويس أن يقنع نابليون باستثناء هولندا من قوانين الحصار القارى دون جدوى حتى لقد فضل لويس أن يـترك العرش لأخيه. فما كان من نـابليون إلا أن ضم هولندا إلى فرنسا.

لقد كانت انتصارات نابليون المذلة لدول أوربا، والحصار القارى المجحف باقتصادها وتوزيعه تيجان أوربا على إخـوته وأصهاره سببا فى أن تعمل هذه الدول على التخلص مـن قبضة نابليون الحـديدية، وكانت الأساليب التى اتبـعتها الدول الأوربية فى هذا الشأن تتركز فيما يلى:

١ ـ فتح البلاد أمام البضاعة الإنجليزية، دون الإعلان عن ذلك، مثلما فعل الإسكندر قيصر روسيا.

٢ ـ محاولة رفع أحد مـارشالات نابليون إلى منصب الملكية مـثلما فعلت السويد عندما أعلنت برنادوت ملكا عليها.

٣ ـ إعادة بناء نظامهـا العسكرى والإدارى لتكون مستعدة لخـوض المعركة المقبلة ضد نابليون مثلما فعلت بـروسيا بوجه خاص، والنمسا إلى حد ما. ولقد تفوقت بروسيـا فى هذا المجال حيث إن إذلالهـا على يد نابليون أيقظ فيـها وعيا قوميا عميقا. دفع الشعب إلى العمـل وخلق زعامات متنورة بعيدة النظر من أمثال شارهورست الذى خلق جيشا بروسيا الذى كان مدرسة للقومية والأخلاق، كما أن الحكومة الـبروسية التحـمت مع الشعب فى حركـة كبرى فقضت علـى الحواجز الجمركية ونشـطت التعليم العام والعالى، وألغت الرق ولقـد كانت هذه التحولات تجرى فى دقة وهـدوء لم يستطع نابليون أن يدرك كنـهها أو حقيقة أهدافـها. ربما

بسبب شعوره بأن أوربا فقدت قدرتها على الصمود أمام عبقرية الجندى الفرنسى.

وبعد ١٨٠٧ كثرت أخطاء نابليون، أو على الأقل كثرت تقديراته الخاطئة لعواقب الأمور. فحين وزع التيجان على إخوته لم يتورع عن إرغام الأسرة الحاكمة فى أسبانيا عن التنازل عن العرش لأخيه جوزيف. ولقد كانت الأسرة الحاكمة الأسبانية فاسدة بلا جدال. ولكن يبدو أن نابليون حكم على الشعب الأسبانى من خلال حكمه على الأسرة الحاكمة الأسبانية فأخطأ خطأ فاحشا؛ لأن الشعب الأسبانى من الشعوب الجبلية العنيدة التى تكره الخضوع لأجنبى خاصة وأن لديه مقومات الكفاح والحرب مستندا إلى وعورة الهضبة الأيبيرية، وتحالف الإنجليز معه تحالفا يجعل وصول إمدادات السلاح متواصلا بلا انقطاع، فضلا عن المساعدات العسكرية الإنجليزية. وفعلا ثار الشعب، واستيقظ المجلس البرلمانى الأسبانى (الكورتيز) وظهرت حركة إصلاحية وطنية نظمت جيشا كبيرا خاض فى يوليو ١٨٠٨ معركة دموية فى «بايلين» انتهت بانتصار أسبانى ضخم واستسلام القوات الفرنسية. وتناقلت أنباء الهزيمة أسماع أوربا كلها. وقيمة هذه المعركة هى أنها أزاحت أسطورة الجيش الفرنسى، وأصبح مجرد جيش ينتصر ولكن يمكن أن ينهزم. ومن ناحية أخرى أصبحت أوربا تنظر إلى الأسبان على اعتبار أنهم شعب يسعى إلى تخليص نفسه من طاغية. ولقد وضعت هذه الحرب الأسبانية فرنسا فى موضع حرج، حيث أصبحت مضطرة إلى إرسال قواتها وأموالها إلى هناك باستمرار، إذ لم تهدأ الحرب الأسبانية إلا بسقوط نابليون نفسه.

ثم إن الحرب الأسبانية فتحت جبهة قتال فى جنوب فرنسا فى الوقت الذى كانت فيه دول ـ مثل النمسا ـ مستعدة لخوض الحرب ضد فرنسا فتصبح الأخيرة مضطرة للقتال فى جبهتين عريضتين مختلفتين. وهذا ما حدث فعلا حيث إن النمسا كانت ـ كما هى العادة ـ أسرع القوى الأوربية إلى امتشاق الحسام ضد نابليون لعلها تنتصر وتسترد ما فقدته من كرامة وأرض. وفعلا خاضت النمسا هذه المرة الحرب بصلابة أشد حتى أن نابليون لم يستطع الحصول على الانتصار فى معركة «واجرام» Wagram ١٨٠٩ إلا بصعوبة كبيرة.

حقيقــة كسب نابليون الحرب ضد النمسا. ولكن ظلت هناك حقيــقة قائمة وهى أن الحرب الأسبانية لا تزال مستمـرة وأنه يمكن أن تتكرر مثل هذه المقاومة الأسبانية فى أرض أوربية أخرى. وجاءت هذه المقاومة من دولة مستقلة وليس من بلاد تحت السيطرة النابليونية. فقد سئـم القيصر إسكندر الحصار القارى وما يعود على بلاده من خســارة فترك البضائع الإنجلـيزية تتدفق إلى بلاد. كما أن الـقيصر سئم مداورات نابليــون بشأن مستقبل القســطنطينية (الأستانة)، حيث كـان القيصر ينوى أن يضع يده عـليها بموافـقة نابليون، ولكن الأخـير ماطله لأنه يدرك القـيمة الكبرى لــلقسطنطيــنية كحاجـز فى وجه الانطلاق الروســى فى البحر المـتوسط، وكعامل جوهرى فى استمرار بقاء الدولة العثمانية فى وجه التوسع الروسى.

كذلك كره الإســكندر زواج نابليون من أميـرة نمساوية على اعـتبار أن هذا الزواج ليس سوى زواجا سياسيا من وجهة نظر الإسكندر، يقصد به توحيد سياسة النمسا وفرنسا ضــد روسيا. ولقد كان القيصر إسكندر ونابلـيون لا يثق كل منهما فى الآخر، وكان نابليون فى الحقيقة يعتقد أن القيصر لو خرج عن نصوص اتفاقية فإنه لن يتــورع عن توجيه ضربة جــديدة إليه كتلك الـضربة التى وجهها للجيش الروسى فــى موقــعة فريـدلاند سنة ١٨٠٦ وكــان هذا خطـأ كبيـرا فى تقـديرات نابليون. ففى أيام فريد لاند كـان الروس هم الذين زحفوا إلى قلب أوربا، ولكن فى ١٨١٢ كان نابلــيون هو الزاحف إلى قلب روسيــا. ثم إن نابليون كان يعـتمد على جيش فرنسى قومى فى ١٨٠٦، بينمــا هو فى ١٨١٢ يزحف بجيش مختلط من فرنسيين وإيطاليين وألمان.. إلخ من جند الإمبراطورية.

وبهذا الجــيش الكبيــر زحف نابليون إلى داخــل روسيا. بينمــا ظل الروس يتراجــعون أمامــه دون أن يسمحــوا له بخوض معــركة حاسمــة كان يعد لــها كل إمكانياته. ودخل موسكو ولكنها لم تــلبث أن أخذت النيران فى إحراقها. واضطر إلى العودة، وأخطأ خطأ كبيرا حين عاد من نفس الطريق الذى جاء منه، حيث إنه أصبح طريقا عاجـزا عن تموين جيشه فضلا عن هجمات الـفرق الروسية التى لم تنقطع فخسر مــن جيشه جزءا كبيرا. وهكذا هزم نابليــون هذه المرة ليس على يد جيش وإنمــا على يد شعب وجــيش أصرا على مكافــحة الغازى بشتــى الوسائل.

وعندما وصل جيش نابليون إلى قلب أوربا عائدا من روسيا كان جيش القيصر فى أثره. ورددت أوربا هذا النصر، وانطلقت الدعوات فى أوربا لكى تهب الجيوش والشعوب ضد الطاغية. فتحولت أوربا إلى أرض معادية، إذ كان حماس الشعوب أقوى من حماس الملوك. وكان الشعب البروسى أكثرها شوقا لخوض المعركة ضد نابليون. ولذلك أرغم ملكه على إعلان الحرب ضده.

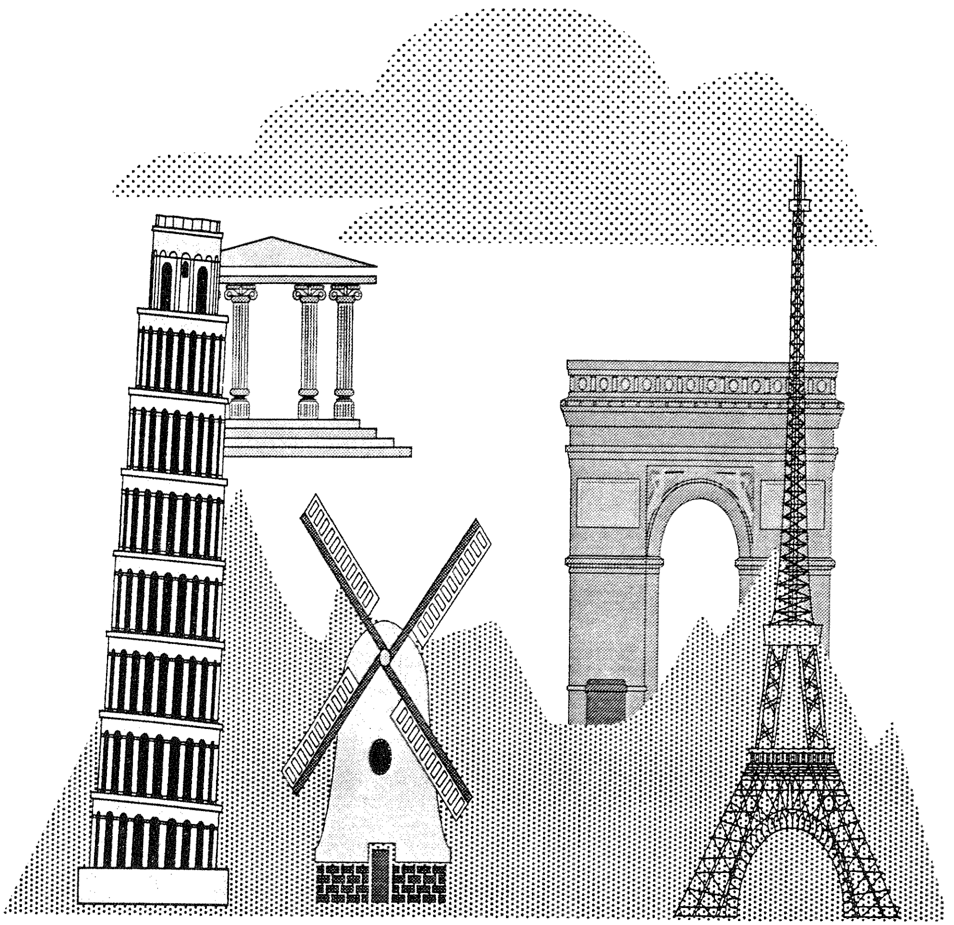
حقيقة كانت طاقات بروسيا الحماسية ضخمة، وكان الشعب والجيش البروسى مستعدا لأن يبذل كل إمكانياته لقتال نابليون. ولكن كان ما تحت يد نابليون من جيش لا يزال كبيرا يمكنه من هزيمة البروسيين، ومن ثم كان دخول النمسا الحرب فى الوقت الذى تفوق فيه نابليون على بروسيا فى موقعتى لوتزن وبوتزن Lutzen and Butzan عاملا حاسما فى انقلاب الموازين وترجيح كفة الحلفاء (روسيا/ بروسيا/ النمسا) فضلا عن استمرار تقدم القوات الإسبانية ـ البريطانية صوب البرانس، ولقد كان نابليون يعتقد أنه لو كسب معركة حاسمة فسيكون قادرا على إعادة الهيمنة على أوربا كما فعل من قبل بعد استرلتز. ولكن لم يكن هناك مجال لاسترلتز اخرى، فالهزيمة التى يستطيع أن ينزلها نابليون بأعدائه هزيمة مؤقتة ولا تلبث الشعوب أن ترسل إلى ميدان الحرب بجيوش جديدة. إن نابليون أصبح يحارب شعوبا أوربية وليس حكومات كما كان الحال من قبل.

كان اعتقاد الحلفاء أن نابليون فقد مقومات النصر سببا فى استمرار الحرب، وفشل محاولات الوصول إلى حل سلمى. وفى ليبزج أو معركة الشعوب (١٦/ ١٠/ ١٨١٢) كانت هزيمة نابليون الكبرى. إذ بدأت بعدها جيوش الحلفاء زحفها إلى داخل فرنسا من الشمال، بينما كانت الجيوش الإسبانية ـ البريطانية تغزو فرنسا من الجنوب، ولقد قاوم الشعب الفرنسى بقوة عن أرضه. ولكن الحلفاء كانوا متفوقين، وقبل نابليون نصيحة مارشالاته وتنازل عن العرش لابنه ملك روما ١٨١٤ . وغادر فرنسا إلى جزيرة «البا» الإيطالية محتفظا فيها بلقب الإمبراطور (١٨١٤). ولكن لم يطل المقام حتى يعود مرة أخرى إلى فرنسا لينقذها ـ كما كان يعتقد ـ من لويس الثامن عشر البوربونى الذى عاد إلى العرش تحت

أسنة رماح الإنجليز والبروسيين والنمساويين، ولإنقاذ فرنسا من شر الهزيمة. ولقد أعطاه الشعب الفرنسى الفرصة مرة أخرى. ولكن الموضوع لم يكن موضوع عبقريات فى ميدان الحرب وإنما كان هناك تفوق حاسم لدى الحلفاء، فلقد انتصر نابليون أول الأمر على بلوخر البروسى. ولكن لم يلبث أن جمع جنده وعاد ليخوض المعركة، بينما أقبلت القوات الإنجليزية بقيادة ولنجتون. فكان لابد من من أن ينهزم نابليون. وكانت هزيمته النهائية فى وترلو ١٨١٥. لينفى بعدها إلى سنت هيلانه ويموت هناك ١٨٢٢ ويعود جثمانه فى عهد لويس فيليب إلى الإنفاليد، وليصبح علما على مجد فرنسا أكثر منه علما على حروب دموية أرهقت فرنسا وأرهقت أوربا.

الفصل الرابع عشر

مؤتمر فيينا وعهد المؤتمرات



ماذا تكون عليه أوربا بعد هزيمة نابليون، وعودة لويس الثامن عشر البوربونى إلى عرش فرنسا.

لقد كان على المجتمعين فى مؤتمر فينيا أن يضعوا خريطة لأوربا جديدة، حيث إن التغيرات الجوهرية التى تعرضت لها أوربا خلال سنوات الثورة الفرنسية والحروب النابليونية كلها غيرت كثيرا من معالم أوربا قبل الثورة.

فبالنسبة لفرنسا كان المجتمعون المنتصرون قد قرروا أن يفرضوا عليها شروطا أقسى من تلك الشروط التى كان قد وافقوا عليها فى معاهدة باريس ١٨١٤ التى عقدت فى أعقاب تنازل الإمبراطور وذهابه إلى ألبا. ولذلك كانت معاهدة باريس الثانية أشد قسوة من الأولى.

فقد تنازلت فرنسا فى هذه المعاهدة عن دوقية بويون Bpuillon وعلى جزء من الأردن للأراضى المنخفضة. وعادت حدودها إلى ما كانت عليه فى ١٧٩٠ أى أقل من تلك التى حصلت عليها فى معاهدة ١٨١٤. وفرضت عليها غرامة كبيرة، واحتلال جزء من أراضيها.

وقد واجهت فرنسا الهزيمة بشجاعة. وسيثبت الشعب الفرنسى أنه قادر باستمرار على أن يسترد قواه بعد هزيمته بسرعة غير متوقعة فى أعقاب سقوط نابليون وفى أعقاب هزيمته فى حرب ١٨٧٠ أمام ألمانيا.

استطاعت فرنسا - تحت لويس الثامن عشر - رغم الضائقة المالية القاسية التى كانت تعانى منها - استطاعت أن تدفع الغرامة الحربية. واستطاعت أن تقنع الحلفاء بعد ثلاث سنوات فقذ من واترلو أن تسحب جيش الاحتلال من فرنسا (١٨١٨).

ولا شك أن الموقف الدولى أعان فرنسا على أن تستعيد كيانها بسرعة، بل أن تستعيد مكانتها الدولية بسرعة أيضا. فلم يكن من المستطاع أن تبقى فرنسا

تحت احتلال أوروبى كـامل وباستمرار؛ وذلك لأن التوازن الـدولى كان يتطلب ـ من وجهـة النظر النمسـاوية والإنجليزية ـ إعـادة فرنسا إلى مكـانتها كقـوة أوربية كبيرة.

ففى أعقاب سقـوط نابليون بدت روسيا كقوة كبيـرة قادرة على تهديد قلب أوروبا. وخاصة إذا استطاعت التحالف مـع دولة أوربية أخرى مثل بروسيا. ومن هنا كانت فـرنسا مهمـة جدا لكل من النمسـا وإنجلترا. وقد برزت هـذه الحاجة الماسـة إلى توازن دولى خلال مؤتمـر فينيا وخـلال عمليات توزيـع المكاسب. وكانت روسيا تتطلع إلى مكاسب كبيرة عـلى اعتبار أنها هى التى دحرت الجيوش النابليونيـة وبذلت فى سبيل ذلك جهدا كـبيرا للغاية. وفعلا حصـلت روسيا على وارسو. وكان ذلك فى نظـر الدولة الأوربية خطرا يهدد باختـلال التوازن الدولى. أما النـمسا فقـد حصلت على الـساحل الدلماسـى إلى جانب استـعادتها مـيلانو والتفوق التقليـدى النمساوى فى إيطاليا وحصلت بروسيا عـلى أرض ألمانية أكثر، الأمر الذى مهـد لها لدور الزعامـة الألمانية بعد ذلـك، أما بريطانيا فـقد خرجت بمكاسـب كبيـرة للغاية ولكـن فيمـا وراء البحار حـيث حصلت عـلى: الكاب، مالطة، سيلان، موريشوس،أما بيدمونت فضمت ميناء جنوة الهام، كما أن السويد حصلت على النرويج رغم أن الأخيرة رفضت أن تـضع نفسها تحت حكم السويد إلا أن إسكندر قيصر روسيا تمسك بوعده بـأن تستولى السويد على النرويج، كما أن كاسلريه رئيس الوزارة البريطانية هدد النرويج باستخدام القوة إن لم تضع نفسها تحت حكم السويد.

ولنا بعض الملاحظات على هذه التسويات:

١ ـ أكدت هذه التسويات مبدأ «الحقوق الشرعية» الذى أعاد ملوك وأمراء ما قبل الثورة ونابليون إلى عروشهم التى أبعدوا عنها (لويس الثامن عشر وغيره). ولم توضع الاعتبارات الديمـقراطية كأساس. وبالتالى كانت الحكـومات الملكية التى قامت بعد نابليون فى أوروبا تعنى بتوطيد مركـزها ضد الحركات التقدمية والقومية

حينذاك. على اعتبار أن الإصلاحات التقدمية لابد أن تكون دستورية وبالتالى تسلب الملك كثيرا من سلطاته، وأن الأهداف القومية إذا أريد تحقيقها فلا بد من أن يتخلى بعض الملوك عن عروشهم.

لقد كان كفاح شعب ألمانيا ضد نابليون وكفاح شعب أسبانيا ضده، وشعور الإيطاليين والبلجيكيين بالغبن الذى وقع عليهم بوضعهم تحت حكومات أجنبية كل هذا أعد الشعوب لحركات قومية ديمقراطية قوية فيما بعد.

٢ ـ لقد كانت هذه التسويات ضد الروح القومية لبعض الشعوب، وضد رغبتها على الإطلاق وأوضح مثال على ذلك الموقف المتعنت من جانب إنجلترا من شعب النرويج الذى رفض أن يضع نفسه تحت حكم السويد، ومثال آخر هو وضع بلجيكا تحت حكم هولندا ولن يتخلص البلجيكيون من الحكم الهولندى إلا بثورة دامية. والمثال الثالث هو وضع شمال إيطاليا الغنى تحت السيطرة المباشرة النمساوية، وكان الشعب يكره هذا الحكم الأجنبى المستبد، خاصة بعد أن تعشق الحرية التى نادت بها الثورة الفرنسية.

٣ ـ إن الدول الكبرى (روسيا ـ إنجلترا ـ النمسا ـ بروسيا) حين فرضت هذه التسويات كانت قد جعلت من نفسها وصية على أمن أوربا وسلامتها من حرب جديدة على الطراز النابليونى. ولكنها لم تحاول أن تكتشف أن التوازن الدولى الذى حرصت عليه الدول الكبرى بعد سقوط نابليون كان يعنى استبعاد التوسع البريطانى الكبير فيما وراء البحار من مقاييس هذا التوازن الدولى. ومن ثم كان التوازن الدولى فى صالح إنجلترا باستمرار ومن منطلق أن يشارك إنجلترا فى مكاسبها من المستعمرات يتهم بأنه يخل بالتوازن الدولى، كذلك بالنسبة للدولة التى تنمو فى أوربا خارج حدودها.

أما النقد الموجه إلى تلك التسويات فهى:

١ ـ محاولة فرنسا باستمرار التخلص من قيود مؤتمر فيينا.

٢ ـ ظهور ثورات إصلاحية دستورية ضد الملكيات المستبدة.

٣ ـ نشوب ثورات قومية عنيفة لتصحيح الأوضاع الخاطئة التى أقرتها الدول الكبرى فى ١٨١٤ ـ ١٨١٥.

ولنحدد الآن القوى السياسية والاقتصادية والاجتماعية التى أصبحت تسيطر على أوروبا وتوجه أمورها وتعزز نشاطها أو توهن هذا النشاط فى مجال دون آخر. فرغم تلك التسويات السياسية كانت هناك أوضاع جديدة قد توطدت وأصبح من المتعذر على رجال السياسية فى الدول الكبرى التخلص منها.

فإذا كان مبدأ (الحقوق الشرعية) قد أعاد الملكيات إلى ما كانت عليه قبل الثورة ـ ولو ظاهريا ـ فقد حصل الفلاح الأوربى ـ وخاصة فى فرنسا ـ على مكاسب مادية غيرت من مستواه الاقتصادى والاجتماعى. فاستبقى هؤلاء ما كان تحت يدهم من أراض، ولم تعد إليهم تلك الضرائب القديمة، ولا النظم التعسفية فى فرضها أو جمعها أو تعددها. ولم تتعرض نظم ما بعد نابليون لمكاسب الفلاح حتى لا تثير أزمات كبرى داخلية، حقيقة كانت هناك اتجاهات رجعية متطرفة فى فرنسا أيام شارل العاشر (١٨٢٣ ـ ١٨٣٠) ـ ملك فرنسا ـ إلا أنه لم يستطع أن يمس مكاسب الفلاح.

وليس معنى هذا أن أمور الفلاح استقرت،فهو فى الواقع اطمأن إلى جانب محدد فقط وهو مدى تدخل الحكومة أو غير الحكومة فى رزقه وإنتاجه. ولكن كان هناك عامل جديد أصبح يهدد الفلاح من وقت لآخر وهو الأزمات الاقتصادية، فلقد ظلت أساليب الإنتاج الزراعى غير متطورة، وفى نفس الوقت كانت الاقتصاديات الزراعية لا تزال هى المسيطرة على غيرها من الاقتصاديات الصناعية. ومن ثم كانت الأزمات الاقتصادية التى تعرضت لها أوربا كانت تبدأ من الأزمة الزراعية.

كذلك كان التجار وأصحاب الحرف قد أصابوا فوائد هامة من وراء تدهور نفوذ كبار الملاك،وكانت عودة الملكيات لا تستطيع أن تتعرض لنشاط هذه الجماعات المتزايدة، خاصة وأن الاتجاه العام الاقتصادى كان نحو التصنيع والصناعة. وكانت بريطانيا هى المتفوقة فى استخدام الآلات فى الإنتاج وفى وسائل النقل البحرى (البواخر) والبرى (القطارات). وترتب على هذا التفوق فى

الإنتاج والنقل إلى نمو فى رؤوس الأموال اتجه أصحابها إلى استثمارها فى خارج بريطانيا، ومن بين هذه المجالات تسليف الدول الأوربية، وبصفة خاصة فرنسا وروسيا والحكومات الألمانية.

ولما حدث تحول من الصناعة اليدوية إلى الصناعة الآلية فى أوروبا. وقدمت بريطانيا خبرات كثيرة فى هذا المجال من حيث تصدير الآلة والخبرة. فكان أن نمت بلجيكا صناعيا بشكل واضح. بل كان نموها أكثر سرعة من نمو فرنسا الصناعى. فلم تتطور الصناعة الآلية فى فرنسا إلا بعد ثورة ١٨٣٠ تقريبا.

كذلك كان التطور الصناعى بطيئا فى كل من ألمانيا وإيطاليا والنمسا، بينما ظلت روسيا بعيدة عن مفهوم التطور الصناعى لفترة أطول.

وإذا كانت الملكيات العائدة، والتطورات الاقتصادية ستؤثر فى توجيه سياسة أوربا خلال القرن التاسع عشر فلا شك أن القوى التى أضيرت بهزيمة نابليون سيكون لها دورها فى توجيه أمور فرنسا. وعلى رأس هذه القوى:

١ ـ ضباط الجيش النابليونى الكبير والموظفون الذين عملوا فى إدارة الإمبراطورية الفرنسية.

٢ ـ المثقفون الذين كرهوا مساعى رجال الدين للعودة إلى السلطة والنفوذ ومساعى الملك للاحتفاظ بالسلطات المطلقة بالهيمنة على الدساتير. فقاومت الجامعات الاستبداد الملكى. وكان يساندها فى ذلك البرجوازية التى كانت تخشى ـ بعد سقوط نابليون ـ من عودة النبلاء والنظم الإقطاعية، كذلك طالب المثقفون باحترام الحرية الفردية وحرية الصحافة وحق الحصول على دستور للشعب. وأصبح المثقفون يعتبرون أنفسهم حماة الحرية الفردية حتى لقد أصبحت الحرية ـ لدى المثقفين ـ هى الشرط الأساسى لتقدم البشرية.

وهؤلاء المثقفون كانوا أكثر القوى. تعلقا بالمبادئ التى أطلقتها الثورة الفرنسية وهؤلاء المثقفون كانوا منتشرين فى أوربا وخاصة فى مدنها الكبيرة. حقيقة لم تكن هناك اتصالات توحد بين قوى المثقفين فى المدن الأوربية المختلفة، ولكن أصبح انتصار حركة تحررية فى إحدى الدول الأوربية يؤدى إلى

انتقال الحـركة إلى المراكز الأخرى، وإلى ظهور حـركات متقاربة أو متـعاقبة فى مختلف أجزاء أوربا ولكن دون أن يكون هناك تنسيق بين هذه الثورات.

ومن هؤلاء المثقفين ظهر فلاسفـة كبار أرادوا أن يضعوا لأوربا قواعد تسير على أساسـها العلاقات الأوربيـة الجديدة. من أمثـال كارل كراوس K. Krouse وهنرى سانسيمون H.de Saint-simon وقد دعيـا إلى تضامن أوروبى أو ما يـشبه الاتحاد الفيدرالى بين الدول الأوربية، وكان سـان سيمون يدعو إلى أن تعمل مثل هذه المنظمـة الأوروبية على ضمـان السلام وحل المشكلات بـين الدول،وكذلك ستعمل على تنـمية الاستعمار الأوربى. وساعدت المآسـى التى صاحبت الحروب النابليونية وتلك الأفكار الفلسفية على ظهور عهد المؤتمرات الأوروبية التى هدفت إلى حل المشكلات الأوروبية على مائدة ممثلى الدول الكبرى.

كان أول هذه الاجتـماعات الدورية بشأن فـرنسا، وعقد المـؤتمر فى اكس لاشابيل فى ١٨١٨. وكان قـد مضى على تولية لويس الثامن عـشر الحكم ثلاث سنوات استطاعت فرنسا أن تقف على قدمهـا خلالها. وأن تدفع الغرامة الحربية، وأن تطالب بسحب جيوش الحلفاء منهـا. وأصبحت فرنسا بذلك مرة أخرى دولة كبرى لها مقعدها فى المؤتمرات.

أما مؤتمر تروبار ١٨٢٠ فكان إسكندر ـ قيصر روسيا ـ يؤكد فيه أن من حق دول الحلف المقدس والحلف الرباعى، أن تقضى علـى الثورات الشعبية الموجهة ضد الملوك والمـطالبة بالدستور. وكان المـؤتمر نفسه قد دعى للـنظر فى موقف هذه الدول الأوربية الكبرى من الثورات الشعبيـة التحررية فى أسبانيا ثم فى غيرها من البلاد الثائرة مثل نابلى والبرتغـال وبيدمنت. وكان الإسكندر يصر على تدخل جماعى ضد الثورات الشعبية ومؤازرة الـملكيات. ورأت إنجلترا أن من مصلحتها أن تقف فى صف الشعوب باللسان والصحافة فقط، بينما تدخلت النمسا بجيوشها ضد الشعوب فكان أن قضت على التمرد فى نابلى وبيدمنت.

ويعتبر عهد المؤتمرات النتيجة الطبيعية لهزيمة نابليون. حيث لم تكن هناك دولة واحدة قـوية قادرة على أن توجـه أمور أوروبا. فضلا عـن أن أوروبا كرهت فكرة تسـلط دولة واحدة عليـها، وخاصة إذا كـانت هذه الدولة فرنسـا، وإذا كان

الرجل نابليون نفسه أو من سلالته. ومن هنا خرج الحلف الرباعى إلى الوجود (روسيا، النمسا، بروسيا، إنجلترا) وخرجت فكرة عقد اجتماعات من وقت لآخر لمواجهة المشكلات الأوربية وإيجاد حل دولى لها.

كذلك عقد (الحلف المقدس) الذى دعا إليه قيصر روسيا إسكندر وأخذ كل من القيصر الروسى، وكاسلريه وكان كل منهما يريد ان يوجه أوروبا ـ على أساس من هذا الحلف المقدس (بالنسبة لروسيا) أو على أساس التحالف الرباعى (بالنسبة لإنجلترا)، فاصطدم الطرفان ولكنه ليس صدام مبادئ كما يراه المؤرخون الإنجليز.

وعندما تأزمت أوضاع الملوك بسبب توارث نابلى، وبيدمنت وأسبانيا عقدت الدول الكبرى الخمس مؤتمر تروياو ١٨٢٠ حاول إسكندر أن يفرض على الدول الكبرى أن تقوم بعمل عسكرى موحد ضد الشعوب الثائرة على ملوكها فاعترضت بريطانيا على ذلك أشد الاعتراض فى مذكرة سياسية مطولة أيد فيها الثورات الداخلية على أساس أنها هى التى تؤدى إلى تغيير نظام الدولة الاستبدادى إلى نظام ديمقراطى.

ويرى المؤرخون الإنجليز أن بريطانيا كان لها الحق كل الحق فى أن تسخر من ذلك «الحلف المقدس» المسيحى الذى وضع لخدمة الملكيات المستبدة وللقضاء على الحركات التحررية لدى شعوب أوربا. ويرون أن إنجلترا أصرت على أن تحفظ السلام عن طريق (الحلف الرباعى). والواقع أن إنجلترا كانت تقف إلى جانب الفكر الصليبى إذا وجدت أنه يخدمها مثل الثورة اليونانية (١٨٢١) ضد الدولة العثمانية التى كانت قد أخذت شكلا دينيا فى أوربا إلى جانب الشكل القومى. كما أن بريطانيا أيدت حركات التحرر فى أميركا اللاتينية، لا حبا فى حرية هذه المستعمرات وإنما لأن تحريرها من السيطرة الأسبانية سيجعل لبريطانيا دورا أكبر ـ ولو اقتصاديا على الأقل ـ فى هذه المستعمرات بعد استقلالها. ولهذا أيدت ثورة اليونان واستقلال بيرو والبرازيل وكولومبيا، وأيدت كذلك استقلال البلجيك لأن كل هذه الحركات كانت تعطى لبريطانيا تفوقا على الدول الأخرى فيها، بينما ضربت بريطانيا فى ١٨٤٠ الصين بقسوة لمجرد أنها أرادت منع دخول

الأفيون (البـريطانى) إليها، كما قـضت بقسوة بالغة على الـثورة الهندية (١٨٥٧) المطالبة بخروج الإستعمار الإنجليزى من البلاد.

وأدت الثورة القومـية الدينية اليونانيـة ضد الدولة العثمانـية إلى دعوة الدول الكبـرى لوضع سياسـة موحدة إزاءها (١٨٢١) (مؤتـمر فيرونا). والـملاحظ أن الدول الأوروبية اتـخذت من هذه الثورة الـيونانية ومن حـركة التحرر فـى أمريكا اللاتينية مواقف مختلفة.

١ ـ فبـريطانيا التـى أسهمت فى تحـرير بيرو والبـرازيل كانت تؤيـد الثورة اليونانية لأن ذلك يوهن من قوة الدولة العثمانية وأسبانيا ويجعل مكانة إنجلترا فى الحوض الشرقى للبحر المتوسط أكبر عن ذى قبل.

٢ ـ أما مترنيخ ـ الوزير النمسـاوى ـ فكان يرى أن ثورة اليونانيين ما هى إلا تمرد شعب على مليكه الشرعى، ومن ثم فلا يجدر بالدول الكبرى أن تتدخل إلى جانـب هذه الثورة، ولهـذا كرهت الـدول الأوتوقراطيـة الثلاث النـمسا وروسـيا وبروسيا (الحلف المقدس) تدخل إنجلترا لمساندة الثورات التحريرية.

ووقفت بريطانيا موقفا حازما شديـدا ضد محاولات السلطان العثمانى لإعادة السـيطرة على الـثورة اليـونانية وبـعثت أسطـولها إلى الـيونان ودمـرت الأسطول المصـرى والعثمانى والـجزائرى فى موقعـة نوارين(١٨٢٧) ولكنها لـم تـتخذ إلا موقف الحمـاس الخطابى بالنسبة لأحـداث مشابهة،وذلك عندما قـضت الجيوش النمسـاوية على ثورة بيدمـونت ونابلى، وعندما قـضت جيوش فرنسـا على ثورة شعب أسبانيا المطالب بالدستور.

وكانـت هذه التطورات سـببا فى أن يـعجل الإنجلـيز بالقـضاء على عـهد المؤتمرات وسياسة عقد الاجتماعـات الدولية عندما أعلن الوزير البريطانى جورج كانـنج G. Canning أنه على كل دولة أن ترعى مصلحتـها. وأسباب هدم بريطانيا لنظام المؤتمرات الدولية هى:

١ ـ أن الدول الكبرى الأربعة فى القارة الأوربية كانت متعادلة، فلا تستطيع واحدة أن تفـرض رأيها؛ ولهذا كانـت مصلحة بريـطانيا أن يبقى الأمـر على هذا

الوضع حتى لا تتغير موازين القوى فى أوربا، فى الوقت الذى تظل بريطانيا متفوقة فى المستعمرات.

٢ ـ أن بريطانيا فى اجتماعات تلك المؤتمرات كانت مجرد واحدة فى مواجهة أربعة أصوات. فهى لا تزيد عن كونها عضوا له صوت واحد عند إصدار قرار من القرارات. وبذلك تفقد إنجلترا مكانتها كقوة قادرة على أمور أوربية.

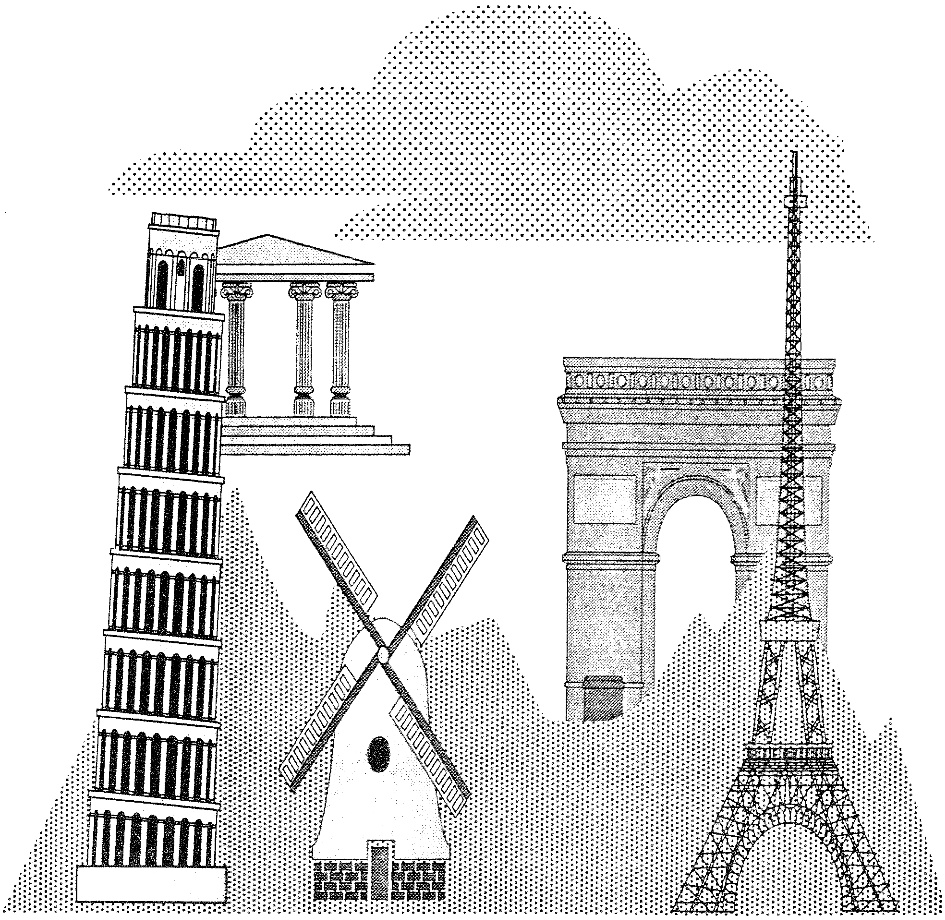
٣ ـ أن الاجتماعات يمكن أن تتحول الى محاكمة لأعمال الدول. وبريطانيا كانت فى غير حاجة لمثل هذه الأمور التى قد تتطور ضدها فى القارة والمستعمرات.

وبانتهاء عهد المؤتمرات عادت الدول الكبرى فعلا تدبر أمورها بطريقتها التقليدية التى كانت تتبعها قبل عهد الثورة ونابليون. والشعوب نفسها أصرت على أن تعاود الكرة بالثورة والتنظيم من أجل الحصول على استقلالها القومى، وعلى حكم دستورى شعبى، ومن ثم أصبح الحكم الفردى وجها لوجه أمام مطالب الشعب فى الحكم الدستورى. وستكون الفترة بين ١٨١٥ حتى ١٨٤٨ فترة مليئة بالمحاولات الثورية الدموية من أجل القومية والحرية فى مواجهة النمسا بالذات، وفى مواجهة البوربون فى فرنسا، فإذا كان لويس الثامن عشر قد استطاع أن يمسك العصا من الوسط، فإن شارل العاشر كان مستبدا متطرفا فى حقوق الملكية، فكان أن وقعت ثورة ١٨٣٠ الكبيرة.

الفصل الخامس عشر

عودة البوربون وسقوطهم النهائى

فرنسا تحت حكم لويس الثامن عشر وشارل العاشر إلى لويس فيليب



كان لويس الثامن عشر قد عاد فى ركاب الحلفاء ليحكم فرنسا بعد نكبتها، وكان عليه أن يتحمل نظرة الاحتقار من شعب ثار على البوربون، وطردهم، ليعود ملكهم الجديد فى ركاب الغزاة. فلقد ظلت عظمة نابليون المهزوم تتفوق على عظمة الملوك والقياصرة المنتصرين. لقد أصبحت فرنسا تعيش فى دوامة مروعة. فصاحبة المبادئ السامية أصبحت هى الواقعة تحت نير الاحتلال. وكانت هى المطالبة بالدستور فإذا بها تحت مليكة بوربونية بغيضة النظام وصحافة مكممة الأفواه وإن كان ذلك بقدر محدود. وكنيسة تريد أن تستعيد سلطاتها وأملاكها فى مواجهة اتجاهات علمانية قوية متفوقة.

إزاء هذه الأوضاع اتبع لويس الثامن سياسة يمكن أن توصف بأنها مسك العصا من الوسط «فلم يندفع فى المطالبة بحقوق الملكية الإلهية وإنما أراد أن يحكم كملك دستورى. وأبقى على قوانين نابليون لأنها فى الحقيقة كانت أحسن ما يمكن أن يدير أمور الدولة بطريقة منتظمة، وأرضى المهاجرين دون سحب ما بيد الفلاحين من أرض أو حقوق اكتسبوها خلال عهد الثورة ونابليون، وعمل على تحرير البلاد من الاحتلال، ودفع الغرامة المفروضة على فرنسا.

ولقد ساعده على تنفيذ هذه السياسة المعتدلة أنه اعتمد على عدد من الوزراء المخلصين، حتى رفعوا فرنسا من مستوى الدولة المهزومة إلى مستوى الدولة التى لها دور فى توجيه السياسة الدولية. بل استخدمت جيشها فى أسبانيا ضد الثورة الشعبية المطالبة بالدستور (١٨٢٣).

ولا شك أنها منجزات كبيرة فى وقت قصير. فكيف استطاعت فرنسا المهزومة أن ترتفع بسرعة إلى هذه المستويات ؟ لقد كان ذلك يرجع إلى أن بريطانيا كانت فى حاجة إلى فرنسا كقوة مناهضة للتفوق النمساوى والروسى فى أمور القارة،وبالتالى كان من مصلحة إنجلترا أن تتخلص فرنسا من كبوتها بسرعة لتلعب دورها فى السياسة الدولية بما يتمشى مع الأهداف البريطانية العامة.

كذلك كانت الاتجاهات فى فرنسا تسير نحو سياسة الوفاق والتفاهم مع بريطانيا،وبالتالى سيبدأ عهد جديد من العلاقات الفرنسية ـ الإنجليزية المتعاونة فى المجالات السياسية الدولية، على أن ذلك لم يمنع من تنافسهما فى كثير من النواحى الأخرى، مثل الاستعمار، ولقد أدى هذا التعاون الفرنسى الإنجليزى إلى عدم نشوب حرب بينهما منذ ١٨١٥ حتى الآن. وارتفع هذا التعاون فى بعض الأحيان إلى أعلى المستويات خلال حرب القرم (١٨٥٤ ـ ٥٦) وخلال الحرب العالمية الأولى وما بعدها. ولقد كان التفاهم الإنجليزى الفرنسى الذى بدأ منذ أيام لويس الثامن عشر بداية لهذه الفترة الطويلة من العلاقات السلمية بين فرنسا وإنجلترا.

هذه السياسة المعتدلة التى سار عليها لويس الثامن عشر أعقبتها سياسة متطرفة على يد خليفته شارل العاشر الذى كان يعرف باسم كونت دارتوا المعروف بأنه كان أشد أنصار الملكية تطرفا ضد الثورة ونابليون وضد الحكم الدستورى.

وكان عليه ألا يظهر هذه الميول العدائية ضد الحكم الدستورى فى أول الأمر حتى يستطيع أن يثبت نفسه فى الحكم. ومن هنا أعطى الفرصة لإعادة الملكية البوربونية المطلقة إلى ما كانت عليه قبل ثورة ١٧٨٩ .

كان شارل العاشر شديد التأييد للكنيسة الكاثوليكية. ويرى أنها القوة التى يجب أن تستند إليها الملكية البوربونية العائدة إلى جانب قوة النبلاء إذا أرادت الملكية البوربونية أن تستعيد سابق سلطاتها فى الحكم والإدارة. وأقدم شارل على القيام بمجموعة من المظاهر تدل:

أولا: على شدة التعصب للأفكار والأوضاع التى كانت قبل الثورة الفرنسية. بل كان بعض تلك الأفكار يرجع إلى العصور الوسطى.

ثانيا: على أنه كان يعتقد أن قدرات الشعب الفرنسى العسكرية قد قضى عليها، وأن تعاونه مع رجال الدين كفيل بأن يمكنه من فرض سلطاته، وإن وضع قيادات مخلصة له على رأس الجيش كفيل بأن يقضى على أية ثورة ضده.

ولكن شارل العاشر لم يفطن إلى أن المجتمع فى أيامه كان قد تغير عن

مجتمع ماقبل الثورة الفرنسية، وأن تلك الأساليب التى كان بواسطاتها يمكن السيطرة على فرنسا قبل ١٧٨٩ أصبحت أعجز من أن تحمى صاحبها.

فقد كان المجتمع فى باريس علمانيا ينظر بعين الحذر الى استعادة الكنيسة لبعض نواحى النشاط القديم التى كانت تمارسها. وكان المجتمع الباريسى يرى أن هذا التحالف الجديد بين الملكية المستبدة ورجال الدين سيعيد الأمور إلى ما كانت عليه قبل ١٧٨٩.

ومما زاد من بلبلة الأفكار أن شارل العاشر، بتوجيه من الكنيسة ، وجه حملات قوية ضد ما كان يسميه الإلحاد والملحدين. وكان المجتمع العلمانى فى نظر شارل العاشر ورجال الكنيسة المتعاونين معه، على هذا الأساس ملحدا. ومن هنا جاء الصدام بين الملكية البوربونية والكنيسة من جهة والمجتمع الباريسى والمثقفين من جهة أخرى، وخاصة عندما أصبحت فكرة الإلحاد تستخدم للنيل من دعاة الفكر الشعبى والحكم الديمقراطى.

وعندما لقى شارل العاشر بعض النجاح فى مسيرته نحو الحكم الملكى المستبد المعتمد على الكنيسة تابع خطواته. وكان لابد له ليحقق أهدافه أن يكمم الصحافة وأن يوقف البرلمان عن العمل. وكان يعتقد أن الظروف قد أصبحت مواتية عندما نشط شارل العاشر من سياسة فرنسا الخارجية. وجعل لها مكانة أقوى فى نظر الدول بأن نافس الإنجليز فى مشكلة بلجيكا، وإرساله الجيوش لغزو الجزائر. ولقد كان شارل العاشر يعتقد أنه باتباعه سياسة خارجية نشطة، يستطيع أن يبعد أنظار شعبه عن حقوقه الدستورية وعن حقوق الصحافة التى وضع عليها القيود الصارمة. ولكن شارل العاشر بإصدار مراسيم ضد الصحافة والبرلمان جعل الشعب الفرنسى مرة أخرى فى مواجهة التاج البربونى. فكان أن وقعت ثورة ١٨٣٠.

لقد كانت القوى المعارضة لشارل قادرة على تحويل السخط إلى تذمر ثم إلى ثورة. وكانت لدى الملكية قوة عسكرية قادرة على أن تحرز نصرا محدودا فى معركة مكشوفة، ضد جيش منظم، ولكنها أصبحت تواجه قوة ثورية تحصنت وراء المتاريس. وأصبحت أنباء كل معركة صغيرة أو كبيرة تنشر بين الناس وكأنها

مثـال رائع من البطولة. وكـان من المتعـذر تماما عـلى شارل العاشـر وقواته أن يفرضوا الاستسلام على الثوار، وكانوا من المثقفين يسندهم شعب باريس. ولهذا لم يجد الملك بدا من أن يفر خاصة بعد أن تيقن أن القوة الشعبية قد اكتسبت ثقة بنفسها ولا يمكن أن يقضى عليها بالحديد والنار.

ويرجع نمـو الحماس الـكبير إلى أن زعـماء الثورة كـانوا يضمون عـناصر جمـهورية وكـذلك عناصـر بونابرتيـة. وكل من الفكـرة الجمـهورية، والمـجد النابليـونى كفيل بأن يلهـب الحماس الفرنسـى خاصة إذا كان المبـدأ الذى كانوا يسعون إليه كان مبدأ ساميا من مبادىء الثورة الفرنسية.

ومما ساعد الثورة على النجاح أنها لقـيت تشجيعا من كبار رجالات الدولة من أمثال تاليران ولافاييت وكافينياك.

وفى اعتقـادنا أن الفرنسيين كـانوا مستعدين لـلمشاركة فى ثورة كبـيرة ضد حكومـة البوربون لأن هذه الـحكومة لم تسـتطع أن تتجـاوب مع النمـو الفكرى السـريع فى الـبلاد. وهو نـمو كـان يخل بالـتوازن فى داخـل الأمة بيـن آمالهـا وإمكانياتها. كان المجتمع الفرنسى يريد تغييرا وكان ذلك الاختلال فى التوازن بين التفـوق الفكرى والفـلسفى والأدبى، وحـقيقـة تدنى نظم الحـكم البوربونـية فى الداخل، وكون فـرنسا مجرد دولة من دول أوروبـا فى مستوى أقل من بـريطانيا، كان كل هذا يجـعل الفكر الفرنسـى فى دوامة داخلية تسـتهلك كثيـرا من طاقات فرنسا دون أن تعطى فرنسا استقرارا دائمـا، مثل ذلك الاستقرار الذى كانت تتمتع به بريطانيا.

وأيا كان الأمـر فقد تضـافرت كل القـوى على القضـاء على ملكيـة شارل العاشر،وتم للثوار ما أرادوا عندما فر الملك فى يوليو ١٨٣٠.

ملكية لويس فيليب

١٨٣٠ ـ ١٨٤٨

كانت ثورة يوليو ١٨٣٠ ناجحة من حيث إنها أدت إلى فرار شارل العاشر من فرنسا ولكن هل كان من الممكن أن يحقق الجمهوريون والنابليونيون أهدافهم؟ وهل كان من الممكن تحقيق أهداف المثقفين بعد أن حققوا نصرهم الأول بإسقاط ملكية شارل العاشر؟

لقد كانت كل القوى فعلا ضد شارل العاشر. ولم تكن بعد هذه القوى متفقة على نوع الحكومة التى يجب أن تأتى بعده. ومن ناحية أخرى كان الموقف الدولى له أثره الكبير فى تحديد نوع الحكومة التالية. وكان لابد من الوصول إلى حكومة يمكن أن ترضى آمال الثوار، ولا تثير غضب الدول الكبرى. فقد كانت الدول الأوتوقراطية الثلاث الكبرى تخشى أن تتكرر الثورة الفرنسية لسنة ١٧٨٩ وتتعرض أوروبا لتطورات دموية على ذلك النحو الذى ترتب على ثورة فرنسا الكبرى. ومن ناحية أخرى كانت أوضاع أوروبا فى ١٨٣٠ غير تلك فى ١٧٨٩. فقد كانت قوى الثورة بين شعوب أوربا تنتظر عاملا مشجعا لتهب ضد الحكومات المستبدة ومن أجل حياة قومية مستقلة ديمقراطية.

ولقد كانت قوى الثورة الفرنسية فى الداخل على جانب من الحكمة، كذلك كانت القوى الدولية الأوتوقراطية على روية. فكان أن أعطيت الفرصة للوصول إلى حكومة معتدلة ترضى مختلف الأطراف إلى حد ما وإن كان إلى حين.

لقد كان إعلان الجمهورية يعنى عودة التحالف الأوروبى الأوتوقراطى ضد فرنسا. وكان عقلاء القوم يرون أن لا حاجة لفرنسا بتجربة أخرى قاسية كتلك التى أعقبت الجمهورية الأولى. وكانت لذلك الملكية الدستورية هى هدف عقلاء القوم. وفى نفس الوقت كانت ملكية بوربونية خالصة كفيلة بأن تثير أشد مشاعر العداء من جانب القوى الجمهورية والنابليونية، خاصة وأن أنصار عودة بيت نابليون كانوا قد أصبحوا قوة لها وزنها. إلا أن الموقف الدولى الذى كان يحول

دون إعلان الجمهورية هو نفسه الذى كان يحول دون ارتقاء أحد أفراد أسرة نابليون العرش. وتوصل عقلاء القوم إلى حل وسط:

١ ـ ملكية دستورية.

٢ ـ ملكها معادى للبوربونية المستبدة.

٣ ـ مؤيد للثورة الفرنسية وله تاريخ ثورى.

٤ ـ محبوب من جماهير الشعب، وخاصة شعب باريس الذى تحمل عبء الثورة الأخيرة.

٥ ـ ترضى الدول الكبرى الأوربية ولا تناصبها العداء.

وكانت هذه الصفات تتوافر إلى حد كبير فى لويس فيليب. فأبوه كان نبيلا ومن سلالة أورليان المنافسة لسلالة البوربون على عرش فرنسا. ووقف أبوه فيليب (مساواة) إلى جانب الثورة الفرنسية، وكذلك ابنه لويس فيليب. وكان لويس فيليب ميالا إلى العلمانية والتواضع عليه سمات البرجوازية الديمقراطية. وله الكثير من الأنصار فى صفوف الشعب. وأقدر على كسب ثقة الدول الكبرى من غيره.

ولقد أهلته كل تلك الصفات لارتقاء عرش فرنسا فى ١٨٣٠. وكان طبيعيا أن يسير فى سياسته الداخلية والخارجية على تلك الأسس المعتدلة جدا، فبالنسبة للسياسة الخارجية بصفة خاصة تجنب الصدام مع بريطانيا على اعتبار أن الصدام معها هو أكبر الأخطار التى تهدد سلامة فرنسا:

فبالنسبة لثورة بلجيكا، أمن التوصل إلى وضع حد لها بالمفاوضات والدبلوماسية بين حكومتى فرنسا وبريطانيا على أساس استقلال بلجيكا عن هولندا وحياد بلجيكا بضمان الدول الكبرى.

فلم يكن أهل بلجيكا يحتملون استئثار الهولنديين المسيطرين عليهم بالثروة وبالوظائف، فضلا عن الخلافات الدينية المذهبية بين هولندا وبلجيكا. فلما وصلت أنباء ثورة باريس ١٨٣٠ اندلعت ثورة البلجيك مطالبة بالانفصال عن هولندا. وخلال الثورة عرض الثوار على أحد أبناء لويس فيليب تاج بلجيكا ولكنه

رفضه حيث إن ذلك يعنى حربا بين فرنسا وبريطانيا. وكان إسناد العرش إلى ليوبولد الأول (أمير ساكس كوبرج) وخال الملكة فيكتوريا، يتمشى مع سياسة التفوق البريطانى فى المنطقة حيث إن وجود هذا الملك على عرش بلجيكا، وضمان حيدة البلجيك كان يجعل من هذه الدولة الجديدة قوة جديرة بأن تحد من نشاط فرنسا فى اتجاه الشمال.

كذلك أبى لويس فيليب أن يورط نفسه فى الثورات التى اندلعت فى إيطاليا ضد الحكم الرجعى.

نفض يده فجأة من تأييد محمد على ضد التدخل الأوربى وانضم إلى بقية الدول الكبرى لفرض تسوية ١٨٤٠/١٨٤١ عليه بتلك السياسات الخارجية أرضى لويس فيليب الدول الكبرى، ولكنه بدا أمام الشعب الفرنسى كملك غير جدير بتوجيه السياسة الأوربية بما يتلاءم ومكانة فرنسا المجيدة. فمع أنه أعطى فرنسا فترة طويلة من السلم (١٨٣٠ ـ ١٨٤٨) إلا أن تقدير قيمة السلم فى عصر يمجد البطولة لأمر متعذر خاصة إذا كانت بريطانيا تقوم بعمليات توسعية وحروب استعمارية ناجحة فى آسيا من وقت لآخر.

حقيقة استمرت عمليات الجيش الفرنسى فى الجزائر، واستطاع الجيش الفرنسى فى عهد لويس فيليب أن يصفى الثورة البطولية بقيادة عبدالقادر الجزائرى (١٨٤٧) ولكن ذلك لم يحل دون اتهام ملكية لويس فيليب بأنها كانت محدودة فى آفاقها الخارجية.

وفى المجالات الداخلية، عنيت ملكية لويس فيليب بإشباع رغبات المثقفين فى إطلاق حناجرهم بالخطب الرنانة فى البرلمان دون أن تتحول هذه الخطب البرلمانية إلى أحداث ثورية، أما فى المجالات الاقتصادية فقد ساعد عهد لويس فيليب على تطوير أساليب الإنتاج والنقل وعلى تنمية اقتصاديات البلاد الصناعية.

ومن أجل خدمات عهد ملكية لويس فيليب تنفيذه للتعليم العام فى كل أنحاء فرنسا، الأمر الذى يعتبرخطوة هامة تأخر تنفيذها بسبب الأزمات العديدة التى تعرضت لها فرنسا خلال عهد الثورة الفرنسية والحروب النابليونية وفترة محاولات النهوض أيام لويس الثامن عشر وشارل العاشر.

ومع ماقدمته ملكية يوليو من خدمات، إلا أنها لم تشكل صورة قوية لفرنسا لا فى الداخل ولا فى الخارج. فلقد وصفها أحد المؤرخين بقوله أنها لم تكن ملكية كاملة، ولا ديمقراطية كاملة، ولا إمبراطورية. كانت مزيجا غير واضح يرهق الفرنسى فى تحديد معالمه. وبالتالى كانت ردود فعل من الكراهية والاحتقار تتزايد بسرعة فى أواخر أيامها حتى تبلورت عناصر النقمة على هيئة قوى واضحة أصبحت فى ١٨٤٨ قادرة على التحرك فى ثورة كبيرة ضد لويس فيليب.

ماهى الظروف والأسباب التى أدت إلى تجميع القوى المعارضة ضد لويس فيليب فى ١٨٤٨م؟

لقد سبقت الإشارة إلى أن فترة السلام الطويلة (١٨٣٠ ـ ١٨٤٨) قد أصابت الشعب بنوع من الملل لا لأنه شعب يحب التهور فى المغامرات الخارجية ـ كما يقول المؤرخون الإنجليز، وإنما لأن الفرنسيين كانوا يرون الشعب الإنجليزى وهو يقوم بفتوحات كبيرة فى آسيا، بينما فرنسا محرومة من مثل هذا النشاط باستثناء النشاط الفرنسى فى الجزائر.

وبينما كان لويس فيليب يرى فى السلم والهدوء ضمانا للاستقرار ولبقائه فى الحكم كانت تطلعات الشعب وآفاقه واسعة للغاية،وتجلى ذلك خلال الاحتفالات الرائعة التى صحبت نقل جثمان نابليون الأول من سنت هيلانه إلى مقره فى الأنڤاليد. فقد بدا واضحا كم كان الشعب يتطلع إلى بطل كنابليون يعيد لفرنسا مكانتها. وضاعت قيمة السلم الطويل الذى حققه لويس فيليب أمام شخصية البطل القومى المسجى أمام الجماهير الحزينة.

ولاشك أن الجيل الجديد فى فرنسا ـ جيل لويس فيليب ـ كان عندما يقرأ تاريخ بلاده وعظمة نابليون وقدراته الفذة فى ميادين التشريع والتعليم والحرب، كان ينسى المآسى المروعة التى عانتها أوربا وفرنسا خلال سنوات الثورة ونابليون. فتطلع ـ ذلك الجيل ـ إلى إمبراطورية فرنسية جديدة. وأن قصيدة شعرية من نظم أعظم شعراء فرنسا (فيكتور هوجو V. Hogo) فى مجد فرنسا على يد نابليون

كفيلة بأن تطلق آمال الفرنسيين إلى آفاق جد بعيدة، حتى إذا مانظروا حولهم وجدوا ملكا هادئا مستكينا جعل مجرد المحافظة على عرشه أمله الأول.

وليس معنى هذا أن الفرنسيين الذين تطلعوا بشوق إلى عودة الإمبراطورية كانوا دعاة حرب وغزوات ولكنهم كانوا يرون فى الإمبراطورية مظهرا من مظاهر عصر الديمقراطية والإمبراطورية.

وترجع قوة المثقفين إلى أن باريس أصبحت هى المركز الأقوى لتوجيه سياسة فرنسا. وفى باريس كانت تتركز قوى المثقفين والصحافة. وهى قوى ناشئة شديدة الغيرة على ماتتمتع به من قدرات وماتحمله من آمال لفرنسا. ومن هنا كانت القوى التى تستطيع أن تثبت أقدامها فى باريس هى التى تستطيع أن تتحكم فى مقدرات فرنسا. ولقد حدث هذا فى ١٨٣٠ ومثله حدث كذلك فى ١٨٤٨.

وقوة الصحافة كانت هائلة. فإقبال الناس عليها كان عظيما. وقدرتها فى الإثارة كانت أعظم، ونظرا لأن متاعب وعثرات ملكية لويس فيليب كانت متعددة فإنها شحذت أقلام الصحفيين المتوثبة للنيل منه، خاصة فى قضية عادلة هى قضية توسيع نطاق حق الانتخاب، وجاء هذا فى وقت كانت فيه الاتجاهات الاشتراكية متصاعدة.

وكانت جماهير الشعب العازفة عن لويس فيليب والباحثة عن زعامة تحقق الشخصية الفرنسية تتنازعها عدة قوى يمكن أن نسميها قوى اليمين وقوى اليسار إلى حد ما. ولكن رغم هذا التنازع بين اليمين واليسار، فقد كان لويس فيليب أعجز من أن يكسب جانبا من هذه الجوانب.

لقد كانت الكنيسة، من أقوى العناصر المويدة للملكية، ولكنها كرهت فى لويس فيليب ميله لليسار، وللعلمانية، خاصة عندما جعل التعليم عاما ورفع يد الكنيسة عنه، كما كرهته الكنيسة لأنه كان يتقرب من المثقفين بدرجة كبيرة بدت فى نظر رجال الكنيسة وكأنها على حسابهم. بينما لم يستطع لويس فيليب أن يكسب إلى جانبه هؤلاء المثقفين، الذين كانوا أبعد منالا من يده، وكانوا أكثر قوة من الملكية،حتى لقد أصبح الشاعر والأديب الفرنسى لامارتين خطيبا للجمهورية

وداعيا مفوها لها يستطيع أن يكسب ـ إلى جانب الثورة ضد لويس فيليب ـ هؤلاء المثقفين بسهولة فى الوقت الذى كان فيه لويس فيليب لايستطيع أن يفعل شيئا.

لقد كان دعاة الجمهورية من القوة والكثرة لدرجة أنهم أصبحوا قادرين وحدهم على التحرك ضد لويس فيليب. وكان فى استطاعتهم أن يجدوا قوة كبيرة من جماهير الشعب تشد أزرهم ضد الملك حيث اتهم الملك بأنه وضع مقدرات البلاد فى يد البرجوازية دون أن يلقى بالا بهالة الفقر الشديدة التى كان يعانى منها الشعب فى بعض بقاع فرنسا.

ومع أن الفقر هنا نسبى، إلا أن الشعور بالفقر كان قويا بسبب تيار الأفكار الاشتراكية الذى كان منتشرا فى فرنسا حينذاك. كان السان سيمونيون يدعون إلى إعادة توزيع الثروات بالتساوى. وكان لويس بلان يدعو إلى إنشاء المصانع القومية.

وبينما فى نفس الوقت ردد برودون Proudhon أن الثورة تعنى السرقة، نادى كارل ماركس بصراع الطبقات كحل ضرورى لإنقاذ البروليتاريا من استبداد البرجوازية.

لقد ذاع الفكر الاشتراكى على يد عدد من الفلاسفة نتيجة لما ترتب عن الانقلاب والنمو الصناعى من تدهور فى أحوال العمال وفى أحوال الشعوب الكادحة ومن ظهور طبقات فى المجتمع مميزة تعيش على حساب الطبقات الفقيرة.

ولاشك أن التطور الصناعى خلال السنوات التى حكمها لويس فيليب كانت كفيلة بأن تبرز بعضا من المشاكل الإجتماعية الناجمة عن التصنيع. فقد أصبح الحرفيون يعانون من أزمة بطالة وتدهور فى الدخل بسبب استخدام الآلات. كما تزايدت أعداد العمال وانطلقت الهجرة للعمل فى المدن فازدحمت بالسكان بشكل يقضى على القيم الإنسانية للفرد، وانحطت الأجور، الأمر الذى أدى إلى تفاوت كبير بين طبقات ثرية وأخرى فقيرة،كل هذا أدى إلى شحذ أذهان الفلاسفة لإيجاد حل لهذه المشكلات الاجتماعية.

لقد كان أصحاب الأعمال يرون أنهم يبذلون من قدراتهم الفكرية ورءوس أموالهم مايجعل لهم الحق بكل قرش يمكن أن يحصلوا عليه سواء من طريق التجارة أو بتخفيض أجر العامل نفسه. ومن وجهة نظر الرأسمالية كان على العامل أن يجد بنفسه أعمالا ترفع من مستواه. وكانت هذه الموضوعات خطيرة عند البحث عن الحل إذ طرحت الأسئلة التالية:

١ ـ هل يتم إصلاح المجتمع إصلاحا تدريجيا؟

٢ ـ هل يعاد بناء المجتمع كله من جديد؟

٣ ـ هل يفرض التغيير بالثورة؟

٤ ـ هل يجب أن تقوم الحكومة بالتغيير والإصلاح؟

٥ ـ وما هو شكل هذه الحكومة التى ستقوم بالتغيير والإصلاح أو إعادة البناء؟

ويجب أن نضع فى الاعتبار أن كل هذا كان يدور فى وقت كانت فيه كل العوامل الموجهة للبلاد على شيء من التوازن وليس لواحد منها القدرة على السيطرة والتفوق.

ولقد لعبت الاتجاهات الاشتراكية دورا فى تطور فرنسا والعالم، ومع أن هذا الدور كان فى بدايته فلابد من أن نلقى عليه بعض الضوء؛ لأنه سيضع أمامنا الكثير من النظريات الاشتراكية المتعددة فى خضم ثورة كبيرة آمالها أوسع من إمكانياتها.

فالسان سيمونيون يعتقدون ـ تبعا لنظرية سان سيمون (١٨٢٥) ـ أن الحياة ليست سوى فترات متعاقبة من البناء والهدم. وكانت الثورة الفرنسية فترة هدم للنظام القديم. وأنه قد آن الأوان لفرنسا أن تبدأ عهد البناء. وأن على فرنسا إذا أرادت تحقيق هذا الهدف، وهو بناء اقتصاد صناعى متقدم، أن تهيئ حياة أفضل للعامل بصفة خاصة والمواطن الفرنسى بصفة عامة، وتهيئ لفرنسا رسالتها فيما وراء البحار عن طريق مد خطوط المواصلات بين أوربا (فرنسا) والشرق الأقصى عبر الشرق الأدنى.

وكان أتباع سان سيمون يؤكدون فى نفس الوقت على ضرورة التأكيد على الإيمان بالله بجعل حياة الفرد مستقرة وهادئة، فالإيمان بالله ورفع مستوى العامل هما صلب التقدم الأوربى. فلقد كان هدف سان سيمون الأسمى هو تنظيم المجتمع الأوربى على أساس من المبادئ المسيحية والقواعد الأخلاقية.

وكان من رأيه أن الارتفاع بالإنتاج وبمستوى العمال يعتمد أيضا على تركيز رءوس الأموال والسلطة الإدارية فى أيدى الفئة القادرة على الاستقلال أى رجال الأعمال. وحتى لايسىء هؤلاء استخدام رءوس الأموال هذه فلابد من وضعهم تحت رقابة دقيقة من جانب البرلمان. ويجب أن يوزع المكسب - فى رأى سان سيمون - على الجميع كل حسب مايستحقه، وألا تكون وسائل الإنتاج لشركة وإنما للدولة حتى لاتستأثر طائفة معينة بملكية وسائل الإنتاج أو المكاسب المادية.

وهناك من ينتقد سان سيمون بشدة من حيث إن آراءهم لم توضع لها الخطوات اللازمة لتنفيذها. وكانت مثل هذه المبادئ السامية تفهم وتدرك دون أن يتمكن المفكرون من إيجاد الوسيلة العملية لتطبيقها.

وقد نشر سان سيمون (١٧٦٠ - ١٨٢٥) آراءه فى مجموعة من المؤلفات أهمها:

١ - إعادة تنظيم المجتمع الأوربى فى عام ١٨١٤ Reorganisation de la Societe Europeene

٢ - الصناعة L'industrie فى ١٨١٧.

٣ - المنظم L'orgonisateur فى ١٨١٩/ ١٨٢٠.

٤ - النظام الصناعى De Systeme industriel فى ١٨٢١.

٥ - المسيحية الجديدة Nouveau christianisme فى ١٨٢٥.

أما شارل فوريه (١٧٧٢ - ١٨٣٧) فكان مؤمنا بالإنسان الذى يتعاون مع أخيه فى العمل والإنتاج فى جماعات محددة (phalanges) المعالم يختار كل فرد

فيها عـمله ودوره الإنتاجى فى خليه إنتاجـية صناعية ليوزع علـيهم فائض الأرباح بنسب حددها هو للعمال ولأصحـاب رءوس الأموال والمنظمين. ولقد كانت آراء فوريه Fourier أكثر واقـعية من آراء سان سيمـون ولكنها لاترتفع إلى المـستوى الذى تصبح فيه فلسفة عامة إنتاجيه إصلاحية يمكن أن تشمل كل أجزاء الدولة.

ونشر فوريـه Fourier آراءه فى مؤلفات عـدة ولكن يعتبر مؤلفـه الموسوم باسم عالم صـناعى جديد.. Nouveau monde industriel، من أهم مؤلـفاته قاطبة (١٨٢٩).

وأما لـويس بلان (١٨١١ ـ ١٨٨٦)، فقـد كان أشـهر من شـارك فى ثورة ١٨٤٨ وكانـت دعوته إلى أن تقـوم الحكومـة الفرنسـية بإنـشاء مصـانع تعاونـية Ateliers Sociaux عامـلا من عوامـل شهرتـه فكان علـما بارزا من أعـلام ثورة ١٨٤٨.

من أهم المبادئ التـى نادى بها لويس بلان Louis Blanc «حق العمل. Le droit au travail فحق العمل عنده حق من حقوق الإنسان بل هو أقوى الحقوق. وكان يهدف إلـى تغيير نظام المـجتمع الفرنـسى بالتدريج بطريقـة تؤدى إلى إلغاء المنافسة على اعتبار أن المنافسة هى أحد الأسباب الرئيسية فيما أصاب العمال من بؤس وفقر. والحل الذى وضعـه هو (المصانع التعاونية) التى تتـساوى فيها أجور العمال، وتوزيع الأرباح علـى العمال، وعلى الخدمات الاجتمـاعية والتوسع فى مشروعات (المصانع التعاونية).

ويرجع السبب لانتشار أفكار لويس بلان أنها وضعت برنامجا واضحا لعلاج مشكلة البطـالة والفقر، وتطلع إليها آلاف الـعمال والفقراء على اعتـبار أنها هى المنقذ لهم من التدهور الاجتماعى.

وقد بدأ لويس بلان فى نشر أفكاره هذه فى مجـموعة من المجلات العلمية منها:

1 - La Revue democratique.

2 - La ravue du progres cosial.

3 - La nouvelle Minerue.

4 - Les bon sens.

ونشر كتابه تنظيم العمل فى ١٨٤١ L'organisation du Travail

حقيقة كانت تلك الاتجاهات تهدف إلى رفع مستوى العامل والدولة. ولكنها كانت فى نفس الوقت تثير فى العامل والمثقف روحا ثورية شديدة النقد لحكومة لويس فيليب التى وقفت عاجزة ببرجوازيتها إزاء هذه التطورات الكبيرة.

ولكن كانت القوى الثائرة بصفة لاتستطيع أن ترتقى إلى مستوى القوة القادرة على استقطاب كل الطوائف والفئات والاتجاهات تحت لواء واحد.

فالملكيون لهم أنصارهم، وقادرون على وضع العقبات فى وجه الجمهوريين. وإذا كان صوتهم غير واضح، إلا أنهم كانوا موجودين ويمثلون قوة ضعيفة ولكن قادرة على إثارة المتاعب للغير.

والجمهوريون قوة واضحة، ولكن لم يكن من المستطاع تحديد حقيقة القوى الجذرية التى يعتمدون عليها. وهم برجوازية فى غالبيتهم تخشى هدم البناء وتدعو إلى الإصلاح التدريجى. وكانت برامجها الإصلاحية جذابة ولكن ماهو المدى الذى يمكن أن يذهبوا إليه فى عملية الإصلاح؟ كانت الإجابة صعبة.

والاشتراكيون مزهوون بأنهم ارتفعوا فوق المصلحة الشخصية، وأن كل ماعداهم لايضع نفسه فى خدمة الإنسانية المعذبة. ودعوتهم أخاذة ولكن ماهو نصيب هذه الدعاوى عند التنفيذ من العمق والأصالة؟ وإلى أى مدى تتطابق الفكرة الفلسفية مع واقع المجتمع ومع إمكانيات البلاد الاقتصادية وطبيعة العصر الإمبريالى؟.

ومع هذه التضاربات العديدة، كان هناك هدف واحد واضح لاخلاف عليه بين فئة وأخرى. وهو مبدأ الانتخاب العام. وهو مطلب وهدف للجميع. وكان من أشد أخطاء ملكية لويس فيليب أنها وقفت ضد هذا المبدأ. فتضافرت قوى متناقضة مع بعضها ضد لويس فيليب: الجمهوريون، رجال الكنيسة، النابليونيون، الاشتراكيون، المثقفون. حتى اضطر الملك إلى مغادرة فرنسا (١٨٤٨).

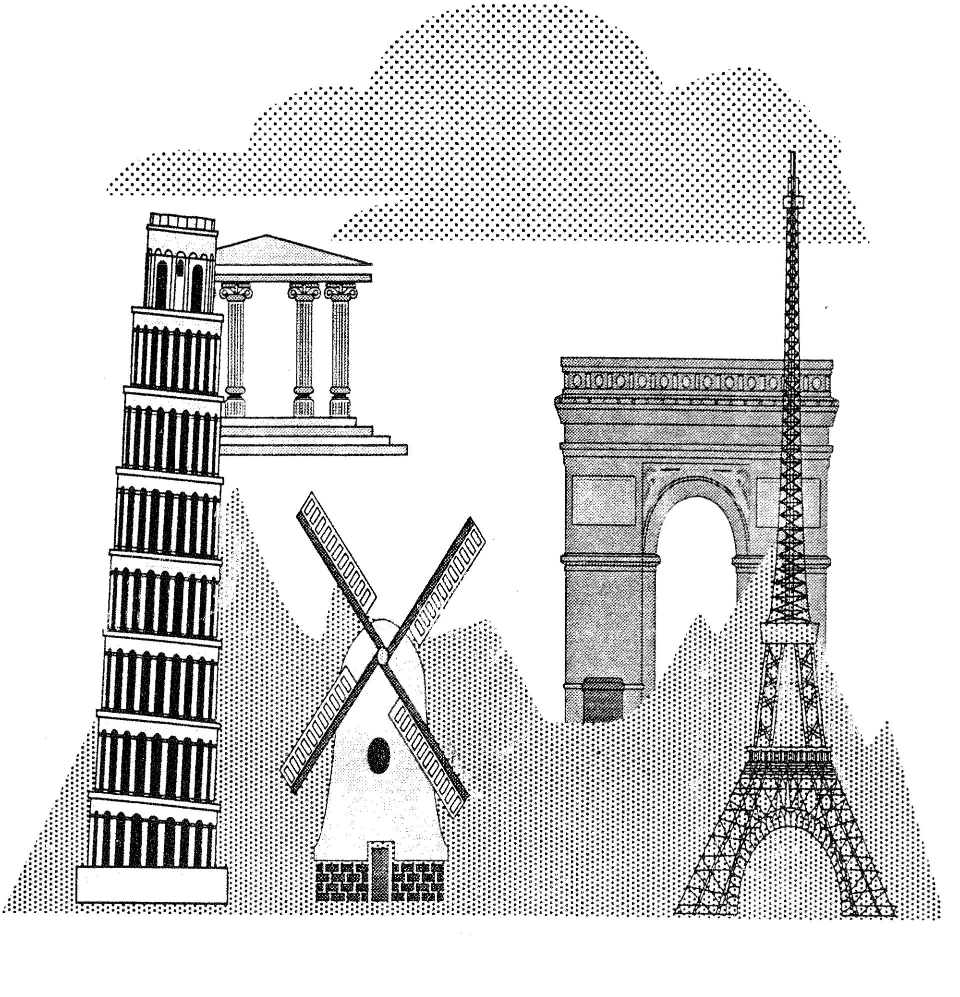
كان نجـاح الثورة الفرنـسية فى ١٨٤٨ سـببا فى اندلاع ثورات عـديدة فى مختـلف أرجاء أوربا أدت إلى تغيـير وجه أوربا قليلا ولـكنه تغيير سـيكون آثاره القوية فيما بعد: فى إيطاليا وفى ألمانيا وفى النمسا. ولمترنخ ـ السياسى النمساوى الكبير الرجعى كلمات خالدة فى هذا الصدد :

«. . . انتهى كل شيء. لقد عـادت أوربا إلى ١٧٩١ ـ ١٧٩٢ فهل سنفلت من سنة ١٧٩٣؟ . . . إن الـدار قديمة، وليـست من القوة بـدرجة تسمح بـفتح أبواب ونوافـذ فى الحـوائط. ومن اللازم أن تبـنى دار أخرى، ولـهذا، فليـست الأفكار هى التى تعوزنى ولكنها القوة والوقت هى التى تعوزنى».

لقد كان انهيار نظام لويس فيليب فى فـرنسا، ومترنيخ فى فيينا ـ تحت وطأة الثورات فى دولهم ـ فاتحة عهد جديد. ولكنـه ليس هدما للقديم كلية وإقامة بناء جديد للمجتمع. وإنما محاولة إعادة النظر فيما يجب أن يكون عليه المجتمع.

الفصل السادس عشر

من الجمهورية الثانية إلى الإمبراطورية الثانية



كان قـرار لويس فيلـيب من باريس بداية عـهد جديـد ملىء بالآمال الـكبار فتكونت حكومة مؤقتة من لامارتين (الشاعر الكبير نبى الجمهورية) وآجو وورولان وباجس، وقد اختير أعـضاء هذه الحكومة المؤقتة فى مكاتب صحـفيتين هما La National الاشتراكية وLe reforme الراديكاليـة. ولكن كانت اتجـاهات كل من هؤلاء تختلف عن الآخر. وسيكون لهذه الخلافات أثرها فى عدم وصول أى منهم للرئاسة رغـم اتجاهاتهم الجمهـورية، وكان من أهم الأعمال التـى كان على هذه الحكومة المؤقتة أن تقوم بها هو وضع دستور للبلاد. فتم انتخاب جمعية تأسيسية على أساس الاقتراع العام (مايو ١٨٤٨). وكان الناجحون فى هذه الانتخابات غير معروفى الميول وكلفوا بوضع دستور للبلاد وبدأت الجمعية تضع الدستور فى جو شديد الالتهاب. فقد كانت هناك دعوات لأن تـقوم فرنسا بإنقاذ الشعوب الأوربية من استبداد ملوكهم. ودعوات لتطبيق إصلاحات اجتماعية جذرية.

ولقد لعـب لامارتين دورا هاما فـى تهدئة هذا الجـو الملتهب. فـقد جنب لامارتين فرنسا حـربا ـ كتلك التى وقعت فى أعقاب الثـورة الفرنسية ١٧٨٩ ـ بأن اكتفى بأن تصدر الحـكومة المؤقتة إعلانا يمجد مبـادئ الحرية. وفى نفس الوقت وعد الشـعب بأن الحكومة ستـعمل على تدبيـر مجالات للعمل لـكل من يريد، وإنشاء المصانع القومية Ateliers Nationaux وإذا كان موقف الحكومة المؤقتة قد جنب فرنسـا حروبا خارجيـة فقد كانت وعود تـلك الحكومة بإصلاحـات جذرية اجتماعية سببا فى وقوع أزمات داخلية عنيفة دموية.

ويبدو أن الحكومة عملت على تهدئة ثائرة الاشتراكيين عليها بأن أعلنت عن مشروع كبير تحت عنوان المصانع الوطنية Ateliers Nationaux وأغلب الظن أن المشروع الفـرنسى لم يستطع حينذاك أن يفـرق بين (المصانع التعـاونية) التى دعا لويس بلان إلـى إنشائها و (المـصانع القـومية) التى أنـشأتها الحكـومة الفرنسـية المؤقتة.

فيـبدو أن الغـرض من وراء إنشـاء تلك المـصانع كـان امتـصاص العـمال

المتعطلين ولو مؤقتا حتى لا يصبحوا قوة فى يد لويس بلان يضرب بها الحكومة المؤقتة، فالمسئول الذى أسندت إليه الحكومة الفرنسية مهمة الإشراف على (المصانع القومية) كان معروفا بعدائه الشديد للويس بلان وللمبادئ الاشتراكيه، وكان هذا المسئول يدعى إميل توماس.

فقد سار تنفيذ المشروع فى اتجاه يتعارض تماما مع الأهداف التى نادى بها لويس بلان. فقد فتحت المصانع على مصراعيها لاستقبال العمال الذين وفدوا بكثرة إلى العاصمة. فبينما كانوا فى مارس ١٨٤٨ حوالى ٢١ألف عامل ارتفعوا فى أبريل إلى حوالى ١٠٠ألف عامل وإذا بتوماس يعلن عجزه عن إيجاد عمل لكل هؤلاء، الأمر الذى أدى إلى صرف مرتب ضئيل يومى للعمال الذين لم يجدوا عملا يقومون به.

وأجرت الجمعية التأسيسية تحقيقا فى أسباب فشل المصانع القومية بروح مليئة بالحقد على الاشتراكيين الذين كانوا يعملون سرا وعلانية، على إسقاط هذه الجمعية التأسيسية وتلك الحكومة المؤقتة. وتحول الصراع بسرعة إلى صدام مسلح بين السلطة الحاكمة وقوى العمال الثائرة خاصة بعد أن أعلنت الحكومة المؤقتة إغلاق المصانع القومية (٢١/ ٣/ ١٨٤٨) وبالتحاق العمال بالجيش أو بصناعات أخرى، إلا أن الجيش الفرنسى قضى على الحركة العمالية.

لقد خرجت الجمعية التأسيسية منتصرة، ولكن إذا كان من اليسير القضاء على الثورة العمالية فى وقت ما، فإن الحركة العمالية كانت كامنة متصاعدة مع نمو التطور الصناعى،الأمر الذى جعل الحكومات باستمرار تعنى بأحوال العمال وعلاج مشاكلهم. إلا أن مشاكل العمال نتيجة للتطورات الصناعية كانت بصفة عامة تتعقد بسرعة أكبر من مختلف علاجات الحكومة.

ولا شك أن تركيز السلطة فى يد حكومة برجوازية الاتجاه وجمعية تأسيسية محافظة كان عاملا حاسما فى توجيه ضربة شديدة إلى ثورة العمال. ومن ناحية أخرى كان الفلاحون الملاك - وهم أغلبية - يرحبون بالقضاء على مثل هذه الثورات الدموية ووضع الحكومة فى يد قوية.

وبينما كانت الحكومة المؤقتة لديها (حرس أهلى) مطيع تحت قيادة جنرال

قوى الشخصية مثل كافينياك، لم يكن العمال مسلحين، وكانوا بلا قيادة توحد حركتهم. ولذلك أدى الانتصار الحكومى إلى سقوط عشرة آلاف قتيل فى الصراع فى باريس، ولكنه أكد سلطة الحكومة وأنها يجب أن تعمل فى جو من الهدوء يجعلها قادرة على وضع مشاريعها موضع التنفيذ وخاصة فيما يتعلق بأعمال الجمعية التأسيسية الخاصة بوضع دستور للبلاد.

استأنفت الجمعية التأسيسية عملها، فأصدرت إعلانا جديدا بحقوق الإنسان، ثم وافقت على قانون الاقتراع العام للبالغين من الرجال. وعند وضعها الدستور سيطرت على الجمعية الاتجاهات الرئيسية التالية:

أ - إنشاء جمعية تشريعية بالاقتراع العام.

ب - تطبيق مبدأ فصل السلطات التنفيذية عن التشريعية.

جـ - سياده الشعب.

وبوضع الدستور أصبح على الجمعية التأسيسية أن تحدد نوع الحكومة المقبلة.

أ - هل تكون جمهورية رئاسية؟

ب - أم يكون الرئيس مجرد مسئول كبير لا يحكم؟

وأخيرا، اتفقوا على أن يكون الرئيس منتخبا بالاقتراع العام. وأن يشكل مجلس واحد نيابى بالاقتراع العام كذلك. ومعنى هذا أن السلطات التنفيذية ستصبح من بعد انتخاب الرئيس مجال نزاع بينه وبين المجلس النيابى. وتأكد ذلك فعلا.

كان الترشيح لمنصب رئيس الجمهورية مقصورا على أربعة هم لامارتين، وليدرو رولان وكافينياك ولويس نابليون.

كان لامارتين خطيبا جمهوريا، محبوبا، وكان ليدور رولان راديكاليا أما كافينياك فكان أشد أعداء الحركة الاشتراكية. ولكل منهم أنصار دون أن يكون واحد منهم قادرا على استقطاب أغلبية الشعب تحت لوائه.

أما المرشح الأخير لويس نابليون. فكان غير موهوب، وإن كان يعتقد أنه

صاحب رسالة تعيد مجد فرنسا على يد بيت نابليون. كان صلب العود يتلمس النشاط السياسى فى أى مكان فى فرنسا أو إنجلترا أو إيطاليا. وكان أيضا أمل الشعب الفرنسى لا لأنه قد يعيد مجدا عسكريا ولكن لأن الشعب فى حاجة إلى حكومة قوية تستطيع أن تسيطر على الأمور، وتستطيع أن تمكن فرنسا من اللحاق بإنجلترا فى ميدانى الاستعمار والتقدم الاقتصادى والتفوق العسكرى. ففاز لويس نابليون كرئيس للجمهورية الثانية فى فرنسا (ديسمبر ١٨٤٨) بتفوق ساحق.

هل كانت أفكار لويس نابليون تنسجم مع الديمقراطية الناشئة؟ إلى أى مدى كانت اتجاهاته نحو الحكم المنفرد؟ وكيف تمكن من ذلك؟ إن الإجابة على هذه الأسئلة تتطلب منا أولا تحليلا لأفكار لويس نابليون.

فبالنسبة للحكم البرلمانى، كان يعتقد أن عهد البرلمانات آيل للزوال. وإنه قد أصبح من الضرورى أن يتصل الرئيس بالشعب، وأن تكون الهيئة التنفيذية أيضا على اتصال مباشر بالشعب، وبالتالى فالمجلس النيابى لا يجب أن يكون له الدور الرئيسى باستمرار. ولكن لويس نابليون كان هو فى حاجة إليه ولذلك تعاون معه ليتمكن من ضرب التمردات التى يثيرها خصوم لويس نابليون من أمثال ليدرو - رولان.

لقد تحالف مع المجلس النيابى ضد الحركة الاشتراكية والقوى الثورية. وتحالف مع الكنيسة الكاثوليكية كذلك ضد هذا اليسار الخطر عليه. وكان يقلم أظافر القوى العمالية وينقص من عدد الناخبين توهينا لقوى المعارضة المثقفة فى المدن وأدخل تعديلات فى الدوائر الانتخابية تحقق هذا الهدف.

ولقد أجرى المجلس النيابى تلك التعديلات فى الدوائر الانتخابية بناء على توجيه من لويس نابليون. وكان ذلك ممهدا لأن يوجه هو ضربة شديدة إلى هذا المجلس النيابى الذى أصبح مكروها من الشعب. فحله فى ١٨٥١. ومع أن ذلك كان خروجا عن القواعد البرلمانية وأثار فى وجه لويس نابليون عاصفة من النقد إلا أنه عبر هذه الأزمة عندما شارك فى ضرب روسيا فى حرب القرم وفى مشاركته الفعاله فى توحيد إيطاليا، إذ أعطته هذه الأدوار مكانة عالية لدى الشعب.

بل لم يكن من اليسير على القوى المعارضة أن تثير ضجة عليه حيث إن

كل القوى كانت مهزوزة وغير قادرة على استقطاب أغلبية الشعب، ثم إن عهد المتاريس كان قد انقضى وأصبح بغيضا. والاشتراكية تلقت ضربة قوية فكرية وعسكرية أفقدتها توازنها لفترة طويلة والأحزاب الملكية المعارضة لبيت نابليون كانت مفككة. فكان أن تابع لويس نابليون خطواته نحو الحكم المنفرد إلى حد ما، إذ أعلن أنه سيعرض على الشعب مباشرة دستورا جديدا بعد حل الجمعية التشريعية. ونجحت مخططاته، فاستطاع أن يمد زمن رئاسته وأن يحصل على الموافقة على دستور يضع السلطات التشريعية والتنفيذية الحقيقية فى يده. فكان الطريق إلى إعلانه إمبراطورا أمرا يسيرا وتم له ذلك فى ١٨٥٣. وأصدر قرارات توطد انفراده بالحكم:

١ ـ سيطر على أجهزة التعليم فوضع التعليم الجامعى تحت رقابة الوزير وقرر منع تدريس التاريخ والفلسفة فى مدارس المعلمين، وشجع المدارس التى تديرها هيئات دينية.

٢ ـ أخضع الصحافة لسيطرته، وكانت الصحف المعارضة لا يسمح لها بالاستمرار فى الصدور.

إن هذه الإجراءات لتشير بوضوح إلى أن قوى المعارضة ـ التى بدا وكأن نابليون الثالث قد تغلب عليها ـ كانت كامنة فى المدن. ولقد كان هذا صحيحا إلى حد بعيد. ولكن مادامت مكانة فرنسا الدولية فى ارتفاع لم يكن هناك من يستطيع أن يحد من سلطات نابليون. ولقد استطاع نابليون الثالث أن يحقق لفرنسا مكانة كبيرة دولية فى حربين كبيرتين هما حرب القرم وحرب الوحدة الإيطالية.

ومع ذلك كانت المعارضة الداخلية لنابليون الثالث تنمو وكانت عاملا جوهريا فى جعله يعيد النظر فى نظام حكمه بما يكفل تخفيف حدة المعارضة على ألا يفقد اليد العليا فى الأمور الخارجية بصفة خاصة فعليها تتركز مقدرته على الاستمرار فى الجلوس على عرش إمبراطورية عمه (نابليون الأول).

وكان الملكيون: البوربونيون والأورليانيون قوة ضده ولكنها غير قادرة على التفوق عليه.

والمدن الفرنسية الكبيرة كانت تكره فيه استبداده، وكانت تجد شخصيتها

فى التصويت لجانب المرشحين المعارضين لنابليون الثالث فى الانتخابات البرلمانية.

وكان المثقفون - وعدد كبير من كبار أدباء فرنسا - ضد سياسته فى الاستبداد بالحكم وعلى رأسهم (تيير، Thiere، وميشيليه Michelet، ولوى بلان ورنان Renan وجورج صاند وفيكتور هوجو Victor Hugo وجول فافر Jules Fevrs وأوليفييه Olivier وداريمون Darimon .

وكان طبيعيا أن تقف الصحافة ضده وبجانب المثقفين. ولكن مما زاد من موقف نابليون الداخلى ضعفا أنه اتبع سياسة إزاء المشكلة الإيطالية عادت على إيطاليا بالخير، وعادت عليه بفقدان الأصدقاء سواء فى إيطاليا أو فى فرنسا نفسها.

فنابليون الثالث الذى بعث بجيوشه إلى إيطاليا وانتصر من أجل إيطاليا على الجيش النمساوى وأعطى الإيطاليين فرصتهم الكبيرة للاتحاد، نابليون بسياسته هذه مهد للقضاء على الولايات البابوية ووضعها فى يد فيكتور عمانويل (ملك سردينيا) فكانت غضبة الإكليروس الكاثوليكى فى بلجيكا عنيفة للغاية ضده وهاجمته بشدة صحيفة الكنيسة (العالم L'univers) وكانت الكنيسة وصحافتها من قبل قوة يعتمد عليها نابليون الثالث فى تقوية نفوذه فى داخل البلاد.

ومن الجدير بالذكر أن سياسته إزاء البابوية لم تفقده فقط عطف الكنيسة الكاثوليكية، وإنما زادت فى غضبة الأحرار الفرنسيين عليه حيث انتقده الأحرار بأنه دافع عن حكومة البابوية التى كانت تمثل تراثا رجعيا من العصور الوسطى.

كذلك انتقد نابليون الثالث بشدة بسبب مغامرته الطائشة فى المكسيك التى انتهت بإعدام الإمبراطور ماكسيمليان مرشح نابليون الثالث لحكمها.

وفقد كذلك عطف رجال الأعمال والتجاريين الفرنسيين؛ لأنه أقدم على عقد معاهدة تجارية مع بريطانيا ضاربا عرض الحائط بالرأى العام المعارض لتلك المعاهدة. حقيقة كان نابليون الثالث يريد عن طريق هذه المعاهدة أن يقوى أواصر العلاقات مع بريطانيا ولكن قدراته كمفاوض اقتصادى كانت ضعيفة الأمر الذى أفقده تأييد رجال المال الفرنسيين.

اتجه نابليون الثالث (١٨٦٩) إلى تعديل سياسته الداخلية على أساس إرضاء المعارضة بالعمل على إصدار دستور على النمط الإنجليزى، وتشكيل وزارة مسئولة، وفعلا تحققت بعض هذه الإصلاحات. ولكن التطور الكبير لم يحدث إلا فى أعقاب انتصار الجيش البروسى على النمساويين فى معركة سادوا التى تعتبر أيضا ضربة موجهة إلى نابليون الثالث وإلى فرنسا. وقد أعلن نابليون الثالث الإصلاحات البرلمانية التالية:

١ ـ حق المجلس النيابى فى إصدار التشريعات.

٢ ـ حق المجلس النيابى فى الرقابة على الميزانية.

ولكن لم يكتب لهذه الإصلاحات أن تعيش طويلا تحت حكم نابليون الثالث بسبب هزيمة فرنسا أمام بروسيا فى ١٨٧٠.

والواقع أن لنابليون الثالث ثلاث حروب كبرى كان لها أكبر الأثر على أوضاع فرنسا وهى:

١ ـ حرب القرم (١٨٥٤ ـ ١٩٥٦).

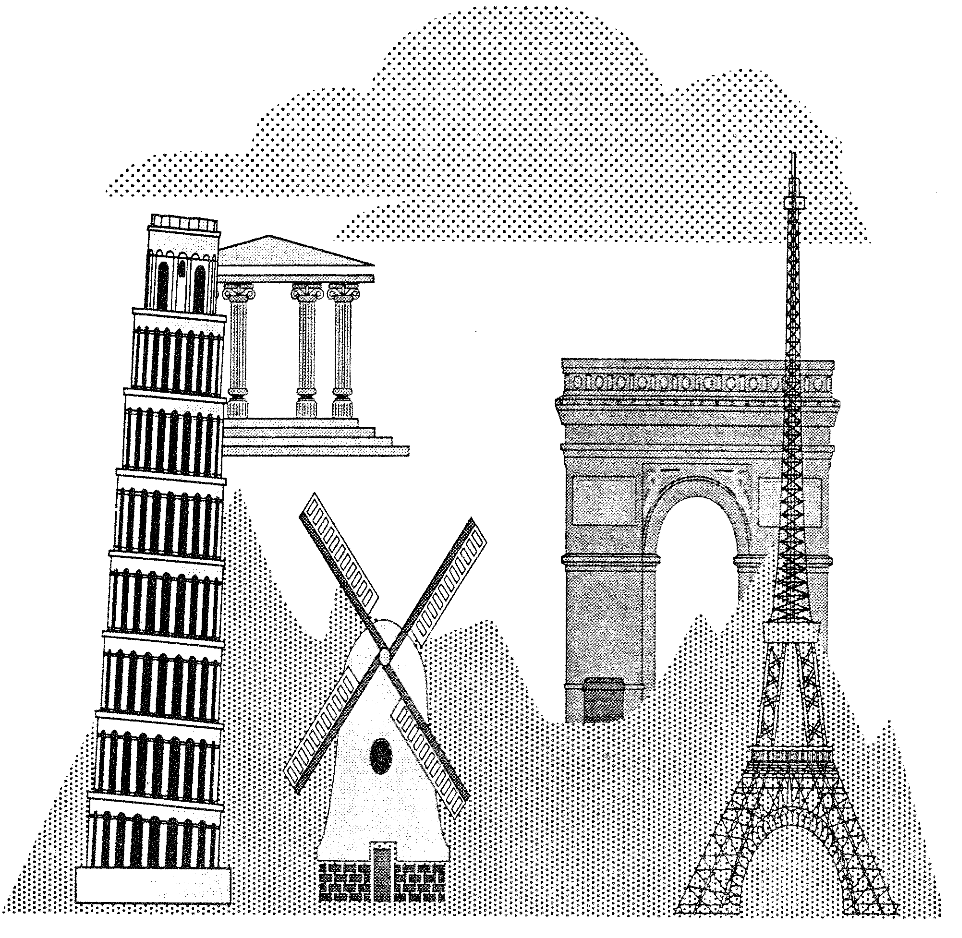
٢ ـ الحرب الإيطالية (١٨٠٩).

٣ ـ الحرب البروسية (١٨٧٠/ ١٨٧١).

وسنتناول هذه الحروب الثلاثة بنوع من التفصيل فيما يلى.

الفصل السابع عشر

حرب القرم
١٨٥٣-١٨٥٦



إن الظروف والأسباب التى أدت إلى حرب القرم لا تزال تثير الكثير من الجدل، وخاصة إذا ما وضعت الأسباب الدينية والمتعلقة بالطموح الشخصى موضع الاعتبار الأول. وهنا نكران كبير من جانب المؤرخ الإنجليزى الكبير تمبرلى للأسباب الاقتصادية التى أدت إليها، كما هناك إهمال كبير من جانب المؤرخين بصفة عامة للأسباب الاستراتيجية الدولية التى لها دور هام فى نشوب حرب القرم يمكن أن يكون هو السبب الأول ويليه العامل الاقتصادى وأخيرا العامل الدينى. وعلى هذا الأساس سندرس الظروف التى أدت إلى حرب القرم، والأسباب المباشرة وغير المباشرة لها.

العامل الإستراتيجى:

فى أعقاب الحروب النابليونية نشطت الاختراعات المتعلقة باستخدام قوة البخار فى وسائل النقل البحرى والبرى على المستوى المحلى ثم على المستوى العالمى. فقد أصبح القطار من وسائل المواصلات وكذلك البواخر والأخيرة لم تعد تستخدم فى أوربا فقط بل كذلك فى المحيط الهندى وأنهار الهند، الأمر الذى هيأ الأذهان لمشروع ضخم يقوم على أساس البواخر فى النقل من أوروبا إلى شواطئ الإسكندرية وبرا بالسكك الحديدية منها إلى السويس، وبالبواخر مرة أخرى إلى الهند أو بالبواخر إلى الإسكندرية وبالبر إلى نهر الفرات أو إلى دجلة (الموصل) ومنها بالبواخر إلى الهند مباشرة. ومعنى هذا أن الشرق العربى أصبح على جانب كبير من الأهمية لسرعة نقل التجارة البريطانية ـ التى أصبحت تنتج بكميات ضخمة والتى لا يستطيع طريق رأس الرجاء الصالح نقلها بالسرعة اللازمة إلى الهند، لطوله، ولعدم قدرة البواخر على قطع هذه المسافة الطويلة من أوروبا ثم حول أفريقية إلى الهند دون التعرض لمتاعب فنية تجعل تكاليف الرحلة غالية بدرجة تؤدى إلى أن ينتقى الهدف الاقتصادى من وراء إرسال المتاجر بواسطة البواخر إلى الشرق الأقصى أو جلب المتاجر منه إلى أوروبا فى الوقت المناسب. فأدى هذا الانقلاب الجديد فى خطوط المواصلات العالمية إلى ارتفاع قيمة العراق

ومصـر لدى كل من بريطانـيا (ذات المستـعمرات الواسـعة فى الشـرق الأقصى) وفرنسا (التى كانت تفكر بحماس فى مشروع شق قناة السويس أو فى مد خط برى لربط البحر المتوسط بالخليج العربى،فضلا عن تطلعات فرنسا الاستعمارية وحيث إن الدولة العثـمانية كانت لا تعارض كـثيرا، أو بالأحرى لا تستـطيع أن تعارض، مشروعـات بريطانيا وفـرنسا فى الولايات العـثمانية الـعربية، فإن ظهـور أية قوة أوروبيـة على مسـرح هذه الولايات سيـؤدى إلى إصابة الـمشروعـات البريطانـية والفرنسيـة بشلل كبير،والأخطر من ذلك علـى بريطانيا وفرنسا أن تسـتولى روسيا على القـسطنطينـية وأن تنطلـق الأساطيل الروسـية من البحـر الأسود إلى البـحر المتوسط.

وكان ستراتفورد دى رد يـكيلف ـ السياسى الإنجليزى ـ أكثر الـدبلوماسيين إدراكا للقيمة الإستـراتيجية والاقتصادية للشرق العربى، كـما كان هو الذى يعرقل المشروعات الفرنسية للمواصلات العـالمية عبر الشرق العربى أيضا. ومن ثم كان حصـول روسيا على تـفوق سياسـى فى الدولة العـثمانيـة يعنى السمـاح للروس بالانطـلاق إلى البحـر المتـوسط. وهو انطلاق يـهدد بالخـطر تمامـا المصـالح البريطانية والفرنسية. ولكن من وجهة النظر الروسية ـ وهى سليمة من وجهة النظر القومية الروسـية ـ كان هذا الانطلاق ليس سوى مساواة بـين كل الأطراف للعمل فى البحر المتوسط. وكـان هناك تساؤل:لماذا يعتبر احتلال روسيـا للقسطنطينية ـ وهو هدف روسى كبير ـ إخـلالها بالتوازن الدولى وتعديا علـى الحقوق وعدوانا لا يغتفر فى الوقت الذى لا يقال على الاحتلال البريطانى لمالطة ولجبل طارق نفس الشىء؟ إن الحـقيقة الـتى لا يبرزها المـؤرخون الغربيـون هى أن مفهـوم التوازن الدولى حيـنذاك أن يعنى فى أساسه بـقاء بريطانيا مـتفوقة وفـيما عدا ذلك يعـتبر إخلالا للتوازن الدولى.

إن ادعاء بريطانيا الدفـاع عن الدولة العثمانية المهيـضة الجناح أمام العدوان الروسى ليس سوى إخـفاء لهدف آخر هو أن السيـطرة الروسية على القسطـنطينية كانت تعنى إخلالا للتوازن الدولى من وجهة النظـر البريطانية، بينما كان تصحيح الاختلال فى التوازن الدولى من وجهة النظـر الروسية هو أن تكون لها قواعد على نفـس المسـتوى الذى كـانت تمـتلـكه كل مـن فرنسا وبـريطانيـا فى الـبحـر

المتوسط. ولتكن القسطنطينية هى هذه القاعدة. وحيث إن القسطنطينية لم تكن مجرد عاصمة عثمانية، وإنما كانت مفتاح البحر المتوسط فقد كان وقوعها سياسيا أو عسكريا فى يد الروس يؤدى إلى أن لا يصبح البحر المتوسط الطريق الهادئ إلى الهند بالنسبة للإنجليز وحيث إن الأسطول الروسى كان قد بلغ درجة من القوة قادرة على أن تسيطر سيطرة كاملة تقريبا فى البحر الأسود فى وجه أسطول تركى عثمانى ناشئ، فقد كان من الضرورى ـ من وجهة النظر الإنجليزية ـ تحقيق الأهداف الرئيسية التالية بعد وقوع الهجوم البحرى الروسى على ميناء سينوب العثمانى(١٨٥٣):

١ ـ منع الأسطول الروسى من التفوق الكامل فى البحر الأسود.

٢ ـ منع الأسطول الروسى من الانطلاق عبر المضايق إلى البحر المتوسط.

وإذا ما قارنا بين الهجوم البحرى الروسى على الأسطول التركى فى ميناء سينوب ١٨٥٣ والهجوم البحرى الإنجليزى على الأسطول الدنمركى المحايد ١٨٠١ لوجدنا أن الهجوم الثانى ينطوى على خرق كامل للقانون الدولى بعكس الهجوم الروسى على سينوب الذى وقع بعد إعلان الحرب على الدولة العثمانية.

لقد كانت المحافظة على كيان الدولة العثمانية ـ وهى السياسة التى اتبعتها وأعلنتها بريطانيا إزاء التوسع الروسى على حساب الدولة العثمانية ـ تخدم المصالح البريطانية، أولا وقبل كل شىء، فالدولة العثمانية بمثابة حاجز بين روسيا والبحر المتوسط. ولم يكن الوقت قد حان بعد ـ من وجهة النظر البريطانية ـ لاقتسام الدولة العثمانية وهو الاقتسام الذى كانت تدعو إليه روسيا.

وكان مما يزيد من خطورة روسيا على المصالح البريطانية فى البحر المتوسط، أن البلقان كان يتطلع لروسيا كحامية للسلافية، وكقوة صليبية أوروبية ضد العثمانيين والمسلمين. وكان هذا الميل الطبيعى من جانب البلقان نحو روسيا يخلق حنقا شديدا فى الدوائر البريطانية الكارهة لأى نفوذ روسى مطل على البحر المتوسط. ومن ثم كان على الدوائر البريطانية السياسية أن تفقد الشعوب البلقانية ثقتها فى روسيا. وهذا لا يتأتى إلا بتوجيه ضربة عسكرية قوية إلى روسيا.

العامل الاقتصادى:

لقد كانت روسيا خلال الفترة التى أُعقبت الحروب النابليونية معنية بزيادة حجم صادراتها وخاصة من القمح الذى يزرع فى مساحات شاسعة فى الإمبراطورية الروسية. وكان ميناء أوديسا من أهم الموانى التى تصدر عن طريقها قمحها. وكانت فى البلقان ولايتان عثمانيتان رومانيتان (ولاشيا وملداقيا) كانتا تصدران كميات كبيرة من القمح تنافس بشدة الصادرات الروسية وكانت لدى روسيا بعض النفوذ الذى يمكنها من التحكم فى صادرات القمح من الولايتين الرومانيتين، ولكن كان القيصر يريد سيطرة كاملة على هاتين الولايتين لهذا الهدف ولأنهما تمكناه من التحكم فى البلقان العثمانى بما يفسح لها المجال لفرض وصاية روسية ـ على الأقل ـ على أجزاء من البلقان إن لم تستطع السيطرة عليه كله.

ومن ناحية أخرى كان فتح البحر المتوسط أمام التجارة الروسية أمرا يزعج التجار والصناع الإنجليز الذين أضجرتهم الحواجز الجمركية التى وضعها القيصر لإنعاش الصناعة الروسية الناشئة فى الوقت الذى كانت البيوت الصناعية والتجارية الإنجليزية ترى فى روسيا مجالا متسعا لتصريف البضاعة الإنجليزية.

العامل الدينى والمذهبى:

لقد أصبحت روسيا فى الواقع بعد الثورة الفرنسية، الدولة الأوربية الكبرى الوحيدة التى تضع الفكر الصليبى فى مقدمة سياستها الخارجية. وكان كثير من الساسة الروس يتعجبون من أن أوربا لا تشد أزرهم ضد الدولة العثمانية زعيمة العالم الإسلامى. ولكن الفكرة الصليبية التى كانت تلقى ترحيبا لدى شعوب البلقان لم تكن كذلك لدى الفرنسيين أو الإنجليز الذين كانت لهم اتجاهاتهم الصليبية أيضا ولكن بشكل مختلف. فليس شن الحروب على طريقة الحروب الصليبية فى العصور الوسطى هو أسلوب العمل الصليبى المجدى لدى الإنجليز والفرنسيين فى القرن التاسع عشر فالتبشير أصبح من أهم الأساليب الجديدة.

وكان التبشير الإنجليز بروتستنتيا. وكانت الكنيسة القومية الإنجليزية فى

خدمة المصالح البريطانية إلى جانب خدمة الدين. وكذلك الكنيسة الكاثوليكية الفرنسية، كانت تخدم الأهداف الدينية إلى جانب الأهداف الفرنسية. وكان النشاط التبشيرى البروتستنتى فى الدولة العثمانية ناجحا تحت الحماية البريطانية، كما كان النشاط التبشيرى الكاثوليكى هناك ناميا فى وجه مقاومة تبشيرية بروتستنتية قوية. ولكنها مواجهات كانت تخدم فى النهاية أهداف التبشير المسيحى. فكان طبيعيا أن يدخل القيصر - رأس الكنيسة الأرثوذكسية - فى مجال هذا التنافس التبشيرى فى الدولة العثمانية. فكان أن وقع الصدام فى بيت المقدس بين رجال الدين الكاثوليك ورجال الدين الأرثوذكس ليتحول إلى مواجهة كبرى باسم الدين المسيحى، والحقيقة أن العامل الدينى كان أقل العوامل من حيث تحول الأزمة إلى حرب إلا أنه هو الذى ظهر كسبب مباشر لها.

الأسباب الشخصية:

والعامل الشخصى فى حرب القرم له أهميته، ولكن يجب أن لا نعطى له الأهمية الأولى، فلقد كان لشخصية القيصر، ولشخصية نابليون الثالث ولشخصية ردكليف (ستراتفورد كانتج) أثرها فى اشتعال نيران الحرب.

فبالنسبة للقيصر الروسى نيقولا الثالث كان قد اقتنع بأن الظروف أصبحت مواتية تماما لأن ينفذ ما عجز أسلافه عنه وهو اقتسام الدولة العثمانية على اعتبار أنه لو أقحم حربا على الدولة العثمانية واستولى على المضايق وجعل شعوب البلقان تستقل تحت حمايته وترك الإنجليز يحكمون مصر، فإن بريطانيا ستوافق فى الحال ويتحقق هذا الهدف الكبير بهذه الطريقة دون إراقة دماء أوروبية ولكن غاب عنه عدة أمور:

أولا: إن ساسة بريطانية كانوا يعتقدون أن زمن اقتسام الدولة العثمانية لم يحن بعد.

ثانيا: إن بريطانيا كانت تحتقر القيصر وشعبه وتنظر إليه وإلى شعبه على أنه فى مستوى أدنى من أن يتولى بنفسه هذه الأمور التى كانت فى نظر الإنجليز حينذاك تعديا على شعب الأتراك الصديق للإنجليز. ولقد لعبت الثقافة بمختلف مستوياتها دورا جوهريا فى تشويه سمعة روسيا بين الشعب الإنجليزى، فالشعراء

والصحفيون والـكتاب كانوا قساة على روسيا وعلى تأخـرها عن ركب الحضارة. مع أن هناك شعوبا أوروبـية أخرى كانت هى الأخرى متخلـفة ـ وإن كانت بدرجة أقل ـ ولكن كان يتحـدث عنها الأدباء الإنجليز بنوع خاص من التـقدير. والسبب فى هذا يرجع إلـى الفرد الإنجليزى ـ لطـول ممارسة الشـعب للسياسة والـتجارة العالمية ـ أصبح قادرا على معرفة أعداء بلاده وتوجيه إمكانياته ضده.

ومن هنا كانت كراهـية الإنجليز للروس تشمل الحكومـة والشعب على حد سواء وكانوا يرون فى حكومة القيصر قوة رجعية قوية الشكيمة ساعدت على كبت الثورات التحررية فى أوروبا، وخاصة فى كبت ثورة البلقان، وفى تأييد النمسا ضد بروسيا فى ١٨٥٠. وضخمت الصحافة الإنجـليزية من مساوئ الحكم القيصرى ـ وكان سيئـا فعلا. ولكن هناك حكم أشد سـوءا منه فى أسبانيا والنمـسا. ولكن لم يكن الهجوم الصحفى الإنجليزى على حكومات النمسا وأسبانيا بمثل القسوة التى كانت مـوجهة ضد قيـصر روسيا. وكان السـفير البريـطانى الأستانة (سـتـراتفورد كاننج) أورد كليف يدرك حقيقة كراهية الشـعب البريطانى وحكومته للقيصر. وكان رد كليف يحث دائما السلطان على أن يكون متـصلبا إزاء المطالب الروسية مؤكدا له أن بريطانيا بأسطولها وشعبها يقـف وراء الدولة العثمانية ضد روسيا. وكان هو نفسه يشـد أزر السلطان خلال أزماته مع القيصـر. وكانت الدوائر العثمانيـة نفسها تدرك هذا تمـاما. هذا فضلا عـن ان رد كليف كان له نفـوذ كبير جـدا فى داخل الدولة العثمانية حتى لقد أطلقوا عليـه (سلطان تركيا غير المتوج) وهى مكانة له، ولدولتـه بريطانيـا لا يمكن أن يتنـازل عنها بسـبب انتصـار روسى على الجـيش العثمانى.

ثالثا : كان قيصر روسيا كذلك مكروهـا جدا من نابليون الثالث ـ حيث كان الأخير يشعر بأن الاعتراف به إمبراطورا مـن الأمور الجوهرية. وكان قيصر روسيا ينظر بعين الحقد والحذر الشديد لعودة الإمبراطورية الفرنسية وتوقع من وراء ذلك شرا لروسـيا ولذلك لم يخاطـب نابليون الثالث بـكلمة (أخى) وهى الكلـمة التى تعارف علـيها الأباطرة فى تخـاطب بعضهم البـعض. ومن هناك كانت الـكراهية الشخصية بين نابـليون الثالث ونيقولا الثالث كفيلة بأن تـثير الأزمات. ومن ناحية أخرى كان نابلـيون الثالث يدرك كم أصبح قـيصر روسيا عدوا لإنجلـترا حكومة

وشعبا. فى نفس الوقت كانت سياسة نابوليون الثالث تهدف إلى توثيق التعاون مع بريطانيا فى مـجالات السياسة الدوليـة. فهو إمبراطور جديد يريـد أن يحرز مكانة عليـا لفرنسـا ولكن دون أن يتـورط مثل عـمه (نابلـيون الأول) فى حـروب ضد بريطانيا.

فلماذا لا يتعاون مع إنجلترا وفى نفس الـوقت يفتح مجالات لفرنسا جديدة فى السياسة الدوليـة، مثل تقليم أظافر روسيا دفاعا عن الكاثـوليكية، ودفاعا عن مشروعات فرنسا لخطوط مواصلات عالمية عبر الشرق الأدنى وكان نابليون الثالث فى حقيـقة الأمر يعمل عـلى كسب بريطانيا إلـى جانبه. ولكن هل كـان نابليون الثالث إلـى هذه الدرجة من الإسراف حـتى يقذف بجـيوشه وأساطيـله فى حرب طويلة مكلفة من أجل كسب تحالف بريطانيا؟ الواقع أن الخطر الروسى فى البحر المتوسـط على الأطماع الفرنسـية كان من الدوافع الرئيـسية التى دفعـت فرنسا أن تخوض حربا ضد روسيا تؤدى إلى حبس الأسطول الروسى فيما وراء المضايق فى البحر الأسود.

ومع أن النمسا كانت لها مـخاوفها من اتسـاع روسيا على حـساب الدولة العثـمانية خـاصة فى منطـقة البلقـان، وأنها ستـصبح مهـددة بذلك بقوة روسـيا المتزايدة خاصة لو خاضت روسيا حـربا ناجحة ضد السلطان، إلا أن النمسا أبت أن تدخل الحـرب ضد روسيا مكـتفية بالحـياد المسـتعد للتـدخل إذا لزم الأمر. ويرجع استمرار وقوف النمسا على الحياد إلى مهارة الروس فى عدم إثارتها. ومن ذلك أن وجود الجيوش الروسية فى الأفلاق والبغدان (ولاشيا وملداقيا) كان كفيلا بأن يؤدى إلى دخول النمسا للحرب إلى جانب الحلفاء، ولكن سرعان ما انسحبت منهما الجيوش الروسية، وقامت القوات النمسـاوية بالمحافظة عليهما حتى تنتهى الحـرب بين روسيـا من جهـته والدولـة العثـمانيـة وبريطانيـا وفرنسـا وسردينـيا (بيدمونت) من جهة أخرى.

استـمرت الحرب مـن١٨٥٣ حتى ١٨٥٦. واستـخدمت فـيها الأسـاليب العسكـرية التقليديـة، ونقل الحلفاء - وقـد انضمت سردينـيا إلى فرنسا وإنـجلترا والدولة العثمـانية - الحرب إلى الأرض الروسية عـند ميناء سياستبـول بعد إغراق

الأسطول الروسى لتدور حول سباستبول أشد المعارك قسوة فى شتاء روسيا وتحت وطأة الكوليرا الفظيعة. حتى جاءت ١٨٥٦ بعوامل عديدة ساعدت على وقف الحرب واللجوء إلى مؤتمر صلح بين المتحاربين.

وكانت الأسباب الرئيسية التى أدت إلى وقف القتال وعقد الصلح هى:

١ ـ لقد حققت الحرب أهدافها للحلفاء: تحطيم الأسطول الروسى، الاستيلاء على سباستبول والسيطرة البحرية الكاملة للحلفاء على البحر الأسود.

٢ ـ أصاب الإرهاق المادى والبشرى روسيا بنوع من الشلل جعلها تفضل السلام عن استدراج جيوش الحلفاء إلى الداخل، فضلا عن أن الحلفاء اكتفوا بنصرهم فى سباستبول وما كانوا ليتقدموا إلى الداخل إدراكا منهم بخطورة ذلك عليهم.

٣ ـ وفاة نيقولا الثالث المتشدد.

٤ ـ كان بلمرستون ـ رئيس الوزارة البريطانية ـ يريد الاستمرار فى الحرب حتى يذل روسيا إلى الدرجة التى لا تصبح بعدها قوة فى توجيه السياسة الأوربية، ولكن حال دون ذلك نابليون الثالث. وهنا عدة تفسيرات لهذا التطور. فلا شك أن نابليون الثالث قد غير من نظرته إلى الروس، وأصبح يقدرهم حق قدرهم بسبب بلائهم فى القتال. وأدرك أيضا أن هؤلاء الروس ـ أعداء اليوم ـ يمكن أن يكونوا حلفاء الغد. فلقد كان نابليون يدرك تماما أن الصداقة الإنجليزية الفرنسية قد تتعرض للتدهور عندما يتابع هو سياسته الخارجية النشطة. ولهذا وجد نابليون الثالث أن أهداف الحرب قد تحققت بسقوط سباستبول وأن العقل هو فى عقد الصلح، وطلب من بالمرستون Paimerston ذلك إلا أن الأخير أصر على متابعة الحرب. وهنا هدد نابليون الثالث بأنه إذا استمرت الحرب فيجب أن يكون من أهدافها تحرير البولنديين. وهو ما يرفضه الإنجليز حينذاك.

وهذا دليل آخر على أن الإنجليز الذين كانوا يتشدقون بالدعوة إلى تحرير الشعوب ما كانوا ليقدموا على ذلك إلا إذا كان هذا الهدف السامى قد أصبح

خادما للمصالح البريطانية، وإلا فليوضع جانبا إلى أن يحين الوقت. ولهذا وافق الإنجليز على وقف الحرب والتفاوض من أجل السلام على أساس النقاط الأربعة التالية:

١ ـ إلغاء الحماية الروسية على الأقاليم الدانوبية.

٢ ـ رعاية عامة أوروبية على مسيحى البلقان.

٣ ـ حرية الملاحة فى الدانوب.

٤ ـ دخول الدولة العثمانية فى المجموعة الأوربية.

وفى مؤتمر عقد فى باريس لوضع شروط الصلح كانت فكرة التحكيم قبل امتشاق السيف ماثلة أمام الحاضرين، ولكنها فكرة كانت أيضا لاتزال سابقة لأوانها من حيث التنفيذ، أما فيما يتعلق بتسوية المشاكل التى أدت للحرب فقد اتفق المؤتمر على:

١ ـ أن البحر الأسود بحرا محايدا مجردا من السلاح.

٢ ـ مضايق البسفور والدردنيل مغلقة أمام السفن الأجنبية الحربية.

٣ ـ حكم ذاتى لولاشيا وملداقيا وضم إقليم بسارابيا إلى الولايتين.

٤ ـ حكم ذاتى للصرب.

٥ ـ إعادة قارص إلى الدولة العثمانية.

وإذا كانت تلك هى النتائج الرسمية لحرب القرم فإن النتائج الأخرى التى ترتبت عليها لا تقل أهمية عن تلك:

أولا ـ لقد كانت هزيمة روسيا وكف يدها لفترة طويلة عن إجراء تقسيم للدولة العثمانية يعنى أن قدرتها الفعالة إزاء المشكلات الدولية أضعف من غيرها من الدولة الكبرى. وخاصة فيما يتعلق بالمشكلات الأوروبية ولهذا نشطت سياستها صوب الصين على أساس استمرار التوسع الروسى فى اتجاه الشرق عبر سيبيريا، وإنما على أساس التفاهم مع الصين ضد العدوان الإنجليزى الفرنسى المستمر عليها.

ثانيا ـ خلال الحرب وبعدها لم يعد فى الإمكان خلق تحالف قوى بين الدولتين الأوتوقراطيتين المستبدتين الكبيرتين: روسيا والنمسا. وبالتالى تركت روسيا النمسا بعد ذلك لتواجه أزمتها مع القوى الوطنية القومية الثائرة دون تعضيد من جانب روسيا،الأمر الذى كان له أثر فى نجاح الحركات القومية فى إيطاليا وألمانيا بعد حرب القرم بينما فشلت الحركات القومية قبلها.

ثالثا ـ لقد أصبحت لنابليون الثالث مكانة دولية عالية، وحصل الشعب الفرنسى على أكاليل النصر، وشعر أنه قد استعاد دوره فى تحرير الشعوب من الاستبداد. ولكنه كان شعورا مغلفا بالأهداف الفرنسية، الأمر الذى سيؤدى إلى اشتباك فرنسا فى عدة حروب سيكون لها أثرها الشديد على مستقبل الإمبراطورية الفرنسية الثانية.

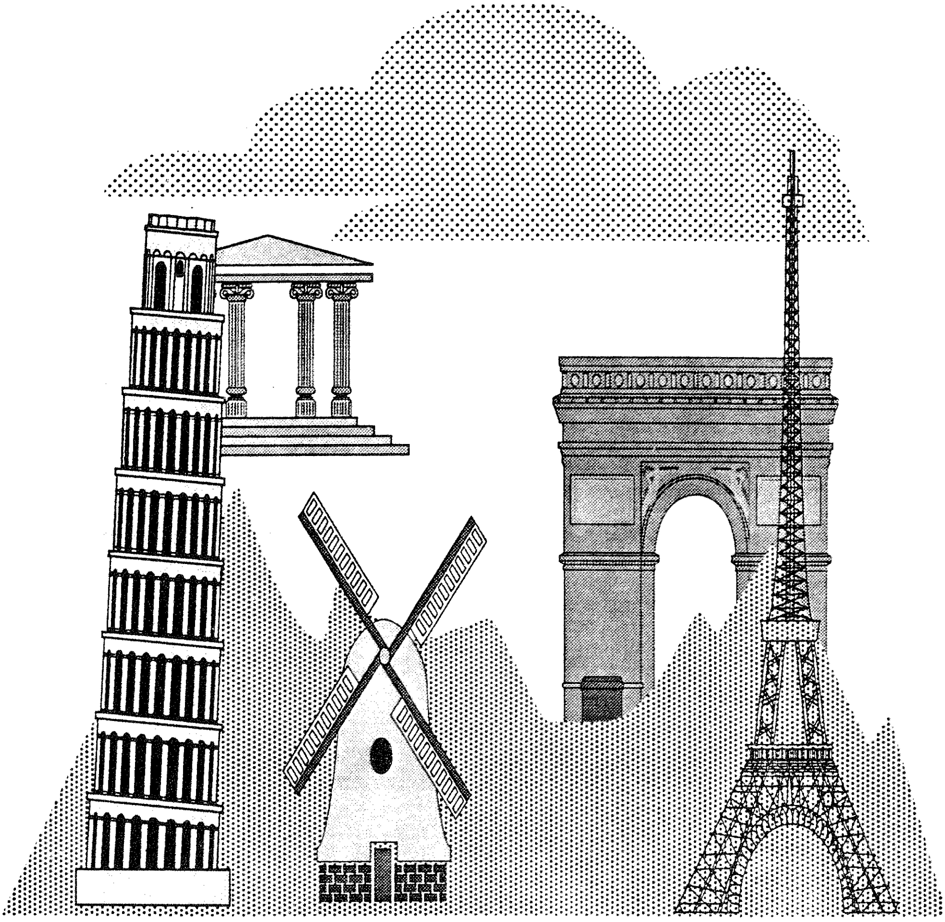
رابعا ـ لقد كانت اتجاهات الدول الكبرى تهدف إلى رفع مستوى الدولة العثمانية واحترام كيانها واستقلالها وحماية أراضيها. والواقع أن هذه الاتجاهات تحولت إلى أشبه ما يكون بالوصاية الإنجليزية ـ الفرنسية على الدولة العثمانية، وفتح أبوابها أمام التدخل الإنجليزى الفرنسى على مصراعيه، وفرض سياسات توسعية وأدى هذا إلى أن تفقد الدولة العثمانية احترام الدول، وأن تفقد الكثير من أراضيها خاصة فى السبعينات والثمانينات من القرن التاسع عشر.

خامسا ـ لقد أطلقت يد إنجلترا فى توجيه سلسلة من الضربات إلى القوى المناهضة لسياستها الاستعمارية ولمصالحها الاستعمارية. ومن ذلك أن هزيمة روسيا فى حرب القرم وعقد معاهدة باريس ١٨٥٦ قد أطلق بريطانيا فى القضاء على الثورة الهندية الكبرى فى ١٨٥٧ وبالقضاء عليها أصبحت الهند تحت رحمة بريطانيا.

كذلك شنت بريطانيا حملة ضد فارس ١٨٥٧/ ١٨٠٨ أيدتها فيها الحكومة العثمانية دون أن تصرح بذلك بسبب موقف فارس المعادى للدولة العثمانية خلال حرب القرم وبسبب اتجاه فارس إلى تهديد الأطماع الاستعمارية البريطانية فى أفغانستان.

الفصل الثامن عشر

الوحدة الإيطالية



إذا أخذنا بنظريـة ابن خلدون من حيث إن (العصـبية) عندما تنمـو وتتملك مقومات الـدولة تقيمها فـتية قوية، وتتسع وتتـعاظم شأنها حتـى تصل ذروتها ثم تأخذ فى الهبوط من ذروة الشباب والفتـوة إلى رفاهية وعلو كعب فى الحضارة ثم تنحدر إلى مختلف مراحل الشيخوخـة، فإن ذلك ماكانت عليه روما الأتروسكية، والجمهورية والإمبراطورية الرومانيـة، حتى ضاعت. وفى أواخر العصور الوسطى وأوائل التاريخ الحديث كانت إيطاليا ـ صاحبة تلك الأمجاد ـ مجرد تعبير جغرافى موزعـة إلى العديد من المـدن الدول والدويلات والولايات وأجـزاء كبيرة، مـنها تحت سيطرة غير أهل البـلاد. فقد كان فى الشمال البندقية جمـهورية أرستقراطية كانت صاحبـة تجارة عالمية بين الشرق والغـرب حتى نكبها البرتغاليـون اقتصاديا باكتشافـهم لطريق الرجاء الصالح وكانـت للبندقية دولة تمتـد على طول الساحل الشمالى، ظل الأتراك العـثمانيون وراءهم حتى طردوهم منه، وأصبـحت البندقية مدينة دولة فقدت أيام عزها بل سلمها نابـليون ـ عندما استولى غلى إيطاليا ـ إلى الإمبراطورية الرومانية المقدسة (الإمبراطورية النمساوية).

وكانت جمهورية جنوة خلال العصور الـوسطى تنافس البندقية على التجارة الشرقية وأخذت فـى التدهور خلال العصر الحديث حتى أصـبحت ألعوبة فى يد نابليـون. وبمقتضـى قرارات مؤتمر فـينيا(١٨١٥) حصلت بـيدمونت عليـها هى وسافوى لتصبح ملكية سردينيا مستقلة ذات مكانة فى شمال إيطاليا تقريبا لتتهيأ من بعد لتلـعب دورا رئيسيا فى الوحـد الإيطالية. وكانت مـلكية بيدمنت تنـظر بعين الغيظ والمرارة إلى الإمبـراطورية النمساوية التى أصبحت بمقـتضى قرارات مؤتمر فيينا صاحبة اليد العليا فى إيطاليا بصـفة عامة وخاصة فى إقليم لمبادريا،واحتفظت بالبندقية وكـان البابا ـ الذى يحكم الولايات البابوية من روما ـ طوع بـنانها حفاظا على مكانتـه وزعامته الروحيـة على الطريقة الكاثولـيكية فى مواجهـة الحكومات الليبرالية على نحو ما حدثث فى فرنسا خلال الثورة الفرنسية وعلى نحو ما يتوقعه فى إيطاليـا من حركات مناهضـة لاستبدادية (المـلوك)، فقد كان البـابا فى نفس

الوقت لايزيد ولا يقل فى حكمه المدنى للولايات البابوية عن ملك على طريقة الملوك المستبدين. وفى أقصى الجنوب كانت توجد مملكة نابولى المتخلفة، وفى الوسط عدة دوقيات متفوقة حضاريا ولكن ضعيفة محدودة الحجم مثل بارما ومودنيا وتسكانا وكلها عند أوامر الإمبراطورية النمساوية.

تلك كانت إيطاليا الممزقة بعد انتهاء الحروب النابولونية وبمقتضى قرارات مؤتمر فينيا الذى أعاد رسم أوربا (١٨١٥). ولكن فى مقابل ذلك وقعت عدة تطورات خلال فترة الحروب النابولونية أدت إلى أن يستعيد بعض المفكرين إيطاليا (الموحدة)، وما قدمته من عظمة فى التاريخ القديم نتيجة لوحدتها. فقد خاطب نابليون (إيطاليا) لأول مرة فى التاريخ الحديث. وحكم نابليون (ايطاليا) حكما مركزيا واحدا، وهذا ما أجج فى النفوس ذكريات الوحدة وقيمها لمستقبل عظيم للإيطاليين لو اتحدوا. وحرك هذ الفرنسى (مورا) الذى كان يحكم نابولى، فقد أعلن أنه يعمل على توحيد ايطاليا معلنا ثورته على الإمبراطور نابليون، حقيقة أعدمه النمساويون لأنه كان عميل إمبراطور ولاته فرض الاحتلال على نابولى، ولكن دعوته إلى (الوحدة الإيطالية) أصبحت ملء الأسماع. ولا تكاد تمر سنوات قليلة حتى كانت الحركات التحررية تسرى بين أفراد الشعب من اقصى الشمال إلى أقصى الجنوب، ولكن إذا بالنمساويين وملك نابلى يصبحون سيوفا تطيح برءوس الوطنيين الداعين إلى التحرر من الحكم الأجنبى (النمساوى) ومن الحكم الملكى المستبد (ملك نابولى) والداعين إلى الحكم الدستورى، وفى خضم هذه الحركات كان التوسكانى والميلانى يموت فداء للحرية والدستورية ولكن كان كل واحد يموت بعيدا عن الآخر، إلا أن وحدة الهدف كفيلة بأن تجمع ذكرى الشهداء وكفاح الأحياء تحت مظلة واحدة.

أطلقت تلك التيارات الضمان لبعض المبدعين من المفكرين فى محاولة لمناقشة حاضر بلادهم ومستقبلها إزاء دول كبرى أخرى مثل فرنسا وإنجلترا، كانت فيما سبق تابعة لـ (روما). فظهر من المفكرين من آل على نفسه ليحطمن النظام القائم البالى المفكك تمهيدا لشىء أعظم. ألم يأل فولتير على نفسه ليحطمن النظام الملكى البوربونى فى فرنسا فمهد بذلك للثورة الفرنسية العظمى. ذلك كان اتجاه قصائد الأديب جوستى الناقد الكوميدى. بينما كانت المسرحيات

الغنائية لنكولى تطرح آمال الاستقلال والوحدة وطفق بعض المؤرخين من أمثال سيزا كانتو وفارينيما وتروجا يبحثون مؤكدين على ان دورا حضاريا ينتظر إيطاليا إذا ما اتحدت. وهناك فى خارج إيطاليا، خاصة أولئك الإيطاليين الذين يعيشون فى المنفى فى فرنسا كانوا محتكين احتكاكا مباشرا مع دعوة فرنسا ـ دعوة العصر ـ إلى القومية وحق كل شعب فى أن يحكم نفسه بنفسه، فكانوا يشكلون جبهة ثقافية عالية المستوى قادرة على أسماع المحافل الدولية (صوت إيطاليا) فلا غرو أن دعا جوزيف ماتزينى إلى «إيطاليا الفتاة» لتكون شعارا لمنظمته الثورية ودعا (جيوبرتى) إلى تعاون (أخلاقيات البابوية) مع (قوة بيدمنت) إلى تحقيق الوحدة القومية الإيطالية، أما دازيجليو فكان يرى أن الوحدة الجمركية بيد الدول والدويلات الإيطالية هى السبيل العملى لتحقيق وحدة إيطالية.

على أن نمو طبقة البرجوازية فى العصر الحديث كان من العوامل الرئيسية التى أعطت للحركات التحررية الدستورية دفعات قوية، فالبرجوازية تتميز بنشاط وواقعية وبعد نظر وأقدر على نقد الطبقة الأرستقراطية المتمسكة بما تبقى لها من امتيازات العصور الوسطى وقدر على التهكم على جمود رجال الدين وسلوكياتهم الدنيوية باسم الدين، وتملقهم للملوك حتى ولو كان بالانحطاط اللاأخلاقى من أجل حفنة من المال.

كانت الشعارات والدعوات تملأ إيطاليا نظريا، دون أن تتحول بتلك (الدعوات) إلى (أعمال) حتى إذا ما نشبت ثورة فى فرنسا فى عام ١٨٣٠ ضد ملكها المستبد شارل العاشر حتى انتشرت الثورة فى إيطاليا داعية إلى الدستور، ولكن وجهت القوات النمساوية ضربات حاسمة للثوار فى مودينا وبارما وبولونى ولكنها كانت البداية، فقد نمت الحركات العلنية والسرية. فى الدعوة إلى التحرر من النمسا وإلى التحرر من الاستبداد بالدستور. وتحت وطأة هذه الحركات الدستورية وتحت وطأة ثورة قامت فى فرنسا فى ١٨٤٨ ضد ملكها المناهض لحق الانتخاب العام أقدم ملوك وحكام إيطاليا على إصدار الدساتير.

فقد أصدر ملك نابولى دستورا (كذلك فعل البابا بيوس التاسع) ولكنه لم يلبث أن فر من روما عندما اشتدت الحركة الثورية فى روما والولايات البابوية

وتسلم زمام الحركة الوطنية زعيما الحركة الجمهورية الوحدوية: ماتزينى وجاريبالدى، وأقاما فى روما جمهورية (١٨٤٨). واستماتا فى الدفاع عنها حتى تضاءلت أمام القوات الفرنسية الكثيفة المدربة التى بعث بها حاكم فرنسا الجديد نابليون (الثالث) الذى كان يسعى إلى كسب كاثوليك فرنسا عن طريق إعادة رأس الكاثوليكية (البابا) إلى عرشه فى روما ونجح فى ذلك على حساب الحركة الوطنية الإيطالية وعلى حساب أسمى وطنيين ظهرا فى إيطاليا: ماتزينى وجاريبالدى. وإن كان أيام ماتزينى أصبحت قليلة إلا أن جاريبالدى سيعيش حتى يحقق لإيطاليا الأمجاد الوطنية الوحدوية مما خلده فى التاريخ، وما جعله يستعيض بما حققه عن ذكريات زوجته التى فاضت روحها على كتفه خلال رحلة فرار مريرة انتهت بدفنها فى بطن جبل لتكون فريسة لبنات آوى على مسمع منه.

وانتهز شارل ألبرت ملك بيدمنت فرصة تلك الأزمات التى كانت تجتاح إيطاليا وتلك الروح المتأججة ضد التسلط الأجنبى النمساوى وشهر سلاحه لنجدة ميلان الثائرة على النمساويين. ولكنه كان متحمسا أكثر منه مدبرا حذقا، فخاض معركة كوستوزا (١٨٤٨) ثم معركة نوفارا (١٨٤٩) وخلالهما سحقه النمساويون فغادر عرشه لابنه عمانويل لعله يكون أقدر منه على تحقيق أهداف كبار كانت قد سرت فى دمائه من أبيه وشعبه. ولقد كان عمانويل يدرك أن الآمال الكبار تحتاج إلى حكمة وحنكة وحبكة.

ولذلك كان بعيد النظر حين جاء بالسياسى (كافور) من خضم أعماله المالية ونزقه الاجتماعى، ليتفاهم معه على خطة بعيدة المدى لتحقيق الوحدة الإيطالية، وما فعل ذلك إلا لأنه كان يدرك حقيقة مقومات (كافور) اللازمة لمسيرة نحو إيطاليا الموحدة بقيادة بيدمنت.

وبدأ عمله بإعادة ترتيب (البيت) على أساس دستورى رغم الضغط الشديد الذى مارسته النمسا عليه لمنع تطبيق النظام الدستورى فى مملكة بيدمنت، وبذلك يكون قد كسب الشعب إلى جانبه وعمل على تحديث أساليب الإنتاج الزراعى والصناعى، وخلال عملية تحديث التعليم وتطويره رفع يد الكنيسة عنه لما كانت تتصف به من تفضيل التلقين والحفظ فى التعليم على الفهم والتحليل والتعلم.

وإعادة تكوين الجيش ورفعه إلى مستويات العصر، ولكن مهما فعل فى هذا المجال العسكرى فقد كانت بيدمنت مجرد قزم بجانب جيرانه العمالقة: الإمبراطورية النمساوية، الإمبراطورية الفرنسية وعلى رأسها نابليون الثالث، فضلا عن القيصرية الروسية والإمبراطورية البريطانية. ولقد كان (كافور) واقعيا كل الواقعية حتى تعامل مع هذه الدول الكبرى من منطلق أن يتحكم فى دولة صغيرة جدا، ولكن فى نفس الوقت يسعى بها لتكون دولة كبيرة ما استطاع إلى ذلك سبيلا. وهذا يفسر لنا لماذا دفع بدولته بيدمنت الصغيرة للدخول فى حرب وقعت بين العمالقة ونعنى بذلك حرب القرم.

كانت حرب القرم بين تحالف غير مقدس بين فرنسا وإنجلترا والدولة العثمانية ضد روسيا التى كانت تدعو الدول الكبرى لاقتسام تلك الدولة الإسلامية، فتصدت فرنسا وإنجلترا لروسيا حفاظا على أن يظل التوازن الدولى لصالحهما إذ إن استيلاء روسيا على الدولة العثمانية سيؤدى إلى انطلاق العملاق الروسى إلى الهند البريطانية وإلى فارس والخليج وإلى البلقان وإلى البحر المتوسط. ومن ثم فمن وجه نظر إنجلترا وفرنسا يجب أن تستمرا فى (تحجيم) روسيا. وأدى عدوان روسيا على الدولة العثمانية فى ١٨٥٣ إلى دخول إنجلترا وفرنسا الحرب ضد روسيا، وبينما المعارك الدموية دائرة فى شبه جزيرة القرم أعلن كافور أن روسيا دولة معتدية وأن بلاده مستعدة للوقوف بجوار (الحق) فرحب العملاقان الإنجليزى والفرنسى بمشاركة هذا الصغير معهما فما أن انتهت الحرب بانتصار الحلفاء حتى عقد مؤتمرللصلح وجلست فيه بيدمنت على مائدة المفاوضات جنبا إلى جنب والعمالقة منتصرين كانوا أم مهزومين، وتحدث عن إيطاليا وماتعانيه من ظلم وأسماع الكبار إليه مصغية، وكان هدفه أن يسمع الكبار صوت بيدمنت (صوت إيطاليا) فلا قدرة لها وهى الصغيرة لتحقيق هدفها الكبير (الوحدة الايطالية) إلا بدعم مادى قوى من الكبار، وهاهى بيدمنت الصغيرة تضحى من أجل الكبار فى (القرم) ألا يحق لها أن تطالب بأن يضحى الكبار من أجل هدف سامى هو وحدة (إيطاليا).

وكان نابليون الثالث يستمع إلى حديث كافور واستصراخات الإيطاليين بكل

عمق وإمعان، فلقد كان هو نفسه-خلال فترة نفيه من فرنسا إلى إيطاليا-عضوا من أعضاء جمعية الكاربونارى السرية المناهضة للتسلط النمساوى على إيطاليا. وما كان يفعل ذلك إلا من منطلق إيمانه بحق كل شعب فى أن يحقق وحدته القومية، وعمق من هذه المشاعر لديه محاولة اغتيال تعرض لها نابليون الثالث على يد وطنى إيطالى يدعى روسينى ردد وهو تحت المقصلة دعوته الصارخة نحو مسئولية نابليون الثالث عن المآسى التى يعيشها الشعب الإيطالى بسبب تقاعس داعية القومية (نابليون الثالث) عن دعم المجاهدين من أجل الوحدة الإيطالية. وبينما كان نابليون الثالث يهتز قلقا جاءه كافور ليطلب منه أن يقف وقفة زعيم عالمى من أجل وحدة إيطاليا، وفى لقاء تم بين الرجلين (كافور ونابليون الثالث) فى بلومبيير فى ١٨٥٨/٧/٢٠ اتفقا على إخراج النمساويين من إيطاليا تمهيدا لوحدتها على أن تحصل فرنسا فى مقابل ذلك على مكسب محدد وهو (سافوى) مسقط رأس الأسرة الحاكمة فى بيدمنت. ومن أجل وحدة إيطاليا ضحى به كافور ومليكه فيكتور عمانويل.

بعد أن توصل الطرفان (كافور ونابليون الثالث) إلى الاتفاق على شن حرب ضد النمسا كان لابد من أن يكون لديهما المبرر الذى يتذرعان به لقتالها وأن يكون هذا المبرر مقبولا من الدول الكبرى الأخرى، وإلا تكاتفت الدول الكبرى الأخرى مع النمسا فيؤدى إلى إفساد خطتهما، إلا أن النمسا هى التى قدمت بنفسها مبررا قويا حين استشعرت أن شيئا مايدبر ضدها فتسرعت بأن أنذرت بيدمنت بأن تنزع سلاحها فكان ذلك مبررا لأن تعلن بيدمنت الحرب عليها، وأن تدخل فرنسا إلى جانب الأخيرة حماية للضعفاء، وفى ساحة معركتى (ماجنتا) ثم (سلفرنيو) ١٨٥٩ انتصرا على الجيوش النمساوية بعد خسائر بشرية مروعة، ولعل ذلك حفز نابليون الثالث على سرعة التوصل إلى تسوية مع الإمبراطورية النمساوية رغم معارضة كافور لذلك، وأدت المفاوضات النمساوية ـ الفرنسية إلى الاتفاق على خروج النمسا من إيطاليا، وبذلك أصبح شمال إيطاليا ووسطها مملكة واحدة وحصلت فرنسا على (سافوى) وبقيت قواتها فى (روما) وقام جاريبالدى على رأس قوة من المتطوعين بتحريرصقلية وزحف شمالا محررا نابولى حتى التقى بجيش مملكة بيدمنت. وحبس الجميع أنفاسهم خشية وقوع صدام دموى بين

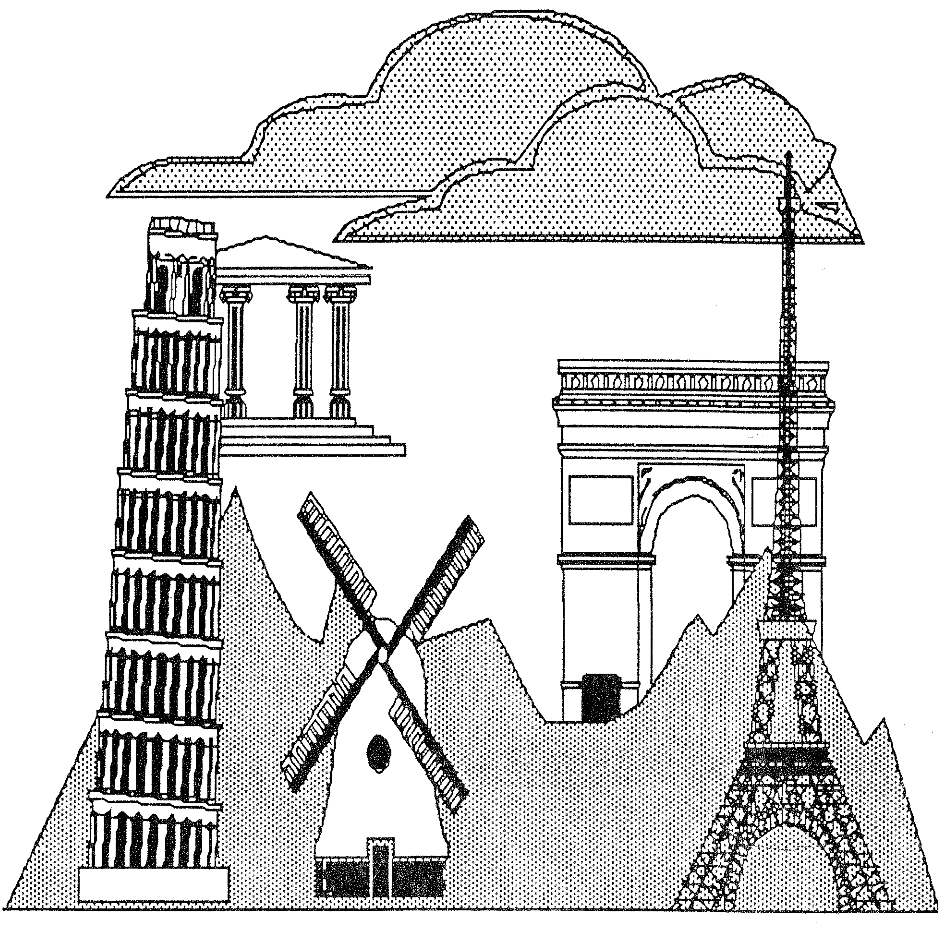
جيش بيدمنت وقوات جاريبالدى الداعيان إلى وحدة إيطاليا، إلا أن السر الوطنى الفذ دف جاريبالدى إلى مستوى المسئولية إذ سلم الجنوب كله طواعية لملك بيدمنت. وبذلك لم يتبق سوى البندقية فى يد النمسا وروما فى يد فرنسا.

وعندما وقعت الحرب بين بروسيا والنمسا وانتصرت الأولى حصلت إيطاليا على ثمن حيادها ألا وهو (البندقية) فى ١٨٦٦، وحصلت إيطاليا على روما من يد الفرنسيين الذين لقوا هزيمة مروعة على يد بروسيا فى ١٨٧٠ فانسحبوا منها، لتصبح روما عاصمة المملكة الإيطالية، واكتفى البابا بأن يعيش فى دائرة محدودة حول مقره (الفاتيكان) وبذلك تكون إيطاليا قد أتمت وحدتها لتنطلق تمارس سياسة وكأنها (دولة عظمى) فاستعمرت أول ما استعمرت بلادا إسلامية (أريتريا) وتطلعت إلى الحبشة فنكبها ملكها فى معركة عدوه ١٨٩٥ ولكنها نجحت فى استعمار الصومال الإسلامى لتصبح ثالثة ثلاثة استعمروا الصومال (إنجلترا وفرنسا). واستغلت اشتباك الدولة العثمانية فى حرب ضد تحالف دول البلقان بلغاريا واليونان والصرب، وانقضت إيطاليا على طرابلس واستولت عليها. وبعد الحرب العالمية الأولى تطلعت إيطاليا فى عهد موسولينى إلى أن تكون هى سيدة البحر المتوسط إذ رفع موسولينى شعار «بحرنا» على البحر المتوسط، وشنت حربا عدوانية على الحبشة واستولت عليها عام ١٩٣٥/١٩٣٦ وتحالف الدكتاتور الفاشستى موسولينى مع الدكتاتور النازى هتلر خلال الحرب العالمية الثانية ضد فرنسا وإنجلترا وروسيا والولايات المتحدة، واتفق الدكتاتوران على اقتسام العالم لهتلر أوربا وللآخر الشرق المتوسط،ولكن منيا بهزيمة ساحقة قضت على نظاميهما.

وفى اعتقادنا أن تلك النكبة التى نزلت بإيطاليا خلال الحرب العالمية ترجع أساسا إلى أن موسولينى حمل الشعب الإيطالى مسئوليات أكبر بكثير جدا من إمكانياته، وتبنى نظرية فاشيه دكتاتورية فى عصر الديمقراطية وعندما استعادت إيطاليا توازنها الفكرى بعد الحرب العالمية الثانية، واشتركت فى السوق الأوربية أصبحت واحدة من الدول الأوربية الغربية التى تسعى لإقامة أوربا الموحدة فى ١٩٩٢، وهذا فى حد ذاته تطور على جانب كبير جدا من الأهمية على مستقبل أوربا والشرق الأوسط والبلاد العربية ومصر.

الفصل التاسع عشر

الوحدة الألمانية



مثلما حدث للإيطاليين خلال الحروب النابولونية حدث للألمان خلالها، من حيث انطلاق المشاعرالقومية، وإن اختلفت الظروف. فقد كانت بروسيا - أكبر دولة ألمانية خارج الإمبراطورية النمساوية - إحدى الدول الأوربية التى ناصبت الثورة الفرنسية الكبرى ونابليون العداء،وخلال صراعه ضد التحالف الأوربى فى ١٨٠٥/١٨٠٦ أنزلت جيوش نابليون هزيمة ساحقة بالإمبراطورية، وأخذ ينظم شئون الألمان. ورءوسهم مطأطأة أمام هذا العملاق المنتصر فلما طالت الحروب على نابليون، وتوالت ضده التحالفات وهزمت قواه، شاركت بروسيا وشارك الكثير من الألمان فى الإجهاز عليه حتى استسلم. وأعيد رسم خريطة أوربا فى مؤتمر فيينا١٨١٥ وأحرز الألمان بعض المكاسب، فقد كانت الإمارات والدويلات الألمانية عدة مئات فأصبحت ٣٩ فقط. وخرجت بروسيا دولة ألمانية منتصرة، وتشاركها فى الانتصار الإمبراطورية النمساوية التى يحكمها الألمان، ولكن أصبح الألمان ينظرون إلى بروسيا باعتبارها الدولة الكبيرة الألمانية التى تستطيع أن تحمى الألمان من عدوان خارجى، وتستطيع أن تتصدى للإمبراطورية النمساوية التى كانت تسيطر على الكثير من الدويلات والإمارات الألمانية وتفرض كلمتها عليها، وأصبحت النمسا فى نظر المفكرين الألمان العقبة الكبرى أمام تحقيق الألمان لوحدتهم القومية، ولقد كانت التطلعات الوحدوية تتصاعد قوة. على أن أبرز مظهر لها حينذاك كان قيام الوحدات الاقتصادية، وأبرز واحدة هو (الزولفرن) الذى شكلته بروسيا منها ومن العديد من الدويلات الألمانية وهو عبارة عن وحدة جمركية، أدت إلى اتساع وزيادة حجم النشاط الاقتصادى، وكان الفيلسوف الألمانى (فردريك ليست) يرى أن الوحدة الاقتصادية هى المقدمة للوحدة السياسية ولكن هذا التصاعد فى مكانة بروسيا أزعج النمسا، فأنذرت بروسيا بأن تتخلى عن مكانتها العالية بين الألمان وأن تصبح كلمة النمسا هى المسموعة فى (الدايت)، أى المجلس الذى تمثل فيه الولايات والدول والدويلات الألمانية. ونظرا لأن بروسيا كانت حينذاك أضعف من أن تتصدى للإمبراطورية فقد قبلت

الإنذار النمساوى وعرف ذلك فى التاريخ بإذلال المتز (١٨٥٠) ولكن هذه النكبة كانت نقطة تحول هامة فى تاريخ بروسيا بصفة خاصة، وتاريخ الوحدوية القومية الألمانية.

فقد أعاد المسئولون فى بروسيا دراسة الأوضاع والأهداف بطريقة علمية كشفت لهم الأسباب الحقيقية لتعرض بروسيا لذلك الإذلال. وشرعوا فى تحديد الخطوات التى تؤدى إلى تحقيق الوحدة الألمانية، وخاصة أن النمسا كانت تعانى من مشكلات كبيرة داخلية. وقد توصل ملك بروسيا إلى أن السياسى الصلب اتوفون بسمارك ليس فقط هو الأقدر على محو ذلك الإذلال، بل وتحقيق وحدة ألمانية على يد بروسيا. ولقد كان بسمارك رجلا عسكرى الفكر يرى أنه بالحديد والنار تتحقق الوحدة، وبذلك اختلف اختلافا جوهريا عن كافور. وقد وضع بسمارك خطته على الأسلوب التالى:

يستطيع الشعب البروسى أن يبنى قوة مسلحة ذات قدرات عالية يتغلب بها على الدولتين الكبيرتين المجاورتين (النمسا وفرنسا) العدوتين للوحدة الألمانية دونما استعانة بأية قوة أخرى وإنما بمواجهة كل من الخصمين كل على حدة بينما تقف الدول الكبرى الأخرى على حياد بالجهود الدبلوماسية.

وفعلا نجح بسمارك ومعاونوه من أمثال فون رون وفون مولتكه على بناء قوة ضاربة بروسية على أرقى مستوى، وتعتمد على تدريب يؤدى إلى تعبئة عامة بأقصى سرعة، وعلى استخدام متطور للأسلحة وأساليب القتال. فضلا عن روح معنوية قتالية عالية. وساعده فى ذلك أن الألمان يمتلكون عناصر المقاتل الممتاز بالقياس إلى غيرهم.

وعمل بسمارك على تحييد روسيا،فعندما وقعت ثورة البولنديين ضد سيطرة الروس. وكانت سيطرة بغيضة إلى كل النفوس وقف بسمارك إلى جانب الروس، رغم ما كان ينطوى ذلك على خروج عن مبادئ حق الشعب فى أن يحكم نفسه بنفسه، وهو المبدأ الذى نادى به بسمارك لصالح الألمان الذين كانوا يعانون من التسلط النمساوى عليهم. ولكنه يضع مصالح الألمان العليا فوق كل اعتبار.

بدت خطوات بسمارك العملية لتوحيد الألمان بتدخله فى المسألة

الدنمركية. فقد كـانت دوقتا شلزونج وهولشتين تضمان أغلبـية ألمانية فى الأولى وأقلية ألمانية فى الـثانية، وسعى ملك الدنمرك إلى ضمها نـهائيا إلى الدنمرك، فحرض بسمـارك الإمبراطورية النمساويـة على التعاون معه فى الدفـاع عن حقوق الألمان ضد أطماع ملك الـدانمرك،وكانت النمسا شغوفة للـعب دور كبير فى هذه المسـألة لعلها بذلك تـضمد جراحهـا فى ماجنتا وسـلفرينو. ونجحـت الدولتان (النمسـا وبروسيا) فى هزيمة الدنـمرك المهيضة الـجناح، واتفقتا عـلى أن تتولى النمسـا إدارة مقاطعة شلـزويج، وأن تتولى بروسيـا إدارة مقاطعة هولشـتين. وإذا بالألمـان فى معـظم الولايات والدويـلات يهبـون مطالبـين برفع يـد النمسـا عن شلزويج، وبضم بروسيا للمقاطعتين. وأدى ذلك إلى أن تصبح النمسا فى مواجهة بروسيا، وهذا ماكان يريده بسمارك .

وحينذاك كان موقف النمسا على الساحة الدولية ضعيفا بالقياس إلى غريمتها بروسيا. فقد كانت كل من إنجلترا وفـرنسا تكرهان ظهور عملاق ألمانى فى قلب أوربا، ولكن كانت كل من إنجلترا وفرنسا على خلاف شديد فيما بينهما حال دون أن يتفقا معا تحت مظلة هدف واحد. بل لقد كانت إنجلترا تنظر إلى المشكلة من زاوية أخرى. فقد كانت إنجلترا قلقة كل القلق من نزوات نابليون الثالث السياسية والعسكـرية،ودوره العنيف فى مسـألة الوحدة الإيطاليـة لم يكن حينذاك ببـعيد. وكانت إنجلترا بصـفة عامة لا تحب التغيرات الجذرية أو الـسريعة حيث إن ذلك يصيب سياستها بالارتباك.

ومن زاوية أخرى كانت إنجلترا ـ عبر القرون ـ تفضل أن يكون لها فى قلب القارة الأوروبية حليف تعتمد عليه فى تحـجيم أية دولة كبرى أوربية تتوسع توسعا يهدد التوازن الدولى ليصـبح فى غير صالح إنجلترا وإمبراطوريتـها،وكانت إنجلترا تتذكر باستمرار تـحالف بروسيا أكثر من مرة ضد فرنسا فى أيـام الثورة الفرنسية، وضد نابليون حتـى سقط تحت مطارق الجيش البروسى بقيـادة (بلوخر) والجيش الإنجليزى بقـيادة ولنجتون فى معـركة واترلو ١٨١٥ التى قضت نهائـيا على آمال نابليون الأول التوسعية.

وكانت العداوة بـين الإمبراطورية النمسـاوية والإمبراطورية الفرنـسية لاتزال

متأججة بسبب الدور الذى قام به نابليون الثالث فى حرب الوحدة الإيطالية؛ لذلك من الصعب جدا أن يتحالف نابليون مع النمسا حتى عندما أصبحت الحرب بين النمسا وبروسيا واقعة لا محالة. وحيث إن هذه الحرب المتوقعة بين النمسا وبروسيا هى حرب من أجل الوحدة القومية للألمان، فقد كان من المتعذر جدا على نابليون أن يقف ضد هذا الهدف السامى للألمان، ذلك الهدف السامى الذى من أجله دفع نابليون الثالث بعشرات الألوف من زهرة شباب فرنسا لخوض معركتى ماجنتا وسلفرينو، وتضرجت ساحة المعركتين بدماء الألوف منهم. لقد أصبح نابليون الثالث فى مأزق دقيق فقد كان يخشى كل الخشية أن تنتصر بروسيا فى حربها ضد النمسا، وأن تبرز من بعدها كدولة ألمانية كبيرة تطل على الحدود الفرنسية بكل قوة. وهو أمر يرفضه أى إستراتيجى، ولكن الأوضاع الدولية غلت يد نابليون الثالث، وكان أمل نابليون الثالث هو أن تطول فترة الحرب، حتى يكون لديه فرصة القيام بدور الوسيط بين النمسا وبروسيا ويستطيع بمناوراته الدبلوماسية أن يتوصل إلى تسوية لصالح الإستراتيجية الفرنسية.

ولكن بسمارك كان على بينة مما يدور فى خلد نابليون؛ ولذلك عندما نشبت الحرب وجه ضربة عسكرية ساحقة فى معركة (سادوا) إلى الجيش النمساوى، وبسرعة عرض على النمسا وقف إطلاق النار وتقدم بشروط سمحة لم يكن يتوقعها النمساويون فقبلوا عقد صلح براغ ١٨٦٦، وخرجت النمسا من ألمانيا، ولكن دون إذلال، وما فعل بسمارك ذلك إلا ليكسب حياد النمسا عندما يشن الحرب على فرنسا لكى يقضى على آخر عقبة أمام إعلان وحدة إمبراطورية ألمانية. وفعلا اسقط فى يد نابليون الثالث عندما توالت الأحداث بسرعة مؤدية إلى صلح براغ ١٨٦٦ وأقدم على عمل أزعج الألمان واستغله بسمارك أحسن استغلال ألا وهو مطالبة نابليون الثالث لبسمارك بأن تحصل فرنسا - ترضية لها - على قطعة أرض ألمانية، فقد أظهر بسمارك غريمه نابليون الثالث بأنه يطمع فى الألمان والأراضى الألمانية، وهو الذى يدعى أنه حامى حمى القوميين، فأجج مشاعر الألمان ونظروا فعلا إلى بروسيا على اعتبار أنها حامية حمى الألمان من الطامعين من أمثال الإمبراطور نابليون الثالث، فمهد ذلك لتطورات جديدة أدت إلى الحرب البروسية - الفرنسية (١٨٧٠ - ١٨٧١).

أصبحت كل من بروسيا وفرنسا تـدرك أن الحرب واقعة لا محالة إن عاجلا أو آجلا. وبدأ بسمارك يكسب نقاطا لحسابه إذ إن روسيا ظلت تذكر له موقفه إلى جانبها ضد الثورة البولندية، وإيطاليا تنتظر أزمة لفرنسا لتحصل منها على (روما)، وإنجلتـرا تنظر بعين القـلق إلى تطلعات نابلـيون الثالث نحـو انطلاقة استعـمارية فرنسيـة كبيرة الاستـعمار الفرنسى سـواء فى المكسيك أو أمريـكا الوسطى أو فى شمال أفريقيـة وغربها أو فى جنوب شرق آسيا، هذا فضلا عـن مخططات نابليون الثالث نحو كل من أسبانيا بلجيكا وكلها مخططات مزعجة لإنجلترا.

وكانت مشروعات السكك الحديدية التى تدعو فرنسا، إلى مدها فى بلجيكا تعنـى تهيئـة هذه الدولة حـديثة الاسـتقلال والصـغيـرة لأن تصبح لقـمة سائـغة لفرنسـا، وهـذا يعنى تهديدا شديدا للمصـالح الإنجلـيزية فى أوربـا الغربية على اعتبار ان بلجـيكا تمثل حاجزا من الحواجـز التى أقيمت حول فرنسا لـمنعها من التوسـع فى أوربا ولمنعـها من الإخـلال بالتوازن الدولـى فى أوربا على حـساب إنجلترا.

أما المـسألة الأسبانيـة فقد كانت هـى المهيئـة لوقوع الحرب بين بـروسيا وفرنسـا فقد حدث تنـافس بين الدولتيـن حول الترشيـح لعرش النمسـا، وكانت بروسـيا قـد رشحـت أميـر ألمـانيا الـذى رفضـته فـرنسـا رفضـا باتا وتـوترت العلاقـات، وأخذ بسمارك يـتربص التطورات لإعـلان حرب حتى تلقـى من ملك بروسيا برقـية - عرفت باسم برقيـة ايمز - تتناول موقفـا احتدت فيه المنـاقشة بين الملك وسفير فـرنسا فى برلين، فما كان من بسمـارك إلا أن أدخل (تحريفا) على البرقية حتى تظهر المسألة وكأن الملك غليوم قد أهان السفير الفرنسى . ولقد كان بسمارك عارفا تمام المعرفة بالتركيب الفكرى والاجتماعى لنابليون الثالث وللشعب الفرنسى من حيث إن دماء الشعب الفرنسى حـارة سرعان ما يتأجج غضبا وانفعالا فيـقدم على أعمـال دون ترو، وهذا ما حـدث فعلا إذ انطلـق الشعب مطالـبا برد الكرامة والزحف على برلين وتأديب البروسيين وأعلنت فرنسا الحرب على بروسيا فى ١٤يوليو ١٨٧٠ وكان هذا هو مايريده بسمارك.

كانت التعبئة العـسكرية الفرنسية بطيئة، وكانت القيادات الـعسكرية الفرنسية

منتفخة الأوداج متخلفة فى العلوم العسكرية، وكانت خطوط المواصلات الفرنسية أقل كفاءة عن البروسية، وما أن بدأت المواجهة حتى ظهرت الفوارق بوضوح، فقد نقل البروسيون المعركة إلى داخل فرنسا، وشطروا الجيوش الفرنسية، وارتكبت القيادة أخطاء فادحة، واستسلم جيش فرنسى كبير فى متز قبل أن يصله جيش آخر كبير يسرع الخطى نحو نجدته، وأسقط فى يد نابليون الثالث، وسقط أسيرا وسقطت العاصمة باريس فى قبضة الألمان.

أذهلت تلك التطورات السريعة الفرنسيين، فتشكلت حكومة الدفاع الوطنى، ووجدت أن لامناص من عقد الهدنة لإنقاذ البقية الباقية من فرنسا، فعقدت فى ٢٨يناير ١٨٧١. وبدأت المفاوضات بين العملاق المنتصر والعملاق الجريح وطالب الألمان بالحصول على إقليمى الإلزاس واللورين الفرنسيين اللذين كانت تعيش فيهما أقلية ألمانية، وطالبوا بمدينة (بيلفور) ذات الموقع الاستراتيجى الهام الذى يهدد فرنسا باستمرار مادام فى قبضة معادية وفرضوا غرامة حربية كبرى لابد من تحصيلها قبل انسحاب القوات الألمانية من الأراضى الفرنسية المحتلة. لقد كانت هذه الشروط مهانة لفرنسا العظيمة. ومع ذلك كان من السياسيين الفرنسيين من كان على رباطة جأش ويرى أنها محنة ويجب أن توجه تمهيدا لإقالة فرنسا من عثرتها واستعادتها تفوقها حتى تنزل بالأعداء ما أنزلوه بها «ليس من منطلق الثأر ولكن أيضا من منطلق الدفاع عن الحقوق الشرعية للفرنسيين فى أراض فرنسية اغتصبتها القوة الغاشمة الألمانية.

وبمقتضى معاهدة فرانكفورت حصل الألمان من فرنسا - المهيضة الجناح والتى وقفت دول العالم تنظر حسرة عليها فى شماتة أحيانا، وأحيانا أخرى فى أسى - على الإلزاس وعلى اللورين. وفى مقابل التخلى عن (بلفور) أصروا على دخول قوات ألمانية فى قلب باريس والقيام باستعراض عسكرى فيها. وكان فى ذلك إهانة أخرى مريرة، إلا أن الفرنسيين كانوا من بعد النظر أن يقبلوا هذه (المهانة) فى مقابل عدم التفريط فى مفتاح إستراتيجى مثل (بيلفور)، واستعدادا لمواقف أخرى ستأتى إن عاجلا أو آجلا. وأما الغرامة الباهظة فقد تكاتف الشعب الفرنسى على جمع الأموال والذهب والفضة وبيع المقتنيات وتقديم المدخرات فى

تضحيات وطنية رائعة حتى جمعوا المبلغ وقدم إلى ألمانيا فى وقت قصير، واضطر الألمان إلى مغادرة الأراضى الفرنسية لتبدأ مرحلة جديدة.

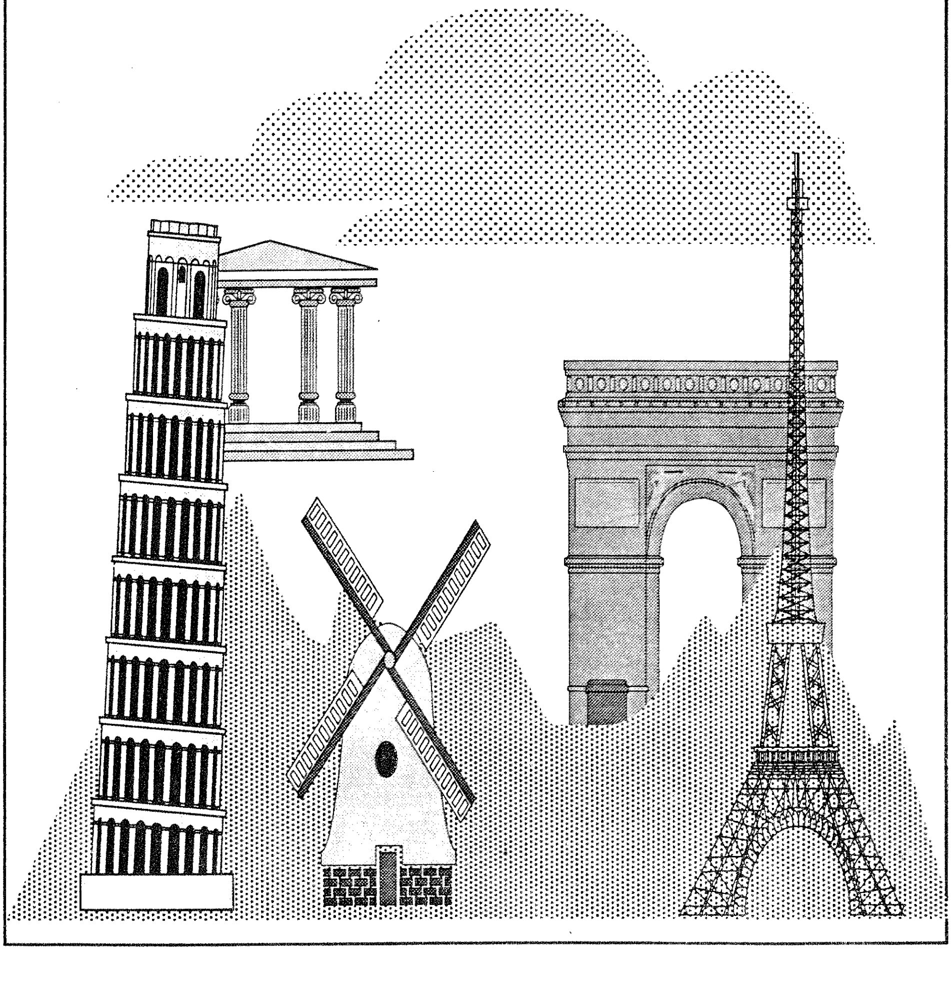
فى غمرة تلك الانتصارات أعلن بسمارك والألمان قيام الإمبراطورية الألمانية فى ١٨يناير ١٨٧١ وكان بسمارك بعيد النظر حين جعل لبروسيا يدا عليا فى نفس الوقت الذى حافظ فيه على العديد من الكيانات الألمانية متمتعة بنظم الحكم فيها تحت مظلة الإمبراطور الألمانى. وقدم بسمارك نظاما برلمانيا له شكل ديمقراطى ولكن ظل المستشار (بسمارك) صاحب الكلمة المسموعة،كما ظلت بروسيا صاحبة اليد العليا، إلى جانب، وكانت (البتدسرات) - أى المجلس الأعلى - صاحب السلطة التشريعية الولايات ممثلة فيه وكان (الرايخستاج) بمثابة المجلس الشعبى الذى ينتخب أعضاؤه بالاقتراح السرى، وكانت بروسيا فى المجلسين صاحبة المكانة العليا. وكانت الوزارة غير مسئولة أمام أى من المجلسين، ولا رقابة برلمانية على القوات المسلحة، وليس للمجلسين كلمة فى التخطيط للسياسة الخارجية فلقد عاش الألمان فى غمرة الانتصار فى حالة اعتراف وتقدير لزعامة بسمارك الذى حقق وبنجاح مذهل الوحدة الألمانية إذ نقل الألمان من إذلال (الومتز) إلى بناء عملاق ألمانى عظيم الشأن فى سنوات قليلة. والواقع أن الشعب الألمانى نفسه يتسم بالطاعة للزعيم القائد الذى يثق فيه، ويتصف بالقدرات العالية العملية. والدقة والمهارة والشعور بالمسئولية،ولذلك لا تكاد تمر سنوات قليلة حتى تصاعدت قدرات ألمانيا فى مختلف المجالات الاقتصادية والاجتماعية والعسكرية فضلا عن السياسية.

ومع ذلك يمكن القول: إن هذا العملاق بقيادة المستشار بسمارك كان يشعر أن فرنسا لن تهدأ ولن تلبث أن تهب للانتقام من الألمان؛ولهذا - كما سنرى - سيتجه بسمارك إلى العمل باستمرار على (عزل) فرنسا حتى لا تجد حليفا لها من الدول الكبرى ضد ألمانيا، حتى إذا ما ثبت فشله فى هذه السياسة اتجه إلى عقد تحالف مع إمبراطورية النمسا، فردت فرنسا على ذلك بعقد معاهدة تحالف مع روسيا القيصرية.

وعلى أن السياسة التى اتبعها بسمارك لم تلق ترحيبا مع الإمبراطور الألمانى الجديد غليوم الثانى الشاب الطمـوح، ولذلك لم يلبث أن أصدر الإمبراطور قرارا بعزلـه لينفرد الإمبـراطور الشاب بحـكم ألمانيـا،ولتدخل أوربا من بعـد ذلك فى تيارات سياسية وعسكرية دفعت بها إلى الحرب العالمية الأولى.

الفصل العشرون

التطورات الممهدة للحرب العالمية



بريطانيا

كانت بريطانيا، يصفها الكتاب بالعظمى، حيث إنها نجحت منذ القرن الثامن عشر فى بناء إمبراطورية لا تغرب عنها الشمس، وفيما يلى أهم أسباب هذا التفوق البريطانى.

١ - استقرار نظام الحكم الدستورى البرلمانى الانتخابى الحزبى وتطبيق المسئولية الوزارية.

٢ - كان الأسطول البريطانى هو أقوى أساطيل الدول الكبرى ودافع بنجاح عن المستعمرات البريطانية سواء المطل منها على المحيط الهادى أو الأطلنطى أو الهندى. وبذلك يكون الإنجليز قد امتلكوا سلاح العصر (القوة المحيطية) وكان بحر المانش بمثابة خط دفاع حمى بريطانيا نفسها من الغزو فلم تتعرض له طوال العصور الوسطى والعصر الحديث. فتجمعت بذلك ويلات الحرب وما تخلفه من دمار على الأرض التى تدور عليها، وهذا ما حدث لدول القارة الأوربية التى كانت تجتاحها الجيوش من وقت لآخر. وكانت الشخصية الإنجليزية تشعر بنوع من الاعتزاز بالنفس والتفوق إزاء بقية الشعوب الأوربية. وكانت حصيفة عندما عالجت ضعف قواتها البرية بالتحالف مع دول أوربية لمواجهة خصومها، وبصفة خاصة لمواجهة عدوتها التقليدية (فرنسا).

٣ - تمتع بريطانيا بقاعدة اقتصادية قوية تقوم على الآلة والمشروع الحر ورأسمالية جريئة واعية، وأسواق منتشرة عبر العالم، وشركات كبرى تعمل فى آسيا وأفريقية وأجهزة إدارية مدربة وكل هذا نتيجة نظام تعليمى متقدم.

ويعتبر النظام الديمقراطى أهم العوامل التى دفعت بريطانيا إلى القمة، وكان المجتمع الإنجليزى موزعا أساسا بين حزبين كبيرين مختلفين فى البرامج متفقين على الهدف وهو المصلحة البريطانية.

كان حزب المحافظين (التورى) يتشكل اساسا من كبار ملاك الأراضى ويلتزم بالمبادئ التالية:

١ ـ الحفاظ علـى النظم القائمـة وعدم تعريض البلاد لأيـة هزة أو حركات عنيفة أو تغييرات مفاجئة.

٢ ـ حمـاية الإنتـاج الزراعى وبالتـالى فرض الحـماية الـجمركـية لصـالح المحاصيل الزراعية.

٣ ـ أن تكون لبريطانيا إمـبراطورية كبيرة تدر عليها مايوفـر الرفاهية للشعب البريطانى.

أما حزب الأحرار، فكان الحزب الذى ينافس حـزب المحافظين، حتى لقد وصف النظام السياسى الإنـجليزى بأنه يقوم على نظام الحزبين المـتنافسين، فمن يحصل منهما على الأغلبية فى الانتخابات العامة هو الذى يشكل الوزارة ويظل فى الحكم حـتى يفقـد ثقة أعضـاء مجلس العـموم (النواب) أو يقـدم رئيس الوزراء استقالته،وكان البرلمان البريطانى يتشكل من مجلسين الثانى هو مجلس اللوردات.

وكانت المبادئ التى يعتنقها حزب الأحرار:

١ ـ الحرية التجارية حتى تستورد بريطانيا الأغذية الرخيصة من الخارج.

٢ ـ الدفاع عن الاقتصاد الصناعى حيث أغـلبية أعضاء ومؤيدى هذا الحزب كانوا من أصحاب المصانع والتجارة إلى جـانب الاستعماريين. ولذلك كان يدعو إلى تشريعات فى صالح العمال.

وكان هناك حـزب فى طور النشأة (التكـوين وهو حزب العمـال) فقد أدت الثورة الصناعـية والنمو الصناعى الكبـير فى إنجلترا إلى تصاعـد سريع فى إعداد المصـانع الكبرى وإعداد العـمال حتى أصبـحوا فى حاجة إلى حـزب يدافع عن مصالحـهم فتشكل حزب العـمال فى ١٩٠٦،وميزة هذا الحـزب أنه دافع وحافظ على حقـوق العمال دون أن يورط البلاد فى التـقعرات الاشتراكـية التى أدت إلى انهيـار النظم الاشتراكـية فى دول شرق أوربا والاتحـاد السوفيتى خـلال السنوات القليلة الماضية.

وإذا كـان هناك شيء اتـفـقت عليه الأحزاب الـبريطانية بعـد الولاء للملك وللوطن فهـو بناء إمبراطورية واسـعة النطاق فى أفريقيـا وآسيا وأستراليـا والعالم الجديد.

وانتشرت فى مستعمراتها اللغة الإنجليزية والمسيحية فى كثير منها، وإلى جانب أنها نشرت نظرية الحكم البريطانية فى المستعمرات البريطانية بعد استقلالها أى البرلمانية الحزبية ولكنها لم تستمر فى العديد منها لأسباب مختلفة.

فرنسا (الجمهورية الثالثة)

لفرنسا مكانة خاصة سواء فى أوربا أو فى العالم. فقد كانت خلال التاريخ الحديث ذات مكانة سياسية وثقافية واقتصادية رفيعة، وتمتاز عن معظم الدول الأوربية بالتوازن الاقتصادى وعالمية أدبائها وفنانيها، وبأنها صاحبة الثورة الكبرى التى هزت العالم (١٧٨٩)، ولكن الخط السياسى الذى سارت فيه كبدها الكثير من العناء، فبينما اتجهت إنجلترا إلى تكوين إمبراطورية واسعة الأرجاء فيما وراء البحار، خسرت فرنسا إمبراطوريتها الاستعمارية، وركز نابليون الأول جهوده فى التسلط على أوروبا فعادت فرنسا إلى حدودها القديمة (١٨١٥) وعادت إليها ملكية البوربون، فتوالت الثورات فى ١٨٣٠ ثم فى ١٨٤٨، وهى ثورات سرعان ما انتقلت مبادئها وعنفها إلى معظم البلاد الأوروبية. وحاولت فرنسا جاهدة أن تتخلص من قيود مؤتمر فيينا (١٨١٥) عليها واشتركت بقواتها وأموالها ودماء أبنائها فى تحقيق الوحدة الإيطالية دون أن تكسب إيطاليا إلى جانبها، ولكنها فى عهد نابليون الثالث بصفة خاصة استطاعت أن تعيد بناء إمبراطوريتها الاستعمارية، ولكنها لم تقدر حقيقة القوة البروسية المجاورة لها فكان أن نكبتها خلال الحرب السبعين.

وبينما أعلنت فى ألمانيا الإمبراطورية، سقطت فى فرنسا الإمبراطورية الثانية واحتدم الجدل حول المستقبل السياسى ونظام الحكم، وكانت التيارات المختلفة تكاد تمزق فرنسا. وفى خضم هذه الأزمة الطاحنة ظهرت زعامات فرنسية استطاعت أن تخرج فرنسا من محنتها، وساعدها على ذلك نمو فى الوعى الديمقراطى بين أفراد الشعب رغم ما ظهر من اضطرابات عنيفة قادها سياسيون متطرفون، وكان يقودها الكثير من أبناء فرنسا المتأججين الداعين لاستمرار القتال أو الثأر السريع من أمثال جمبتا Gambetla .

والواقع أن الفرنسيين عرفوا كيف يفيدون من أخطائهم وطوروا بلدهم على

أسس تدفع بها إلى القوة خاصة فيما يتعلق بالحكم الديمقراطى والجيش القوى، والتنمية الاقتصادية بأساليب العصر حينذاك. ونعنى بذلك التوسع الاستعمارى والبحث عن حلفاء يستطيعون أن يخضوا شوكة العملاق الألمانى.

والمعروف أن حكومة الدفاع الوطنى، والجمعية الوطنية المنتخبة - التى اتخذت من «بوردو» مقرا لها - كانتا تبحثان أمر الوصول إلى تسوية مع الألمان وعقدت معاهدة فرانكفورت المذلة التى سلبت فرنسا الإلزاس واللورين، وفرضت عليها غرامة حربية كبيرة،ولا تنسحب القوات الألمانية من بعض الأراضى الفرنسية إلا بعد دفع تلك الغرامة، وإذا كانت هذه الشروط مذلة فى نظر الفرنسيين، فإن الشرط الخاص بأن يقوم الجيش الألمانى باستعراض فى باريس كان مثيرا لآلام أهل هذه المدينة الباسلة الذين دافعوا عنها باستماته رائعة. بل لقد كانت وجهة نظر أهل باريس هى أن لاقيمة لتلك الجمعية بعد أن عقدت المعاهدة.

والواقع أن أهل باريس كانت لهم شخصيتهم التى جعلتهم يشكلون فكرهم السياسى بطريقتهم الخاصة. فباريس لم تسقط فى يد الألمان وإنما حكومة بوردو هى التى فتحتها أمامهم، الأمر الذين كان يزيد من تعالى المدينة على تلك الجمعية فى بوردو. فضلا عن أن التيارات الأيديولوجية كانت تموج بين الباريسيين، من اشتراكية إلى نوع من الشيوعية إلى ديمقراطية مثالية بل وفوضوية، وترددت دعوات إلى هدم النظام الرأسمالى والتنديد بمركزية الحكم والنظام الإمبراطورى على اعتبار أنه هو المسئول عما أصاب فرنسا من نكبة مروعة، وعلى اعتبار أن المركزية نوع من الاستبداد.

وبصفة خاصة كانت باريس فى مستوى علمى وثقافى متقدم جدا عما كانت عليه الأقاليم المحدودة الثقافة المتمسكة بالتقاليد وبالكنيسة. وتطلعت باريس إلى نظام جمهورى أعلنته فى ١٨مارس ١٨٧١ وظهر فى التاريخ ما عرف باسم «كومونة باريس» التى أصدرت بيانا فى ٢٠ أبريل ١٨٧١ بلورت فيه أهدافها:

١ - الجمهورية

٢ - استقلال ذاتى لكل كومون فى كافة أنحاء فرنسا.

٣ - الوحدة السياسية هى الالتجاء الحر لإرادة كل كومونة فى فرنسا.

ولكن الزعامات داخل كومونة باريس ـ التى انتخب أعضاؤها فى ٢٦مارس ١٨٧١ ـ كانت مختلفة فيما بينها، مما جعل فرص استمرار هذا النظام تعتمد أساسا على تماسك وصلابة الحرس الوطنى وقدرته للتصدى للقوات التى حشدتها حكومة بوردو. ولذلك فنحن لا نذهب إلى ما قال به كارل ماركس من أن الصراع بين كومونة باريس وحكومة بوردو كان نوعا من الصراع بين الطبقة العمالية والحكومة البرجوازية.

كان على رأس حكومة بوردو زعيم فرنسى قدير هو تيير Thiers القمىء الوجه، الواقعى السياسة، الحازم فى إجراءاته.

وكان يرى أنه على فرنسا أن تقبل الهزيمة ولكن عليها أن تعبرها بقدرتها الخاصة، وأن يضرب بقوة أى مظهر من مظاهر التفكك، ولهذا كانت ضربته لكومونة باريس قاسية ودموية. فقد بعث بجيش كبير بقيادة مكماهون إلى باريس وقاتل المدافعين عنها بشراسة من شارع إلى شارع ومن متراس إلى متراس حتى سيطرت قوات جمعية بوردو على باريس بعد أن سقط صريعا ما يربو على ٨٠ألف مواطن فرنسى (أواخر مايو ١٨٧١).

كان هذا نصرا كبيرا لتيير ولجمعية بوردو التى كتب لها البقاء والاستمرار، واستطاع الشعب الفرنسى أن يحقق لنفسه بطولة أدهشت الخصوم والأعداء على حد سواء. فقد بذل الشعب الفرنسى من ماله وبسرعة فائقة ما غطى به الغرامة الحربية المفروضة عليه، وتخلص من وجود القوات الألمانية على أرضه، ولقد تم ذلك فى وقت قياسى لم يتوقعه أحد تقريبا مما يدل على أصالة هذا الشعب وقدرته على التفوق على أحزانه وآلامه.

بعد ذلك أصبح على الفرنسيين أن يحددوا شكل الحكم الذى سيتولى أمور البلاد من بعد، وكان تيير يميل إلى الملكية الدستورية، ولكن فى مثل هذه الظروف كانت عودة الملكية من الأمور غير المستساغة لديه، وهو بذلك يكون قد خيب آمال الملكيين فى جمعية بوردو فضاقوا به حتى أرغموه على الاستقالة فى ٢٤مايو ١٨٧٣ وخلفه المارشال مكماهون الذى أسندت إليه السلطة التنفيذية لمدة أربع سنوات.

كان مكماهون معروفا بميوله الملكية الإكليريكية. ولكن قوة الجمهوريين كانت تتصاعد. وفى ٣٠يناير ١٨٧٤ أقرت الجمعية ـ بأغلبية صوت واحد فقط ـ طريقة انتخاب رئيس الجمهورية وبذلك استبعد نظام الحكم الملكى نهائيا من فرنسا، ثم صدر دستور ١٨٧٥ الذى وضع أسس الحكم الجمهورى:

١ ـ **رئيس الجمهورية**: ينتخبه مجلسا النواب والشيوخ مجتمعين وتشكل مؤتمرا. وكان الغرض من هذا هو عدم إعطاء الفرصة للأساليب الديماجوجية التى يمكن أن تسحر عقول الشعب فى الاستفتاءات كتلك التى استخدمها نابليون الثالث لتقوية سلطانه على حساب الحكم الديمقراطى مستخدما فى ذلك قدرته على كسب قلوب الجماهير، بينما الديماجوجية غير مجدية مع نواب الشعب وشيوخه الذين لايعيرون العواطف والشعارات الجوفاء أية أهمية حين يؤيدون أو يرفضون تأييد سياسة ما أو مرشح ما لرئاسة الجمهورية.

٢ ـ وزارة مسئولة أمام مجلس النواب.

٣ ـ مجلس نواب منتخب بالاقتراع العام يشارك فيه كل من تجاوز العشرين من عمره من الرجال. وكانت مدة انعقاده أربع سنوات.

٤ ـ مجلس شيوخ مدته تسع سنوات.

لقد أعطى دستور ١٨٧٥ لفرنسا حكما برلمانيا قريب الشبه بالحكم البرلمانى البريطانى، ولكن هنا بعض الخلافات الهامة بين النظامين ومظاهر الحكم فى كل منهما:

١ ـ أن الرئيس الفرنسى كان يتغير بسرعة أكثر بعكس الحال لدى الملكية الوراثية البريطانية، ففى مقابل ١٤رئيس جمهورية فرنسى تولى من ١٨٧١ إلى منتصف الثلاثينيات من القرن العشرين فإننا نجد أربع ملوك تولوا عرش بريطانيا.

٢ ـ لم يكن النظام الحزبى فى فرنسا مستقرا، وإنما كان متعددا، بل كان النواب داخل البرلمان غير مرتبطين تماما بأحزابهم وكانوا لا يتورعون عن التصويت ضد أحزابهم. ومن ناحية أخرى كان سقوط الوزارة لا يستتبع ـ كما هو الحال فى إنجلترا ـ إجراء انتخابات جديدة.

٣ ـ أدى ضعف العلاقة بين النواب وأحزابهم إلى قصر عمر الوزارات بصفة عامة. وقد ساعد على ذلك ظهور تكتلات داخل البرلمان ليس من اليسير السيطرة عليها.

ومن ناحية التيارات الأيديولوجية، كانت فرنسا بعد هزيمتها فى حرب السبعين تموج بمختلف الاتجاهات السياسية حتى لتكاد صورة الجمهورية الثالثة تبدو متناقضة؛فقد كانت فيها الاتجاهات الاشتراكية التقدمية، والأحزاب الإكليريكية المتعصبة ضد المنادين بعلمانية التعليم وفيها دعاة أقوياء للملكية ومتحمسون للجمهورية.

وفى الإدارة، ظهر من الفرنسيين من كان على مستوى عال من إعادة التنظيم وعقاب من كان مرتشيا مختلسا، ويبدو أن الفترة التالية لحرب السبعين كانت مليئة بحوادث الاختلاس والرشوة.

وفى مجال الدبلوماسية أخرجت فرنسا عددا من عمالقة السياسة الدولية. وفى مجالات العلوم والفنون ظلت صاحبة المكانة الأعلى، وفى المجال الاقتصادى سارت فرنسا بخطوات سريعة فى تنمية الصناعات الحديثة على أحدث الطرق، ومع أن الانقلاب الصناعى تأخر فى فرنسا عنه فى إنجلترا، فإن النشاط التجارى الفرنسى المتصاعد لدى الدول الفقيرة أو النامية وفى المستعمرات الفرنسية،والتوازن بين الإنتاج الزراعى والإنتاج الصناعى،كل هذا أدى إلى الحفاظ على فرنسا كدولة صناعية رغم هزيمتها أمام بروسيا. ولاشك أن ذلك التوازن بين الإنتاجين الزراعى والصناعى قد أعطى لفرنسا نوعا من الاقتصاد المتوازن لم يكن متوفرا لدى غيرها من الدولة الكبرى الأوربية.

ورغم هذا كله كانت هناك أهداف معينة قد وضعها نصب عيونهم المسئولون عن الدولة الفرنسية ونعنى بهذه الأهداف:

١ ـ ضرورة إعطاء الجبهة الداخلية نوعا من الاستقرار والتوطيد.

٢ ـ أن التنمية الاقتصادية إحدى وسائل التفوق الفرنسى.

٣ ـ يجب أن تستعيد فرنسا فى المجالات الدولية السياسية والثقافية مكانتها.

ولكن ذلك المناخ الذى عاشته فرنسا بعد هزيمتها فى حرب السبعين جعلها عرضة لسلسلة من الأزمات الحادة كادت تهز المجتمع الفرنسى، وأهم هذه الأزمات:

١ ـ المشكلة التعليمية.

٢ ـ الحركة الاشتراكية واليمين.

٣ ـ فضيحة قناة بنما.

٤ ـ الأزمة البولانجية.

٥ ـ قضية دريفوس.

٦ ـ الحوار الفرنسى الألمانى حول الإلزاس واللورين.

التعليم العلمانى:

كان جول فرى الداعية الأكبر للإصلاح التعليمى، فقسم مراحل التعليم إلى ابتدائى وثانوى وجامعى. وكان «جول فرى» يدرك أن نمو قوة الأمة يجب أن تبدأ مع الدروس الأولى فى المدرسة الابتدائية، ورأى أن العقبة فى سبيل ذلك هى هيمنة رجال الإكليروس على التعليم وتطبيقهم مناهج لاتتمشى مع متطلبات العصر الحديث، ومن هنا ارتبطت قضية تطوير التعليم بقدرة السلطات المسئولة على أبعاد رجال الدين عنه، وهو أمر كفيل بأن يثير المشاكل الكبيرة أمامها ولكن «جول فرى» كان جريئا وحكيما فى نفس الوقت، فقد أبعد رجال الجزويت عن التعليم ولكنه لم يتعرض لنشاطهم فيما وراء البحار: واستطاع بحكمة أن يتجنب إثارة مشاعر رجال الجيش والفلاحين المتعلقين بالإكليروس الكاثوليكى.

الحركة الاشتراكية وأزمة اليمين:

كان النصف الثانى من القرن التاسع عشر مليئا بالدعوات الاشتراكية

وتحسين أحوال العمال ومهاجمة الأحزاب اليـمينية خاصة تلك التى ربطت نفسها برجال الدين، ولقد كان جمبتا Gambetta شديد العداوة لرجـال الدين حتى لقد قال: إن «الإكليـروس هو عدو الشعب» ولكـن هذه الاتجاهات اليسـارية وجدت نفسـها فى بيئة مـرتبطة بالدين،فـقد كان اليسـار يعتمد فـى نجاح مرشحـيه على العمال،والعمـال كانوا متعلقين بالعقـيدة الكاثوليكية، ولهذا كان اليـسار الفرنسى معتـدلا يسعى إلى نوع من العدالة الاجـتماعية ويقـاوم بشدة أية امتيازات رجـعية تحصـل عليها إحـدى الفئات، ثم إن الـيسار الفـرنسى كان يضع الحـكم فى يد زعامات وقيادات مـن الطبقة المتوسطة الذكـية التى لعبت دورا رئيسيا فـى التنمية الاقتصادية فكسبت احترام الشعب.

إلا أن أحزاب اليمين كانت تستخدم العواطف الدينية لإحراج مركز الحكومة، وتجلى ذلك فى أزمتين: الأولى «الأزمة البولنجية» والثانية «مسألة دريفوس».

وكانت وراء هذه الحركة الاشتراكية جبهـة لها قوتها ممثلة فى الاتحاد العام للعمل Confederation Generale du Travail إلا أن البرجوازية الحـاكمة كانت أقوى من أن تخـضع لضغوط العـمال والاشتراكيـين، وكانت قادرة علـى إخماد حركاتهم العنيفة.

ومن ناحية أخرى، لم يكن اشتراكيو فرنسا ثوريين للدرجة التى يضعون فيها أهدافهم نحو الاشتراكـية العالمية فوق أهداف فرنسا القـومية، فلا غرو أن أعلنوا وقوفهم إلى جانب الحكومة عندما أعلنت الحرب على ألمانيا (١٩١٤).

فضيحة شركة قناة بنما (Panama Scandal)

لقد اكتسب فرديـناندليسبس شهرة عظمى لنجاحـه فى شق قناة السويس، وعندمـا أعلن أنه ترأس شـركة لشق قنـاة بنما تسـابق أصحـاب رءوس الأموال ـ خاصة الصغار منهم ـ إلى استثمار أموالهم فى هذا المشروع،وكانت الإدارة المالية المسئولة عن الشـركة بيد عدد من كبار رجال المال اليهـود، ولم تلبث الشركة أن أعلنت إفـلاسها (فـبراير ١٨٨٩)، وحـوكم دليسـبس وبعض أعوانـه، وصدرت ضدهم أحكـام بالسجن (فبـراير ١٨٩٣) ولكن التيار الـذى انتشر فى فرنـسا كان يحمل اليهود مسئولية ضياع رءوس أموال صغار المستثمرين الفرنسيين.

الأزمة البولانجية:

كان الشعب الفرنسى بعد سقوط الإمبراطورية. يشعر بحاجته إلى زعيم له مكانته العليا على نحو ما كان لنابليون الأول وابن أخيه نابليون الثالث، ولم يكن لواحد من رجالات الفكر والسياسة والاقتصاد فى عهد الجمهورية الثالثة بقادر على أن يصبح محط إعجاب الجماهير، حتى ظهر الجنرال جورج بولانجيه Boulanger (١٨٣٧ - ١٨٩١) الذى استخدم مشكلة الإلزاس واللورين وسيلة لجذب أنظار الشعب إليه، وكأنه البطل الذى ينتظره الشعب فى الوقت الذى كانت فيه الحكومة متهمة بالتقاعس عن خوض أشرف معركة - معركة الإلزاس واللورين - وإلهاء الشعب بفتوحات وتوسعات استعمارية يمكن أن تؤجل - من وجهة نظر المعارضة - إلى ما بعد تحرير هذين الإقليمين. وكان الجنرال بولانجية ديماجوجيا هز مشاعر الشعب بمظهره الرائع وبسترته العسكرية المزركشة على جواده الأصيل نافخا فى بوق القومية والتحرير وتعديل الدستور. وفتح الباب أمامه لتولى وزارة الحربية فى ١٨٨٦ فى وزارة «فرسينييه» ولكن بعد سقوط هذه الوزارة فى مايو ١٨٨٧ أبعد بولانجية إلى قيادة أحد الأقاليم، ونظرا لأنه كان متطلعا إلى السلطة لجأ لاستعادة مركزه - إلى استخدام «جماعة الوطنيين» League of Patriots، بل كان مستعدا للوصول إلى تفاهم مع بعض الملكيين، وبدا وكأن بولانجيه على وشك القيام بانقلاب Coup d' Etat (٢٧/ ١/ ١٨٨٩) ولكن عند الساعة الحاسمة تقاعس عن الإقدام على المغامرة مخيبا آمال أعوانه، حتى لقد قيل إنه كان معنيا بالحفاظ على مكانته فى قلوب المفتونات به من الباريسيات أكثر من أى شىء آخر. وعلى أى حال شعر بولانجيه بأن الحلقة تضيق عليه ففر إلى بروكسل، وبعد عامين أطلق على نفسه الرصاص فوق قبر خليلته (١٨٩١)، ولم تلبث أن انهارت حركته بعد ذلك، ولكن يلاحظ أن العديد من الذين انضموا للحركة البولانجيه كانوا من المؤيديين لدريفوس.

قضية دريفوس Dreyfus :

فى أكتوبر ١٨٩٤ حكم على الكابتن اليهودى الفرد دريفوس (١٨٥٩ - ١٩٣٥) بتهمة الخيانة العظمى لإفشائه بعض الأسرار الحربية إلى الألمان وأرسل

إلى «جزيرة الشيطان» لتمضية مدة سجنه. ولكن فى ١٨٩٦ اكتشف الكولونيل بيكار Col. Picquart ـ الرئيس الجديد للمخابرات الفرنسية ـ أن المعلومات العسكرية لا تزال ترسل إلى ألمانيا بنفس خط يد الذى قيل إنه لدريفوس، وتوصل أخو دريفوس إلى نفس النتيجة وحدد الخائن الحقيقى بأنه الميجور استرهازى Esterhazy ، أما بيكار فقد أبعد إلى تونس، واعتقد الراديكاليون أن القيادة العامة عملت على تغطية مثالبها، وأن رجال الدين الكاثوليك حرضوا الناس ضد دريفوس بتحيز أضاع الحقيقة، وتزعم الأديب الفرنسى المشهور إميل زولا S. Zola والسياسى المشهور كلمنصو Clemanceau الدفاع عن دريفوس وانقسم الشعب على نفسه بين مؤيد لدريفوس ومعادٍ له حتى برئت ساحته.

المجادلة الفرنسية الألمانية حول الألزاس واللورين:

وأيا كانت تلك الأزمات الداخلية من الحدة والخطورة فإن حق فرنسا فى الإلزاس واللورين كان قضية كل فرنسى وكان مفكرو فرنسا وقادتها ينقبون عن كل وسيلة يمكن أن تسترد بها دولتهم كرامتهم باستعادتهما.

ونلاحظ أن الغالبية العظمى من المؤرخين الذين تعرضوا لمشكلة الألزاس واللورين كانوا يتحدثون عن هذين الإقليمين وكأنهما متكاملان أو كأنهما منطقة جغرافية واحدة، والحقيقة أن أوضاعهما الجغرافية تجعلهما منفصلين عن بعضهما البعض ولا يضفى عليهما شكل الوحدة سوى تاريخهما.

فالإلزاس تعطى ظهرها لفرنسا، فهى خلف جبال (فوج)، وتعتبر امتدادا لإقليم (بادن) الألمانى سواء من ناحية الجغرافية وأن حوالى ٩٥٪ من سكانها ألمان والبقية الباقية من الفرنسيين.

وبينما كانت الإلزاس ـ ولاتزال ـ منطقة زراعية خصبة تنتج كميات لها قيمتها من المواد الغذائية، كانت اللورين هضبة على الحدود الفرنسية الألمانية يتقاسمها الطرفان لغة وحضارة وعنصرا.

وعندما استولى الألمان على اللورين فى ١٨٧١ كان الحديد قد أكتشف بها منذ وقت قليل، وحظيت ألمانيا بذلك على تكامل هام فى المواد الخام الصناعية، إذ كان الفحم متوافرا لألمانيا فى إقليم الروهر (الرور).

واستند الألمان إلى هذه الحقائق الجغرافية فى تثبيت حقهم فى ضم هذين الإقليمين، بينما دافع الفرنسيون بالحقائق التاريخية لإثبات طابعها الفرنسى، ومهما كانت قوة الحجج فلم يكن فى إستطاعة الألمان أن تعيدها إلى فرنسا إذا لو فعلت ذلك لكان مظهرا خطيرا من مظاهر الضعف وخور العزيمة، ومن ثم لم يكن أمام فرنسا من وسيلة لإستردادهما إلا بالقوة. ويلقى الغالبية العظمى من المؤرخين اللوم على ألمانيا، لأنها اغتصبت الإلزاس واللورين مما اضطر فرنسا إلى أن تعمل على استردادهما بالقوة فتطورت الأمور إلى وقوع الحرب العالمية الأولى.

ولكن نلاحظ أن بريطانيا كانت تحتل جزيرة هليجولاند فى مواجهة الساحل الألمانى الشمالى وتنازلت عنها لألمانيا فى مقابل تنازل الأخيرة عن إقليم ويتو فى شرق إفريقية، دون ما ضجة كبيرة.

أما مشكلة الألزاس واللورين فقد احتوت على عناصر جعلتهما مرشحتين لأن تكونا المشكلة الدولية الأولى باستمرار قبل الحرب العالمية الأولى. وهذه العناصر هى:ـ

١ ـ كان عامل الكرامة القومية دافعا شديدا للفرنسيين كى يعملوا على استعادة مكانتهم الدولية بعد تلك الإهانة البالغة التى نزلت بهم.

٢ ـ وربما خفت حدة هذه الكرامة القومية لو كانت المنطقة المتنازع عليها معزولة عن الوطن الأم، أما بالنسبة للألزاس واللورين فكانتا متصلتين بفرنسا وألمانيا اتصالا مباشرا كفيلا بأن يثير الأشجان من يوم لآخر.

٣ ـ كانت خسارة فرنسا فى الألزاس واللورين فادحة، إذ كانت فى اللورين أهم مناجم الحديد.

لقد كان الجرح الذى خلفه هذين الإقليمين من العمق لدرجة أنه لما كان ليلتئم إلا بعد استردادهما مهما كان الثمن. وكان عجز الحكومة الفرنسية خلال السبعينيات والثمانينيات من القرن التاسع عشر عن تحديد زمن معين لتحقيق هذا الهدف القومى الكبير يثير بلبلة فى نفوس الشعب واضطرابا فى تفكيره السياسى، فكانت تنتابه هوسات حماسية انتقامية تارة وموجة من الاعتدال والرزانة تارة أخرى. فإلى جانب أولئك المتحمسين لشن حرب انتقامية سريعة ضد ألمانيا كانت

توجد قطاعات واسعة من الشعب تريد أن تطفو على السطح علاقات ودية بين ألمانيا وفرنسا وتريد حلا معقولا لمشكلة الألزاس واللورين.

وفى اعتقادنا أن الشعب الفرنسى بعد نكبته فى حرب السبعين أصبح يشعر بحاله من الضياع السياسى فى وقت أخذت فيه مساوىء العهد الإمبراطورى تظهر على حقيقتها، لهذا أصبح الشعب الفرنسى معرضا لمثل تلك الأزمات حتى استعاد الشعب توازنه، وحدد أهدافه، وكان هذا بوجه خاص فى عهد الرئيس الفرنسى بوانكاريه الذى تولى مقاليد الأمور فى سنة ١٩٠٣.

كان بوانكاريه من إقليم اللورين، وكان قوميا من الطراز الأول، ويعتبر عهده نهاية للسياسة الدفاعية الفرنسية إزاء ألمانيا والإنتقال بفرنسا إلى سياسة عزل وتطويق لها.

لقد كان بوانكاريه موقنا أن الحرب ضد ألمانيا آتية لاريب فيها، وخطط لها بذكاء، إذ شرعت السلطات الفرنسية فى إجراء تعديلات جوهرية فى الخطط العسكرية إزاء ألمانيا، إذ كان من المعروف أن عنصر المفاجأة والمبادأة كان بيد القيادة الألمانية خلال السنوات الطويلة التى أعقبت نكبة ١٨٧٠ ـ ١٨٧١. ولكن فى عهد بوانكاريه أخذت القيادة الفرنسية تفكر فى كسر هذا العنصر عن طريق إعداد قطاع من الجيش للهجوم على ألمانيا نفسها، بينما تتولى قطاعات أخرى من الجيش امتصاص الهجوم الألمانى.

وأخذ المسئولون الفرنسيون يفكرون فى أهداف حربهم هذه، لا على أنها بقصد استرداد الإقليمين الفرنسيين المغتصبين، بل على أساس التوسع الفرنسى فى ألمانيا بالسيطرة مثلا على أجزاء من الضفة اليسرى للورين، كما بلغ بالمسئولين من ثقة بالنفس أنهم أخذوا يفكرون فى تفتيت امبراطورية النمسا والمجر عن طريق العمل على استقلال القوميات العديدة الموجودة بها، فبذلك تفقد ألمانيا دعامتها القوية فى وسط أوربا، ولكن هذه الآمال كانت تحدها مخاوف روسيا من أن تنتقل حمى الاستقلال القومى إلى البولنديين، وكانت فرنسا ـ من جانبها ـ مستعدة لأن تتجاهل حقوق البولنديين القومية فى سبيل التحالف مع روسيا، ودون التخلى عن مشروعاتها فى تفتيت إمبراطورية النمسا والمجر.

ومن نواحى ثقة الحكومة الفرنسية بقوتها، تمتعها بثانى إمبراطورية فى العالم بعد الإمبراطورية البريطانية. وكانت تمتد هذه الإمبراطورية أساسا فى شمال وغرب أفريقية: الجزائر وتونس ومراكش وموريتانيا والسنغال وغينيا وما عرف فيما بعد باسم تشاد ومالى والنيجر وفولتا العليا والكونغو الفرنسى. وفى شرق أفريقية كان لها الصومال الفرنسى فى مواجهة (باب المندب) ومدغشقر. أما فى آسيا فكانت قد سيطرت على الهند الصينية الفرنسية (فيتنام - لاوس - كمبوديا). إلى جانب عدد من الجزر المتناثرة فى المحيطات.

كان الدفاع والحفاظ على هذه الإمبراطورية الفرنسية يثير جدلا عميقا فى داخل فرنسا. فلقد كانت مسئوليات استرداد الألزاس واللورين فى المرتبة الأولى عند التخطيط العسكرى لدى بعض زعماء فرنسا. وكانوا يرون أن توزيع الجيوش الفرنسية على هذه المستعمرات المترامية يقضى على أى أمل فى قدرة فرنسا على استرداد الإقليمين المغتصبين، وأن الأجدى بفرنسا هو أن توقف نمو إمبراطوريتها وتركز جيوشها ضد ألمانيا.

ومما كان يزيد المشكلة الدفاعية تعقيدا أن الشعب الفرنسى كان لا يزيد إلا بمقدار يسير جدا إذا ما قيس بنمو تعداد الشعب الألمانى: حتى لقد اضطرت فرنسا إلى قبول مهاجرين عديدين من شمال أفريقية وإيطاليا وبولنده لموجهة النقص فى الأيدى العاملة.

ومما خفف من حدة هذه المشكلة السكانية أن الجزائر كانت تحفظ لفرنسا عددا لابأس به من المقاتلين، وأن ارتفاع مستوى المعيشة ودخل المواطن الفرنسى والنمو الصناعى الكبير خلال الثلث الأخير من القرن التاسع عشر جعل فرنسا قبلة للباحثين عن العمل من الأوربيين وعرب شمال إفريقية.

وكانت فرنسا تحتفظ باحتياطى كبير من الذهب، ولا تخشى كثيرا من خطر مجاعة تصيبها، ذلك الخطر الذى كانت تحسب له كل من بريطانيا وألمانيا حسابا كبيرا. وهذا يرجع إلى طبيعة مصادر الثروة فى فرنسا. فهى بلاد متوازنة اقتصاديا من حيث الإنتاج الزراعى والصناعى، وإلى جانب هذا كانت فرنسا قد تفوقت إلى

حد كبير فى صناعة الكماليات التى كانت تتهافت عليها الطبقة البرجوازية الكبيرة النامية فى أوربا وأمريكا بوجه خاص.

ونظرا للدور العالمى الذى كانت تلعبه اللغة الفرنسية والآداب الفرنسية، ونظرا للروعة التى كانت عليها باريس - حتى لقد لقبت بمدينة النور - أصبحت فرنسا قبلة ملايين السياح وطلبة العلم، وكان هذا يمثل دخلا ماليا ضخما للخزينة الفرنسية. وساعد على هذا النمو السياحى أن الطبقة البرجوازية الفرنسية كانت قد بلغت درجة من الثراء والأخلاقيات الاجتماعية جعلتها مضرب الأمثال.

وفى مواجهة هذا التيار الرأسمالى فى فرنسا وذلك الاتجاه الاستعمارى العسكرى للحكومة الفرنسية كانت تنمو حركة اشتراكية مناهضة للبرجوازية الفرنسية ولتلك التطلعات الإمبريالية. فقد كان الاشتراكيون يعارضون فى نفقات التسلح. وعندما سعت فرنسا - بعد ذلك - إلى كسب ود روسيا بالمساعدات المالية انتقد الاشتراكيون هذا المسلك على اعتبار أن روسيا دولة رجعية لا تستحق مثل هذه المساعدات.

هكذا كانت قد تغيرت صورة فرنسا فى سبعينيات القرن التاسع تماما عندما أصبحت الحرب العالمية الأولى على الأبواب، خاصة بعد نجاحها فى عقد الوفاق الودى مع بريطانيا فى ١٩٠٤، وبعد تسهيل الأمور حتى عقد الوفاق الودى الروسى - الإنجليزى فى ١٩٠٧.

روسيا

تعتبر روسيا أكبر دول أوربا اتساعا. وكانت تمتد من شرق أوربا حتى منشوريا وكوريا والصين، وبذلك تكون هى الدولة الأوربية الوحيدة المتصلة بالصين مباشرة. ولكنها من ناحية أخرى لم تكن تملك إمبراطورية فيما وراء البحار.

كانت سلطات القيصر مطلقة، وشهدت روسيا عددا من القياصرة فى القرن التاسع عشر كانوا على جانب متطرف من الاستبداد ولكن لم يكن نيقولا الثانى - الذى شهد ثورة ١٩١٧ التى قضت على أسرة أشد قياصرة روسيا استبدادا، بل

كان أكثرهم حبا لرعيته، كان طيب القلب يـريد الخير لشعبه والاستمرار لحكمه. إلا أنه لم يدرك حقيقـة متطلبات الحكم حينذاك، ولم تكن لـديه الصفات اللازمة لمن يجدر به أن يحكم روسيا فى مطلع القرن العشرين.

كانت تعـوزه قوة الشخصية الـسياسية المسـتندة إلى تأييد شعـبى عسكرى قوى، كذلك تنقصه القدرة على إدخال إصلاحات جذرية فى نظام الحكم. بحيث يرفع البلاد إلى مستوى نظم حكم القرن العشرين الديمقراطية أو شبه الديمقراطية.

وكان القيصر يعيش فى بلاطه فى دائرة مغلـقة غير محتك بالشعب أو بآماله وآلامه. ولهـذا كان من العـسير عليـه أن يدرك مدى تسلط الـبيرقراطـية الإدارية المرتشية فى الشـعب. ولم يدرك ما وصلت إليه حالة العمال التعـسة فى حياتهم اليومية فى داخل مصانعهم، ولا حال الفلاحين التى كانت أكثر تعاسة فى الريف.

كان الـناس يكرهون الـقيصـر وحكومتـه وإدارتـها، ولـكن أصبـحت هذه الكراهيـة ممزوجة بـالبغضـاء والحقد على الـقيصر والـبلاط من جراء الفـضائح المتتالـية التى كانت متفشـية بينهم، وكانت القصص والروايـات التى تحاك حول مهـازل راسبوتـين - رجل الدين المـنحل - فى البـلاط بين القـيصرة والأمـيرات والنبيلات وتدخل القيصرة فى شئون البلاد حتى العسكرية منها، كان كل هذا أدى إلى سقـوط هيبة القيـصر والبلاط ورجاله إلـى الحضيض. وممـا زاد فى ضعف القيصر أنه كان لا يقدم على إصلاح إلا تحت الضغط الشديد.

وكان أكـبر عامل سـاعد على بطء تطـور الحياة الـدستورية فى روسـيا أن القاعدة الشعبية كانت متمثلة فـى الفلاحين الذين كانوا فى حالة من الفقر والبؤس ونقص التعليم جعلتهم سلبيين غير مستعدين للمشاركة فى تطوير الأمة، وأصبحوا لا يتوقعون إلا تحسنا قليلا فى دخلهم المادى التافه. وزاد من سلبيتهم أن الأقاليم كانت تحت حكم نبلاء عرفوا بالاستبداد المتطرف، حتى لقد كان الفلاح الروسى أقرب إلى أن يكون قنا. حتى الكنيسة - التى كان من المفروض أن تقف إلى جانبه ضد استبداد الحكام - كان البعض من رجـالها يبث فى الشعب روح الصبر وقبول الأمر الواقع الذى لم يعد محتملا.

كان العمال ـ الذين كثر عددهم نسبيا فى المدن فى أعقاب التقدم الصناعى فى روسيا ـ أحط حالا من الفلاحين، فإن المشكلات الاجتماعية والصحية والغذائية التى كان يعانى منها العامل فى المدينة كانت ثقيلة كل الثقل على كاهله دون أن يجد صدى لذلك فى دوائر البلاط أو الحكومة. فقد كانت الحكومة الروسية معنية بخلق نهضة صناعية كبيرة فى البلاد ولكن دون أن تعيد النظر فى نظام الحكم غير المتلائم مع تطور ونتائج هذه النهضة الصناعية.

أما كبار التجار فكانوا بصفة عامة من اليهود أو من الأجانب، وكانت الشركات الكبرى ـ المؤسسة حديثا بيدهم. بل عندما كانت الحكومة تسعى إلى دفع عجلة النهضة الصناعية كانت تجد نفسها فى حاجة ماسة إلى رءوس الأموال والعقول المفكرة القادرة على إدارة المشروعات الكبيرة، الأمر الذى كان يجعلها تفتح البلاد أمام رءوس الأموال الأجنبية والخبرة الأجنبية أيضا.

وكانت الإمبراطورية الروسية تعانى من وجود عدد من الأقليات لها شأن فى إثارة المشكلات الداخلية والخارجية، فالفلنديون الكاثوليك فى الشمال والبولنديون الكاثوليك فى الغرب يكرهون الحكم الروسى الأرثوذكسى ويعلقون آمالا كبارا على هزيمة لروسيا تؤدى إلى تخفيف القبضة عليهم.

أما الأقليات القوقازية والتركية والمغولية فكانت كبيرة العدد نسبيا، ولكن متأخرة غير قادرة على التحرك المضاد الناجح.

وللأقليات الفلندية والبولندية والقوقازية والمغولية والتركية أقاليمها التى تتجمع فيها. أما الأقلية اليهودية فكانت منتشرة فى المدن، وكانت على جانب كبير من الثروة ويكاد يكون أغلب كبار التجار منهم، ولهم دور فى علاقات روسيا الاقتصادية مع الخارج. إلا أن هوة سحيقة وقعت بين الحكومة والشعب الروسى من جهة، واليهود من جهة أخرى بسبب تجاهل هؤلاء لمصالح البلاد الوطنية وتركيزهم على مصالحهم الخاصة حتى لقد تألفت فى أوديسا جمعية (محبى صهيون) لتهجير اليهود الروس إلى فلسطين. فى سبعينيات القرن التاسع عشر.

وخلال الفترة الأخيرة من القرن التاسع عشر اتسع نطاق التعليم نوعا ما،

فكثرت المدارس الثانوية والجامعات، ولكنها إذا ما قيست بالاتساع الشاسع للإمبراطورية الروسية وضخامة عدد السكان وتعدد أجناسهم ولغاتهم، فإن تلك الجهود والمجالات التعليمية كانت أشبه بجداول ماء صغيرة جدا فى صحراء مترامية.

ولكن مما جعل لهذه النهضة التعليمية والصناعية صورة ذات وضوح أنها كانت مركزة فى عدد من كبريات المدن الروسية، وبوجه خاص فى العاصمة (سان بطرسبورج) فكان أن ظهرت فيها وفى عدد من كبريات المدن الروسية، قوى مثقفة أصبح لها وزنها فى المجتمع. وكان تزايد عدد المعلمين والمتعلمين، وتعدد الصحف - رغم ما كان مفروضا عليها من قيود ثقيلة - والانتشار النسبى الذى حققه الكتاب المطبوع فى العقود القليلة التى سبقت الحرب العالمية الأولى كل هذا أدى إلى تكوين فكر عام مثقف، ولكن دون أن يتكون من وراء ذلك فكر عام وطنى واضح يشمل كافة مواطنى الإمبراطورية الروسية من حدود منشوريا إلى روسيا البيضاء إلى بولندة وفنلنده والقرم والتركستان.

ومن العوامل التى ساعدت على ضعف مكونات (الفكر الوطنى العام) أن النبلاء كانوا يحكمون الأقاليم والمقاطعات ويعاملون الفلاحين بقسوة جعلتهم غير قادرين على تكوين فكرة واضحة عن الوطن والوطنية والمواطنة.

إلا أنه ظهر فى روسيا من الشخصيات الفذة ما جعل أعين المثقفين - على الأقل - تتطلع نحو هدف محدد، ونعنى بذلك ظهور نوابغ فى الموسيقى والأدب، وبصفة خاصة ظهور ذروة الأدب والوطنية (تولستوى). بينما كان معاصره (راسبوتين) - رجل الدين المنحل - يثير فى الناس روح المقارنة والنقد بين هذا وذاك.

وكانت التيارات الفكرية الحديثة تجد تربة خصبة بين المثقفين، وبوجه خاص بين أصحاب الفكر التقدمى الاشتراكى بمختلف صوره المعتدلة أو المتطرفة جدا. حتى لقد أصبح الشعب بقيادة المثقفين مستعدا للثورة على حكومته فى يناير ١٩٠٥ بغض النظر عن أن روسيا كانت مشتبكة فى حرب كبيرة ضد اليابان.

وكان طبيعيا أن يواجه القيصر وحكومته مثل هذه الثورة بالقوة إذ لم يكن هناك أى مخطط سياسى واقعى لإرضاء المتذمرين فضلا عن أن المتسلطين على الحكم حينذاك كانوا لا يطيقون فكرة الخضوع للحركات العمالية أو الشعبية. ولهذا تصدت الحكومة للثورة بقوة السلاح فوقعت أحداث «الأحد الدامى» فى ٢٢يناير ـ كانون ثانى ١٩٠٥.

ولم تلبث أن تواترت أنباء الهزيمة المروعة التى منيت بها الجيوش الروسية أمام اليابان. وهنا اضطر القيصر إلى أن ينحنى للعاصفة، وأصدر فى ٢٩أكتوبر ١٩٠٥ (بيانا) أبدى فيه رغبته فى أن يكون لبلاده نوعا من الحكم البرلمانى، وعلى هذا الأساس ظهر «مجلس الدوما».

وكان المجلس يضم عددا من ذوى الأفكار التحررية التقدمية، ولكنه ظل عاجزا عن المشاركة الفعالة فى توجيه أمور البلاد الداخلية أو الخارجية بسبب قوة ارتباط الجيش والبيروقراطية بالقيصر وحكومته. وكان القيصر لايتورع عن حله كلما ظهرت فيه معارضة قوية ضد القيصر والحكومة.

وشهدت السنوات الأولى ظهور عدة أحزاب روسية غرضها إنقاذ روسيا مما تردت فيه، ولكن كلا منها كان يعتنق أساليب مختلفة.

فالأكتوبريون انتسبوا إلى «بيان أكتوبر» سالف الذكر، ودعوا إلى حكومة مرنة قوية برلمانية، ولكن على النمط البروسى.

أما الديمقراطيون الدستوريون (الكادت) فكانوا يدعون إلى ديمقراطية على النمط الإنجليزى، وكان هذان الحزبان (الأكتوبريون) و (الديمقراطيون الدستوريون) أكثر الأحزاب اعتدالا وميلا إلى التطور الدستورى التدريجى.

أما الحزبان الآخران وهما:

(أ) الحزب الديمقراطى الاشتراكى.

(ب) حزب الثوريين الاشتراكيين.

فكانا يدعوان إلى تخليص الشعب الروسى من الأوتوقراطية والرأسمالية

والإقطاعية والأرستقـراطية الحاكمة، ونقل ملكية الأرض إلى الشـعب ملكية عامة لا خاصة، وإن اختلفا فى أساليب تنفيذ هذا الهدف.

ومع أن مبادئ هذين الحزبين الاشتراكيين كانت جديدة على مفاهيم الفلاح الروسى والعامل الروسى. إلا أن الفلاح والعامل كـانا فى ضياع عام ويبحثون عن شخصيتـهم وإنسانيتهم، فكان أن وجدوا فـى مبادئ الاشتراكيين فرصـة للحصول على حق فى حياة يشـعر فيها الشخص بكيانه حتى ولو كـان هذا الكيان مذابا فى مجموعة كبيرة من البشر.

وعلى اتساع روسـيا وضخامة مـقدار سكانها كانت مـتخلفة من الناحـيتين الاقتصـادية والعسكريـة عن دول غرب أوربا ولم تعـرف الصناعة الكبـيرة إلا فى مطلع الثمـانينيات وبشكل محدود وبـمعونة فنية ورءوس أموال أجنـبية. وخطوط المواصلات كانت لا تزال مـتخلفة، ولم يمد فيها من السكـك الحديدية ما يكفل لاقتصادها النمو ولقواتها العسكرية سرعة الانتقال.

أما جـيش روسيا فـكان كبيـرا، ولكنه يفـتقر بشـدة إلى الضبـاط والسلاح الجيد، وانعكست عليه طبيعة البلاد الزراعـية وطبيعة فلاحيها المرتبطين بالأرض، فكانوا أشـداء فى الدفاع عن أرضهم غـير متحمـسين للتوسع الـخارجى، هذا إذا سمحت لها الدول الأوربية بذلك.

التحالف الثلاثى

أثار تكويـن الإمبراطوريـة الألمانية فـى أعقاب تلـك الانتصارات مـخاوف الدول الكبرى. ومما ضخم من مخاوف الـدول الأوربية من التطلعات الألمانية أن بسمـارك كان شخصيـة مرهوبة أصبـحت حديث الدوائر والمـحافل الدبلومـاسية الأوربية وكانت فى يده العـديد من خيوط الدبلوماسية المقـيدة حتى أن الحكومة البريطانيـة نفسها سعت إليـه تستشيره فـيما يجب أن تفعله إزاء تـنصل روسيا من المواد المقيدة لها فى معاهدة باريس ١٨٥٦.

وحينذاك أيضا قامت حرب شعواء صحفية وقانونية وفقهية حول المسألة القومية، ومفهوم القومية، وجدوى الاحتلال لأرض اغتصبت من قومية أخرى ووجه علماء فرنسا ـ عن حق ـ اتهامات إلى بسمارك بأن الأنانية والغطرسة ومبدأ القوة هو الذى دفع به إلى اغتصاب الإلزاس واللورين ومحاولة صبغهما بالصبغة الألمانية. وحيث إن الدول الكبرى الأخرى أصبحت تنظر بحذر إلى العملاق الألمانى، كانت صدورها مفتوحة لهذا الجدل مع نوع من اللوم الموجه إلى بسمارك لأنه لم يحترم حق «تقرير المصير»، مع أنه سبق له أنه تغاضى عنه من قبل، إذ كان المفروض أن يجرى استفتاء فى الجزء الدنمركى من شلزويج بمقتضى صلح براغ (١٨٦٦) النمساوى الألمانى، ولكن أهمل بسمارك الموضوع، ولم تثر الدول ضجة كبيرة على النحو الذى حدث فى مسألة اللورين، وما ذلك إلا لأن التوازن الدولى ومصالح الدول الكبرى لم تهتز بقوة فى ١٨٦٦ بعكس الحال فى ١٨٧١. ومن ناحية أخرى فإن الدول الأوربية الكبرى ـ بما فيها فرنسا ـ كانت تضرب عرض الحائط بحق «تقرير المصير» من أجل استعمار البلاد العربية والإفريقية والآسيوية.

أثارت تلك المظاهر والحرب التى شنتها بروسيا ضد الدنمرك والنمسا وفرنسا جزع الفلاسفة، خاصة عندما استعرضوا أحداث أوربا منذ الثورة الفرنسية الكبرى ١٧٨٩ حتى إعلان الإمبراطورية الألمانية (١٨٧١)، فوجدوا أن أوربا أراقت الكثير من دماء زهرة شبابها فى معارك استرلتز وييناو الطرف الأغر وليبرج، وحول سباستبول، وفى ماجنتا وسلفرينو، وفى سادوا وسيدان وحول باريس، وخلال المعارك الدموية فى الأقاليم الفرنسية ضد الغزاة البروسيين، وأزعج هؤلاء الفلاسفة توقعهم إراقة الكثير جدا من دماء شباب فرنسا وألمانيا فى صراعات من أجل الكرامة والعزة القومية ومن أجل الإلزاس واللورين. فدعوا إلى «الوحدة الأوربية»، وإلى تحكيم مبادئ الإنسانية و «القانون الدولى» و «نزع السلاح» و«التحكيم قبل امتشاق الحسام» تخفيفا من حدة التوتر حينذاك. ولعل ذلك يقضى

على آفة العصر المتمثلة فى المؤامرات والمناورات السياسية والدبلوماسية، تلك الآفات التى جعلت حكومات وملوك أوربا يبدون وكأنهم مجموعة من رجال العصابات كل منهم يريد نهب أكبر قسط من التنمية عن طريق قتل زميله قبل أن يقتله.

ولقد بذل العلامة أستاذ القانون الدولى المشهور جيمس لوريمر جهودا كبيرة لوضع الأسس القانونية لفكرة (الاتحاد الأوربى). كما أشرف فيكتور هوجو قمة الفكر الأدبى - وجاريبالدى - قمة السمو العسكرى - على إصدار مجلة «الولايات المتحدة الأوربية» منذ ١٨٦٧ ولكنها لم تعمر طويلا فالعصر لم يكن عصر تلك النظريات، وإنما كان عصر التعصب القومى. وحتى بسمارك نفسه - عبقرى السياسة الأوربية - كان عاجزا عن هذه الرؤية، إذ قال: «يخطئ من يتحدث عن أوربا، إنها مجرد تعبير جغرافى».

كان بسمارك يدرك أن قوة ألمانيا الذاتية هى مفتاح تفوقها، والرادع ضد الانتقام الفرنسى المتوقع، وأن «عزلة» فرنسا هى العامل الجوهرى فى منعها من التعاون عسكريا مع قوة أوربية أخرى ضد ألمانيا. وكان يرى أن توجيه فرنسا نحو النشاط الاستعمارى فيما وراء البحار يلهى فرنسا عن (اللورين والإلزاس) ويوقعها فى ورطات مع الدول الكبرى الأخرى تحول دون تحالفها مع فرنسا.

وكان بسمارك يدرك أن الهوة السحيقة بين فرنسا وبريطانيا لا يمكن عبورها وخاصة أن بريطانيا أبدت - وإن كان ذلك ظاهريا - توددا نحو ألمانيا بعد ١٨٧١. ولكن المشكلة الكبرى كانت: كيف يستطيع بسمارك أن يكسب ود وصداقة كل من روسيا وإمبراطورية النمسا والمجر فى آن واحد؟ وكيف يمكنه أن يصعد من قدرة ألمانيا الذاتية باستمرار دون إثارة مخاوف الدول الأخرى فى نفس الوقت الذى يضعف فيه إمكانيات فرنسا فى تنمية قواتها المسلحة؟

كانت أهداف بسمارك تصطدم هنا وهناك بمعارضة من جانب الدول فى هذه المسألة أو تلك، وكان من العسير عليه أن يكسب كل الأطراف إلى جانبه، هذا فضلا عن أن الموقف الدولى كان يتطور بسرعة عما كانت عليه تطورات النصف الأول من القرن التاسع عشر.

كان بسمارك مطمئنا فى أعقاب معاهدة فرانكفورت (١٨٧١) إلى أن فرنسا ستظل عاجزة ـ لعدة سنوات ـ عن الوقوف على قدميها. ولكن توقعاته كانت خاطئة فى هذه الناحية حيث تجلت أصالة الشعب الفرنسى فى تقديمه الأموال الكبيرة لحكومته كى تدفع «الغرامة الحربية» الباهظة التى فرضها الألمان الذين أقامت جيوشهم على الأرض الفرنسية لضمان سدادها.

وخلال حكومة تيير ـ التى اتهمت بالضعف ـ تمكن هذا الداهية العجوز من أن يعطى فرنسا فترة من هدوء الأعصاب حتى اقتنع الشعب بأن الهدف الأول لفرنسا يجب أن يكون «السلم البناء» والمطالبة «بالعدالة» بالنسبة لمشكلة اللورين والإلزاس. ونبذ نظرية «الحرب الانتقامية».

وقد أدت هذه السياسة إلى أن تصبح دعوة بسمارك إلى «الحرب الوقائية» ضد فرنسا ـ التى تعيد تسليح نفسها بسرعة ـ مثيرة للدوائر الأوربية ضد ألمانيا، حتى لقد انزعجت كل من بريطانيا وروسيا من كلمات بسمارك عن «الحرب الوقائية» واضطر بسمارك إلى التراجع عن نظريته،وبذلك أعطيت فرنسا الفرصة الكبيرة لإعادة بناء قوتها الاقتصادية والعسكرية على أسس قوية فى هدوء نسبى.

وزادت مخاوف بسمارك من فرنسا بعد سقوط تيير(٣ × فى مايو ١٨٧٣) فبينما كانت سياسة «السلم البناء» تعنى إعطاء ألمانيا ـ هى الأخرى ـ فرصة السلام التى تحتاجها لتنفيذ خطط التنمية الاقتصادية وإعادة بناء أجهزة الدولة اللازمة للإمبراطورية الألمانية، إلا أنه جاء إلى الرئاسة «مكماهون» الملكى الكاثوليكى الشديد العداء لألمانيا، فلابد ـ من وجهة نظر بسمارك ـ من سياسة جديدة لمواجهة هذا التطور. فعمد إلى التقرب أكثر من روسيا والنمسا، وأقنع القيصر والإمبراطور بأن الظروف الدولية تتطلب تعاونا أوثق بين أباطرة شرق أوربا ووسطها وكانت هناك أهداف مشتركة تجمع هذه القوى الثلاث وهى:

١ ـ كانت كلها ترغب فى عدم إدخال تغيير على أوربا واستمرار «الوضع الراهن».

٢ ـ كانت الحركات الشعبية المعادية للحكم الاستبدادى قد نمت فى كل

من (روسيا) و (النمسا والمجر) و (ألمانيا)، فاقتربت وجهات نظر حكومتى سان بطرسبورج وبرلين ـ بصفة خاصة ـ ضد الحركة الاشتراكية.

٣ ـ كانت مشاكل البلقان تسير نحو التعقيد وكان إنفراد أى من روسيا أو النمسا فى توجيه أمور البلقان أو التفوق فيه يعنى حربا بين الدولتين صديقتى ألمانيا. وبالتالى كان من مصلحة بسمارك أن تبحث أمور البلقان على موائد المفاوضات وليس فى ميادين الحرب، وخاصة أن ألمانيا ـ فى حالة وقوع حرب بين روسيا والنمسا ـ لا تستطيع أن تظل صديقتهما، ومعنى إنضمام أو إنحياز ألمانيا إلى أى منهما سيلقى بالثانية بكل تأكيد إلى أحضان فرنسا المنتظرة لاغتنام مثل هذه الفرصة.

لقد كانت «عصبة الأباطرة الثلاثة» فى حاجة إلى أزمة تمتحن صلابتها وكان هناك الكثير من الأزمات التى تنتظر الدول الكبرى، خاصة من ناحية البلقان. مثل المشكلات المعقدة التى أدت إلى الحرب التركية ـ الروسية ١٨٧٧ ونتائج مؤتمر برلين ١٨٧٨ وأهمها اعتقاد القيصر الروسى أن هذا المؤتمر ليس سوى تحالف أوربى بزعامة بسمارك ضد روسيا، وأنهم فضلوا عليها النمسا فخرجت هذه الأخيرة من المؤتمر رابحة وخرجت روسيا خاسرة، وهى نتيجة لم تكن روسيا تتوقعها أبدا.

هكذا كانت التطورات تثبت لبسمارك أن المشكلة البلقانية لا يمكن أن تبقيه صديقا للمتنافستين الكبيرتين: النمسا وروسيا. وأن روسيا وقد فشلت فى الحصول على ماتطلعت إليه فى مؤتمر برلين، مع وجود عصبة الأباطرة الثلاثة ـ لا شك ستتقارب مع فرنسا. ومن ناحية أخرى كان الحليف الأكثر إستقرارا ـ من وجهة نظر بسمارك ـ والذى يمكن أن يعتمد عليه هو إمبراطورية النمسا والمجر، وليس روسيا كثيرة التقلب. ثم إن التحالف مع النمسا سيبعد شبح المطالبات النمساوية فيما سبق أن سلخته ألمانيا من الإمبراطورية النمساوية فى صلح براغ١٨٦٦. بالإضافة إلى أن التحالف مع النمسا يغطى ظهر ألمانيا المكشوف تغطية تعطى لألمانيا فرصة للتفرغ لأى هجوم فرنسى عليها.

ولهذا تقرب بسمارك من النمسا، وأخذ يحث إمبراطورها وحكومتها على عقد تحالف مع ألمانيا يضمن سلامتها وردع أية قوة تتصدى لواحدة منهما.

كان الوصول إلى اتفاق نهائى بين النمسا وألمانيا أمرا صعبا ويواجه شروطا محدودة وضعها (أندرارسى) وزير خارجية النمسا، رغم أن بسمارك كان فى نظر الدوائر الدبلوماسية الأوربية الرجل القادر على تجاهل شروط الطرف الآخر وتوجيه الأمور وفق مشيئته. ولقد اضطر بسمارك إلى أن يقبل شروط (أندرارسى) الخاصة بتجنيب النمسا المشاركة فى حرب هجومية ألمانية ضد فرنسا منفردة. فكان أن توصل الطرفان إلى ما عرف بالتحالف الثنائى فى ٧أكتوبر ـ تشرين أول ١٨٧٩ وقد نص على:

١ ـ فى حالة وقوع هجوم روسى على أى من الطرفين المتعاقدين يقدم الطرف الآخر مساعدته لحليفه.

٢ ـ إذا قام أحد الطرفين المتعاقدين بالهجوم على طرف ثالث يقف الحليف على الحياد الودى.

٣ ـ فى حالة تعاون إيجابى أو عسكرى من جانب روسيا وفرنسا تعمل الدولتان المتعاقدتان معا على مواجهة الدولتين سالفتى الذكر.

ولم تلبث (إيطاليا) أن انضمت إلى هذا التحالف فأصبح ثلاثيا فى ٢٠مايو ـ آيار ١٨٨٣. وكان الدافع الرئيسى لإيطاليا هو إقتناعها أن فرنسا ـ وقد أبعدتها عن تونس ـ لن تسمح لها بموضع قدم فى شمالى إفريقية إلا إذا تحدثت إيطاليا من مركز القوة، ورحبت ألمانيا بالتحالف مع إيطاليا لأن فرنسا بذلك تصبح مهددة من أكثر من جهة الأمر الذى يحرمها من تركيز جيوشها فى جهة واحدة.

وهكذا أصبح بسمارك متعاقدا مع أطراف متنافرة، مع النمسا الكارهة لروسيا عضو (عصبة الأباطرة) ومع النمسا المتنازعة مع إيطاليا على الحدود بينهما، بل وأخذت ألمانيا تنزلق يوما بعد آخر نحو الدخول فى معمعة التنافس الأوربى فى البلقان.

ولكن كان بسمارك يدرك أن التباعد بين روسيا وألمانيا يسير بخطوات سريعة جدا فعمل بأقصى جهده من أجل الإبقاء على ود روسيا ولو مظهريا. حتى جاءت الأزمة التى وضعت الفواصل العالية بين الدولتين، وكانت أزمة بلقانية فى ١٨٨٥.

التحالف الروسى الفرنسى ١٨٩٣

وقعت فى ١٨٨٥ الثورة المرتقبة فى ولاية الرومللى الشرقية ضد الدولة العثمانية معلنة انضمامها ـ رغم مؤتمر برلين ١٨٧٨ ـ إلى بلغاريا، بتأييد ضخم ـ فى هذه المرة ـ من جانب بريطانيا التى كانت حكومتها ترى ـ عن حق ـ أن بلغاريا فى ١٨٨٥ أصبحت شوكة فى جنب روسيا، ومن مصلحة بريطانيا أن تستكمل بلغاريا وحدتها فى مثل هذه الظروف. ولكن أعلنت الصرب ـ وقد وجدت جارتها بلغاريا تكبر هكذا وتهدد أمانيها ـ الحرب لتمنى بهزيمة ساحقة على يد الجيش البلغارى فى معركة سليفنتزا. ومع هذا انتهت الحرب إلى عودة الأمور إلى ما كانت قبلها وذلك فى معاهدة بوخارست ٣مارس ـ آذار ١٨٨٦. خلال هذه الحروب وفى أعقابها وضح تماما أن الفرقة بين ألمانيا وروسيا لارجعة لها، إذ وقف بسمارك موقف الحليف من النمسا ضد روسيا. ومع هذا ظل يسعى جاهدا للإبقاء على صلات الود مع روسيا حتى لاتندفع الحكومة الروسية وراء الصحافة هناك لعقد تحالف مع فرنسا. ونجح فى ١٨٨٧ فى عقد معاهدة «إعادة التأمين»، وكانت، إلى حد كبير، تتناقض ـ على حساب النمسا ـ مع الحلف الثنائى، حيث نصت معاهدة «إعادة التأمين» على أنه فى حالة اشتباك إحدى الدولتين المتعاقدتين فى حرب ضد دولة ثالثة تقف الأخرى على الحياد، أو بمعنى آخر إذا هاجمت روسيا النمسا لا تدخل ألمانيا الحرب ضد روسيا.

ومع ذلك أخذت الخلافات الروسية الألمانية تتعمق وأخذت تزداد عمقا وبسرعة، وتجلى ذلك فى عودة الموقف فى بلغاريا إلى التوتر وصممت روسيا على عزل فرديناند أوف ساكس كوبرج عن عرش بلغاريا فى ١٨٨٧ وتحدتها النمسا بقوة، وعندما لمّح القيصر الروسى إلى استخدام القوة ضد النمسا أبدى

بسمارك تأييده الكامل للنمسا ناشرا فى فبراير ١٨٨٧ نصوص معاهدة الحلف الثنائى. وحيث إن إيطاليا وإنجلترا كانتا كذلك ضد روسيا فى هذا الموضوع أدركت الأخيرة مدى ضعفها إذا أرادت أن تفرض ـ وحدها ـ كلمتها على المجتمع الأوربى. وبذلك قضى على معاهدة إعادة التأمين عمليا.

ولهذا كانت الظروف تدفع ـ بسرعة أكبر ـ روسيا نحو التحالف مع فرنسا التى كانت تراقب هذه التطورات وترتب اقتناصها بمهارة. ولم تكن الدوافع التى أدت إلى التحالف الفرنسى ـ الروسى عسكرية فقط، بل كانت اقتصادية فضلا عن الدوافع السياسية، ويمكن أن نحددها فيما يلى:

١ ـ فمن ناحية الظروف الاقتصادية، كانت روسيا تعانى بشدة من التخلف الصناعى فى نفس الوقت الذى تتطلع فيه إلى التوسع الاستعمارى فى اتجاه الشرق. وكى تحقق حكومة القيصر إسكندر الثالث هذه الأهداف كان لابد من توفر عاملين وهما: رأس المال والخبرة. وكانت ألمانيا وإنجلترا تكرهان تقوية روسيا، وكانت فرنسا هى الدولة الكبرى الوحيدة الباقية لتقديم المال والخبرة لروسيا. وكانت هذه الظروف واضحة المعالم أمام الدبلوماسيين الفرنسيين. ولهذا وجدت القروض الروسية مجالا واسعا لها فى فرنسا وقدمت فرنسا الأموال لروسيا لمد خطوط سكك حديدها نحو الشرق، وقدمت الخبراء فى مد الطرق والمنشآت الإنتاجية العسكرية وبعض المنشآت الصناعية.

٢ ـ كانت روسيا مكروهة من كافة الدول الكبرى الأوربية، وكان الاستهزاء بها شائعا فى بلاطات وصحف الدول الأوربية، وخاصة بعد أن فقدت صداقة ألمانيا، وكانت فرنسا تدرك هذه الأمور الجارحة للشخصية الروسية، كما كان مثقفو روسيا كذلك يدكورن حاجتهم للارتباط بدولة غربية متقدمة ترفع شأن روسيا دوليا وعسكريا بما يجعلها تتحدث مع ألمانيا والنمسا وبريطانيا من مركز قوة. هذه المشاعر استغلها الفرنسيون بمهارة وكسبوا قلوب الحكومة الروسية والشعب الروسى الممالئ لروسيا خلال الأزمة البلغارية فى الوقت الذى كانت فيه الدول الأوربية الأخرى تشن الحملات الدعائية الشعواء ضدها.

٣ ـ وبينما كان الفكر الجمهورى التقدمى الفرنسى أحد الأسباب الرئيسية فى

التباعد بين روسيا وفرنسا، استطاعت فرنسا أن تثبت لروسيا أنها لا تسعى إلى تخريب نظام الحكم القيصرى الاستبدادى بالقبض على عدد من اليساريين الروس وتسليمهم إلى السلطات الروسية، الأمر الذى كان له صداه الكبير فى الدوائر الحاكمة فى روسيا.

ورد الروس الجميل لفرنسا عندما استفزت ألمانيا فرنسا عسكريا غير مرة. ومن ذلك أنه عندما اشتدت موجة الانتقام من ألمانيا حدة فى أيام الجنرال بولانجية. تحركت العسكرية الألمانية هى الأخرى وسعى كل من الفرنسيين والألمان إلى روسيا فاتخذت روسيا موقفا مؤيدا بوضوح لفرنسا. وأدت هذه التطورات إلى تفاهم سياسى بين فرنسا وروسيا يقضى بتنسيق سياسة الدولتين إزاء تهديد قد تتعرض له أى منهما (أغسطس ـ آب ١٧٩١).

٤ ـ كان التقارب النفسى والسياسى لا يمكن أن يقدم الكثير لفرنسا إذا ما وقع الصدام العسكرى مع ألمانيا، وكان قيصر روسيا غير متعجل لعقد تحالف عسكرى خشية الإنتقام الألمانى، وخاصة أن الحلف الثلاثى النمساوى الإيطالى الألمانى كان أقوى استعدادا من روسيا وفرنسا مجتمعتين. إلا أن تجديد هذا التحالف الثلاثى فى ١٨٩١ جعل القيصر يتجه إلى ربط الدولتين (روسيا وفرنسا) بمعاهدة سياسية عسكرية وتم ذلك فى معاهدة ديسمبر ١٨٩٣ التى قضت بوقوف روسيا إلى جانب فرنسا إذا هاجمتها ألمانيا أو ساعدت الأخيرة إيطاليا على الهجوم على فرنسا وتعهدت فرنسا بالوقوف إلى جانب روسيا إذا هاجمتها ألمانيا أو ساعدت هذه الأخيرة النمسا فى الهجوم على روسيا.

كان ظهور هذا الحلف الثنائى الروسى ـ الفرنسى كقوة رادعة ضد الحلف الثلاثى الألمانى النمساوى الإيطالى صفحة جديدة من العلاقات الدولية والأوربية، حيث أصبحت هناك كتلتان معاديتان، وعلى الدول الكبرى أن تقيم علاقاتها على هذا الأساس، الأمر الذى كان يدفع بالدول إلى الميل إلى هذه الكتلة أو إلى تلك.

ولكن من الجهة العسكرية كان (التحالف الثلاثى) أقوى من (التحالف الثنائى) للأسباب التالية :ـ

١ ـ النمو الإقتصادى فى داخل ألمانيا وفى خارجها أعطاها تفوقا ملحوظا

أو على الأقل أعطاها توازنا مع النمو الاستعماري الكبير الذى أحرزته فرنسا فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر. هذا بينما كانت روسيا تعانى من التدهور الاقتصادى والمجاعة والأوبئة.

٢ ـ كانت إمبراطورية النمسا والمجر تعانى من مشكلة القوميات والأقليات ويمكن أن تستغل روسيا نقطة الضعف هذه، إلا أن المشكلات الداخلية فى روسيا كانت هى الأخرى معقدة تهدد البناء القيصرى نفسه.

٣ ـ من الناحية العسكرية كانت دول التحالف الثنائى مضطرة للقتال فى أكثر من جبهة، وكذلك كان الحال بالنسبة لدول التحالف الثلاثى، ولكن هناك اتصالا مباشرا بين دول التحالف الثلاثى بينما لا يوجد مثل هذا الاتصال بين روسيا وفرنسا.

٤ ـ كان مجرد وجود هذين الحلفين كفيلا بزيادة التوتر فى أوربا وفيما وراء أوربا، ولكن مما زاد هذا التوتر حدة مساعى كل طرف لجذب قوى أخرى للتعاون معه، ومن هنا كانت أنظار فرنسا مركزة على منافستها التقليدية (إنجلترا» وفعلا كان الموقف الذى ستتخذه إنجلترا هو الحاسم فى حرب الأحلاف رغم وجود دولتين كبيرتين على طرفى القارات القديمة ترقبان التطورات ولاتريدان الاشتراك فى هذه الدوامة إلا فى الوقت المناسب وفى ظروف يصبح فيها الربح مؤكدا، ونعنى بذلك: (اليابان) و(الولايات المتحدة الأمريكية).

وجاء هذا التحالف الثنائى الروسى الفرنسى فى وقت كانت الرأسمالية والعسكرية الألمانية تنطلق فى سياسة استعمارية على النسق الفرنسى والإنجليزى، الأمر الذى أثار مخاوف بريطانيا من انطلاقة العملاق الألمانى فيما وراء البحار. كما جاء هذا التحالف الثنائى الروسى الفرنسى فى وقت كانت فيه روسيا قد نشطت صوب الشرق فى اتجاه منشوريا وكوريا، اللتين أصبحتا فى نفس الوقت تقريبا هدفا للإمبريالية اليابانية الناشئة.

وفى الوقت نفسه تقريبا كانت الولايات المتحدة الأمريكية قد مدت يدها

إلى الفلبين خـاصة منذ ١٨٠٣ حتى شنت حربهـا ضد أسبانيا واستـولت عليها. ومعنى هذا أن التوازن الدولى منذ التسعينيات كان غير محدد المعالم بسبب وجود هذه الدول الكبرى الثلاث خارج نظام المحالفات وهى إنجلترا والولايات المتحدة الأمريكية واليـابان. وكانت مجالات الصدام وكذلك مجـالات الاتفاق توجه هذه الدولة أو تلك نحو هذا التحالف أو ذاك، وكان من سوء مستقبل ألمانيا أن الدول الثلاث (أى إنجلترا والولايات المتحدة الأمريكية واليابان) ـ رغم مناطق الاحتكاك الكثيرة مع روسيا وفرنسا ـ كانت تسير نـحو التعاون مع هاتين الدولتين فيما عرف بنظام الوفاق الودى Entente Cordiale.

(٣)

الوفاق البريطانى اليابانى

(١٩٠٢)

وصف كثير من المؤرخين بريطانيـا ـ خلال النصف الثانى من القرن التاسع عشر ـ بـأنها «فى عزلة مـجيدة»، على اعتـبار أنها تركت الأمـور دون أن تشارك مشاركة فعلية فى حروب الوحدة الإيطالية أو حروب الوحدة الألمانية، إلا مشاركة الدولة القوية الشكيمة التى يرهبها الجميع،وتستطيع أن تتدخل عندما تنقلب الأمور ضد مصالحهـا، وخلال الفترة الواقعة بين نهاية حرب القـرم وأواخر القرن التاسع عشر لـم تشعر بريطانيـا بأن هناك من الدول الأوربية مـن تستطيع أن توجه إلـيها ضربة شديدة فـى أى مكان من مناطق استعمـارها الممتدة من أستراليـا إلى بورما والملايو والـهند وعدن إلى وادى النيل والـكاب ومستعـمراتها العـديدة فى غرب إفريقية وفى أمـريكا الوسطى،وكان أسطولها يعادل ضعف أسـطول الدولة البحرية التالية،ومن هنا كانت تشعر بالطمأنينة، وبحرية العمل وبالقدرة على فرض الحلول المناسبة لها عند النظر فى المشكلات مثلما حدث فى مؤتمر برلين ١٨٧٨.

ولكن هزيمـة فرنسا أمـام ألمانيا (١٨٧١)وظهـور الحلف الثنائـى والحلف

الثلاثى جعل استمرار إنجلترا فى تجنب المشاركة الفعالة فى سياسة الأحلاف يشكل خطرا على مستقبل الإمبراطورية البريطانية، إذ أصبحت تعيش تطورات تكاد تقلب ضدها كافة الدول الكبرى، دون أن تجد من يقف إلى جانبها بالصلابة المناسبة. فقد كان ظهور التحالف الثنائى يعنى أن بريطانيا حين تصطدم بمنافستها الكبرى فرنسا، تجد نفسها كذلك مضطرة إلى الصدام مع روسيا، وربما كان هذا الوضع محتملا لبعض الوقت طالما كانت دول التحالف الثلاثى على علاقة ودية مع بريطانيا. وكان العامل الجوهرى فى هذه العلاقات أنه كانت هناك عوامل صدام مع ألمانيا تكاد تعادل عوامل الصدام التى كانت بين فرنسا وبريطانيا، وبين روسيا وبريطانيا فى الجبهة الأوربية أو الجبهات الاستعمارية فى أفريقية وآسيا والشرق الأقصى. حتى وقع التوسع الكبير الروسى فى اتجاه الشرق الأقصى. وأصبح الخطر الروسى كبيرا على مصالح بريطانيا هناك، وأصبح على بريطانيا أن تجد لنفسها حليفا. ولكن عملية اختيار حليف صعبة، والعامل الحاسم فى هذه العملية هو أن يظهر بوضوح أن هذه الكتلة معادية، وأن تلك صديقة وجديرة بالتحالف معها على أساس المصالح المشتركة.

وحتى تبينت بريطانيا من هو الحليف الذى يجب أن تختاره مرت بعدة تطورات جعلتها تتبين طريقها النهائى بوضوح. وكانت هذه التطورات الرئيسية هى:

(أ) محاولات التحالف مع ألمانيا وفشلها.

(ب) التحالف مع دولة كبرى غير أوربية (الوفاق اليابانى البريطانى).

(جـ) الوفاق مع دولتى الحلف الثنائى (فرنسا وروسيا).

ولنلقى نظرة على هذه التطورات الرئيسية:

كانت هناك عدة عوامل شجعت على التقارب البريطانى الألمانى وأهمها:

كانت العلاقات الودية بين الشعبين الألمانى والإنجليزى واضحة وقوية، رغم بعض مظاهر الغيرة بينهما. وكانت هناك دعوات لها صداها بشأن توحيد

(الجنس التيوتونى) أصل الألمان والإنجليز. وكانت صلة القربى بين البلاطين الألمانى والإنجليزى توحى - لغير المتعمقين من أفراد الشعبين - بأنها ستكون فعالة فى إتمام التحالف بينهما. فقد كان ولهلم الثانى حفيد الملكة فيكتوريا (١٨٣٦ - ١٩٠١)، وكان بلاطها وريف بريطانيا وملاعبها محببا إلى قلب الحفيد وكانت هناك علاقات ثقافية قوية بين جامعات بريطانيا وجامعات ألمانيا. وكأن الإنتاج العلمى الألمانى والأدبى يلقى رواجا وترحيبا فى بريطانيا.

٢ - والمعروف عن الإنجليز (ملكية وحكومة وشعبا) أن مثل هذه المظاهر العاطفية الاجتماعية قد تلفت انتباههم ويعنون بها، ولكن الذى يدفعهم حقيقة إلى التعاون والتحالف هو حاجتهم إلى الكسب العسكرى والسياسى والمادى. وكان فى تحالفهم مع ألمانيا - من وجهة نظر بعض السياسيين الإنجليز - الكثير من هذه الأهداف، كانت تجارة بريطانيا رائجة فى ألمانيا نفسها. وكان الأسطول البريطانى هو أقوى أساطيل العالم قاطبة، ولكن جيش بريطانيا لم يكن كذلك، بل كان الجيش الألمانى أقوى جيوش العالم، ومن هنا ظهرت الدعوة إلى تكامل هاتين القوتين العسكريتين فيصبحا قادرين على فرض السلام وأن تصبح كلمتهما مسموعة لدى الدول الأخرى.

٣ - كانت المضايقات المتتالية الفرنسية للاحتلال الإنجليزى لمصر تجعل بريطانيا فى حاجة إلى تأييد قناصل دول الحلف الثلاثى لمشروعاتها فى توطيد الاحتلال واستمراره.

وهكذا كانت الظروف العامة تكاد توحى بأن بريطانيا إذا سعت إلى البحث عن حليف لمواجهة التحالفات المضادة الأوربية فسيكون تحالفها مع ألمانيا بالذات إذ كانت مجالات الاحتكاك - فى أول الأمر - بين الدولتين قليلة. بينما كانت الأزمات كثيرة بين بريطانيا ودولتى الحلف الثنائى روسيا وفرنسا. فبينما كانت دول الحلف الثلاثى (ألمانيا والنمسا وإيطاليا) تدعو باستمرار إلى عدم إثارة الحروب والعمل على توطيد السلم، وهوأمر كان يخدم المصالح البريطانية، كانت فرنسا تسعى إلى استرداد الإلزاس واللورين بأية طريقة وخاصة بالقوة.

أصبح هذا الحليف ضروريا جدا لبريطانيا بسبب الدور الذى لعبته روسيا فى أعقاب الحرب الصينية اليابانية ١٨٩٥. فقد نصت معاهدة شيمونسكى اليابانية الصينية والتى كانت لصالح اليابان وبداية تفوقها فى الشرق الأقصى على:

١ ـ استقلال كوريا وكانت تابعة للصين، وكانت اليابان تهدف من وراء ذلك التمهيد للسيطرة المباشرة على كوريا.

٢ ـ تنازل الصين لليابان عن (فرموزا) و (بيسكادورس) و (شبة جزيرة لياوتونج) بما فيها بورت آرثر الميناء الصالح للملاحة طول العام.

٣ ـ دفع تعويض ضخم لليابان.

٤ ـ حصول اليابانيين على الحقوق القضائية التى كان يتمتع بها الأوربيون فى الصين.

كان هذا الظهور القوى لليابان فى المجالات الاستعمارية الأوروبية فى الصين مثيرا لحقد الدول الكبرى باستثناء بريطانيا. ففى ٢٣ أبريل ـ نيسان ١٧٩٥ تضافرت كل من روسيا وفرنسا وألمانيا عن توجيه إنذار إلى اليابان باسم الحفاظ على وحدة الصين، فاضطرت اليابان تحت هذا الضغط الكبير إلى الموافقة على طلبات هذه الدول الكبرى فسحبت قواتها عن شبه جزيرة (لياوتونج). ولكن هذه الدول الثلاث الكبرى لم تلبث أن انقضت على الصين دون أى اعتبار لوحدتها، فاحتلت روسيا (بورت آرثر)، واستولت ألمانيا على (شانتونج). وفرنسا على (كوانج تشوان) فردت انجلترا بالاستيلاء على (واى هاى واى).

ومن وجهة نظر الإنجليز كان استيلاء روسيا على بورت آرثر ـ الذى يمكن تحويله إلى قاعدة حربية كبيرة ـ تغييرا لميزان القوى يهدد الإمبراطورية البريطانية بخطر الحرب فى أكثر من جبهة ضد روسيا وفرنسا. ومن ثم كان لابد ـ من وجهة النظر البريطانية ـ من حليف لبريطانيا. وكان الاتجاه الأول هو التحالف مع ألمانيا.

وبلغت ذروة الدعوة إلى عقد تحالف ألمانى ـ إنجليزى على يد جوزيف تشمبرلن فى ٣٠ نوفمبر ـ تشرين الثانى ١٨٩٩ عندما قال فى خطبته يومذاك:

«هناك أمر آخر يبدو لى أنه كان مطمع أنظار كل سياسى بعيد النظر. ألا وهو أن لاتدوم عزلتنا هذه عن شئون القارة الأوربية. وعندى أنه متى حان الوقت لتحقيق هذه الرغبة فبدهى أن يكون تحالفنا مع الامبراطورية الألمانية العظيمة أمرا طبيعيا».

وقال أيضا أن:

«التفاهم مع أمريكا ـ لو شمل أيضا ألمانيا ـ سيكون له تأثير أكبر على تقرير سلام العالم أكثر من أى تحالف عسكرى».

بل لقد سعت بريطانيا إلى إغراء ألمانيا بالتحالف معها عن طريق فتح المغرب على مصراعيه أمام التفوق السياسى والعسكرى والاقتصادى الألمانى. ولقد كان هناك اهتمام خاص ألمانى بالمغرب على اعتبار أنه المجال الحيوى للاستعمار الألمانى لما فيه من معادن وفرص متسعة للتجارة، وأنه يمكن أن يصبح مهجرا للألمان يحتفظون فيه بشخصيتهم وارتباطهم بالوطن الأم، هذا فضلا عن أن السيطرة الألمانية على أغادير ـ لو تمت ـ لأصبحت قاعدة ألمانية على الطريق إلى المستعمرات الألمانية فى إفريقية.

ولكن رفضت ألمانيا هذه العروض البريطانية للتحالف معها ويدور جدل كبير حول الأسباب التى جعلت القيصر الألمانى ولهلم الثانى يرفض هذه اليد الممدودة إليه.

فبعض المؤرخين يفسر ذلك بالمواقف البريطانية العديدة الأخيرة التى بدت فيها بريطانيا كارهة للألمان خلال الفترة العصيبة التى مرت بالألمان خلال حروب الوحدة من ١٨٦٣ إلى ١٨٧١ إذ كانت قلوب الإنجليز مع الدنمركيين والنمساويين والفرنسيين. ويضاف إلى هذا أن بريطانيا كانت بعيدة النظر حين أبت أن تستغل النكبة الفرنسية فى ١٨٧٠ لتستولى على مستعمراتها فيما وراء البحار، بل خفضت إلى درجة كبيرة من منافستها لفرنسا ـ المهيضة الجناح ـ خلال خمس سنوات تقريبا حتى تمكنت فرنسا من أن تقف على قدميها أمام العملاق الألمانى.

ويركز المؤرخان الإنجليزيان جرانت وتمبرلى على أن السبب فى ذلك هو أن ألمانيا كانت تختلف مع انجلترا فى أسلوب قمع روسيا فيما يتعلق بتوسع الأخيرة فى الشرق الأقصى، إذ كانت انجلترا شديدة الوطأة جدا على روسيا بيما كانت ألمانيا خفيفة عليها.

وفى إعتقادنا أن بريطانيا كانت تفتش حينذاك عن الحليف وكانت تسعى إلى ألمانيا ولكن دون أن تقدم لها شيئا جديرا من وراء هذا التحالف الكبير، بينما كانت ألمانيا تسعى إلى الكثير فيما وراء البحار وهى مجالات صدام مع بريطانيا. فكان هذا بداية التحول البريطانى عن ألمانيا فى بحثها عن حليف.

وزاد هذا التحول البريطانى شدة، بل وأخذت العلاقات الودية الألمانية ـ الانجليزية تتدهور بسبب سياسة الانطلاق الاستعمارى الألمانى فى الدولة العثمانية وبسبب النمو فى البحرية الألمانية.

ولهذا عملت بريطانيا على:ـ

١ ـ منع الألمان من تنفيذ مشروعهم الخاص بمد خط حديد برلين ـ بغداد ـ الكويت.

٢ ـ منع ألمانيا من إحراز قصب السبق فى تنمية سلاحها البحرى الحديث.

وكان موقف ألمانيا من محاولات إنجلترا للسيطرة على جمهوريتى البوير هو الذى جعل انجلترا تبتعد بسرعة عن ألمانيا.

فالمعروف أن الهولنديين كانوا قد استعمروا رأس الرجاء الصالح واستولت بريطانيا على هذا الميناء الإستراتيجى خلال الحروب النابليونية ولم يستطع المستعمرون الهولنديون (البوير) البقاء تحت الحكم البريطانى وخاصة أن الإنجليز أوقفوا تجارة الرقيق، الأمر الذى أصاب (البوير) بضربة اقتصادية قاصمة، وقررت الغالبية العظمى منهم الهجرة شمالا، وكونوا جمهوريتين هما: الترنسفال والأورنج. ولم يلبث أن اكتشف الذهب والماس فيهما فتدفق عليهما الكثير من الإنجليز الباحثين عن الثروة، وبسرعة أصبحوا المتحكمين فى إقتصاديات المنطقة وعملوا على وضع الجمهوريتين تحت الحماية البريطانية رغم أنف (البوير).

حقيقة كانت الحكومة البريطانية تدرك حرج مركزها لو شنت حربا على الجمهوريتين، ولكنها فى نفس الوقت كانت تجد من أبنائها من يمهد لها السبيل لتحقيق الهدف بوسيلة أو بأخرى. ومن ذلك قيام الدكتور جيمسون فى ديسمبر ١٨٩٥ بغارة إستعمارية فاشلة ضد الترنسفال، تبرأت منها الحكومة البريطانية. بينما كان القيصر ولهلم الثانى يعتقد تماما أن تلك الغارة ليست سوى مؤامرة بريطانية وبعث ببرقية تهنئة لكروجر Kruger زعيم الترنسفال على قضائه على هذه الحملة الاستعمارية.

ولا شك أن هذا العمل من جانب وليم الثانى كان ينم عن روح التشفى فى بريطانيا، وعن رغبة دفينة فى رؤيتها مهزومة. ولا شك أيضا أن هذه كانت مشاعر الدول الكبرى الأخرى، بل وكذلك البلاد التى تستعمرها بريطانيا. إلا أن حكومة بريطانيا وصحافتها ألقت بثقلها على الموقف الألمانى بالذات، وألهبت المشاعر الشعبية ضد ألمانيا. وذلك بريطانيا قد استبعدت فكرة التحالف مع ألمانيا وكانت تبحث عن مبرر لفرض حرب ضد (البوير)، فرددت الدوائر السياسية البريطانية بأن هناك علاقة خطرة على بريطانيا تربط بين ألمانيا والبوير، وأن ثروات البوير تستخدم لضرب الإمبراطورية البريطانية. ولم تلبث أن شنت بريطانيا الحرب على البوير.

ومن نتائج حرب البوير هذه أن القيصر الألمانى أدرك أنه لا يستطيع أن يقدم معونة ألمانية لأية قوة مناهضة لبريطانيا إلا إذا كان لديه أسطول قادر على أن يشق طريقة فى البحار رغم أنف الأسطول البريطانى. ومنذ ذلك الوقت بدأ التسابق المرير على التسلح البحرى بين ألمانيا وبريطانيا، وكان هذا التسابق مسألة حياة أو موت بالنسبة لبريطانيا. ومن ثم كان هذا الاتجاه الألمانى نحو كسر النظرية البريطانية الخاصة بالاحتفاظ بأسطول يعادل ضعف الدولة البحرية التالية لبريطانيا ضربة قاضية على أية نيات نحو إقامة حلف إنجليزى ـ ألمانى.

وفى الوقت الذى كانت فيه حرب البوير مستعرة كانت هناك حرب اقتصادية بسبب التنافس على المواصلات العالمية الحديدية والبحرية عبر الشرق العربى الواقع تحت سيطرة العثمانيين. فقد اتفق الألمان مع الأتراك على مد خط حديد برلين بغداد وفى كلا الأمرين سارت التطورات ضد رغبة ألمانيا فقد انتصر الإنجليز فى (البوير)، وأغلقوا فى ١٨٩٩ المنفذ الوحيد لخط حديد بغداد على الخليج العربى بعقد معاهدة مع الشيخ مبارك الصباح - شيخ الكويت - تمنعه من التنازل أو رهن أية قطعة من أرضه لأجنبى إلا بموافقة حكومة بريطانيا.

ولكن فى ١٨٩٩ كذلك كانت العلاقات الإنجليزية الفرنسية لاتسمح بعقد تحالف بين باريس ولندن بسبب احتدام النزاع بينهما حول الوجود البريطانى فى مصر والتوسع فى السودان باسم مصر.

كانت حكومة بريطانيا تريد البقاء فى مصر متجاهلة أن عددا من رؤساء حكوماتها سبق لهم أن أقسموا بشرف بريطانيا أن قواتهم سترحل عن مصر، وكانت حكومة الإحتلال البريطانى فى مصر تحصل علي تأييد ثمين من جانب القنصل الألمانى ضد المضايقات الفرنسية والروسية لها. اما وقد تردت العلاقات الودية مع ألمانيا، واستغل الألمان حاجة حكومة الإحتلال البريطانى لمصر إلى تأييد القنصل الألمانى فى القاهرة، فقد تحرج موقف حكومة الاحتلال أمام القناصل، خاصة عندما علم أن الجيش المصرى يستعد لاسترداد السودان - وكان بقيادة كتشنر - قد اصطدم عند فاشودة بكتيبة يقودها الكابتن مارشان الفرنسى الذى جاء ليثبت السيطرة الفرنسية على أكبر مساحة ممكنة من السودان(١٨٩٩).

ومع أن الدوائر السياسية الأوربية كانت تتوقع حربا بين فرنسا وبريطانيا بسبب إصرار كتشنر على إنزال العلم الفرنسى المرفوع عند فاشودة وانسحاب كتيبة مارشان إلا أن وجود (دلكاسيه) على رأس الوزارة الفرنسية، واتباعه سياسة حثيثة نحو التفاهم مع بريطانيا، جعل فرنسا تعبر هذه الأزمة. بل وضع - بموقفه هذا أساس التقارب الفرنسى البريطانى.

وفى ١٩٠٢ كانت العلاقات البريطانية حسنة ـ نوعا ما ـ مع فرنسا، ولكن لاتزال متردية جدا مع كل من روسيا وألمانيا، ولاتزال روسيا ـ من وجهة نظر بريطانيا ـ تشكل خطرا كبيرا على مصالح بريطانيا بسبب (بورت آرثر). ومن ثم كان من المتعذر عليها أن تتحالف مع أى من ألمانيا وفرنسا، وحيث إن الخطر الأكبر المهدد لبريطانيا فى ذلك الوقت كان النشاط الروسى فى الشرق الأقصى اتجه الإنجليز إلى التفاهم مع اليابان على مواجهة هذا الخطر الروسى المشترك أولا. وكانت اليابان فى حاجة إلى كسب بريطانيا بالذات حتى تعد نفسها لضرب روسيا وهى مطمئنة إلى أن أكبر دولة بحرية لا تعرقل مشروعاتها العسكرية وإلى أن أية دولة أخرى لن تدخل الحرب إلى جانب روسيا. ولهذا كانت المفاوضات بين الطرفين البريطانى واليابانى غير معقدة وتوصلا إلى التعاهد اليابانى الإنجليزى فى ١٩٠٢ الذى يعتبر النهاية الفعلية للعزلة البريطانية، وهى السنة نفسها التى أشاح فيها الإنجليز نهائيا عن التعاهد مع ألمانيا.

وكان هذا التعاهد ينص على:

١ ـ الاعتراف بالأمر الواقع فى شرق آسيا، وفى كوريا والصين.

٢ ـ إذا وقعت الحرب بين اليابان وروسيا تقف انجلترا على الحياد.

٣ ـ وإذا تدخلت دولة أخرى ـ كفرنسا مثلا ـ لمساعدة روسيا تقدم إنجلترا المساعدة العسكرية لليابان.

٤ ـ مدة هذا الوفاق خمس سنوات.

ومن وراء هذه المواد كانت هناك بعض النتائج التى ترتبت عنها وهى:

١ ـ اعتراف ضمنى بريطانى بنفوذ اليابان فى كوريا.

٢ ـ حصلت اليابان على الثقة الذاتية التى كانت فى حاجة إليها، وأصبحت واحدة من القوى الدولية التى يجب أن تعامل على قدم المساواة مع الدول الأخرى الكبرى الأوربية. وكانت هذه هى أول مرة تظهر فيها مكانة دولة آسيوية على هذا النحو من المساواة فى عقد التحالفات.

٣ ـ ليس فى استطاعة فرنسا أن تدخل الحرب إلى جانب حليفتها روسيا وإلا هدمت ما سبق أن وطدته من علاقات طيبة مع بريطانيا منذ ١٨٩٩، وعرضت نفسها لحرب كبيرة ليست موجهة من أجل استرداد الإلزاس واللورين.

وفعلا انفردت اليابان بروسيا وأنزلت بها هزيمة قاسية جدا، واستولت على (بورث آرثر) فى مارس ـ آذار ١٩٠٥. وفى المعاهدة التى أنهت الحرب بين الدولتين، وهى معاهدة بورتسموت (٥نوفمبر ـ تشرين الثانى ١٩٠٦)، حصلت اليابان على تفوق كبير فى الشرق الأقصى. فقد اعترفت روسيا بتفوق المصالح الاقتصادية والعسكرية اليابانية فى كل من كوريا ومنشوريا، كما وافقت على نقل حقوق روسيا فى شبه جزيرة (لياوتونج) و (بورت آرثر) إلى اليابان، وكذلك بالنسبة لخط حديد بورت آرثر ـ موكدن وعلى نصف سخالين.

ونتيجة لهذا الانتصار اليابانى، توقفت الأطماع الروسية فى اتجاه الصين حتى لايقع صدام جديد مع اليابان، كما توقفت فى اتجاه أفغانستان حتى لا تقع حرب ضد إنجلترا، بل لقد اتفقت روسيا مع اليابان فى ١٩٠٧ و١٩١٠ على تحديد مناطق نفوذهما فى كل من منشوريا ومنغوليا منعا لوقوع مضاعفات جديدة فى المنطقة ولهذا هدأت حدة المنافسات الاستعمارية فى الشرق الأقصى.

الوفاق الودى البريطانى الفرنسى ١٩٠٤

حقيقة كان الانتصار اليابانى، كما كانت حادثة فاشودة إذلالا لهذا الطرف من الحلف الثنائى آنذاك (روسيا وفرنسا). إلا أن نتائجها أدت إلى اقتراب بريطانيا من الحلف الثنائى. وذلك يرجع إلى عدة أسباب وتطورات:

١ ـ كان واضحا أن ألمانيا تثير الكثير من المتاعب والمخاوف والارتباك فى الدوائر السياسية البريطانية بسبب الجهود الضخمة التى كان يبذلها القيصر ولهلم الثانى لإنشاء أسطول ألمانى حربى قوى يضارع ـ إن أمكن ـ الأسطول البريطانى، الأمر الذى يهدد بتحطيم نظرية التفوق البريطانى البحرى الساحق.

٢ ـ كانت الدبلوماسية الألمانية ـ رغم المعاهدة البريطانية الكويتية لسنة ١٨٩٩ ـ نشطة للغاية من أجل تنفيذ مشروع خط حديد برلين ـ بغداد ذلك الخط الذى كان فى نظر الإنجليز رأس حربة مصوبة إلى الهند البريطانية.

٣ ـ تصاعدت المضايقات الألمانية لحكومة الاحتلال البريطانى فى مصر للدرجة التى جعلت الإنجليز مضطرين إلى الحصول على تأييد فرنسا لمشروعات بريطانيا الاستعمارية فى مصر والسودان.

٤ ـ كانت بريطانيا تريد أن تتجنب صداما مع فرنسا فى المناطق التى كانت تعتبرها الأخيرة مجالا حيويا لها، مثل (المغرب)، فمع أن النفوذ البريطانى كان ينمو بسرعة هناك ـ أى فى المغرب ـ كانت الدوائر السياسية البريطانية تتحفظ فى الاندفاع فى هذا التيار توقعا لمطالبات شديدة فرنسية فى (المغرب).

٥ ـ انعكست مشاعر التقارب بين الطرفين على طبيعة العلاقات الودية بينهما، فقد ساعدت الزيارة التى قام بها ملك إنجلترا (إدوارد السابع) فى ١٩٠٣ لفرنسا فى خلق جو من الألفة التعاطف بين الصحافة الفرنسية والبريطانية وبين الشعبين.

٦ ـ كان هانوتو ـ وزير فرنسا ـ معارضا للتقارب الفرنسى البريطانى، ولم يلبث التعديل الوزارى أن أبعده وتولى الوزارة (ديلكاسيه) الداعية الأول للتقارب

مع بريطانيا. وما كان ليتمكن من تحقيق هذا التقارب وقطف ثماره إذا كانت فى الوزارة البريطانية معارضة لمثل هذه التقارب، ولقد كانت وزارة بلفور مقتنعة جدا بقيمة هذا التقارب فى هذه الظروف.

اتجه الطرفان الفرنسى والبريطانى إلى الدخول فى مفاوضات تمهيدية حددت المشكلات الرئيسية المعلقة، وانتهت هذه المفاوضات بعقد الوفاق الودى فى ٨ أبريل ١٩٠٤.

تضمن هذا الوفاق مواد علنية وسرية، وكان هناك اعتقاد عام بأن الدول الأوروبية الكبرى الديمقراطية مثل بريطانيا لا تخبر برلماناتها مثل هذه الاتفاقات السرية. ولكن الحكومة البريطانية والبرلمان البريطانى كان على مستوى عالٍ من المرونة واتساع الأفق وبعد النظر السياسى من أجل الدفاع عن مصالح بريطانيا الذاتية.

نصت المادة الثانية من هذا الوفاق على اعتراف الحكومة البريطانية بأن: «لفرنسا ـ بصفة خاصة ولكونها دولة متاخمة للمغرب... أن تسهر على الاستقرار فى هذا البلد، وأن تقدم لها مساعداتها بالنسبة لكل الإصلاحات الإدارية والاقتصادية والمالية والعسكرية التى تحتاجها». وتعلن أنها لن تعرقل عمل فرنسا فى هذا الصدد ووافقت الدولتان على احترام حقوق أسبانيا فيما عرف فيما بعد باسم (الريف) الأسبانى، وعلى عدم تسليح الساحل المغربى المواجه لجبل طارق.

وبالنسبة لمصر أعلنت فرنسا أنها لن تعرقل عمل إنجلترا فى مصر ولن تطلب تحديد أجل الاحتلال الإنجليزى.

وسويت كذلك المشكلات بين الدولتين فى كل من سيام ومدغشقر وغمبيا والنيجر ونيوفوندلاند، واتفق على أن يكون وادى نهر ميكونج وجبال رانج حداً فاصلا بين الهند الصينية الفرنسية وبورما والملايو البريطانيتين.

كانت الحكومة الألمانية قد أدركت خلال ١٩٠٤ ـ ١٩٠٥ أن شيئا خطيرا ضدها يدب بين فرنسا وبريطانيا وعمل القيصر فى اتجاهين:

(أ) محاولة كسر الحلف الثنائى الفرنسى الروسى منتهزا فرصة الهزيمة التى منيت بها روسيا أمام اليابان.

(ب) إحراج فرنسا فى أزمة دولية حتى يكتشف مدى قوى العلاقة الجديدة بينها وبين بريطانيا، ولقد أعطته المشكلة المغربية فرصة لذلك.

فبالنسبة لروسيا عمل القيصر ولهلم الثانى على إقناع القيصر (نيقولا الثانى) بقيمة عقد معاهدة دفاعية بين روسيا وألمانيا. وحيث إن ولهلم الثانى كان يدرك أن الوقت ضد خطته أسرع بزيارة القيصر الروسى فى (بيوركو) فى يوليو ١٩٠٥. وحصل على توقيعه على المعاهدة. إلا أن سياسيى روسيا رفضوا هذه المعاهدة التى عقدت من وراء ظهورهم، للأسباب التالية:

١ ـ أن هذه المعاهدة تقضى على الحلف الثنائى مع فرنسا وتفقد روسيا بالتالى قوة الضغط على الحلف النمساوى ـ الألمانى.

٢ ـ ستصبح كلمة روسيا فى البلقان أضعف من كلمة النمسا.

٣ ـ تنطلق ألمانيا بقوة أكبر من مشروعاتها شبه الاستعمارية فى الدولة العثمانية، تلك الدولة التى تعتبرها روسيا مجالها الحيوى.

كانت الحكومة الألمانية خلال عام ١٩٠٤/ ١٩٠٥ قد أدركت أن شيئا يدبر فى اتجاه المغرب إذا كانت مخططات فرنسا تؤكد أنها تعمل على إبعاد ألمانيا عن المغرب، رغم تأكيدات فرنسا الملتوية لألمانيا بأن سياسة «الباب المفتوح» ستظل سارية المفعول فى المغرب. والحقيقة هى أن فرنسا كانت تسير حثيثا فى سياسة احتكار النفوذ والتسلط على المغرب والتفوق على التجارة الألمانية هناك. وأرادت الحكومة الألمانية أن تضع فرنسا فى موقف حرج تضطر فيه إلى كشف نواياها بالنسبة للمغرب وطبيعة علاقاتها الأكثر من ودية مع بريطانيا. ولعلها تكسب من وراء ذلك استمرار سياسة الباب المفتوح أو موضع قدم ألمانى فى المغرب الواقع على الطريق إلى المستعمرات الألمانية فى إفريقية. وذهب القيصر ولهلم الثانى فى هذا الصدد إلى القيام بزيارة لطنجة (مارس ١٩٠٥)، وهناك أعلن رغبته فى أن يظل السلطان مستقلا فى نفس الوقت الذى يظل فيه باب المغرب مفتوحا أمام جميع الدول. ثم طالبت الحكومة الألمانية بعقد مؤتمر دولى لبحث مشكلة

المغرب (أبريل١٩٠٥). أدت معارضة (دلكاسيه) لفكرة عقد المؤتمر ـ التى لقيت ترحيبا فى معظم الدوائر السياسية الأوربية، وفى واشنجتن أيضا ـ إلى استقالته، ولكن بعد أن أنجز التفاهم البريطانى الفرنسى الذى استمر بشكل أو بآخر حتى وقتنا هذا.

دارت مفاوضات متعددة الأطراف قبل عقد المؤتمر، بين فرنسا وألمانيا، وفرنسا وأسبانيا، وفرنسا وإنجلترا. وواضح من هذا أن الدبلوماسية الفرنسية نشطت إلى أقصى قدراتها لمواجهة الضغوط الدولية والألمانية على فرنسا.

لقد كان هذا أول اختبار لمدى صلابة الوفاق الودى الفرنسى البريطانى فوقفت بريطانيا بقوة إلى جانب فرنسا، فى وقت كانت فيه التهديدات الألمانية قد وصلت إلى الحد الذى قال فيه مسئولون ألمان أنه لو عبرت الجيوش الفرنسية الحدود الجزائرية ـ المغربية فستعبر الجيوش الألمانية الحدود الفرنسية.

واستطاعت الدبلوماسية الفرنسية ـ قبل عقد مؤتمر الجزيرة ـ أن تحصل من ألمانيا على اعتراف بمصالح خاصة فرنسية فى المغرب فى مقابل اعتراف فرنسا باستقلال المغرب، واتخاذ التدابير اللازمة لإدخال الإصلاحات إلى الحكومة المغربية، وخاصة فيما يتعلق بالشرطة والمالية.

تحدد يوم افتتاح المؤتمر فى ١٦يناير ١٩٠٦، وتضمنت الكلمة التى ألقاها رئيس المؤتمر الدوق دالمودوفار ـ عند افتتاح المؤتمر الأهداف الثلاثة التالية:

١ ـ سيادة السلطان.

٢ ـ عدم الافتيات على أرض الدولة المغربية.

٣ ـ سياسة الباب المفتوح فى المغرب أمام كافة الدول الأوربية.

ومع هذا انتهى المؤتمر إلى نتائج معاكسة وضد مصالح ألمانيا وأهدافها بالذات، فقد دفع السلطان عرشه ثمنا لهذا التدخل الدولى فى أمور بلاده. واحتكرت فرنسا التسلط العسكرى والاقتصادى فى المغرب تاركة الريف (لأسبانيا)، ومهد كل هذا لفرض الحماية الفرنسية على المغرب فى ١٩١٢.

والسبب فى خروج ألمانيا مهزومة من هذا المؤتمر يرجع إلى أن حلفاء

ألمانيا لم يقفوا إلى جانبها بالصلابة اللازمة فقد كانت حكومة النمسا مترددة، وكانت إيطاليا تحث على السلام والتفاهم، وبالتالى خرجت دولتى الوفاق الودى أقوى مما كانتا عليه قبل المؤتمر.

كما كان الاتجاه العام فى أوربا الغربية ضد ألمانيا حتى بدت هذه شبه معزولة سواء قبل المؤتمر أو خلاله أو بعده. وكان انضمام بريطانيا ـ على أساس الوفاق الودى ـ إلى دولتى التحالف الثنائى (روسيا وفرنسا) قد جعل كفة هذا الحلف راجحة بوضوح، وجعل روسيا وفرنسا ـ وكانت حكومة بريطانيا تدرك ذلك ـ تشتطان فى العمل ضد ألمانيا.

ولم تتردد بريطانيا عن تقديم المغرب إلى فرنسا فى وقت كانت فيه أوربا تقبل ـ وبكل بساطة ـ تسوية مشكلاتها الدولية على حساب البلاد العربية حتى لا تتورط فى حرب لا تعرف عواقبها.

وأدى ذلك كله إلى نتائج ستكون خطيرة على مستقبل أوربا ومسئولة عن الإسراع فى وقوع الحرب العالمية الأولى:

١ ـ لقد سبق أن عقدت عدة مؤتمرات دولية ـ وبالأخص مؤتمر برلين ١٨٧٨ ـ لعلاج الصدامات الأوربية الناتجة عن التنافس فى اقتناص أجزاء من الدولة العثمانية، ولكن ظهور التكتلات الأوربية جعل قرارات وتوصيات هذا المؤتمر لا يعتد بها إلا إذا سارت وفق الأهداف الخاصة لدول هذه التكتلات. وحيث إن مصالح الكتلتين كانت متضاربة سارت الأمور نحو فكرة استخدام التهديد باللجوء إلى القوة عند العمل على تغيير الوضع الراهن Status quo فى أية بقعة من العالم لمصلحة إحدى التكتلات.

وفى مثل هذه الظروف يصبح تغيير الوضع الراهن انتصارا لطرف وهزيمة لطرف آخر، وقد تكررت مثل هذه الأحداث، وقد يتحمل هذا الطرف أو ذاك نموا استعماريا أو اقتصاديا فى هذه المنطقة من العالم أو تلك، ويمكن أن يتقبل هزيمة سياسية مرة أو أكثر من مرة، إلا أن التطورات كانت تسير فى اتجاه تصعيد الأزمات وبالتالى فى اتجاه الحرب. ولقد كانت فرنسا تعمل لهذا الهدف النهائى الذى كان فى نظرها الوسيلة الوحيدة لاسترداد الألزاس واللورين، وكانت بريطانيا

عندما عقدت وفاقها مع فرنسا فى ١٩٠٤ تدرك أن ميزان القوى قد اختل بشكل صارخ، وأن التطورات ستؤدى إلى حرب إذا استمرت ألمانيا فى سياسة الحصول على مكانة استعمارية وعسكرية موازية على الأقل لبريطانيا وكسر احتكار التفوق البحرى والاستعمارى البريطانى - وكانت الحكومة والشعب البريطانى يريا - عن إيمان حقيقى بمصلحته - أن لاحق لأية دولة فى الوصول إلى قوة بحرية مماثلة لها، وكان القيصر الألمانى يعتقد أن الشعب الألمانى صاحب رسالة فى هذا العالم ويجب أن يصبح فى ذروة القوة لا دفاعا عن نفسه وكسرا للاحتكار البحرى الاستعمارى البريطانى فقط، بل كذلك لإعطاء الشعب الألمانى دوره فى توجيه تاريخ العالم.

٢ - حصلت ألمانيا على مشاركة فى توجيه أمور المغرب الاقتصادية، إلا أن الأمور كانت تسير نحو انفراد فرنسا بالمغرب، دون أن تتمكن ألمانيا من منعها من ذلك إلا بالحرب، ولكن كانت كفة فرنسا هى الراحجة إذ كان وقوف بريطانيا إلى جانبها قد قلب موازين القوى ضد ألمانيا وجعل الأخيرة هى المعزولة لا فرنسا.

وكانت محاولة ولهلم الثانى كسر الحصار الذى ضرب على ألمانيا عندما زار القيصر الروسى فى (بيوركو) هى الأخيرة، فى هذا الصدد، وانتهت بفشل ذريع وبتماسك أشد بين روسيا وفرنسا وخاصة أن الأخيرة استخدمت قدراتها المالية فى سد حاجات روسيا إلى رءوس الأموال الملحة. واستخدمت قدراتها الدبلوماسية فى التقريب بين روسيا وإنجلترا. الأمر الذى مهد للوفاق الروسى - البريطانى فى ١٩٠٧.

الوفاق الروسى البريطانى ١٩٠٧

أشرنا إلى ذلك العداء الذى كان بين روسيا وبريطانيا منذ الحرب الروسية اليابانية. فلقد اكتشفت روسيا خلال ذلك أن اعتمادها على تدخل بريطانى ضد اليابان كان مجرد وهم قاتل. بل ضايقت بريطانيا الأسطول الروسى وهو فى طريقه

إلى الشرق الأقصى مستغلة فى ذلك سيطرتها على قناة السويس وكان مجرد وجود تحالف يابانى ـ بريطانى يمنع فرنسا عن تقديم المساعدة ـ إن استطاعت ـ لحليفتها روسيا.

وكانت مرارة روسيا شديدة، ولكن فرنسا قدمت مساعدات مالية لروسيا وخفضت من محنتها. وقدمت نصائح دبلوماسية جوهرية مؤداها أن بريطانيا ـ رغم تلك المواقف الخطيرة بالنسبة لروسيا ـ هى التى تستطيع أن تقلب التوازن الدولى لصالح الحلف الثلاثى أو لصالح الحلف الثنائى.

وكانت حكومة روسيا بعد تلك الهزيمة، وبعد إخماد الثورة الكبيرة الداخلية فيها (١٩٠٥)، وترى عن حق ـ أنها فى حاجة إلى أصدقاء بدلا من إثارة العداوات سواء القديمة التقليدية أو الجديدة. وكانت هذه الحكومة كذلك تدرك تماما أن القوى التى تحول دون نموها وتوسعها هى:

(أ) بريطانيا.

(ب) إمبراطورية النمسا والمجر.

(جـ) ألمانيا.

ولم يبق أمام روسيا من جهات تتوسع فيها ـ بعد أن أغلقت اليابان فى وجهها الشرق الأقصى ـ سوى:

(أ) الدولة العثمانية فى اتجاه الأناضول والعراق.

(ب) الدولة العثمانية فى اتجاه البلقان.

(جـ) إيران

فيما يتعلق بالتوسع على حساب الدولة العثمانية من أية جهة كانت، بريطانيا تعارض ذلك بقوة خوفا على المضايق (الدردنيل والبسفور) من الوقوع فى يد روسيا، فضلا عن أن بريطانيا كانت تعارض مجرد فتح هذه المضايق أمام السفن الحربية الروسية. وتعارض أيضا بشدة أى توسع روسى فى اتجاه الأناضول وشمالى العراق، إذ كان الإنجليز يتهمون السياسة الروسية بالتخطيط للوصول إلى الخليج العربى مفتاح الطريق إلى الهند.

وفيما يتعلق بالبلقان كانت إمبراطورية النمسا والمجر تعارض كل تحرك روسى هناك وتواجهه بتحرك مضاد، وكانت نفس السياسة تتبعها روسيا إزاء النمسا فى البلقان ولكن كانت الدول البلقانية كثيرة التقلب فى سياستها إذ كانت تميل إلى هذه الدولة أو إلى تلك سعيا وراء المكاسب الأرضية بأية طريقة.

ونظرا لعدم قدرة أى من روسيا والنمسا على التحكم فى نتائج تفوق أى مهما فى البلقان، ولخطورة مثل هذا التفوق على التوازن الدولى، اتفقتا فى ١٨٩٧ على الإبقاء على الوضع الراهن فى البلقان، واستمر الأمر كذلك حتى ١٩٠٣ عندما وقعت الثورة فى (مقدونيا) ضد الاستبداد التركى. ومنذ ذلك الوقت والتنافس الروسى - النمساوى يتصاعد، وأخذ شكل «حرب خطوط مواصلات» عندما وضعت النمسا مشروعا لمد خط حديدى يفصل بين الصرب والجبل الأسود، وعندما ردت روسيا على ذلك بمشروع لخط حديدى من شرق الصرب إلى ساحل بحر إيجه، وكان أخشى ما تخشاه النمسا هو أن تطل الصرب على بحر إيجه.

ومن ثم كان أى نشاط ملحوظ روسى فى البلقان مثيرا للأزمات الدولية المعقدة، وما كانت نتائج هذه الأزمات باستمرار لصالح روسيا، بل كثيرا ما كانت جهود روسيا خلال التدخل فى البلقان لصالح دول البلقان أولا. ومع هذا كانت روسيا مضطرة باستمرار لأن يكون لها سياسة مؤثرة فى توجيه أمور البلقان حفاظا على مكانتها الدولية. ونفس الأوضاع كانت بالنسبة للاتجاهات التوسعية الروسية فى الدولة العثمانية، ولكن أصبحت آمال روسيا فى المشاركة فى تحديد مصير ولايات الدولة العثمانية مهددة بالتلاشى بسبب الدور المتصاعد الذى أخذت تلعبه ألمانيا فى الدولة العثمانية وخاصة فيما يتعلق بمشروع مد خط حديد برلين - بغداد حتى كاظمة فى الكويت. وأصبحت ألمانيا - إلى جانب بريطانيا - قوة جديدة تحول دون الانطلاق فى الدولة العثمانية. بل أصبح هناك اعتقاد فى الدوائر السياسية الأوربية أن (المجال الحيوى) لألمانيا هو الدولة العثمانية وبوجه خاص فى الأناضول والعراق.

لم تبق سوى إيران (فارس) لتعمل فيها روسيا ولتثبت للعالم أن روسيا

لا تزال دولة كبيرة، إذ كـان النشاط الاستعمارى فى أراضى الدول الضـعيفة أحد مظاهر القوة حينذاك. ولكـن منذ قرن تقريبا وروسيا تواجه مقاومـة بريطانية سرية وعلنية لمشروعاتها التوسعية فى فارس.

وأصبح أمام روسيا لـكى تفتح الطريق أمام نشاطاتها التـوسعية أن تصل إلى تفاهم مع الحـلف الثلاثى أو مع بريطانيـا. وحيث إن أى تفاهم مع ألمانـيا يقضى بالضرورة على التحالف الروسى - الفرنسى بات التفاهم مع بريطانيا أكثر واقعية.

وكانت بريطـانيا فى ١٩٠٦ - ١٩٠٧ قد قللت مـن تعنتها ضد روسـيا التى أصبحت مهيضة الجناح بعد نكبتهـا أمام اليابان، إذ أصبح من المستبعد جدا على روسيا أن تقـامر بخوض حرب جديـدة ضد دولة كبيرة. وإذا قـورن هذا الموقف الروسى بنمو قـدرات ألمانيا العسكرية وبمـشروعاتها الاقتصادية الـتى كانت تهدد بريطانيا ومـستعمراتها، وبوجه خـاص التطور العسكرى الألمانى الـبرى والبحرى ومشروع خط حديد بغداد ورفع معدلات صادراتـها الصناعية بشكل ضخم، حتى لقد اكتسـبت المصنوعات الألمانية فى وقت قـصير شهرة عالميـة أصابت التجارة البريـطانية بخـسائر تتزايـد على مر الـسنوات، لكان من الواضـح أن هـناك عدوا مشتركـا لكل من روسيا وبريطانيا هو ألـمانيا، وأن المشكلات القائمـة بين روسيا وبريطانيا قابلة للحل بعكس المشكلات بين روسيا وكل من ألمانيا والنمسا.

ومما لا شك فيه أن الـدور الذى لعبته فرنسا فى فتح الـطريق أمام التقارب الروسى - البـريطانى، وفتح باب المـفاوضات بين الطرفـين لتسوية نقـاط الخلاف بينهمـا يعتبر واحـدا من أكبر الانتصارات الـدبلوماسية الفـرنسية فى فتـرة ما قبل الحرب العالمية الأولى.

نجحت الوساطة الفرنسية فى التقريب بين حكومتى روسيا وبريطانيا، وذلك لأن فرنسا لـم تلح على عقد تحـالف بين بريطانيـا روسيا وإنما مهـدت لنوع من الوفاق على شاكلـة ذلك الوفاق الودى لسنة ١٩٠٤. وأخيرا وقعت اتفـاقية روسية بريطانية فى ٣٠ أغسطس ١٩٠٧ وضعت النصف الشمالى من إيران تحت تصرف

روسيا والنصف الجنوبى تحت تصرف بريطانيا، أما الوسط فترك للشاه القاجارى،والطريف فى هذا الوفاق الودى الروسى ـ البريطانى أنه يؤكد العمل على تدعيم استقلال الشاه وبلاده،ولقد سبق أن فعلت بريطانيا وفرنسا ـ وهما بصدد الوفاق الودى لسنة ١٩٠٤ ـ نفس الشىء بالنسبة للمغرب (مراكش).

إن قيمة هذا الوفاق الودى (الفرنسى البريطانى) ثم (البريطانى الروسى) يمكن أن تتضح ـ بالنسبة لهذه الدول بالذات ـ عندما نشير إلى نظرية ظهرت فى ذلك الوقت قال بها العلامة الإنجليزى (مكندر) بصدد الأوضاع الإستراتيجية العالمية وملخص هذه النظرية هو:

أن من يحكم (شرق أوربا) يستطيع أن يسيطر على (قلب العالم)، ومن يسيطر على قلب العالم ليستطيع أن يتحكم فى (العالم القديم)،ومن يتحكم فى العالم القديم لن يلبث أن يسيطر على العالم بأسره.

ومن ثم لم يكن فى استطاعة ألمانيا وإمبراطورية النمسا والمجر بعد عقد هذين الوفاقين أن يسيطرا على شرق أوربا كله دون حرب ضروس فى ظروف العالم فى مطلع القرن العشرين.

ما ان عرف هذا الوفاق الودى الروسى ـ البريطانى حتى أدركت ألمانيا أن الطوق قد أحكم عليها. . وأصبحت أوربا ـ بل العالم ـ أمام كتلتين شاكيتى السلاح كل منهما تتربص بالأخرى وكل الدول ـ فى كل خطوة تخطوها ـ تحسب حساب وجهات نظر أى من هاتين الكتلتين،ولكن بصفة عامة كانت كفة دول الوفاق أقوى من كفة دول التحالف الثلاثى. والسبب فى هذا هو أن بريطانيا كانت صاحبة تفوق بحرى كبير يعادل ضعف أية قوة تالية لها، وفوق هذا أصبحت حليفة (اليابان) فى الشرق الأقصى، وتحملت اليابان فى ١٩٠٥ مسئولية الدفاع البحرى عن الهند فى حالة تعرضها للهجوم، كما أصبحت على وفاق مع فرنسا أكبر قوة بحرية ضاربة فى البحر المتوسط.

وكان هذا الارتباط البريطانى بروسيا وفرنسا من العوامل الجوهرية التى أعطت لروسيا وفرنسا ثقة فى النفس أكبر جعلتهما فى بعض الأزمات - وليس فى كلها - تواجهان التحدى بمثله وبقلب ثابت. وكانت الأزمات هى التى قوت من ترابط دول الوفاق أكثر فأكثر، وأسرعت بأوربا إلى الحرب. وعلى رأس هذه الأزمات الكبرى.

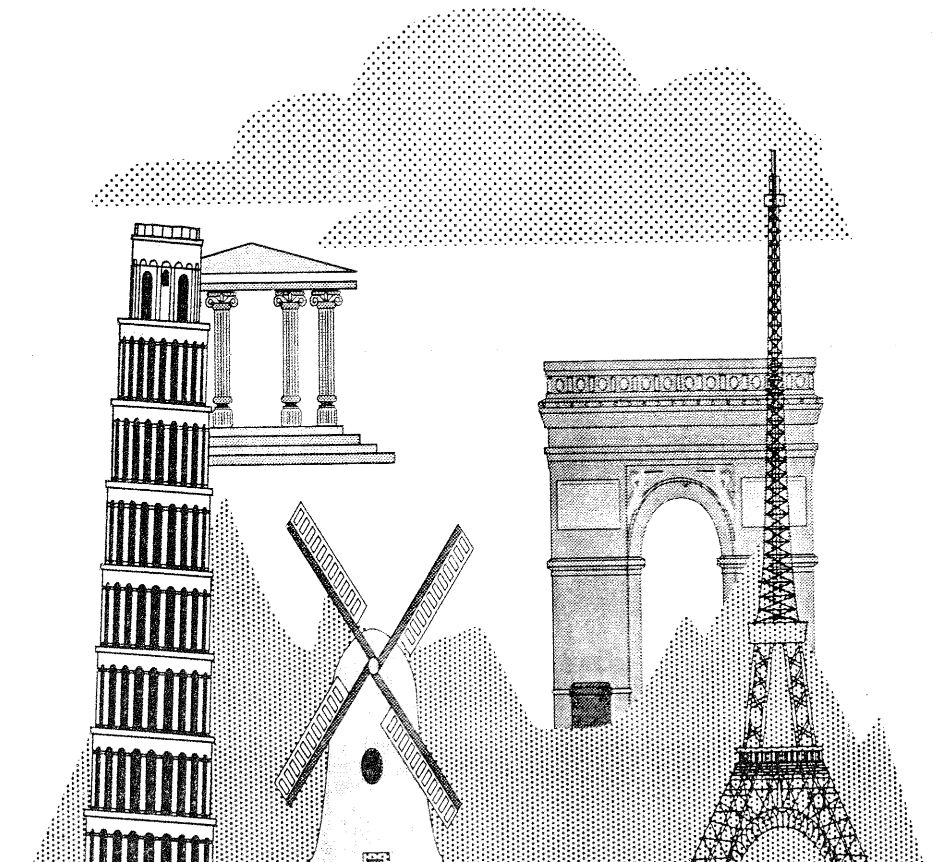
١ - أزمة ضم إمبراطورية النمسا والمجر للبوسنة والهرسك ١٩٠٨.

٢ - أزمة أغادير ١٩١١.

٣ - الحروب البلقانية ١٩١١ - ١٩١٣.

الفصل
الواحد والعشرون

الأزمات الكبرى قبيل نشوب الحرب العالمية الأولى



فى أعقاب عقد الوفاق الروسى ـ البريطانى بدا واضحا أن أوربا تسير نحو مجابهة بين المعسكرين،وأن مجالات المصالحة أصبحت شبه معدومة، وكانت مجالات اختيار الصلابة هى الباقية،وهى سياسة (حافة الحرب) وهى التى ستسيطر على العالم منذ ١٩٠٨ حتى نشوب الحرب فى١٩١٤. وكانت قوى العالم الأخرى ـ وخاصة اليابان والولايات المتحدة الأمريكية ـ تراقب عن كثب تطور الأزمات بين الكتلتين حتى وصلت الأزمات ذروتها نتيجة حادثة من الحوادث التى وقعت كثيرا فى أوربا ونعنى بذلك اغتيال فرانز فرديناند ولى عهد النمسا، فكان الأزمة التى أشعلت نيران الحرب العالمية الأولى.

أزمة ضم البوسنة والهرسك

كانت إمبراطورية النمسا والمجر قد تولت إدارة هذين الإقليمين التابعين للدولة العثمانية وفقا لمقررات مؤتمر برلين ١٨٧٨. وكانت حكومة النمسا تتطلع إلى ضم هذين الإقليمين لأسباب تتعلق بأمنها وسلامة إمبراطوريتها فى المرتبة الأولى،حيث إن مطالبة قومية من قوميات إمبراطورية النمسا والمجر بالاستقلال يعنى تفكك هذه الإمبراطورية المكونة من العديد من القوميات.

هذا بينما كانت حركة (الجامعة الصربية) تقوى سنة بعد أخرى وكان معنى هذا أن الملايين من الصرب الذين يعيشون تحت حكم إمبراطورية النمسا والمجر ـ سيطالبون إن عاجلا أو آجلا بالانضمام إلى بنى قوميتهم فى مملكة الصرب. وكانت حكومة الصرب حتى ١٨٨٢ موالية للنمسا حتى وقع انقلاب ووضع على العرش بطرس قره جورجيفتش فى ١٩٠٣ وبدأت موجة من الدعاية داخل إمبراطورية النمسا والمجر نفسها «للصرب الكبرى»،الأمر الذى كان يعتبر تهديدا مباشرا لكيان هذه الإمبراطورية المتعددة الشعوب.

وكانت هناك دعايات صربية قوية بضم الصربيين الموجودين فى ولايتى

(البوسنة) و (الهرسك) العثمانيتين إلى الدولة الأم (صربيا). ولكن التطورات فى الدولة العثمانية أدت إلى ظروف جديدة فى هذه القضية. فقد حدث أن قامت فى ١٩٠٨ ثورة عسكرية ضد السلطان العثمانى عبدالحميد الثانى وضد نظام حكمه الاستبدادى الذى أطمع الدول الكبرى فى اقتسام بلاد هذه الدولة، وتزعم هذه الثورة رجال جمعية ثورية عرفت باسم «جمعية الاتحاد والترقى»، وكان أحد أهدافها الرئيسية إعادة الحكم الدستورى فى الدولة وإعادة سيطرة الأتراك بقوة على مختلف أجزاء الولايات. وفعلا تحركت مجموعات عسكرية قوية يقودها ضباط ينتمون إلى تلك الجمعية،وسيطروا على الحكم منذ تلك السنة وعرفوا باسم (الاتحاديين).

عندما قرر الاتحاديون القيام بثورتهم هذه اتجهوا إلى إعطاء حركتهم شكلا عاما، بأن طلبوا من أهالى الولايات المتحدة ـ ومنها (البوسنة) و (الهرسك) ـ إرسال مندوبين عنهم للاجتماع بأعضاء جمعية الاتحاد والترقى.

ولكن حكومة الإمبراطورية النمساوية كانت قد رأت فى تلك الثورة فرصة ثمينة لضرب عصفورين بحجر واحد:

١ ـ ضم الولايتين (البوسنة والهرسك) قبل أن يفيق الأتراك من مشاكلهم الثورية الداخلية.

٢ ـ توجيه ضربة قاصمة للأمانى القومية الصربية المتعلقة بهاتين الولايتين.

إلا أن تغيير خريطة البلقان على هذا النحو ما كان ليتم إلا بعد أخذ موافقة مسبقة من روسيا. وكان (اهرنتال)ـ السياسى النمساوى الكبير ـ يدرك تماما هذه الحقيقة، فوضع خطته على أساس استدراج روسيا إلى اعتراف بحق ضم الولايتين (البوسنة) و (الهرسك) ثم فرض الأمر الواقع عليهما بحيث لا تستطيع روسيا الإفادة من هذا التغيير. ولهذا دخل فى مفاوضات مع (إزنولسكى) ـ السياسى الروسى ـ بقصد تسوية مشكلة ضم (البوسنة والهرسك) إلى النمسا على أساس حصول روسيا على تعويض مناسب،وكان (اهرنتال) من الذكاء لأن يقدم لروسيا موافقة حكومته على مطالب روسيا التقليدية الخاصة بحقها فى مرور أسطولها الحربى عبر مضايق الدردنيل والبسفور،وكان يدرك أن أعداء روسيا وحلفاءها على

السواء - وبوجه خاص - إنجلترا لا يمكن أن تقبل تحقيق مثل هذه المطالب. ودبر (إهرنتال) ونفذ خطته بمهارة فقد دارت هذه المفاوضات دون علم من جانب فرنسا، وفى نفس الوقت اتفق مع ملك بلغاريا - وكان لا يزال تحت السيادة الإسمية للسلطان العثمانى - على أن يعلن استقلاله، ولم تلبث أن أعلنت إمبراطورية النمسا والمجر فجأة ضم البوسنة والهرسك (١٩٠٨).

ولم يعتبر هذا الضم ضربة موجهة ضد الدولة العثمانية بقدر ما اعتبر ضربة قاسية لمملكة الصرب الفتية ولحركتها القومية، وضربة غادرة بروسيا، إذ حصلت النمسا على هدفها بينما أصبح على روسيا المطالبة بتنفيذ فكرة التعويض.

أبدت حكومة روسيا الكثير من الضجة الدبلوماسية وقليلا من التهديد العسكرى، ولجأت إلى حليفتها القديمة (فرنسا) وإلى صديقتها الجديدة (بريطانيا) ولكن فرنسا رفضت أن تقف إلى جانب روسيا وقفة الحليف؛ لأن روسيا كانت تدبر مع النمسا من وراء ظهرها أمورا كان يجب أن يؤخذ رأيها فيها. أما وقد غدرت حكومة النمسا بروسيا فهذا أمر - من وجهة نظر الدبلوماسية الفرنسية - لا يلزم فرنسا بالوقوف إلى جانب حليفتها روسيا.

أما بريطانيا فكان موقفها فى هذه المسألة هو نفس موقفها التقليدى خلال القرن الماضى. وهو الإبقاء على المضايق مغلقة فى وجه الأسطول الحربى الروسى. بينما كان طبيعيا أن تضغط ألمانيا على روسيا كى تكف عن تصعيد الأزمة، وبذلك تكون روسيا قد واجهت هزيمة دبلوماسية فى (١٩٠٨) مشابهة لهزيمة ألمانيا فى مؤتمر الجزيرة فى (١٩٠٦).

حقيقة شربت روسيا هذا الكأس المرير، ولكن أدى هذا إلى تأكيد حقيقة جوهرية، هى أن دول التحالف الثلاثى - وإن كسبوا هذه الجولة - أصبحوا يمثلون القوة الحقيقية المهددة لروسيا، الأمر الذى زاد من ارتباط روسيا - رغم تقاعس فرنسا بالذات - بحليفتها (فرنسا).

كانت عملية ضم (البوسنة والهرسك) بالنسبة للصرب تعنى أن هذين الإقليمين لن ينضما فى المستقبل إلى (الصرب الكبرى)، فاحتلال النمسا لهما لا يقضى على مثل هذا الأمل، أما ضمهما فبلا شك يقضى عليه. وكان تخاذل

روسيا أمام الضغوط الكبيرة التى تعرضت لها من جانب الأصدقاء والأعداء على السواء ضربة ثانية للصرب التى كانت تعول كثيرا على تحرك روسى عنيف ضد النمسا. واستكانت الصرب قليلا. ولكن كان من العسير جدا على حكومتها أن تتحكم فى مشاعر الصربيين، سواء أكان هؤلاء فى داخل الإمبراطورية النمساوية أم فى داخل الصرب نفسها. الأمر الذى سيكون له أكبر الأثر فى تصعيد الأزمات بين الصرب وإمبراطورية النمسا والمجر.

أزمة أغادير

وكما كان تغيير أوضاع البلقان ـ على يد النمسا والمجر بضم البوسنة والهرسك ـ سببا فى إثارة مشكلة دولية معقدة، كان تغيير الوضع فى المغرب (مراكش) على يد فرنسا سببا فى أن تثير ألمانيا (أزمة أغادير) التى رفعت حدة التوتر بين الكتلتين المتواجهتين إلى درجات خطيرة.

فلقد كان التسابق البحرى والاستعمارى على أشده بين ألمانيا وبريطانيا، خاصة وقد فشلت المحاولات التى بذلتها إنجلترا لوقف هذا التسابق؛ وذلك لأن بريطانيا أصرت على أن أسطولها الحربى ضعف أى أسطول آخر ولأن ألمانيا أصرت على عدم التخلى عن الجزء الجنوبى لخط حديد بغداد لبريطانيا إلا إذا وافقت الأخيرة على الوقوف على الحياد من حرب تقع بين ألمانيا وفرنسا، ولكن كان تحييد بريطانيا فى ١٩٠٨ يعنى خروجها من الوفاق الودى مع كل من فرنسا وروسيا، ومن ثم كانت الأمور كلها تشير إلى صلابة بريطانية إزاء ألمانيا فى كافة مجالات التنافس العالمى.

كل هذا جعل حكومة ألمانيا تتربص بدول الوفاق، وحانت الفرصة لإحراجها ـ بغية هزه من جذوره ـ عندما بعثت فرنسا بقواتها إلى داخل مراكش (المغرب) وكانت حكومة ألمانيا تدرك ـ عن حق ـ أن دخول جيش دولة أوربية استعمارية بلادا مثل المغرب يعنى وقوع البلاد تحت الاحتلال الذى لا يعرف متى ينتهى وهناك سابقة واضحة وجلية فى مصر عندما دخلتها جيوش بريطانيا باسم حماية الخديوى توفيق من (المتمردين!). وكانت عمليات فرنسا فى مراكش لا تضر كثيرا بالمصالح الألمانية، إلا أن الحكومة الألمانية كانت تذكر الهزيمة الدبلوماسية المريرة التى منيت بها فى مؤتمر الجزيرة فى ١٩٠٦، وتصورت أنها

لو تدخلت بعنـف ضد إجراءات فرنسا فى (مراكش) لـربما أحرزت كسبا سـياسيا يمحو آثار تلك الهزيـمة. خاصة وأن أسبانيا رغم تواطئها مع فـرنسا على التسلط على مراكش - كـانت تعارض تلك العمليـات العسكرية الفرنسـية فى داخل تلك البلاد.

إلا أن الإجراء الألمانى كان عـنيفا، إذ أرسلت الحكومة الألمانـية المدمرة (البانثر) إلى ميناء أغاديـر مسيطرة عليه بمدفعيتها لحـين التوصل إلى تسوية تعطى تعويضا مناسبا لألمانيا، وطالبت ألمانيا فعلا بكل الكونغو الفرنسى.

قوبل هذا التهديد الألمانى بوقفة صلـبة قوية من جانب بريطانيا ضد مطالب ألمانيا وإجراءاتها تلك. وبدا واضحا أن الحرب لو وقعت ستخوضها بريطانيا إلى جانب فـرنسا. وتبـادل المختـصون العـسكريون الفـرنسيـون والإنجليز الـخطط العسكرية لمواجهة الأزمة. وبينما كان الشـعب الألمانى يتصاعد ثورة ضد بريطانيا ويدعو القيصر إلى التصلب، إلا أن القيصر كان يرى أن المسألة لا تساوى خوض الحرب الكبرى، وآثر التـراجع بقبوله قطعة أرض فقط من الكونـغو الفرنسى على أمل أن تفتح له هذه الأرض مجالات واسعة استـعمارية فى إفريقية. وبذلك تكون فرنسا قد خرجت ظافرة مطلقة اليد فى المغرب وأعلنت حمايتها عليه فى ١٩١٢.

وأدت تلك الأزمة إلى نتيـجة هامة، وهى أن إيطاليا فى علاقتـها مع فرنسا تعدت مجال (الوفاق) إلى مجال (التـحالف) دون النص على ذلك فى معاهدة أو اتفاقية.

وخلال هذه الأزمة وفـى أعقابها حاولت كل مـن بريطانيا وروسيا انـتهازها لتـحقيـق توسعـات جديدة. فـروسيا حـاولت مد سـيطرتهـا إلى طهـران، ولكن المعارضة البريطانيـة منعتها من تحقيق هدفها. أما إيطاليـا فقد أقحمت فى حرب على الدولة العثمانية - بعد أن حصلت على موافقة الدول الكبرى على أن تستولى على طرابلس - وأنزلت جيوشها على الشواطئ اللـيبية واستولت عليها وعلى جزر الدوديكانيز واضطـرت تركيا إلى وقف الحرب معـها بسبب تكوين عصبـة البلقان (اليونان والصرب وبلغاريا) لشن حرب على الدولـة العثمانية لإخراجها من أوربا، ولتحقيق توسعات إقليمية وقومية.

الحروب البلقانية

١٩١١ ـ ١٩١٣

يوصف البلقان عادة، قبل الحرب العالمية الأولى ـ بأنه برميل البارود. ولقد كان كذلك فعلا، وكانت مواقف الدول الكبرى إزاء مشكلاته، وسياسات دول البلقان نفسها من التضارب لدرجة كان من العسير تحديد من هو من هذه الدول البلقانية الصديق ومن هو العدو لهذه الدولة الكبرى أو تلك. ولكن كانت الصرب بلا جدال العدو الخطير لإمبراطورية النمسا والمجر فى أعقاب أزمة ضم البوسنة والهرسك.

وكانت إمبراطورية النمسا والمجر تبحث عن وسيلة تكسب بها إلى الأبد الدعايات النشطة الصرب الكبرى، حتى لقد جربت الحصار الاقتصادى ولكن دون جدوى. ومن ثم أخذ ساسة النمسا يعتقدون يوما بعد يوم أن القوة هى الوسيلة الوحيدة لقتل فكرة (الصرب الكبرى) وإلا تعرضت الإمبراطورية النمساوية للتفكك. ومع هذا سارت الأمور بشكل يتعارض مع أمن وسلامة هذه الإمبراطورية، خاصة من حيث نمو المشاعر القومية فى البلقان فى أعقاب الثورة التى نشبت فى مقدونيا ضد الحكم التركى فيها.

فمقدونيا كانت تضم يونان وبلغاروصرب، والتهبت الصحافة بكتابات القوميين فى اليونان وبلغاريا وصربيا وأصبحت الفكرة القومية مجالا للمزايدات الديماجوجية تحثها روح صليبية واضحة.

وإذا ما وضعنا جانبا هذه النعرات القومية الحادة وبحثنا عن إمكانية تقسيم مقدونيا بينها لوجدنا أن القوميات فى مقدونيا كانت متداخلة جدا فيما بينها بحيث تستحيل عملية تقسيم لها على أساس قومى،الأمر الذى وضع بذور الفوضى فى العلاقات بين دول عصبة البلقان التى تشكلت فى ١٩١٢ من تحالف صربى ـ بلغارى ثم من تحالف يونانى بلغارى.

ومع أن روسيا كانت تشجع تكوين مثل هذه العصبة إلا أنها اكتشفت أن

مجرد ظهورها سيؤدى إلى اشتطاطها فى التحرك ضد الدولة العثمانية بشكل يهدد أطماعها نفسها فى هذه الدولة العثمانية. وحاولت روسيا، وكذلك فرنسا أن يحدا من نشاط هذه العصبة، ولكن دون جدوى إذ كانت دول العصبة تدرك أن روسيا لابد وأن تقف بجانبها. هذا فضلا عن أن هذه المحاولة الروسية لفرض التعقل على عصبة البلقان جاءت فى وقت متأخر، إذ لم يلبث أن أعلن الجبل الأسود الحرب على الدولة العثمانية وتبعته دول العصبة.

كانت العمليات العسكرية التى قامت بها جيوش العصبة ناجحة، ولكنها تمت بشكل أدى إلى قلب الأوضاع السياسية والإستراتيجية بشدة.

فقد انتصرت الجيوش الصربية على الأتراك واستولت على موناستير، وقلب مقدونيا، بينما كانت بلغاريا تعلق الآمال الكبار على أن تكون هذه من نصيبها هى. ووصلت القوات الصربية فى زحفها حتى (دورازو)، استشاطت إمبراطورية النمسا والمجر غضبا من حصول الصرب على منفذ على بحر إيجه، وتحت الضغوط النمساوية والإيطالية أرغمت الصرب على الانسحاب من دورازو. كذلك ضغطت النمسا على (الجبل الأسود) حتى تخلى عن اشقودره.

وانتصرت القوات اليونانية كذلك واستولت على (سالونيك)، إلا أن هذه كانت أيضا محط آمال بلغاريا.

وسقطت (أدرنه) بجهد مشترك صربى بلغارى، ولكن استمرت القوات البلغارية فى زحفها حتى مسافة قليلة من الأستانة، فتحركت روسيا، التى لا تقبل أن تكون المضايق بيد دولة أوربية أخرى صغيرة كانت أم كبيرة صديقة كانت أم عدوة، وضغطت على بلغاريا حتى استبعدت هذه فكرة استمرار الزحف صوب العاصمة العثمانية.

هذه الانتصارات، وتلك التدخلات الفورية من جانب الدول الكبرى المعنية بالبلقان، ورغبة الدول الكبرى فى إحلال السلام قبل أن تختلط الأوراق بعضها ببعض، أدى إلى عقد صلح بين الدولة العثمانية ودول البلقان.

ولا تكاد تمر إلا فترة وجيزة للغاية حتى شرعت دول العصبة فى إعادة النظر فيما حصلت عليه. وكانت بلغاريا شديدة النقمة على ما انتهت إليه الأمور، فقد

كسبت كل من اليونان والصرب مساحات واسعة تضم أعدادا كبيرة من النفوس، وهذه الرعية الجديدة ليست يونانية ولا صربية فقط بل بلغارية كذلك. وكان استخلاص هؤلاء البلغار لا يمكن أن يتم إلا بقوة السلاح، وبهذا اعتمد ملك بلغاريا على مفاجأة الصرب بهجوم كاسح ليستولى على «قلب مقدونيا» ولكن الصرب كانت على تفاهم تام مع اليونان ضد بلغاريا، وهزمت الجيوش البلغارية، ولكن الأدهى من ذلك انتهاز رومانيا الفرصة ودخولها الحرب ضد بلغاريا وزحفت جيوشها حتى هددت صوفيا نفسها، واستطاع كذلك (أنور باشا) ـ الذى تسلم زمام الأمور فى الأستانة من استخلاص (أدرنه) بسهولة، وأسقط فى يد البلغار واضطروا إلى عقد معاهدة بوخارست ١٠/٨/١٩١٣.

ربحت رومانيا فى هذه المعاهدة إقليم (سلستريا) إلى جانب الجزء الجنوبى من (دبروجه) مع أن غالبية سكانه من البلغار. وحصلت اليونان على جنوب مقدونيا وأغلقت بذلك المنافذ البحرية فى وجه بلغاريا، هذا بالإضافة إلى كريت التى أعلنت الثورة على الدولة العثمانية وانضمت إلى اليونان. وظهرت دولة مستقلة جديدة هى ألبانيا لا حبا فى استقلالها ولكن منعا للصرب من الوصول إلى البحر الأدرياتى، وهو أمر كانت تقاومه بشدة كل من إمبراطورية النمسا والمجر وإيطاليا.

والجدير بالذكر أنه خلال هذه الأزمات البلقانية كان ينعقد فى لندن مؤتمر (١٩١٢ ـ ١٩١٣) يسعى إلى إيجاد تسوية معقولة، فكان آخر مؤتمر دولى ينظر فى قضية السلام فى أوربا وكان أكثر المؤتمرات الأوربية فشلا، ومن ثم كان تأكيدا على أن الجيوش هى القادرة على تسوية المشاكل.

أدت هذه الحرب البلقانية إلى نتائج وتطورات ستقود إلى الحرب العالمية الأولى وأهمها:

١ ـ خرجت بلغاريا مهيضة الجناح دون أن تتحرك روسيا لإنقاذها، بل إن النمسا هى التى وقفت ـ إلى حد ما ـ إلى جانبها، ولهذا أصبحت العلاقات البلغارية الروسية غير ودية.

٢ ـ كانت حكومة الاتحاديين فى الأستانة تميل إلى ألمانيا، وبعد الحرب

البلقانيـة أصبحت أكثر ميـلا إليها وأكثر استـعدادا لإعادة تنظيم القوات الـمسلحة البرية التـركية بواسطة خـبراء ألمان عسكريـين. بل طلب الاتحاديون من ألـمانيا إرسال قائد كبيـر يتولى قيادة الجيش التركى فى الأستـانة. فأثار ذلك مخاوف من جانب روسيا من أن تتـحكم ألمانيا بالتدريج فى المضايق وطالـبت بسحب ليمان فوق ساندرس المكلف بتلك المهمة إلا أن بريـطانيا لم تؤيد روسيا فى طلبها هذا حيث كان فى الأستانة قائد بريطانى يتولى إعادة تـنظيم البحرية العثمانية، وانتهت المفاوضات الخـاصة بهذه المشكلة إلى تسوية فى كـانون أول ـ ديسمبر ١٩١٣، تولى بمـقتضـاها «ليمان فـون ساندرس» رئاسـة هيئة أركـان الجيش التـركى فى الأستانة، متخليـا بذلك عن القيادة التى كانت فى حقيقة الأمر عـبئا يصعب عليه القيام به. ومع هذا كانت ألمانيا تدرك أن الدولة العـثمانية ـ مجال ألمانيا الحيوى ـ معرضة للانـهيار من الداخل وليس من الخارج فـقط فقد كانت الحركـة التحررية تشتد فى كل من الشام والعراق، ومع أن مؤتـمر باريس الذى عقده زعماء العرب فى ١٩١٣ أدى إلى تفاهم عربى تركى، إلا أن التـطورات أثبتت أن سياسة الأتراك نحو الـعرب لم تتـغير، وظلـت المشكلات عـلى ما هى علـيه إن لم تشـتد فى تعقيداتها.

٣ ـ أدت هزيمة الدولة الـعثمانية أمام الـدول البلقانية وتصاعـد المشكلات القومية فى هذه الدولة العثمانية إلى زيادة فى تشتيت القوات العسكرية لإمبراطورية النمسا والمجر، حـيث أصبح عليها أن تحتفظ بجيش كـبير يراقب مواقف الدول البلقانيـة السريعة التقلـب الأمر الذى يحول دون أن تلقى هذه الإمـبراطورية بكل جيوشها ضد روسـيا فى حالة وقوع حرب معها. هذا بيـنما زاد التقارب بين دول الوفاق الثلاثى: روسيا وبريطانيا وفرنسا، وكان هذا التقارب يزداد قوة كلما اشتدت حمى التسابق البـحرى بين بريطانيا وألمانيا. ودارت مفاوضـات حربية بحرية بين روسيا وبريـطانيا وبين بريطانـيا وفرنسا، وكان أهـم ما توصلت إليه بريـطانيا هو اتفاقها مع فرنسا على أن تتولى البحرية الفرنسية السيطرة على مياه البحر المتوسط وتتولى البحرية البريطانية ـ بعد سحب قـطعها من البحر المتوسط ـ السيطرة على بحر الشمال والدفاع عن سواحل فرنسا الشمالية.

وكانت الـصحافة من الـمظاهر التى كانـت تزيد من هذا التقـارب بين دول

الوفاق والتى تعمق العداء بينها وبين دول الحلف الثلاثى. فقد كانت المقالات الصحفية النارية فى الصحف الألمانية ضد روسيا وبريطانيا وفرنسا تقابلها مقالات لا تقل عنها عنفا فى صحف هذه الدول، الأمر الذى عمق الكراهية بين الشعوب فضلا عما كان بين الحكومات من بغضاء.

فخلال السنوات القليلة التى سبقت الحرب العالمية الأولى كانت أعصاب الساسة والشعوب المثقفة مشدودة بسبب الأزمات التى عرضت السلام للانهيار. وفى كل مرة - بعد انتهاء كل أزمة - كانت النفوس تزداد قلقا بسبب تصاعد الحرب الصحفية والمنافسات السياسية والاقتصادية بين الكتلتين الكبيرتين: دول الوفاق (روسيا وفرنسا وبريطانيا) من جهة وبين ألمانيا وإمبراطورية النمسا من جهة أخرى، وأما إيطاليا فلم يكن لها الدور الكبير فى هذه المنافسات بسبب ارتباطاتها المتوازية مع كل من الكتلتين، ولهذا أصبحت الكتلة الثانية قاصرة تقريبا - فى واقع الأمر - على ألمانيا وإمبراطورية النمسا والمجر. وكان السؤال المحير الوارد على لسان الساسة والمسئولين والصحفيين هو أى من الكتلتين أقوى. وكان هناك اعتقاد عام أن الحرب هى الوسيلة الوحيدة لكشف هذه الحقيقة الخطيرة. وأصبحت مهام أركان حرب هذه الدول هى الإعداد لحرب قريبة، ومن ثم لم تعد أوربا قادرة على أن توحد كلمتها إزاء مشكلة من المشكلات الحادة الدولية على ذلك النحو الذى حدث عند عقد مؤتمر برلين ١٨٧٨ الخاص بالمشكلة الشرقية، ومؤتمر برلين لسنتى ١٨٨٤ - ١٨٨٥ بشأن مشكلة استعمار إفريقية ويعتبر مؤتمر الجزيرة ١٩٠٦ واحدا من المؤتمرات التى كان لأوربا فيه كلمة متفق عليها، بغض النظر عن خطورة النتائج التى أدى إليها هذا المؤتمر، وأخيرا عقد مؤتمر لندن فى ١٩١٣ للبحث عن حل للمشكلة البلقانية، ولكن لم يستطع هذا المؤتمر الوصول إلى قرار ما، وهكذا كانت قدرة أوربا على مواجهة الأحداث الكبرى عن طريق المؤتمرات الدولية تتناقص بسرعة حتى تلاشت وأصبح السلاح هو الوسيلة الباقية لحسم المشكلات.

هذه المشاعر الحادة كانت المسئول الأول عن فشل الدعوات التى وجهت إلى ساسة العالم للوصول إلى سلم دائم عن طريق سلام دولى، فلقد دعا قيصر روسيا إلى مؤتمر سلام فى ١٨٩٩ وكان الدافع الحقيقى لدعوته هو إعطاء فرصة

لروسيا الضعيفة لتقوى نفسها فى الوقت الذى تجمد فيه القوات المسلحة فى الدول الكبرى الأخرى، وفشلت فكرة عقد هذا المؤتمر لأن الدول الأوربية كانت سيئة الظن بشدة فى نيات روسيا وراء هذه الدعوة.

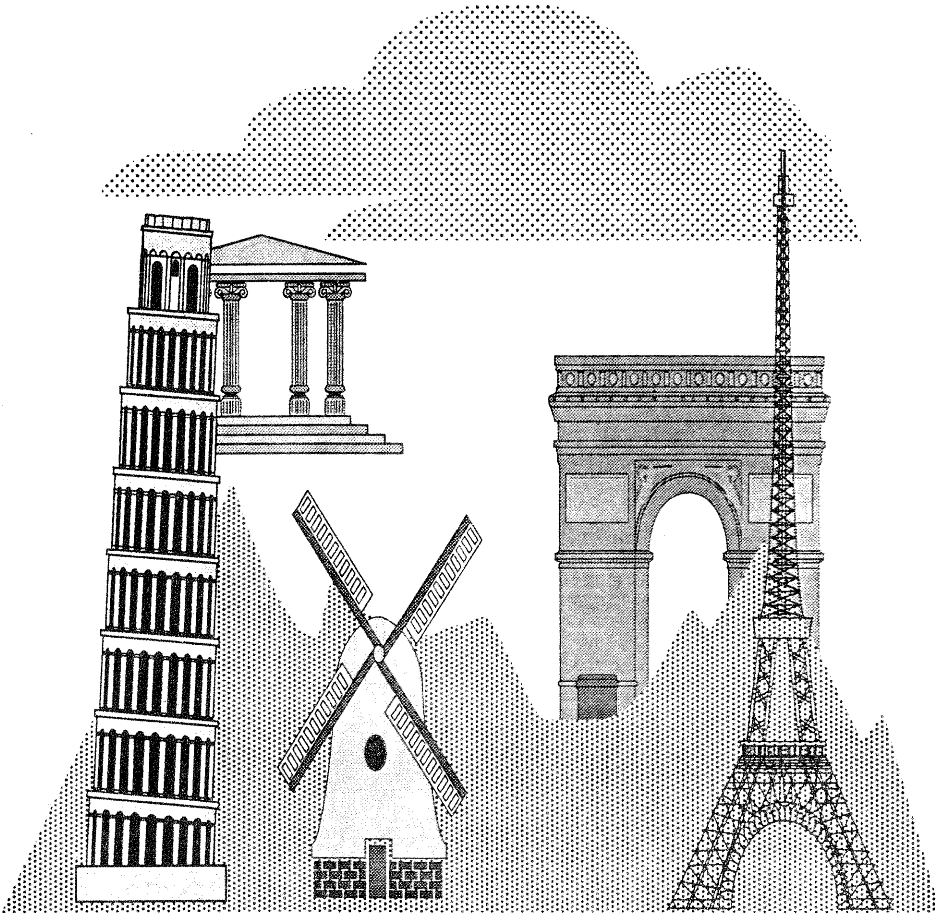
وجاءت الدعوة الثانية فى ١٩٠٧ على لسان تيودورروزفلت رئيس الولايات المتحدة الأمريكية، ولكن قضت عليها بريطانيا لأنها كانت تمتلك قوة بحرية كافية لضمان أمنها وسلامة خطوط مواصلاتها مع إمبراطوريتها ومختلف أجزاء العالم، ولم تستمع الحكومة البريطانية إلى الانتقادات الشديدة التى وجهتها كل من حكومتى وشنجتن وبرلين بسبب هذا التصلب. إذ كان مركز بريطانيا قويا إلى حد كبير فى ١٩٠٧ عنه فى السنوات القليلة السابقة.

وتصاعدت سياسة التسلح فى دول الوفاق الثلاثى وفى إمبراطوريتى ألمانيا والنمسا والمجر بشكل يفوق نمو تسليحها فيما سبق، حتى غدا شبح الحرب ماثلا أمام الأعين حيث كانت الحكومات الديمقراطية حين تسعى إلى كسب موافقة برلماناتها على اعتمادات التسلح تضخم من خطر وقوع حرب كبرى قريبة، وكانت مراسم القياصرة فى ألمانيا والنمسا وروسيا تؤكد على الحاجة الملحة لمواجهة ظروف استثنائية دولية. هذا فضلا عن الخطب النارية للسياسيين. والملاحظ أنه خلال ١٩١٣ أصدرت الدول الكبرى المتنافسة قرارات ومراسيم بقصد زيادة القوات المسلحة زيادة كبيرة، فبالنسبة لألمانيا صدر القانون فى ١٤يناير ـ كانون ١٩١٣.

وبالنسبة لإمبراطورية النمسا والمجر فى أواخر ١٩١٣ صدر القانون الفرنسى فى ٧ أغسطس ـ آب ١٩١٣ وصدر مشروع إعادة تنظيم الجيش الروسى فى أواخر ١٩١٣، وظهرت الدعوة إلى التجنيد الإجبارى فى بريطانيا فى ١٩١١ ـ ١٩١٢ ولكن الحكومة البريطانية ركزت على زيادة قوتها البحرية المسلحة زيادة كبيرة.

الفصل
الثانى والعشرون

الحرب العالمية الأولى
١٩١٤ - ١٩١٨



أخطر نتائج الحرب البلقانية ١٩١٢ ـ ١٩١٣ هو نمو (صربيا) أرضا وسكانا والتهاب الحركة القومية الصربية سواء داخل الصرب نفسها أو لدى الأقليات الصربية الواقعة تحت حكم إمبراطورية النمسا ـ المجر، وكان الطلبة الصرب هنا وهناك يشنون حملات دعاية عنيفة من أجل توحيد الصربيين كلهم تحت حكومة وطنية واحدة. وكان أن تشكلت فى داخل إمبراطورية النمسا والمجر عدة جمعيات سرية إرهابية تولت القيام بعدة عمليات اغتيال لحكام البوسنة ولغيرهم من المسئولين عن إخضاع الصرب تحت هذه الإمبراطورية، وكان اغتيال الأرشيدوق فرانز فرديناندو ولى عهد النمسا وزوجته فى سرايفو فى ٢٨يونيو ـ حزيران ١٩١٤ على يد وطنى صربى بداية التطورات التى أدت فى النهاية إلى وقوع الحرب العالمية الأولى.

وكانت حادثة اغتيال ولى عهد النمسا من جانب الصرب أقصى ما يمكن أن تتحمله النمسا.

وأصبح من الضروى أن تلقى الصرب جزاء دعاياتها العدوانية ضد جاراتها الكبيرة، وكانت حكومة النمسا ترى أنه إذا مرت الحادثة بحصول النمسا على اعتذار دبلوماسى أو حل سياسى فقط فإن ذلك سيعتبر إذلالا كبيرا جديدا لكرامة الإمبراطور وشعبه. ولقد كانت فكرة الوصول إلى تسوية دبلوماسية واردة عند مختلف الأوساط الأوربية السياسية، وكذلك كانت لديهم فكرة حصر الأزمة الجديدةبين النمسا والصرب فقط ومنع تصاعدها أو دخول أطراف جدد فيها. إلا أن ظروف النمسا كانت لا تسمح بمثل هذه الخطوات أو التسويات، فالتسوية السلمية أصبحت بالنسبة لها مجرد تسكين لأزمة مستعصية لابد وأن تنفجر يوما ما، وبعد وقت قصير وليس بعد وقت طويل، طالما المسبب لها كان لا يزال يتمتع بكامل قواه، ونعنى بذلك دولة الصرب.

فهل كان من الممكن حصر الأزمة بين هذين الطرفين: النمسا والصرب ومنع انحدار العالم إلى حرب كبرى كانت ماثلة فعلا أمام الأعين؟

كانت النمسا قد عقدت العزم على أن توجه إلى الصرب الضربة التى كان يتوق فرانز فرديناند ـ فى حياته ـ أن يوجهها إليها. وكانت الصرب تدرك ذلك، والتزمت جانب الحذر الشديد ونفت عن نفسها مسئولية مصرع فرانز فرديناند وزوجته، وفضلا عن هذا أثبتت التحقيقات النمساوية نفسها براءة الصرب من هذه الجريمة، ولكن لم يلق ذلك كله صدى فى الدوائر النمساوية، واستمرت فى خطواتها العنيفة ضد الصرب،وكان يتولى هذه العمليات السياسى العنيد برشتولد وزير خارجية النمسا، تؤيده فيها حكومة ألمانيا. وكانت أولى هذه الخطوات الإنذار الذى بعثت به حكومة المملكة الثنائية إلى الصرب فى ٢٣يوليو ١٩١٤.

وكانت مواد هذا الإنذار تعنى ببساطة تدخل حكومة النمسا فى أدق الشئون الداخلية الصربية مثل حل الجمعيات الوطنية، ومنع أية دعاية مكتوبة أو مذاعة سواء فى الصحافة أو المدارس وإبعاد الموظفين الذين أعلنوا كراهيتهم للمملكة الثنائية (النمسا والمجر)، إلى غير هذا من الأمور التى تكاد تفقد الصرب استقلالها. ومع أن الحكومة الصربية وافقت على عدد كبير من مواد الإنذار النمساوى إلا أن حكومة فيينا أعلنت الحرب عليها فى ٢٨يوليو ١٩١٤.

كان هذا فى نظر الصرب عملية سحق لها، وتطلعت بسرعة إلى منقذ، وكانت روسيا مستعدة للقيام بهذا الدور لأنها كانت لا تقبل بأى حال من الأحوال سحق الصرب على يد النمسا لما سيترتب عن ذلك من تسلط نمساوى على البلقان.

أما وقد أصبحت المملكة الثنائية معرضة للحرب ضد الصرب وروسيا، وبالتالى ضد فرنسا حليفة روسيا فإن ألمانيا ما كانت لتقبل انهيار حليفتها (المملكة الثنائية) أمام أعدائها.

ومع هذا كانت هناك مجهودات ذات قيمة بذلتها حكومة فرنسا لكبح جماح روسيا، وبذلتها ألمانيا لتهدىء من روع المملكة الثنائية. كذلك رفضت حكومة بريطانيا أن تعلن التزامها بالوقوف عسكريا إلى جانب فرنسا إذا ما تطورت الأحداث إلى حرب بين الكتلتين. ولكن روسيا رفضت نصيحة فرنسا بأن يقتصر

توجيه تعبئتها العامة ضد المملكة الثنائية، بل إن روسيا وجهتها أيضا ضد ألمانيا، وفرضت بذلك الأمر الواقع على فرنسا.

ـ فإما أن تقف إلى جانب حليفتها.

ـ وإما أن تترك روسيا فى الميدان وحدهـا،الأمر الذى يعرض روسيا لهزيمة ساحقة تكون نتائجها على فرنسا فى منتهى الخطورة.

وكان أن توالت الأحداث بسرعة وأخذت الدول الأربع الكبرى المتعادية: روسيا وفرنسا والمملكة الثنائية وألمانيا تتبادل التهم والتعبئة العامة حتى أعلنت ألمانيا الحرب على روسيا فى أول أغسطس ١٩١٤ وعلى فرنسا فى ٣ أغسطس، ولم يبق من الكتلتين خارجا عن الحرب الكبرى سوى بريطانيا وإيطاليا. ولكن بريطانيا كانت فى نفس الوقت تتخذ خطوات خطيرة معادية لألمانيا ومساندة لفرنسا،فقد حشدت أسطولها فى بحر الشمال ووعدت فرنسا بأن هذا الأسطول سيمنع أى هجوم ألمانى على السواحل الفرنسية.

ويركز المؤرخون الإنجليز على أن الحكومة البريطانية ـ وكانت برئاسة جراى ـ ما كانت لتدخل الحرب إذا ما وقفت الأمور ـ بالنسبة لبريطانيا ـ عند هذا الحد، وأن ألمانيا هى التى أعطت الذريعة لها بدخول الحرب حين اعتدت على حيدة البلجيك ـ عندما زحفت الجيوش الألمانية لغزو فرنسا ـ على اعتبار أن هذا العدوان هو الذى حرك الرأى العام البريطانى نحو إعلان الحرب على ألمانيا.

وتقول وجهة النظر البريطانية فى أسباب دخول إنجلترا الحرب أن مصالح بريطانيا:

«مرتبطة بمصالح روسيا وفرنسا فى هذا النزاع الذى يقوم من أجل الاستيلاء على الصرب، ولكنه نزاع بين ألمانيا ـ التى تريد فرض دكتاتورية سياسية ـ فى أوربا وبين الدول التى تريد استعادة الحرية الفردية».

وفى اعتقادنا أن بريطانيا كان لديها فعلا الذريعة التى يمكن أن تتذرع بها لتجنب المشاركة فى الحرب عند نشوبها، فتصبح قادرة على الرؤية الصحيحة وتحديد خططها بشكل أدق يخدم مصالحها الخاصة أولا، فالوفاق الودى لا يلزم

بريطانيا بالدخول فى الحرب إلى جانب فرنسا. والأمور التى جعلت بريطانيا تدخل الحرب عقب اجتياح الجيوش الألمانية الحدود البلجيكية:

١ ـ أن الدفاع الفرنسى لابد وأن ينهار إذا ما تركت فرنسا وحدها فى هذه الظروف الجديدة.

٢ ـ أن دولا أخرى قد تتشجع وتدخل الحرب إلى جانب ألمانيا والنمسا، الأمر الذى يعرض الإمبراطورية البريطانية لخطر شديد.

أما مسألة حرية البلجيك وحياده، والدفاع عن حرية الفرد ضد الدكتاتورية، فهى أيديولوجيات تغطى حقيقة الأهداف الأخرى، حيث إن بريطانيا كانت تتحالف مع روسيا أشد الدول استبدادا ورجعية حينذاك، وكانت تستعبد شعوبا عديدة فى مختلف أجزاء العالم.

إن مثل هذه الأيديولوجيات لا تكون مسئولة عن مثل هذه القرارات التاريخية ـ كدخول حرب عالمية ـ التى تحدد مستقبل الإمبراطورية البريطانية، وقد عبر المؤرخ رنوفن عن وجهة نظره فى هذا الصدد بقوله:

«فى قرارات هذه الحكومات، فى يوليو ١٩١٤، كانت المصالح المتعلقة بالأمن وبالكرامة أو بالقوة، هى التى تقرر الاختيار النهائى».

لم تلبث الحرب أن اتسع نطاقها، وشاركت فيها عدة دول انضمت إلى هذا الجانب أو ذاك. فقد دخلت الإمبراطورية العثمانية الحرب إلى جانب دولتى الوسط فى نوفمبر ١٩١٤، وكذلك فعلت بلغاريا فى ١٩١٥.

أما بالنسبة لدول الوفاق، فقد دخلت اليابان الحرب فى ١٩١٤ إلى جانبها وكذلك إيطاليا (١٩١٥) ورومانيا والولايات المتحدة الأمريكية (١٩١٧).

وفى أعقاب دخول الولايات المتحدة الأمريكية الحرب، دخلتها أعداد كبيرة من دول أمريكا اللاتينية، ولكن دون أن تشارك فيها مشاركة فعالة، وهذه الدول هى:

١ ـ كوبا. ٢ ـ البرازيل. ٣ ـ بنما. ٤ ـ جواتيمالا.

٥ ـ نيكاراجوا. ٦ ـ هندوراس.

وقطعت دول أخرى من دول أمريكا اللاتينية علاقاتها مع دولتى الوسط وهى:

١ ـ بوليفيا ٢ ـ بيرو ٣ ـ أورجواى. ٤ ـ أكوادور.

وبالنسبة للدول الأسيوية الأفريقية، شاركت ـ بطبيعة الحال ـ مختلف أجزاء الإمبراطورية البريطانية والفرنسية فى الحرب، وأعلنت سيام (تايلاند) الحرب على دولتى الوسط فى يوليو ـ تموز ١٩١٧، كما أعلنتها ليبيريا والصين فى أغسطس ـ آب (١٩١٧).

العلاقات الاقتصادية بين الدول المتحاربة

رغم هذا التوتر الشديد الذى كان ينتاب أوربا كلما وقعت أزمة كبيرة، كانت أوربا تنمو اقتصاديا مستفيدة من تفوقها فى الإنتاج الصناعى ونمو قدراتها الحديثة المتجددة فى النقل، ومن تخلف المستعمرات القديمة أو الجديدة التى كانت تحت نير الدول الأوربية الاستعمارية. ومع أن ألمانيا وإيطاليا وبلجيكا دخلتا ميدان الاستعمار فى وقت متأخر ـ إذا ماقيس ذلك بكل من بريطانيا وفرنسا وهولندة ـ إلا أن الأسواق الاستهلاكية فى هذه المستعمرات وفى العالم القديم المتخلف كانت تستوعب كميات متضاعفة من الإنتاج الأوروبى، الأمر الذى ألهب المنافسة الاقتصادية بين هذه الدول الأوربية. ويمكن أن نكتشف مدى قوة هذه المنافسة سواء الاقتصادية أو العسكرية عند دراسة الأوضاع الاقتصادية الرئيسية فى أوربا.

فى الوقت الذى كان فيه حجم التجارة الدولية يتضاعف خلال العقد الأول من القرن العشرين، كان التنافس على التجارة الدولية يزداد شدة. وقد بالغ العديد من المؤرخين فى تصوير هذا التنافس الاقتصادى بين دول الوفاق ودول الحلف الثلاثى حتى لقد جعلوا من العامل الاقتصادى العامل الأول الذى أدى إلى الحرب العالمية الأولى. ومع أننا ندرك ما لهذا العامل من قوة فى تعميق العداوات بين

الدول المتنافسة إلا أن العلاقات الاقتصادية لم تكن هى المسئول الأول عن اشتعال الحرب العالمية الأولى. ويمكن أن نتبين هذا من عرض للعلاقات الاقتصادية الدولية.

وبصفة عامة كانت الزيادة فى حجم التجارة الدولية لدى الدول الأوربية فى تصاعد مطرد. وكان سرعة زيادة حجم التجارة الدولية كبيرة فى كل من بريطانيا وألمانيا. وفى نفس الوقت كان حجم التبادل التجارى بين هاتين الدولتين المتعاديتين يزداد حتى بلغت واردات بريطانيا من ألمانيا فى ١٩١٣ ٢,١٤٪ كما كان الميزان التجارى للتبادلات بين فرنسا وألمانيا يميل لصالح الأخيرة. بل كانت فرنسا تسعى إلى ضمان استمرار وصول الفحم الألمانى إليها، وفى المقابل كانت ألمانيا تسعى إلى ضمان وصول الحديد الفرنسى إليها، الأمر الذى أدى إلى مشاركة فرنسا فى المشروعات الخاصة بالمناجم فى ألمانيا وفعلت ألمانيا نفس الشيء بالنسبة لمناجم فرنسا، كما أن بعض مناجم الجزائر - الواقعة تحت الاستعمار الفرنسى - كانت تستغل بواسطة تعاون ألمانى فرنسى.

وبالنسبة لروسيا كان ٤٧٪ من وارداتها من ألمانيا و٢٩٪ من صادرات روسيا كانت ترسل إليها، ووجد العديد من الفلاحين الألمان فى الأراضى الروسية فرصا مشجعة لاستثمار أموالهم بشراء الأرض هناك، كل هذا فى الوقت الذى كان فيه حجم التبادل التجارى الروسى الفرنسى ضعيفا، ولم يرفع من قيمة العلاقات الاقتصادية الروسية - الفرنسية سوى القروض التى قدمتها الحكومة الفرنسية لمد خطوط حديد سيبيريا وفتح أسواق الأموال الفرنسية على مصراعيها أمام سندات القروض الروسية المطروحة للبيع لسد حاجة روسيا إلى رءوس الأموال.

أما العلاقات الاقتصادية الألمانية مع الحليفة النمسا - المجر فكانت ضعيفة، بينما كانت علاقات إيطاليا الاقتصادية بحليفتيها ألمانيا والنمسا - المجر تكاد تكون متوازنة مع علاقاتها مع فرنسا وبريطانيا. إلا أن الألمان فى إيطاليا استطاعوا - بمهارتهم ونشاطهم - أن يضعوا النصيب الأكبر من عمليات المصارف الإيطالية تحت يدهم،الأمر الذى يعطى للألمان فرصا اقتصادية أوسع فى إيطاليا.

وبصفة عامة تزايد حجم التجارة الألمانية خلال السنوات القليلة التى سبقت

الحرب العالمية زيادة كبيرة ـ إلى جانب ماسبق الإشارة إليه بالنسبة لفرنسا وروسيا ـ فى كل من بلجيكا وهولندة وفى أسبانيا والبرتغال وفى البلقان (بلغاريا والصرب ورومانيا) وفى الدولة العثمانية.

ويجدر بنا هنا أن نحدد العوامل التى جعلت ألمانيا تحرز مثل هذا النجاح الكبير فى مجال الاقتصاد الدولى.

وفى اعتقادنا أن السبب الأول فى هذا التفوق السريع يرجع إلى أن الوحدة الألمانية أعطت إمكانيات ضخمة للإنتاج الصناعى الكبير ما كان ليظهر أبدا مادامت كانت ألمانيا مفككة.

والعامل الثانى هو نوعية المواطن الألمانى الذى خرج من حروب كبرى أوربية منتصرا، وأصبح عليه أن يتفوق تجاريا وحضاريا، وأدرك أن وصوله إلى هذا الهدف يتطلب جهودا مضاعفة للغاية، هذا بينما ركن التاجر الإنجليزى إلى سابق تفوقه وسمعته وتشبث بالأساليب الروتينية التى كان التاجر الألمانى متحررا منها.

والعامل الثالث هو موقع ألمانيا، إذ كانت خطوط المواصلات تربطها مباشرة بأسواق الاستهلاك الأوربية. وكانت هذه الأسواق مستعدة لاستيعاب أكثر وأكثر من الإنتاج الألمانى والإنجليزى وغيره بسبب ظروف التطور السريع الذى كان يحدث فى المجتمعات الأوربية فى العقود الأخيرة من القرن التاسع عشر والعقد الأول من القرن العشرين.

ورغم هذا التفوق الكبير فى التجارة الدولية الألمانية، ورغم وقوع أضرار بالتجار الإنجليز من جراء ذلك، إلا أن التجارة الدولية الإنجليزية ظلت مستمرة فى الزيادة. والفارق الوحيد هو أن معدلات الزيادة هذه فى مطلع القرن العشرين كانت أقل من معدلاتها قبل المنافسة الألمانية، ومن هنا كانت المنافسات الاقتصادية بين ألمانيا وبريطانيا تصيب التاجر الإنجليزى بنقص يسير فى مكاسبه، ولكن دون أن تصيبه بفقد تجارته أو تعرضه للإفلاس، وساعد على التقليل من حدة هذه المنافسة التجارية نجاح حزب الأحرار فى بريطانيا فى الاستمرار فى تنفيذ سياسة «حرية التجارة» Free Trade فى وجه المطالبة الملحة من جانب

حزب المحافظين لتنفيذ حماية جمركية صارمة. وكان حزب الأحرار يرى - وعن صواب - أن مثل هذه الحماية الجمركية ستؤدى إلى حرب اقتصادية بين ألمانيا وبريطانيا لامبرر لها، وكان رجال الأعمال الإنجليز أنفسهم راضين عن هذه التطورات الاقتصادية رغم تبدل موازينها ويرفضون فكرة استخدام السلاح لحل المشكلات الاقتصادية بين بريطانيا وألمانيا.

وكان السبب الجوهرى فى هدوء أعصاب رجال الأعمال الإنجليز والمسئولين عن تجارة بريطانيا الدولية هو أن الإمبراطورية البريطانية تضع تحت يد بريطانيا أسواقا ومجالات لاستثمار رءوس الأموال الإنجليزية تؤدى إلى عدم تعرض بريطانيا لهزات مالية أو اقتصادية.

هذا بعكس رءوس الأموال الألمانية الناشئة، إذ كانت تستثمر فى داخل ألمانيا نفسها، حيث ظهر فى ألمانيا بعد وحدتها مجالات متسعة للغاية للاستثمارات المالية وخاصة الاستثمارات الوطنية. وأما خارج ألمانيا فقد وجدت رءوس الأموال الألمانية طريقها إلى بلغاريا تحت ضغوط نمساوية قوية، وإلى الدولة العثمانية تمهيدا لتحويلها إلى مجال حيوى للمشروعات الاستعمارية الألمانية.

وهكذا لم تعبر العلاقات الاقصادية الأوربية عن الحقيقة السياسية والعسكرية الخاصة بانقسام الدول الكبرى الأوربية إلى معسكرين. وهذا يفسر لنا أن المنافسات الاقتصادية لم تكن على مستوى المشكلات القومية والسياسية والاستراتيجية التى أدت إلى الحرب العالمية الأولى.

فما هى قدرات وإمكانيات الدول التى خاضت الحرب العالمية الأولى؟ وماذا كانت لديها من آمال من ورائها؟ هذا وخاصة أن الاتجاه العام لدى هذه الدول يرجح أنها حرب قصيرة فإذا بها حرب تمتد أربع سنوات.

(أ) بريطانيا:

كانت بريطانيا دولة ذات استقرار داخلى إلى حد كبير، باستثناء الأزمات التى كانت تثيرها المشكلة الأيرلندية، وكانت الإصلاحات الاجتماعية التى تحققت خلال السنوات الأخيرة من القرن التاسع عشر وحتى نشوب الحرب قد

صفت أخطر مشاكل بريطانيا الداخلية وأصبح الشعب أكثر تماسكا والتفافا حول حكومته.

حقيقة كانت هناك بعض من المستعمرات البريطانية مستعدة لانتهاز أية فرصة تكون فيها بريطانيا فى موقف حرج لتحصل على استقلالها، مثل كاثوليك أيرلندة والشعب المصرى، ولكن الغالبية العظمى من الإمبراطورية البريطانية قبيل الحرب العالمية الأولى كانت فى حالة لاتمكنها من أن تحذو حذو أيرلندة. بل تعلمت الحكومة البريطانية من تجربتين قاسيتين مرتا بها، إحداهما الثورة الأمريكية وحرب البوير، إذ أدركت أن تجاهل مطالب الحكم الذاتى تؤدى إلى نكبات قد لايعرف مداها. ولهذا أعطت لكندا وأستراليا ونيوزيلندة وكذلك اتحاد جنوب إفريقية حكما ذاتيا ونظاما برلمانيا ديمقراطيا جعل هذه الأجزاء من الإمبراطورية لاتقل حماسا فى الدفاع عن مصالح بريطانيا بالمال والدماء ضد عدوتها ألمانيا.

ولم تهتز قدرات بريطانيا الدفاعية عن نفسها وعن إمبراطوريتها إلا بعد انقسام أوربا إلى كتلتين شاكيتى السلاح: الحلف الثلاثى والحلف الثنائى. وتسابقت هذه الدول فى تقوية جيوشها وأساطيلها، ومع هذا كانت بريطانيا هادئة البال، حيث كان أسطولها دائما ضعف أسطول أى دولتين تاليتين لها(1)، ولكن فى العقد الأول من القرن العشرين وبسبب خطط ولهلم الثانى - إمبراطور ألمانيا - فى مضاعفة أسطوله البحرى ومزاحمة التجارة البريطانية أخذت بريطانيا تبحث عن حلفائها. أولا اتصلت بالألمان دون جدوى ثم ارتبطت بكل من اليابان وفرنسا وروسيا. وكان هذه الارتباطات فى الواقع تعطى لبريطانيا القدرة على تركيز أسطولها فى مواجهة ألمانيا عدوتها الجديدة. فعندما تحملت اليابان مسئولية الدفاع عن الهند (١٩٠٥) أصبح فى استطاعة بريطانيا سحب جزء من أسطولها من المياه الهندية إلى بحر الشمال، وبعد أن عقدت الوفاق الودى مع فرنسا

---

(١) عند استعراضنا للدول التى شاركت فى الحرب العالمية الأول أوجزنا الحديث عن كثير من هذه الدول، حيث سبق التعرض لأوضاعها الداخلية وسياستها الخارجية من قبل، وسنكتفى بالإشارة إلى مايتعلق بأحوالها قبيل ومطلع الحرب العالمية الأولى.

وتوالت الأزمات مع ألـمانيا، نجحت فى سنـة ١٩٠٦ فى أن تتولى فرنسا مـهمة الدفاع البحرى عن البـحر المتوسط، وسحبت بريطانيا أساطيلـها إلى بحر الشمال فى مواجهة ألمانيا. وبذلك تكون بريطانيا قد عالجت مشكلة توزيع قطعها البحرية المشتتة على مـسطح واسع جدا من البحار والمحيطات، هذا فـضلا عن مضاعفة الحكومة البريطانية لبرامج الإنتاج العسكرى البحرى فيما يتعلق بالسفن الحربية من طراز دردنوت Dreadnought [١]

وذلك منذ ١٨٨٩ والسبب فى عجز بريطانيا عن الحفاظ على هذا المستوى أن الدول الأوربية الأخرى ركـزت على إنتاج هذا النوع المتقـدم من البوارج التى أصبحـت الأساس الذى يقوم علـيه تقييـم قوة الدولة البحـرى. وفى ١٩١٤ كان لبريطانيا ١٩ بارجة عاملة و١٣ تحت البناء فى مقابل ١٣ بارجة عاملة لألمانيا و٧ تحت البناء، وكـان للولايات المتحدة الأمـريكية ٨ ولفرنسا ٨ كـذلك ولليابان ٤ وللمملكة الثنائية ٢ ولإيطاليا واحدة. وكانت أول معركة اشترك فيها هذا النوع من السفن هى معركة جوتلاف[٢] خلال الحرب العالميـة الأولى، وأخذت أهمية هذه السفن تتناقص بنمو سلاح العواصات والطيران والصواريخ.

ونظرا لتوفر مصادر البترول ـ الذى أصـبح وقود أساطيلها الحديثة ـ من آبار (عربستـان ـ خوزستان) فى إيران، ولأن الإنجليـز أصبحوا يمتلكون نـاصية فنون الحرب المحيطية كانت قدرات البحرية البريطـانية أكثر فعالية من البحرية الألمانية الناشئة.

---

(١) Two Power Stander وقد ظهـرت هذه النظرية عـلى يد اللورد جورج هامـلتون فى ١٨٨٩ واستـمر معمولا به فيما يتـعلق بالسفن الحربية الكبيرة حتى بدأ التسابق علـى بناء الدوردنوت. فاختل التوازن وأصبح الأسطول البريطانى يزيد فقط ٦٠٪ عن الأسطول التالى له.

(٢) بارجة تحمل مدفعية ضخمة، وكان هذا الاسم قد أطلق لأول مرة على بارجة بريطانية أنزلت فى ٤ فبراير ١٩٠٦، ولمدفعيتها ولسـرعتها تفوقت على أية سفينة حربية أخرى، اعتبـرت حينذاك ثورة فى صناعة السفن الحربية. وفى الوقت الذى أنزلت فيه هذه البارجة إلى البحر كان المهندسون يصممون لإنتاج مثلها فى خارج بريطانيا، فأدى ذلك إلى التسابق فى التسلح البحرى بين بريطانيا وألمانيا بصفة خاصة مما هدد سياسة البحرية البريطانية القائمـة على أساس أن يكون الأسطول البريطانى معادلا لقوة أى أسطولـين تاليين لأسطولها. وهذا ماعرف باسم Two Power Stander

ورغم هذه الاستعدادات العسكرية البرية والبحرية الكبيرة الموجهة ضد ألمانيا بالذات، كانت الحكومة البريطانية تأمل فى يوم ما أن تلعب دور الوساطة بين الحليفين المتعاديين. كانت تحاول إقناع ألمانيا بوقف سباق التسلح البحرى على أساس تفوق بريطانى أو على أساس الإبقاء على الوضع الراهن، ولهذا رفضت الحكومة البريطانية لمدة طويلة أن تحول الوفاق الثلاثى إلى حلف ثلاثى رغم الإلحاح المتواصل من جانب فرنسا. ولكن الإمبراطور ولهلم الثانى رفض أيه قيود تفرض على برنامج التسليح البحرى الألمانى، الأمر الذى جعل الهوة بين ألمانيا وبريطانيا لا يمكن عبورها. ومع هذا ظلت بريطانيا محتفظة بحق تحديد الحالة التى تجعلها مضطرة إلى أن تشارك عسكريا فى القتال إلى جانب فرنسا.

وعلى أى حال، كان شبح المجاعة فى بريطانيا، وكساد التجارة فيها يكمن وراء أى تهاون بريطانى نحو تفوق الأسطول البريطانى، ودخلت بريطانيا الحرب العالمية الأولى وهى أقدر على فرض الحصار على ألمانيا أكثر من قدرة ألمانيا على فرض حصار قاتل عليها.

ولكن يظل هناك خطر كبير يواجه بريطانيا من جانب ألمانيا، وهو إمكانية التفوق الحاسم البرى الألمانى وإمكانية سيطرتها على كل أوربا بالتعاون مع حليفتها إمبراطورية النمسا والمجر، ومن هنا كان على بريطانيا أن تسهم بجيوش برية تدفع بها ضد ألمانيا،ولهذا عنيت الحكومة البريطانية بشكل محدود بتطوير قواتها البرية حتى تصبح قادرة على منع ألمانيا من اجتياح أوربا. إلا أن بريطانيا لم تكن تفكر فى الجبهة الفرنسية فقط، وإنما كانت تعمل على استخدام أكبر عدد من قواتها فى الجبهات التى يمكن أن تؤدى إلى مكاسب استعمارية جديدة مثل الشام والعراق ومضايق الدردنيل والبسفور.

(٢) فرنسا:

كانت فرنسا هى أكبر قوة برية فى دول الوفاق الودى ولكن كانت مشاكلها الداخلية معقدة بسبب التأثير الشديد الذى كان للعلاقات الألمانية ـ الفرنسية على تطور الأوضاع الداخلية فى فرنسا.

كانت المدارس على مختلف مستوياتها، والجامعات والكنائس تردد نكبة ضياع الإلزاس واللورين وتحث الشعب على بذل أقصى طاقة ممكنة لاستردادهما. إلا أن الحرب ضد ألمانيا لم تكن من القرارات التى يمكن أن تتخذها فرنسا وحدها.

ولقد كانت حكومة فرنسا، بل وشعبها، يدرك أن ألمانيا ستنقل الحرب بسرعة إلى قلب بلادهم، وكان الفرنسيون يرون أن جيشهم أقدر على الدفاع منه على الهجوم. ومع هذا اتخذت الحكومة الفرنسية خطوات إيجابية لإعداد البلاد للحرب، فطورت بعض الوحدات لتصبح هجومية ومدت فترة الخدمة العسكرية فزاد عدد أفراد الجيش زيادة ملحوظة رغم معارضة الشعب الفرنسى لمد فترة الخدمة العسكرية.

وبلا شك أن الحماس القتالى ضد الألمان واحدا من العناصر المعنوية الجوهرية التى أعطت للجيش وللشعب الفرنسى صلابة كان لها دورها فى تحديد نتيجة الحرب.

(٣) روسيا:

خلال السنوات القليلة التى سبقت الحرب كانت عناية روسيا بالجيش واضحة ولكن دون التغلب على المشكلات الرئيسية التى تعرقل ارتفاع مستواه خاصة من حيث النقص فى الضباط وفى النقل بالسكك الحديدية، حقيقة كانت هناك مشروعات قيد التنفيذ لمواجهة هذا النقص، ولكن الحرب وقعت وأصبحت روسيا مرغمة على دخولها بإمكانياتها غير المتطورة وبشعب تمزقة الإشاعات والأزمات الاقتصادية وفساد الإدارة وقوة الاستغلال. فكان الشعب فى مجموعه سلبيا.

(٤) إيطاليا:

كانت إيطاليا ـ كما سبق أن ذكرناه ـ فى حلف مع ألمانيا والمملكة الثنائية. ولكنها فى الواقع كانت تعانى من مشكلات داخلية وخارجية أثرت فى تحديد السياسة التى اتبعتها عندما تقع الحرب. فقد انقسم الرأى العام الإيطالى

حول تحديد الجانب الذى تتخذه إيطاليا، حيث كان هناك سياسيون كبار من أمثال «جيولتى» زعيم حزب الأحرار - يطالبون بأن تعمل الحكومة على الحصول على المناطق التى سكنها إيطاليون فى «الترنتينو» النمساوى فى ساحل دلماشيا، وأن يتم ذلك عن طريق المساومات الدبلوماسية، حتى ولو أدت هذه المساومات إلى الحصول على جزء من هذه البلاد وليس كلها. وكان هؤلاء السياسيون يضعون فى اعتبارهم حينذاك ضعف إمكانيات إيطاليا الاقتصادية وتعقد مشكلاتها الداخلية التى ستتضاعف فى حالة تورط إيطاليا فى الصراع الأوربى الكبير المنتظر.

وكذلك كان الزعماء الكاثوليكيون - المتأثرون بتوجيهات البابوية - يدعون إلى وقوف إيطاليا على الحياد، إذ كان من العسير على شعورهم الدينى أن يتقبل حربا بين إيطاليا الكاثوليكية وأكثر حكومة مخلصة للكاثوليكية فى أوربا: الحكومة النمساوية.

وكان الاشتراكيون الإيطاليون يحثون على عدم تورط إيطاليا فى الأزمات الأوربية الكبرى تمشيا مع سياستهم العامة الداعية إلى السلام.

ولكن كان هناك جناح من الأحرار وجناح من الاشتراكيين يدعو إلى هذا التورط، ودعا كذلك الديمقراطيون المسيحيون إلى وقوف إيطاليا إلى جانب دول الوفاق.

ومن ثم كان من الطبيعى أن تتريث الحكومة الإيطالية فى اتخاذ أى موقف نهائى حتى تصل إلى قرار حاسم فى هذا الصدد.

وكان أمام الحكومة الإيطالية - وكانت برئاسة السياسى سالاندرا - طريقا من ثلاثة طرق:

١ - أن يقف على حياد ويحصل على ثمنه من كل طرف من الأطراف المتحاربة الراغبة فى عدم انحياز إيطاليا إلى الجانب الآخر.

٢ - الانحياز إلى جانب دولتى الوسط ودخول الحرب بجانبهما تمشيا مع تحالفها معهما.

٣ - دخول الحرب إلى جانب دول الوفاق والغدر بـ (النمسا وألمانيا).

وقامت الحكومة الإيطالية باتصالاتها مع الجانبين لتحدد ما يمكن أن يقدمه كل منهما، فبالنسبة لدولتى الوسط كانت المملكة الثنائية هى المعنية جدا بتطور إن السياسة الإيطالية، حيث أن دخول إيطاليا الحرب يعنى اضطرارها إلى أن تحارب فى جبهتين على الأقل. وكانت حكومة فيينا تدرك أن إيطاليا تريد تنازلها عن إقليم الترنتينو الذى يسكنه إيطاليون، وقد اتبعت حكومة فيينا سياسة ملتوية إزاء هذا المطلب، الأمر الذى أثار مخاوف الحكومة الإيطالية من أن يكون هذا الأسلوب مجرد خدعة حتى إذا ما انتهت الحرب بانتصار دولتى الوسط لن تمكن حكومة فيينا الحكومة الإيطالية من الحصول على أية قطعة أرض فى الترنتينو.

وكانت فكرة التنازل عن (الترنتينو) فى حد ذاتها خطرا على مستقبل المملكة الثنائية، حيث ستؤدى إلى تطلع القوميات الأخرى إلى تصفية مشكلاتها مع هذه المملكة الثنائية على نفس الأساس القومى، فيظل شبح التفكك ماثلا أمام حكومة فيينا سواء خلال الحرب أو بعدها.

كانت إيطاليا تتطلع كذلك إلى الحصول من المملكة الثنائية على إقليم تريستا وأستريا وعلى الساحل الدلماشى. وكل هذه المناطق أصبحت نقاط ارتكاز للمملكة الثنائية فى البلقان، وكان من الخطورة على المملكة الثنائية بمكان أن تضع دولة أوربية قدمها على هذا الساحل الشرقى للبحر الأدرياتى، ومن ثم كانت آمال إيطاليا فى الترنتينو والساحل الشرقى للبحر الأدريانى بعيدة المنال فى حالة انتصار دولتى الوسط.

اتصلت إيطاليا كذلك بدول الوفاق، وخلال المفاوضات وجدت أن آمالها التوسعية على حساب المملكة الثنائية - أرضا ونفوذا - أقرب جدا إلى التحقيق لو دخلت إيطاليا الحرب إلى جانب دول الوفاق.

فقد بدا وكأن الحلفاء لا يعترضون على حصول إيطاليا - فى حالة النصر النهائى - على:

١ - إقليم الإديج الأعلى الألمانى السكان.

٢ - أستيريا السلافية السكان.

٣ ـ ميناء فالونا على الساحل الألبانى.

٤ ـ جزيرة ساسينو المتحكمة فى مدخل قنال أوترنت.

٥ ـ أجزاء من الساحل الدلماشى بشرط عدم المساس بالمصالح (الصربية) التى كانت تدافع عنها روسيا.

٦ ـ منطقة أضاليا التركية.

٧ ـ كل الأراضى التى يسكنها الإيطاليون.

كان هذا الفارق الكبير بين عروض الطرفين المتحاربين هو السبب فى تحول الحكومة الإيطالية إلى سياسة الدخول فى حرب إلى جانب دول الوفاق، وانتهت المفاوضات فعلا إلى توقيع معاهدة سرية بين إيطاليا ودول الوفاق فى ٢٦أبريل ـ نيسيان ١٩١٥. ولم يلبث أن ألغى (سالندرا) معاهدة التحالف الثلاثى فى الثالث من آيار ـ مايو ١٩١٥.

إلا أن موافقة البرلمان كانت ضرورية كى تدخل إيطاليا الحرب، وهنا كانت المشكلة الكبرى التى واجهت مخططات (سالندرا) السياسية،إذ كان أغلب أعضاء البرلمان من دعاة الحياد والتفاوض مع مختلف الأطراف لتحقيق الآمال والتطلعات الإيطالية. مع تجنب البلاد نفقات وويلات الحرب. وأمام هذا الموقف اضطر (سالندرا) إلى الاستقالة (١٣مايو ـ ايار) إلا أن الحركة الشعبية للمثقفين فى كبريات المدن الإيطالية وضعت فى يد الملك القدرة على تثبيت (سالندرا) فى الحكم ودفع البرلمان إلى إعادة النظر فى سياسته.

كان هذا الحماس الشعبى قد تأجج بواسطة الصحافة التى كان كثير من كتابها يعتقدون أن إيطاليا فتية وليست هرمة وأنها تستطيع أن تأخذ مكانتها الدولية العالية بما تقدمه هى فى ميدان القتال وليس بالمناورات السياسية على موائد المفاوضات. وكان أن وافق البرلمان على دخول إيطاليا الحرب (٢٣مايو ـ آيار ١٩١٥).

أما من الناحية العسكرية، فإن استعدادات إيطاليا لم تكن على مستوى مواجهة مثل تلك الحرب التى نشبت فى ١٩١٤، فلما وقعت الحرب أخذت تعيد

تنظيم قواتها، على أن انتظارها إلى ١٩١٥ ـ لتشارك فى الحرب بجانب دول الوفاق ـ أعطاها الفرصة لبذل جهود أكبر لتقوية نفسها عسكريا.

(٥) ألمانيا:

عنيت ألمانيا بزيادة قواتها المسلحة، وكانت القيادة العسكرية الألمانية قد وضعت خطتها على أساس توجيه ضربة سريعة وحاسمة لفرنسا لتنقل الجيوش الألمانية لتقضى على الجيوش الروسية بمساعدة النمسا، ولكن فى ١٩١٣/ ١٩١٤ وجدت القيادة الألمانية أن الجبهة الروسية أصبحت عبئا أكبر عن ذى قبل على الألمان بسبب اضطرار النمسا إلى وضع مزيد من قواتها على الحدود مع الدول البلقانية بعد أن تحولت الحرب البلقانية لصالح خصوم النمسا.

وبصفة عامة كان الشعب الألمانى مستعدا لخوض الحرب ضد فرنسا، وكان اشتراكيو ألمانيا لا يعارضون وقوعها.

(٦) النمسا ـ المجر:

عنيت المملكة الثنائية بزيادة قدراتها العسكرية خاصة بعد الحروب البلقانية (١٩١٢/١٩١٣)، ولكن الإجراءات كانت معقدة ومعطلة، والمشكلة القومية كانت تؤرق هذه المملكة المتعددة العناصر، والتى كانت تمثل تراثا عفا عليه الزمن، إلا أن تحالفها مع ألمانيا كان يعطيها قوة مادية ومعنوية ساعدتها على مواجهة سنوات الحرب الأولى.

(٧) البلقان ودوله:

كان البلقان أكثر المناطق حساسية بالنسبة لتطور الأزمات بين دولتى الوسط ودول الوفاق، خاصة وأن الصرب ـ التى بدأت بسببها الحرب ـ كانت قلب البلقان، وكانت دول البلقان فى كثير من الأوقات تنتظر تفكك المملكة الثنائية، وفى نفس الوقت تخشى كل الخشية من هذه النتيجة المرغوبة المكروهة. إذ كان من المتوقع أن يصبح شرق أوربا مجرد مجموعة صغيرة من الدول كل واحدة تحمل جرثومة أزمة مع جاراتها، وهذا التفكك وغياب المملكة الثنائية ـ إن حدث ـ

قد يجعل الكلمة العليا فى المنطقة لروسيا. وهو أمر كانت الدول البلقانية تخشاه فضلا عن رفض بريطانيا لمثل هذا الوضع.

والعكس كان أيضا أمر يخشاه أهل البلقان. حيث إن انتصار المملكة الثنائية على الصرب وسحيقا يعنى أن العملاق النمساوى أصبح هو صاحب اليد العليا فى مصير المنطقة.

وكان البلقان يحتوى على عدد من الدول والدويلات المستعدة لخوض هذه الحرب الكبرى فى جانب التكتل الذى يمكن بانتصاره أن يحقق الآمال. وكانت دول البلقان بصفة عامة تدرك أن الأزمة التى نشبت بين الصرب والمملكة الثنائية فى يونيو - يوليو ١٩١٤ قد تؤدى إلى إذلال كامل للصرب، الأمر الذى يهدد أمن وسلامة بقية دول البلقان باستثناء بلغاريا التى كانت تتحرق شوقا إلى رؤيا اليوم الذى تشرب فيه الصرب من الكأس الذى شربته بلغاريا فى صلح بوخارست ١٩١٣ وكانت بلغاريا تأمل من وراء إذلال الصرب الحصول منها على (مقدونية) التى تضم غالبية من السكان البلغاريين. كما كانت بلغاريا تأمل فى أن تسترد من رومانيا إقليم (دبروجه الجنوبى).

وكانت تطورات الحرب فى سنتها الأولى أكبر مؤثر على التوجيه السياسى فى بلغاريا. فقد كان كثير من ساسة بلغاريا يدعون إلى عدم الاصطدام بروسيا مذكرين بدورها فى تأسيس بلغاريا وبقوتها القادرة على تحطيم بلغاريا إذا سنحت لها الفرصة. ولكن ساسة بلغاريا كانوا إلى جانب تقدير هذه الظروف المسيطرة على العلاقات البلغارية - الروسية يتطلعون إلى تحقيق أمانيهم القومية فى جمع شمل البلغار، وحيث إن مقدونية الصربية كانت تضم أكبر أقلية بلغارية خارج الوطن الأم كان الحصول عليها حجر الزاوية فى تحول بلغاريا إلى جانب دولتى الوسط. فلقد عرضت حكومة فيينا على بلغاريا - بعد استعداد إيطاليا للدخول فى الحرب - حصولها على مقدونية الصربية وعلى تأييد المطالب البلغارية فى مناطق الحدود التركية (تراقيا).

أما دول الوفاق فكان حصول بلغاريا على مقدونية الصربية مسألة تحتاج إلى بحوث مطولة، ولهذا لم تحصل بلغاريا من دول الوفاق على موافقة كاملة وكانت

الوعود بحصولها على (أدرنة) من تركيا وجزء من تراقيا لا يعادل ما وعدت به المملكة الثنائية.

ثم جاء خريف ١٩١٥، وبدا فيه أن الجيوش الألمانية أنزلت الهزائم الساحقة بجيوش روسيا وأن هذه الأخيرة - كما أشيع حينذاك - أصبحت على وشك عقد صلح مهين منفرد. ولذلك فضلت الحكومة البلغارية أن تخوض الحرب إلى جانب دولتى الوسط (٥ تشرين أول ١٩١٥)، وأسهمت فى تحطيم الصرب والاستيلاء على عاصمتها (بلغراد).

لقد كانت تلك التطلعات والاتجاهات البلغارية كفيلة بأن تثير مخاوف الدول البلقانية، وبوجه خاص(اليونان) التى كانت تخشى كل الخشية التوسع البلغارى على حساب الصرب للأسباب التالية:

١ - أن اليونان كانت تخشى من الانتقام البلغارى منها يوما ما ولذلك أبقت على التحالف الذى كان بينها وبين الصرب.

٢ - أن اليونان كانت قد ضمت جزءا من (مقدونية) لن تلبث بلغاريا أن تتطلع إليه بشره إذا ما نجحت فى اقتناص مقدونية الصربية.

٣ - أن تفوق بلغاريا - بانتصارها وتوسعها على حساب الصرب - يهدد كيان اليونان مباشرة، وخاصة أنه كان هناك نوع من التقارب بين المملكة الثنائية وبلغاريا، إلى جانب علاقات وثيقة بين المملكة الثنائية والدولة العثمانية وكانت الدولة العثمانية بدورها تتربص الدوائر باليونان لتسترد منها ماسبق أن حصلت عليه الأخيرة خلال الحرب البلقانية ١٩١٢/ ١٩١٣.

وكانت الأوضاع الداخلية فى اليونان لا تعطيها الفرصة كى تضع لنفسها سياسة مستقرة وجريئة فى مواجهة التطورات الكبرى التى وقعت فى السنة الأولى والثانية من الحرب.

فدخول إيطاليا وبلغايا الحرب، وهزائم روسيا ، وحملة فرنسا وبريطانيا إلى غاليبولى - لفتح الطريق عنوة إلى روسيا، كل هذا كان يتطلب من الحكومة

اليونانيــة اتخاذ موقف واضح من هؤلاء المتــحاربين فى ميدان يقــع على مشارف الدولة اليونانية. إلا أن الملك قسطنطين ـ صهر الـقيصر ولهلم الثانى ـ كان مقتنعا بتفوق العسكرية الألمانية وحصولها على النـصر النهائى، ومقتنعا باستمرار تسلطه على توجيه السيـاسة الخارجية لبلاده بغض النظر عن مسئـوليات الوزارة اليونانية، وكان معجبا بنظام الحكم (البروسى) شبه الدكتاتورى.

وعلى العكس من هذا كـان السياسى الذكى فينزيلـوس، إذ كان يتطلع إلى استكمال الوحدة القـومية لليونان، وإحياء الإمبراطورية البيـزنطية،وإعطاء الشعب أكبر قدر من الديمـقراطية البرلمانية، وأن تحقيـق ذلك ـ من وجهة نظره ـ لا يتم إلا بإقصاء الملك عن الحكم إذا استمر فى تصلبه وسياسته تلك.

وأصبـحت اليـونان فى مـفترق الـطرق عندمـا نزلت الجـيوش الفـرنسـية والإنجليزية فى غاليبولى ولم تحترم فرنسا وبريطانيا حياد اليونان فى حالة تعارضه مع سلامة هذه الجيـوش. واتخذ فينزيلوس سياسة فتح الـيونان أمام جيوش دول الوفـاق فى مواجـهة معـارضة شـديدة من جانـب الملك، إلا أن نزول الـقوات البريطانـية والفرنسية فى سـالونيك واتخاذها قاعـدة بلقانية لعمليـات دول الوفاق العسكـرية فى المنطقة جـعل فينزيلوس أقـدر على تحدى الملك وكـون حكومة وطنية فى (سالونيك) ١٩١٦، وهكذا اتخذت اليونان جانب دول الوفاق.

وفى أقصى شمال شـرق البلقان كانت رومانيا تحاول أن تلـعب دورا رئيسيا فى شئون البلقان يضمن لها اكتمال الوحدة الرومانية والتوسع إن أمكن. فقد كانت هناك عدة مـلايين من الرومانيـين تحت حكم روسـيا فى بسارابيـا، وتحت حكم الممـلكة الثنائيـة فى ترانسلفـانيا. ولكن كـانت هناك ميـول واضحة فى رومـانيا للارتباط بدول الـوفاق إلا أن وجود الملك كارول الأول علـى العرش ـ وهو من أسرة هو هتزلرن الحـاكمة فى برلين، منه لفتـرة ليست بالقصيرة، تـحول رومانيا ضد دولتى الوسط إلا أن الـملك لم يلبث أن توفى فى أكتـوبر ١٩١٤ وخلفه ابن أخيه فرديناند.

كان فـرديناند لا يسـتطيع التـفوق على السـياسى الرومـانى الكبيـر ورئيس

الحكومة براتيانوا Bratiano، وكان على هذا الرجل أن يحـدد موقف رومانيا من الحرب الأوربـية على ضوء إمكـانية تحقـيق أهداف رومانيـا القوميـة في كل من ترانسلفانيا الواقعة تحت المملكة الثنـائية، وبسارابيا الراقعة تحت حكومة روسيا. وأكـدت الاتصـالات الأولى بين بـودابست وفـيـينا أن الأخـيرة لـن تتنـازل عن ترانسلفـانيا،بينما كـانت دول الوفاق مستـعدة لأن تعد رومانـيا بالحصول علـيها. وكانت لترانسلفانيا - فى نظر الحكومة الرومانية - أولوية من حيث التحرك القومى نحو الوحـدة لجميع الرومانـيين. ولهذا لم تلبـث المفاوضات بين رومـانيا ودول الوفاق أن أثمـرت معاهدة تحـالف (١٧ أغسطس - آب ١٩١٧). ولكن رومـانيا - التى كانت تعلق دول الوفاق كثيرا على دورها العسكرى فى الحرب - وقعت على قدميها أمام جيوش دول الوسط فى ١٩١٧.

(٨) اليابان:

كانت اليابان الدولة الآسيوية الكبـيرة التى شاركت فى هذه الحرب. وهناك دولة أخـرى شـاركت فـيهـا هى سـيـام (تايـلاند) ،لكـنهـا لم تلـعب إلا دورا صغيرا. وكانت اليابان تسعى إلى وراثة الدول الأوربية فى الشرق الأقصى، وحيث إن تحقيق هذا الهدف دفعة واحدة يعتبر من المستحيلات. سعت إلى انتهاز فرصة الأزمات الأوربية للحصول على مكاسب فى الشرق الأقصى.

وكانت السـوق الصينية الكثـيفة بالسكان مـحط أطماع اليابان، فـضلا عن تطلعها إلى إستغلال مناجم الفحم والحديد التى عجز الصينيون عن استغلالها،لهذا رأت الحكومة اليابانيـة أن استمرار الحلف البريطانى مع اليـابان يفتح الطريق أمام استـيلائها على الـمناطق التى كانـت تسيطر علـيها ألمانـيا فى الصين فـى خليج كياوتشاو وشانتونج بالذات.

ولهذه الأسـباب أعلنت الحـرب على دولتى الوسط فى ٢٣أغـسطس - آب ١٩١٤ مؤملة أن تحقق تلك الأهداف، وأكثر منها حتى لو كان ذلك على حساب دول الوفاق أنفسهم.

بعد أن وضعت اليابان يدها على ما كان لألمانيا من مناطق نفوذ فى الصين، تطلعت إلى التحكم فى مقدرات الصين نفسها مستخدمة فى ذلك التهديد باستخدام القوة والتهديد بإطلاق السياسيين اللاجئين إلى اليابان، وكان فى استطاعة هؤلاء أن يثيروا القلاقل فى الصين ضد حكم (يوان تشى كاى) الدكتاتورى.

وقدمت حكومة اليابان يناير - كانون الثانى ١٩١٥ مذكرة مطولة تفصيلية إلى حكومة الصين تطالب فيها بامتيازات سياسية واقتصادية وعسكرية تجعل الصين - بعد وقت ليس بالطويل - مجرد محمية يابانية. ووقفت حكومة الصين مهيضة الجناح أمام العملاق اليابانى رغم مذكرة الاحتجاج البريطانى على مغالاة اليابان فى مطالبها تلك، ورغم مطالبة حكومة الولايات المتحدة من اليابان تجنب تفيذ المطالب التى تمس استقلال الصين مباشرة. ولهذا كان الاتفاق الذى توصلت إليه حكومة الصين واليابان فى ٢٤مايو - آيار ١٩١٥ يحفظ ماء وجه الصين من جهة ويعطى لليابان فرصا واسعة لاستغلال الصين من جهة أخرى، واضطرت دول الوفاق إلى الموافقة على تلك الاتفاقيات اليابانية الصينية لانشغالها بميادين الحرب فى أوربا وفى الشرق الأوسط، بل لقد وعدت بريطانيا اليابان بأن تحصل الأخيرة على الجزر الواقعة تحت يد ألمانيا فى المحيط الهادى.

(٩) الولايات المتحدة الأمريكية:

كانت سياسة الولايات المتحدة الأمريكية قبيل الحرب العالمية الأولى قد انتقلت من «التوسع الإقليمى» فى داخل القارة إلى التوسع فى أقاليم القارة البعيدة (آلاسكا وهاواى) وإلى خلق مجال حيوى لها فى أمريكا اللاتينية. ثم لم تلبث أن استولت على الفلبين من أسبانيا وسيطرت على قناة بنما وكوبا. وكانت ترقب بحذر شديد تورط الدول الأوربية فى التحالفات والتحالفات المضادة، وكانت تسعى إلى أن تكون الحكَم القوى الذى يفصل فى مشاكل القارة الأوربية، إلا أن حدة الصراعات بين المعسكرين المتعاديين فى أوربا، وعدم الحاجة الماسة لأى منهما إلى الولايات المتحدة، وعدم رغبة هذه الأخيرة فى التورط فى مشاكل القارة، جعلها تحدد تحركاتها بقدر من القارة الأوربية.

المرحلة الأولى من الحرب (١٩١٤ ـ ١٩١٦):

بدأت التحركات العسكرية بحركة التفاف ألمانية واسعة النطاق عبر بلجيكا فى اتجاه فرنسا بقصد توجيه ضربة حاسمة لها تخرجها من الحرب، ولكن تعرقل الزحف الألمانى حوالى أسبوعين بسبب مقاومة الجيش البلجيكى وحصون لييج ونامور الشهيرة. وهناك اكتشف القائد الفرنسى (بوفر) خطأه فى تركيز قواته على جهة اللورين،الأمر الذى أتاح للألمان زحفا سريعا صوب قلب فرنسا واضطرت فرنسا إلى حرب التراجع فى مختلف الميادين حتى خطوط نهر المارن. ولم يخفف من العبء الشديد الملقى على الجيش الفرنسى فى هذه الجبهة سوى إضطرار القيادة الألمانية إلى نقل بعض من فرقها من الجبهة الفرنسية إلى بروسيا لإنقاذها من الاجتياح الروسى، إلا أن روسيا كانت قد منيت بهزيمة ساحقة فى موقعة تانتبرج قبل اشتراك الفرق المنقولة إلى بروسيا.

أضعف نقل تلك الفرق من قوة الجيش الألمانى فكان فرصة انتهزها (بوفر) فشن هجوما مضادا ناجحا أرغم الجيش الألمانى على أن يتخذ موقف الدفاع، وكان هذا فى حد ذاته نصرا لدول الوفاق، حيث إن خطة الحرب الخاطفة قد فشلت فعلا، وكلما طالت الحرب سارت الأمور ضد مصالح دولتى الوسط. ومنذ أيلول ١٩١٤ ساهمت الخطة الدفاعية لدى الطرفين فى فرنسا إلى أن تتحصن فرق المشاة فى الخنادق وأن تتراشق المدفعية بالقنابل على جبهة طويلة للغاية تمتد من جبال فوج فى الشرق إلى بحر الشمال فى الغرب. و فى محاولة لزحزحة العدو من مكانة تبادل الطرفان الهجمات، وكانت نتائجها متعادلة،ففى فردون Verdum تحمل الفرنسيون عبء هجوم ألمانى شديد الوطأة كان هدفه إبادة فرق فرنسية عديدة. ونجحوا فى منع الألمان من الاستيلاء عليها، وكبدوهم خسائر تعادل تقريبا خسائرهم الفادحة (شباط ـ حزيران فبراير ـ يونيو ١٩١٦) وفى معركة السوم (يوليو ـ تموز١٩١٦) كان الفرنسيون هم المهاجمون وكبدوا الألمان خسائر أخرى فادحه.

أما وقد فشلت خطة كسب الحرب بحرب خاطفة فى الجبهة الفرنسية فى ١٩١٥ بسبب صلابة الجيش الفرنسى والمعاونة العسكرية الإنجليزية له، اتجه القادة الألمان إلى العمل على إخراج روسيا من الحرب عن طريق حرب خاطفة. وكانت المظاهر العامة توحى بأن مثل هذه الخطة ستلاقى نجاحا كبيرا فى روسيا لما كان يعوزها من مؤن وذخائر ووسائل نقل حديثة. ولقد أحرزت الحملة الألمانية على روسيا انتصارات كبيرة جعلت بولنده ولتوانيا وأجراء عزيزة وغنية واسعة من روسيا تقع تحت يد جيوش دولتى الوسط فضلا عن حوالى مليونين من الروس ذهبوا بين قتيل وأسير وجريح.

وزاد من حرج الموقف العسكرى العام لدول الوفاق، وخاصة روسيا، أن الحملة الإنجليزية إلى الدردنيل سبتمبر - أيلول ١٩١٥ باءت بالفشل. سواء فى معارك البر أو البحر واضطرت إلى الانسحاب وضاع أمل روسيا فى فتح المضايق لتوصيل المواد العسكرية اللازمة لها. بينما اجتاحت فى تشرين أول - أكتوبر ١٩١٥ القوات الألمانية - النمساوية - البلغارية الصرب، ووصلت حتى تيرانا عاصمة ألبانيا، دون أن تسهم إيطاليا - التى دخلت الحرب منذ وقت قصير - بشىء يذكر فى حملة الدردنيل أو فى القتال فى البلقان. حتى تعرضت إيطاليا نفسها إلى حملة مظفرة نمساوية ألمانية أنزلت الهزيمة القاسية بالجيش الإيطالى فى موقعة كابوريتو. فى ٢٤ تشرين أول - أكتوبر ١٩١٧:

وفى الجبهة الشرقية العثمانية توقف الزحف البريطانى من البصرة فى اتجاه الشمال عند كوت العمارة، وهناك أرغم الأتراك جيشا إنجليزيا - حاصروه فيها - على الاستسلام فى أوائل ١٩١٦، أما فى الجبهة المصرية فكانت مبادرة الهجوم والتقدم من جانب جمال باشا حتى وصل إلى قناة السويس، إلا أن الجيش الإنجليزى والثورة العربية (١٩١٦) أرغمت الأتراك على التراجع إلى ما وراء يافا والقدس.

وكما كانت قوى المتحاربين فى ١٩١٥/١٩١٦ فى الجبهات البرية متعادلة تقريبا، كانت نتيجة المعركة الحربية البحرية الكبرى فى جوتلاند (٢١ آيار - مايو ١٩١٦) بين الأسطولين الإنجليزى والألمانى متعادلة، وإن سارت موازين القوى

البحرية بعد ذلك لصالح التفوق البريطانى، حيث إن الخسائر فى الأسطول الألمانى كان من المتعذر تعويضها، وحيث إن التفوق العددى كان لأسطولى بريطانيا وفرنسا فقبع الأسطول الألمانى فى موانيه.

وحاولت ألمانيا أن «تُجَوِّع» بريطانيا وتمنع عنها إمداداتها من الدول المحايدة وخاصة من الولايات المتحدة الأمريكية عن طريق إغراق سفن بريطانيا وسفن الدول المحايدة المتعاملة معها بواسطة أعداد كبيرة من الغواصات بنتها على عجل، ولكن فشلت الخطة فى النهاية بسبب استخدام الإنجليز نظام قوافل السفن التى تسير فى حراسة الأسطول، ولأن عددا كبيرا من هذه الغواصات دمرته قطع الأسطول الإنجليزى.

أخذت قوى الطرفين المتصارعتين تستنفد طاقاتها التى عبأتها لخوض حرب قصيرة، وبدأت تعانى من متطلبات حرب طويلة المدى. ووقعت عدة حوادث فى داخل الدول المتحاربة دلت على مدى توتر الأعصاب بسبب هذا التطور غير المنتظر.

ففى بريطانيا كانت وزارة أسكويث تواجه أزمة تموين قاسية، إذ كانت الدخائر تعوز الجيش الإنجليزى العامل فى فرنسا، وكان من أسباب اشتداد هذه الأزمة وجود كتشنر وزيرا للحرب فى وزارة أسكويث، وكان كتشنر محبوبا جدا من الشعب الإنجليزى، ولكن لم يكن الرجل صاحب خبرات فى مثل هذه المشكلات التموينية وإن كان صاحب خبرة واسعة فى وضع المخططات السياسية الإنجليزية نحو المستعمرات. وتضاعفت المشكلة التموينية عندما أصبحت متطلبات حرب الخنادق فى فرنسا تحتاج إلى كميات أكبر من الذخائر.

وعندما أقدم أسكويث على تعديل وزارته أدخل لويد جورج وزيرا للتموين (مايو ـ أيار ١٩١٥)، وأبدى لويد جورج مهارة كبيرة فى سد النقص فى حاجات الجيش من الذخائر، واستطاع أن يخطط لسياسة حرب طويلة الأمد، فأعد لهما جيشا جديدا مؤلفا من سبعين فرقة واستخدم لويد جورج سلطات واسعة ـ أقرب إلى الدكتاتورية ـ من أجل توجيه قدرات بريطانيا البشرية والإنتاجية نحو الحزب. وفى ديسمبر ـ كانون أول ١٩١٦ تولى لويد جورج رئاسة وزارة

حرب مؤلفة منه ومن ثلاثة آخرين هم: لورد كيرزون ولوردملنز (وكلاهما من المحافظين) وآرثر هندرسون من (العمال)، وكان هذا التطور من العوامل التى أدت إلى فرقة بين لويد جورج وأسكويث ساهمت فى تدهور حزب الأحرار وانتهاء دوره كأحد الأحزاب الرئيسية الكبرى فى تاريخ بريطانيا.

٢ ـ فى فرنسا، كان وزارة أرسطو برياند هى التى عاصرت الصمود الفرنسى الرائع فى فردون ولم يلبث برياند أن عدلها تم استقال برياند وخلفته عدة وزارات ضعيفة قصيرة العمر حتى تولى فى ١٣ تشرين ثانى ١٩١٧ رئاسة الوزارة جورج كلمنصو الذى أعاد إلى البلاد وحدتها الوطنية وانتهت حركة التمرد التى برزت فى مطلع ١٩١٧، ووقف الرأى العام الفرنسى خلف كلمنصو، واستعادت فرنسا معنوياتها وقدرتها على التضحية الكبرى من أجل النصر النهائى. ولخص سياسته فى العمل على الإفادة من كافة طاقات فرنسا وشعبها، أما بشأن الحرب فقد أبدى صلابة شديدة إزاء العدو وإصرارا على كسب الحرب وقال:

«إن سياستى الخارجية وسياستى الداخلية واحدة. سياستى الداخلية أن أحارب وسياستى الخارجية أن أحارب وأحارب دوما».

٣ ـ وكانت إيطاليا تضم عددا كبيرا من الزعامات والأحزاب والهيئات المعارضة للحرب بشكل لا مثيل له فى أى من الدول المتحاربة الأخرى. ونظرا لعجزها عن إحراز نصر ما حتى ١٩١٦ أوجد ذلك قلقا مريرا بين الشعب، وضاعف من ذلك أن المحاصيل الزراعية ١٩١٦ كانت أقل مما سبق، وأدى نقص الفحم إلى تعطيل كثير من المصانع وتركت كثير من الحقول دون إنتاج، وترتب على هذا إضرابات فى تورين، وفرار الجند من الجبهة، ثم أدت هزيمة الجيش الإيطالى فى موقعة كابوريتو إلى سقوط وزارة بوزيللى. وتولى أورلاندو رئاسة وزارة ائتلافية.

ويمكن أن نعتبر (أورلاندو) كلمنصو إيطاليا حيث إنه استهدف الوحدة الوطنية على اعتبار أنها مفتاح النصر النهائى. فدعا الأحزاب السياسية المختلفة للتعاون فى الجهد المشترك من أجل توجيه طاقات إيطاليا نحو الحرب ومسح عار كابوريتو. ومع أنه لقى معارضة من جانب الاشتراكيين إلا أن (جيولتى) ـ الداعية

المرحلة الثانية من الحرب (١٩١٧ ـ ١٩١٨):

ويعتبر عام ١٩١٧ من أهم أعوام الحرب، حيث وقعت فيه فيه عدة أحداث وتطورات كانت عميقة الأثر - إلى حد بعيد - على الشكل الذى انتهى إليه هذا الصراع المرير.

وكانت هذه التطورات الكبرى:

١ ـ الثورة الروسية ابتداء من مارس ـ آذار ١٩١٧.

٢ ـ دخول الولايات المتحدة الأمريكية الحرب فى ٢ نيسان ـ أبريل ١٩١٧.

٣ ـ تدهور الجبهة الداخلية فى ألمانيا (١٩١٧) ثم فشل هجومها فى ١٩١٨.

٤ ـ تدهور بلغاريا.

٥ ـ تصدع المملكة الثنائية.

٦ ـ فقدان تركيا للبلاد العربية (١٩١٧ ـ ١٩١٨).

كانت روسيا أول الدول خروجا من الحرب وذلك بسبب تدهور جيوشها معنويا وفنيا، وأصابتها النكبات والمذابح المتتالية بسبب جهل القيادة ونقص الذخيرة المريع والمتاجرة فى تزويد الجيش بالأسلحة، وانتشار المجاعة فى الريف ونقص قاتل فى تموينات الجند، وعجز من جانب الحكومة القيصرية ودولتى الوفاق عن إنقاذ الموقف المتدهور بسرعة. وقامت الثورة فى بتروجراد ضد القيصر، ورفض الجيش التحرك ضد الثوار وأرغم القيصر على التنازل عن عرشه، وانتهت بذلك أسرة رومانوف من الحكم، وتولى الحكم، حكومة مؤقتة برئاسة كيرنسكى، وأرادت متابعة الحرب، ولكن الانقلاب الذى قاده لينين ـ زعيم البلشفيك ـ وضع الحكم فى يد هولاء، وسرعان ماسعوا إلى الوصول إلى صلح مع ألمانيا وتم ذلك فى معاهدة برست ليتوفسك فى ٣ مارس آذار ـ ١٩١٨.

نصت معاهدة برست ليتوفسك على مايلى:

١ ـ التخلى عن دويلات البلطيق وفنلندا وبولنده.

٢ ـ الجلاء عن أكرانيا والاعتراف بمعاهدتها مع ألمانيا.

٣ ـ التنازل لتركيا عن أردهان وفارس وباطوم.

٤ ـ الامتناع عن نشر الدعاية.

وهكذا خرجت روسيا من الحرب بعد أن فقدت مساحات شاسعة من أراضيها ومن الأراضى التى كانت تسيطر عليها.

وحيث إن الولايات المتحدة كانت قد أعلنت الحرب فى أبريل ـ نيسان ١٩١٧ على ألمانيا، وكانت فى حاجة إلى عام تقريبا للمشاركة الفعلية فى ميادين القتال فى أوربا، برز سؤال خطير: هل فى استطاعة ألمانيا أن تكسب الحرب خلال الفترة الواقعة بين توقف القتال على الجبهة الروسية ووصول الجيوش الأمريكية إلى ميادين القتال بكثافة كبيرة؟

ولقد كان أمام الألمان حوالى أربعة أشهر كى يفرضوا على فرنسا الاستسلام قبل وصول القوات الأمريكية. وقبل أن تتمكن القوات الإيطالية من العودة إلى الهجوم بعد نكبتها فى معركة كابوريتو (أكتوبر ـ تشرين أول ١٩١٧).

وكان من المفهوم أن القيادة الألمانية ـ بعد أن وقعت الهدنة مع روسيا ـ ستنقل كافة الفرق العاملة على الجبهة الروسية إلى الجبهة الفرنسية والقيام بهجوم كبير يرغم فرنسا على الاستسلام. ولكن الذى حدث هو أن القيادة لم تنقل إلا جزءا قليلا من قواتها تلك إلى فرنسا،حيث إن (الهدنة) يمكن نقضها فى أى وقت بسهولة، ثم إن الحكومة الألمانية والقواد الألمان كانوا لايثقون فى الحكومة البلشفية الجديدة ويعتقدون أن الروس لن يتورعوا عن الانقلاب ضد ألمانيا إذا سنحت الفرصة، وخاصة أن عملاء الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا كانوا يعملون على إبقاء روسيا فى المعركة.

وإلى جانب هذا وذاك من العوامل التى جعلت القيادة الألمانية تبقى على الجزء الأعظم من قواتها على الجبهة الروسية وإشتداد النقص فى المواد الغذائية الذى كانت تعانى منه ألمانيا تصاعديا بسبب الحصار البحرى المضروب على

سواحلها، وإن وجدت الحكومة الألمانية فى أوكرانيا مصدرا كبيرا لتموين الشعب الألمانى وجيشه بما يلزمه من هذه المواد كان لابد من وجود عشرين فرقة عسكرية على الأقل لضمان جمع وإعداد المحاصيل والمؤمن اللازمة فى أوكرانيا، حيث كان الاحتلال العسكرى لها هو ضمان استغلالها.

ومن هذا كله يتبين لنا أن الألمان لم ينقلوا إلا القليل جدا من فرقهم من الجبهة الروسية إلى الجبهة الفرنسية، وبالتالى لم يحدث تغير جوهرى فى ميزان القوى فى الجبهة الفرنسية عقب انهيار الجبهة الروسية. وخاصة أن حلفاء ألمانيا كانوا فى حاجة إلى قواتهم لمواجهة الجبهات المسئولين عنها.

وفى هذه الظروف كانت القيادة العليا الألمانية قد أدركت أن قوى ألمانيا قد استنزفتها المعارك خلال السنوات الأربع السابقة. وأنه إذا قيض لها أن تكسب الحرب فذلك لن يتم إلا بتوجيه ضربات شديدة الوطأة على الجيوش الفرنسية والبريطانية الصامدة فى شمال فرنسا وتمزيقها والاستيلاء على باريس وعلى الساحل الشمالى الفرنسى.

ولقد صور لودندورف القائد الألمانى الموقف من وجهة نظره فى ذلك الوقت فقال: إن ألمانيا «نزفت دماء . . إلى حد الموت طيلة سنوات أربع، ولايمكن أن يستمر الجهد لسنة خامسة، وكاد ينضب عندها معين الرجال، بل معين كل شىء: الخيول والبضائع والكيماويات والمعادن والمطاط. ولاتزال النمسا والمجر فى حالة أسوأ من العوز والحاجة. وهى تسير فى طريق الهلاك بشكل واضح، وأخفقت حملة الغواصات العاتية، وفى أمريكا كميات لاتنفذ من المؤمن والذخيرة، ورجال يغمرون وجه الأرض، وغواصاتنا لاتملك سبيلا للحيلولة بينهم وبين أوربا فى أعداد متزايدة. ولكن باب النصر لايزال مفتوحا أمامنا، فإن روسيا قد خرجت أخيرا من الميدان، ويمكن توجيه قوات ألمانيا بأسرها نحو فرنسا، ويمكن تعزيز الجبهة الغربية بنحو أربعين كتيبة وأربعمائة ألف جندى، وبهذه القوة يكون لنا التفوق فى النهاية لقرابة أربعة أشهر، وسنحاول انتزاع النصر فى نقطة التقاء القوات الفرنسية بالإنجليز، ونفرق بين جيوشها

ونكسب الحرب. فإذا وفقنا فى هذا كله فلن تستطيع أية إمدادات من أمريكا أن تؤثر فى الموقف».

وفعلا شنت القيادة الألمانية هجماتها خلال الفترة الواقعة بين آذار وتموز (مارس ـ يوليو) ١٩١٧ فى أربع اتجاهات فى الجبهة الفرنسية:

١ ـ فى منطقة سان كانتين قام لودنورف ـ القائد الألمانى الكبير ـ بشق التنسيق بينهما ضعيفا جدا، الأمر الذى أعطى للودنورف فرصة طيبة لتوجيه الضربات إلى الجيشين، إلا أن القيادة العليا للحلفاء أدركت الخطورة الكامنة وراء تعدد القيادات الفرنسية والبريطانية فى الجبهة الواحدة، خاصة فى حالة تعرض الجبهة لهجوم عام يستهدف الجيوش الموجودة فيها، وفعلا توحدت القيادات وتولاها الجنرال فوش (آذار ـ مارس ١٩١٨) وآتت هذه الخطوة أكلها بعد وقت قصير، إذ أعد فوش جيوشه فى تخطيط عسكرى موحد، وتمكنت من مقاومته ثم صد الهجوم الألمانى الذى توقف فعلا فى أوائل أبريل ـ نيسان ١٩١٨ حقيقة أحرز الألمان تقدما كبيرا نسبيا، ولكن الحقيقة هى أن الجيش الألمانى فى هذه الجبهة فقد منذ ذلك الوقت القدرة على شن هجوم حاسم على جيوش الحلفاء.

٢ ـ فى أوائل نيسان ـ أبريل ١٩١٨ شن الألمان هجوما كبيرا فى جبهة أرمنتيير لاباس، ومع أن الهجوم الألمانى أرغم الجيش الإنجليزى هناك على التراجع إلا أن قدرات الألمان على متابعة الهجوم وهنت بسبب النقص فى التموين وعدم كفاءة الجندى الألمانى فى هذه الجبهة، ثم إن هذا الهجوم وقع بعد أن كانت القيادة الموحدة فى يد فوش قد أصبحت قادرة على مواجهة الهجمات بالنظرة الشاملة للقدرات المتوفرة المتجمعة للفرنسيين والإنجليز، ولم تلبث القيادة الألمانية أن أوقفت هجومها فى هذه الجبهة.

٣ ـ شن الألمان هجومهم فى مايو ـ آيار وزحفت جيوشهم حتى وصلت إلى (المارن)، ولكن استنفد الهجوم جزءا كبيرا من طاقة الألمان، وتمكن (بيتان) من وقف التقدم الألمانى، ومع أن الألمان كسبوا مساحة واسعة من الأراضى

الفرنسية إلا أن ذلك كان أقصى ماتستطيعه، ومن بعد ذلك لم تكن الجيوش الألمانية قادرة حتى على الدفاع عما كان تحت يدها.

٤ ـ وجه لودنورف هجومه الرابع فى منتصف تموز ـ يوليو ١٩١٨ فى منطقة شمبانى، وشنت القوات الألمانية على المارن هجوما كذلك إلا أن فوش قام بهجوم مضاد أوقف الزحف الألمانى ثم أرغم أعداءه على التراجع، كما أن الإنجليز شنوا هجوما مفاجئا أجهز على قدرة الألمان على الثبات فى مواقعهم فشرعوا فى التراجع، وفقدوا عشرات الألوف بين أسير وقتيل.

النتيجة العامة والجوهرية لهذه الهجمات الألمانية والمقاومة الناجحة لجيوش الحلفاء وقدرتها على امتصاص الهجمات المتعددة هى:

١ ـ استنفدت الجيوش الألمانية طاقتها على معاودة الهجوم المجرى، بينما كانت قدرات الحلفاء العسكرية تتصاعد.

٢ ـ أصبح عنصر الزمن ضد الألمان، حيث أخذت القوات الفرنسية والإنجليزية تستعد لشن الهجوم فى مختلف الجبهات.

٣ ـ أن الصمود الفرنسى ـ الإنجليزى وعجز الألمان عن كسب الحرب كان قد حدث قبل وصول الجيوش الأمريكية إلى ميادين القتال، ومن ثم ستقوم هذه الجيوش الأمريكية لا بإنقاذ جيوش فرنسا وبريطانيا من الجيوش الألمانية وإنما لاستكمال هزيمة هذه الجيوش الألمانية.

أعدت قيادة الحلفاء خططا لسلسلة من الهجمات ـ فى أكثر من جبهة ـ على الجيوش الألمانية المتعبة. ولم يعد فوش يفكر فى خطط دفاعية بعد وصول العديد من الفرق العسكرية الأمريكية، وبعد أن تفوقت جيوش الحلفاء بما أصبح لديها من عدد كبير من الدبابات التى لم يكن لدى الألمان منها إلا قدرا يسيرا. وبعد أن سبر غور المقاومة الألمانية فى عدة هجمات محدودة النتائج شن (فوش) هجومه العام فى أيلول ـ سبتمبر ١٩١٨ فى الوقت الذى تحركت فيه الجيوش المتحالفة على طول الجبهات الأخرى فى اليونان وبلغاريا والشام والعراق.

وتهاوت المقاومة فى الجبهات البلغارية والتركية والنمساوية والألمانية. واتجهت دول الوسط إلى طلب الهدنة الواحدة بعد الأخرى.

فلقد أصبح من الخير لهذه الدول أن تتصل بأعدائها للوصول إلى هدنة وتسوية إن أمكن. وكان إصدار الرئيس الأمريكى وودرو ويلسون لنقاطه الأربعة عشر للتسوية المنتظرة من أكبر العوامل التى شجعت دول الوسط على إلقاء السلاح حيث إن هذه النقاط الأربعة عشر كفيلة - كما تصور زعماء الدول المهزومة - بأن تحافظ على كيان دولهم على الأقل.

ولأهمية هذه النقاط الأربعة عشر التى أعلنها ويلسون فى رسالته المشهورة إلى الكونجرس الأمريكى فى الثامن من أكتوبر ١٩١٨ نشير إلى أهم مضمونها:

١ - نبذ المعاهدات السرية الدولية. وهذا يجعل حكومة الولايات المتحدة حرة فى مناقشة كافة الموضوعات التى تتعلق بخريطة أوربا والعالم فى المستقبل بعيدا عما عقدته فرنسا وبريطانيا وإيطاليا من اتفاقيات سرية على حساب الخصوم والحلفاء - مثل الصرب - فى آن واحد.

٢ - ضمان حرية الملاحة، وكان هذا يتلاءم مع مصالح الولايات المتحدة التى أصبحت من أكبر الدول الكبرى حجما فى التجارة الدولية، وأصبحت قادرة على التفوق عند المنافسة الحرة الدولية. ولهذا نجدها كذلك تطالب بإزالة الحواجز الاقتصادية بين الدول، والمساواة فى الفرص التجارية على اعتبار أنها هى الرابحة فى مثل هذه المجالات.

٣ - دعا إلى عصبة أمم تتولى الإشراف على المصالح الدولية والعلاقات الدولية بما يكفل عدم وقوع حرب دموية كهذه مرة أخرى.

٤ - طالب بخفض السلاح، وكان هذا المطلب مقدما دون أية تفاصيل تشير إلى مدى التخفيض الذى يمكن أن يجريه ويلسون على قوات الولايات المتحدة الأمريكية نفسها وحتى ولو أجرى تخفيض متساو فستكون الكلمة العليا كذلك للدول الكبرى على اعتبار أن نسبة تسليحها ستظل مرتفعة ومتفوقة.

٥ - وطالب بأن تنظر الدول الاستعمارية إلى مستعمراتها بعين العدل وأن

تراعى مصالح أهل المستعمرات، وعلى ما كان عليه هذا المبدأ من لفتة إنسانية رائعة فهو أقرب إلى الفكر المثالى الذى تعوزه قوة الحق، وكان كالسراب جرى نحوه زعماء البلاد المستعمرة لعلهم يحققون عدلا لبلادهم، ولكن دون جدوى؛ لأن قعقعة السلاح بعد الحرب كانت أشد تهديدا عنها خلالها بالنسبة للمستعمرات، ثم إن ويلسون كان لايستطيع أن يفرض رأيه على شركائه الاستعماريين: فرنسا وبريطانيا وإيطاليا.

٦ ـ بالنسبة للدول المهزومة فقد وضع عدة مبادئ تقضى بالجلاء عن بلجيكا وفرنسا، واستعادتها الإلزاس واللورين، وعن رومانيا والصرب والجبل الأسود ومراعاة حقوق القوميات عن تسوية مشكلات البلقان، وضم المناطق الإيطالية الواقعة تحت يد النمسا إلى إيطاليا، ومنح حق تقرير المصير للقوميات التى تتكون منها المملكة الثنائية، والدولة العثمانية، وحرية المرور فى المضايق وأوصى بإنشاء دولة بولندة.

وكانت مبادئ «حق تقرير المصير» وتسوية مشكلات أوربا على أساس احترام «القوميات» من أكبر الدوافع التى أقنعت حكومات دول الوسط أن الهدنة والتسوية ستكونان شريفتين، وأن الخصوم سيكونون معتدلين غير متعنتين. وخاصة أنه كانت انتشرت شائعات قوية جدا فى الدوائر الدبلوماسية الأوربية أن الهدنة لن تكون أساس معاهدة الصلح، وإنما ستوضع هذه بعد مجادلات ومفاوضات جديدة على أساس مبادئ ويلسون الأربعة عشر.

على أن التدهور العسكرى النهائى لدول الوسط هو ـ فى الواقع ـ الذى دفعها إلى طلب الهدنة، فكيف تم ذلك؟

١ ـ بلغاريا:

كانت المشكلة الرئيسية التى واجهت بلغاريا هى أنها كانت مكروهة فى البلقان، وكانت القوات الإنجليزية والفرنسية قد اتخذت من سالونيك قاعدة لها ولتجميع القوى البلقانية المناهضة لبلغاريا. ومع أن رومانيا ـ التى كانت تهدد بلغاريا من الخلف سحقت فى ١٩١٨/١٩١٧ إلا أن كفاءة الجيش البلغارى كانت

دون الجيش الإنجليزى فى البلقان. وكان ١٩١٧/١٩١٨ عاما لايستطيع فيه حلفاء بلغاريا أن يقدموا معونة مجدية لها عندما يتحرج موقفها مثلما حدث من قبل.

ثم إن كفاءة القيادة فى جانب الحلفاء وقدرتها على تنفيذ خطط جريئة ولكن سليمة كان له أكبر الأثر فى القيام بهجوم مفاجئ - وضع خطته فرانشيه ديسبيرية - على الجيش البلغارى أفقده القدرة على الصمود.

وكانت فى صفوف القيادة العامة البلغارية دعوة قوية نحو التوصل إلى صلح منفرد مع دول الحلفاء بعد أن ثبت أن النصر أصبح بعيدا، على أمل أن يكون الحلفاء كرماء فى معاملة بلغاريا مكافأة لها على الخروج عن حليفاتها. ومما شجع المسئولين فى بلغاريا على ذلك، تلك الاتصالات التى أجراها القنصل الأمريكى فى صوفيا.

وبعد اتصالات قصيرة وقعت الهدنة مع بلغاريا فى ٢٩ أيلول - ١٩١٨، ولكن شروطها كانت قاسية لا كرم فيها من جانب الحلفاء،حيث اشترطت على البلغار.

(أ) تسريح الجيش البلغارى وتخليه عن عتاده ومعداته.

(ب) طرد الألمان من بلغاريا.

(جـ) احتلال قوات الحلفاء للمواقع الإستراتيجية الهامة باستثناء العاصمة.

أدى استسلام بلغاريا على هذا النحو إلى تعريض كل من تركيا والمملكة الثنائية إلى أخطار داهمة جديدة ساعدت على إلى تقويضها بسرعة أكبر. كما أن خروج بلغاريا من الحرب قضى على البقية الباقية من الآمال التى كانت لدى القيادة الألمانية فى الحصول على صمود أشد فى مختلف جبهات القتال، الأمر الذى ساعد على تحطيم معنويات القيادة الألمانية.

٢ ـ تركيا:

أصبحت قدرات الأتراك على الصمود أمام الجيوش البريطانية فى جبهتى (العراق الجنوبى) و (فلسطين) محدودة، وكان نشوب الثورة العربية بقيادة الشريف

حسين بن على فى ١٩١٦ وتعاونها مع الإنجليز قد أدى إلى أن تصبح الأرض التى يعمل عليها الأتراك معادية، وفصلت بين القوات التركية فى اليمن والقوات الرئيسية التركية فى الحجاز والشام.

وإذا كان عام ١٩١٧ عام استعدادات من جانب الإنجليز لشن هجوم شامل فى جبهتى العراق والشام، كانت محاولات الأتراك لإخراج العرب من الحرب غير مجدية على الإطلاق رغم نشر نصوص معاهدة سايكس - بيكو التى تقسم الولايات العثمانية العربية بين فرنسا وبريطانيا، ورغم صدور وعد بلفور.

ونجحت الحملات الإنجليزية فى الشام وفى العراق. فبينما سقطت العقبة فى ٦/٧/١٩١٧ والقدس فى ٩/١٢/١٩١٧، نجد دمشق تسقط فى أول تشرين أول ١٩١٨ وتليها بيروت، وتراجعت القوات التركية من بعد ذلك فى اضطراب كبير حتى الأراضى التركية، وكذلك سقطت بغداد فى مارس ١٩١٧، وزحفت القوات الإنجليزية حتى اقتربت من الموصل، وكانت بلغاريا قد استسلمت، وأصبحت الأستانة نفسها مهددة فطلبت حكومتها الهدنة ووقعتها فى نوفمبر ١٩١٨، وبعد توقيعها استولت القوات الإنجليزية على الموصل، الأمر الذى سيسبب مشاكل عديدة حولها من بعد.

٣ - المملكة الثنائية:

كانت إمبراطورية النمسا والمجر منذ هزيمة جيوشها فى موقعة فينيتو قد اعتراها الكثير من الوهن ولجأت إلى الحرب الدفاعية، فى الوقت الذى تحول فيه الحلفاء إلى الهجوم، وفت استسلام بلغاريا فى عضد المملكة الثنائية، حيث إنها أصبحت مضطرة لأن تحارب فى أكثر من جبهة، وكان ذلك الفرصة الذهبية التى كانت تنتظرها القوميات المهضومة فشرعت مراكز الثورة فيها فى التجمع، وشجعها على التحرك إعلان الحكومة الأمريكية عن رغبتها فى رؤية هذه القوميات وقد استقلت فتناثرت المملكة إلى أشلاء، وخارت قوى جيوشها التى كان السلاف يكونون جزءا مهما فيها، واضطر الإمبراطور إلى طلب الهدنة التى وقعت فى ٣ تشرين الثانى - نوفمبر ١٩١٨.

٤ ـ استسلام ألمانيا:

كانت القوى الهجومية الألمانية قد أصبحت عاجزة عن القيام بضربة شاملة، ولم يعد أمام الجيوش الألمانية سوى الدفاع والتراجع أمام القوى الهجومية المتزايدة لدى الحلفاء، وزاد من اضطراب القيادة الألمانية أن الجبهة الداخلية بدأت تتداعى، فالتذمر كان يشمل رجال البحرية الذى أمضوا الوقت منذ معركة جتلاند (١٩١٦) دون عمل، والمتنفذين اليهود حركوا قوى العصيان، وانتشر التذمر فى المدن الكبرى بسبب النقص الشديد فى المواد الغذائية. واتجهت القيادة العسكرية إلى طلب الهدنة بوساطة الرئيس الأمريكى ويلسون تعلقا بمبادئه الأربعة عشر، وخاصة مبدأ «حق تقرير المصير».

كانت القيادة العسكرية الألمانية تعتقد أن الهدنة ستوقع مع احتفاظ ألمانيا على الأقل بقواتها المسلحة وحكومتها. ولكن ويلسون وضع شروطا قاسية على الألمان كان عليهم أن يقبلوها إن أرادوا عقد الهدنة. وكانت هذه الشروط تفرض على الإمبراطور والقيادات التى تولت أمر ألمانيا خلال الحرب أن تعتزل مناصبها وأن تفسح الطريق أمام حكومة ديمقراطية تتولى التفاهم على الصلح مع الديمقراطيات الغربية المنتصرة. وتم لويلسون ما أراد وتنازل الإمبراطور وفر من البلاد، واستقالت القيادات العسكرية والسياسية وعقدت الهدنة فعلا فى ١١ تشرين ثانى ـ نوفمبر ١٩١٨.

أما ما ستكون عليه خريطة أوربا بعد توقف القتال واتجاه زعماء الدول المنتصرة إلى عقد مؤتمر للصلح، فهذا ما سنتناوله بالدراسة فيما بعد.

محتويات الكتاب